أحمد توفيق المدني

حرب الثلاثمائة سنة

بين

الجزائر وأسبانيا

1492 - 1792

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر

تم سحب هذا الكتاب على مطابع دار «البعث»
قسنطينة ـ الجزائر

تحت رقم 133 - 68

http://albordj.blogspot.com

مدونة برج بن عزوز

حرب الثلاثمائة سنة

بين

الجزائر و أسبانيا

١٤٩٢ - ١٧٩٢

احمد توفيق المدني

تمت إعادة التنسيق
من قبل
منتدى اقرأ الثقافي

جميع حقوق النشر محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

أقدم اليوم بين أيدى الباحثين والقراء ، دراسة تشمل فى آن واحد عصرا معينا ، هو عصر الدولة الجزائرية العثمانية ، وحادثا معينا ، هو الغزو الصليبى الاستعمارى الاسبانى لبلادنا ، وما كان لذلك الغزو من أسباب ومن نتائج ، وما اقترن به طيلة ثلاثة قرون (١٤٩٢ ـ ١٧٩٢) من ملابسات ومن تطورات ، ثم أصف الوقائع ، حربية كانت أو سياسية ، وصفا مسهبا ، ترى به الصورة الحقيقية ، واضحة التقاسيم ، ناصعة الألوان ، لا دخل فيها للزيف أو للخيال .

فحوادث هذه الملحمة الهائلة قد بقيت مجهولة لدينا فى تفاصيلها ، رغم أننا كنا أبطالها ، وكنا ضحاياها ، بينما اعتكف الغربيون من مختلف الآفاق على دراستها والتعمق فيها ، فنشروا ما عثروا عليه من وثائقها ، وألفوا فيها عشرات الكتب ، ونشروا عنها مآت البحوث ، كان أقلها السليم الذى لا يتحرى الا الحق ، وكان أكثرها السقيم الذى يسير مع الهوى ، فاقتحمت الميدان ، وجست خلال هاتيك الكتب والبحوث ، مما تمكنت من الاطلاع عليه ، أستخرج من بينها الحقائق الناصعة ، واطلم

ما انطوت عليه من كذب وبهتان ، ثم استخلصت من كل ذلك هذا الكتاب

لقد اخترت هذا الموضـــوع بالذات ، لأنه يتعلق أولا بميـــلاد الدولة الجزائرية الحقيقية ، لأول مرة فى تاريخنا ، دولـــة ذات معالـــم معينة ، وحدود مرسومة ، فوق تراب تشكلت منه أرض الوطـــن وتكونت غوتـــه وحدة سياسية واقتصاديـــة واجتماعية ، بعد الوحدة الدينيـــة التى كانت القاسم المشترك الأعظم ، وقامت على رأسه دولة لا تنتسب لعائلة ، ولا لقبيلة ، انما تنتسب لوطن معين ، ثم اخترقت هذه الدولة فى ميادين الكفاح والجهاد ، ثلاثة قرون ونيفا ، مرفوعة الرأس خفاقة الأعلام ، سائرة ــ ضمن دائرة الخلافة العثمانية نحو استكمال السيادة المطلقـــة ، وتحقيق الاستقلال التام • حتى اذا ما ضربها الاستعمار الفرنسى وصرعها حينا من الدهر ؛ اضمحلت شكلا ولم تضمحل روحا ، وسارت تخترق الظلمات ، تطفو تارة فى قيامات شعبية عارمة ، وترسب تارة أخـــرى تحـــت ارهاق الظالمين ، انما استمرت دائما عظيمة الايمان ، واثقة بالمستقبل ، الى أن انفجرت طاقات الشعب الجبار عن ثورته العارمة ، فاذا به يـــدك صروح الظلم والظالمين ، بين النيران الملتهبة ، والدمـــاء الغزيـــرة ، والخرائـــب المتراكمة ، واذا به ينشىء بمحض ارادته ، وبمطلق مشيئتـــه ، دولـــة الجزائر الجديدة ، فوق نفس الأرض ، وبين نفس الحـــدود ، التى أقام فوقها فى مفتتح القرن السادس عشر، الدولة الجزائرية الأولى •

فهذه الدولة التى أقامها الشعب باعانة الأتراك العثمانيين قد ولدت بين فرث الحوادث ، ودم المعارك العالمية ، خلال عصر تغير فيه وجـــه الدنيا باكتشاف العالم الجديد ، وتغيرت فيـــه موازين القوى بين الشرق والغرب ، وتغيرت فيه أساليب الحياة ، ونشأ فيه الصراع الاستعمارى

الأكبر بين الدول البحرية العظـمى ، واصطدمت فيـه الامبراطوريات الكبرى بعضها ببعض ، ووقفت فيه المسيحية والاسلام وجها لوجه ، فى معركة بقاء أو فناء ، وأخذت فيه العقول تنطلق مـن العقال ، والشعوب تفجر طاقاتها من أجل الحصول على الحرية والكرامة . فكان انبثاق فجر دولتنا الجزائرية الأولى ، وليد ذلك التفاعل ، ونتيجة حتمية لذلك الصراع العنيف ، وكان الى جانب ذلك ، عاملا أساسيا من هذه العوامل المتشعبة التى حددت أبعاد الملحمة الكبرى ، فى الميادين السياسى والاقتصادى ، وسبرت أغوارها ، واشتركت فى حوادثها اشتراكا فعليا .

ثم اخترته ، ثانيا ، لان هذه الدولة الجزائرية الاولى ، قـد برزت الى الوجود ، وشبت وشابت ، نتيجة لحملة صليبية استعمارية هوجاء ، كأشد ما تكون الحملات الصليبية الاستعمارية عنفا وقسوة وحمية جاهلية . فكانت أرض الجزائر ، بعد أرض الأندلس ، هدف هذه الحملة وميدان عملياتها الدامية . فالاسبان الذين تولوا كبر هذه الملحمة ، كانوا يمثلون المسيحية رسميا ، يعملون باسمها ، ويحملون شعارها ، يؤيدهم فى ذلك البابا فى رومة ، ويباركهم من أجل ذلك . أما الجزائريون ، ومن جـاء لنصرتهم ، وجمع شملهم ، وتولى قيادتهم من الأتراك ، فقـد كانـوا يمثلون الاسلام ، يجاهدون فى سبيله ، ويردون العادية عنه ، ويتقربون الى الله بالاستشهاد تحت لوائه . فاقترن الدفاع عن الوطن بالدفاع عن الدين ، حتى اذا ما اتخذوا مدينة الجزائر عاصمة لهذه الدولة الناشئة ، أطلقوا عليها اسم : « الجزائر دار الجهاد » وظل هذا هو اسمها الرسمى، من سنـة ١٥١٦ ، الى سنة ١٨٣٠ .

فالتاريخ لهذه المعمعة العنيفة القاسية الطويلة ، بأكثر ما يمكن مـن

الصراحة ومن التفصيل ، انما هو واجب مفروض •

ثم انني اخترته أخيرا ، لكي أصحح حسب الجهد والطاقة والاقتناع، الكثير من الأوضاع ، فيما يتعلق بتدخل الأتراك في هذه المعركة الحاسمة والملابسات التي أوجدت ذلك ، وفيما يتعلق بالدور العظيم الأساسي الذي قام به هذا الشعب العملاق ، ساكن هذه البقعة الفسيحة من الأرض التي أصبحت بمحض ارادته ومشيئته تدعى الوطن الجـــزائري ، في ميادين الجهاد ، والدفاع عن الدين والوطن والحرمات •

انني خلال كتابي هذا أضع روحي واحساسي وما تجيش به نفسي بعد الايمان والاقتناع ، ضمن سير الحوادث • فالمؤرخ الذي لا يضع كل ذلك ضمن تاريخه ، والذي لا يبين وجهة نظره بكل أمانة وبكل نزاهة، عن الحوادث وعن الأشخاص ، كان في تقديري مــن رواة القصص ، لا مــن المؤرخــين •

وما التاريخ ــ في نظري ــ الا عــرض وتحليل ، وتعليل وحكم ، فالمؤرخ الحــق ، انما هو حــاكم نزيه حر الضمير ، يــدرس الوثائق والمستندات ، ويستخرج الحقائق من بين النصوص ، ويستمع بامعــان الى ما يقوله هؤلاء وما يقوله هؤلاء ، ثــم ينظر الملابسات ، ويدرس المحيط ، فاذا ما أسفر أمامه وجه الحق ناصعا ، أصدر حكمه عادلا ، لا عاطفة ولا رياء ولا محاباة •

ستراني أسلك هذا المسلك خلال هذا الكتاب ، أقول الحق ما اعتقدت أنه الحق ، وأمجد البطولة في شخص الأبطال ، سواء أكانوا من شيعتي أم من عدوي ، وأسمي الأشياء بأسمائها المحددة ، فأقول عن الخائن انه خائن ، وأصف النذل بأنه النذل ، فأنت ستراني كما أنا ، خلال الحوادث

وخلال حكمي على الأشخاص • ثم انك سترى مع ذلك أنني لا أخجل — سيرا مع « المودة » — من افساح المجال أمــام العامل الاسلامي خلال هذا التاريخ ، بل أعتبره عاملا أساسيا ذا أثر فعال ، أولا وأخيرا ، في تاريخنا الجزائري ، وأعتقد أن من تغافل عن ذلك العامل ، أو استهان به، كان قد أنكر أهم مكونات الشخصية ، وكان قد تعمد خيانة التاريخ •

ثم انني لا أعتبر هذا المغرب العربي الا وحدة واحدة لا شــك ولا ريب في وحدانيتها • فشعبه شعبنا جميعا ، ورجاله رجالنا جميعا ، رغما عمــا وقع بــين اجزائــه في مختلف العصــور ، وسواء اكان بعض الرجال من الصالحين أو كانوا دون ذلك فاذا ما أنا حملت على الواحد أو على الجماعة منهم ، وكشفت ارضاء للحقيقة عن المخازي وعن السوءات ، فأنا لا أفعل ذلك الا على بساط مغربي عام ، لا على بساط جزائري ضيق •

وهنالك أيضا حقيقتان ، لا محيص عن بيانهما ، قبل الدخول في صلب الكتــاب :

أولهما — انني لست متعصبا للأتراك ؛ ولا أنــا متعصب ضدهم ، حسبما جرت به تقاليد الكتاب العرب في العصر الحديث • انما قصارى أمري معهم، أنني أذكر الدور البطولي الذي قاموا به خلال عصر الانحلال والتدهور والغزو المسيحي ، في قيادة الشعب ، وشد أزره ضد العــدو المهاجم ، وما اضطلعوا به ، تحقيقا لرغبة الشعب ، من تأسيس الدولة بمعناها الوطني الحديث ، ومقاومة المهاجم الى أن أبعد نهائيا عــن أرض الوطن ، وجمع الوحدة الوطنية الجزائرية الاسلامية ضمن دولة واحدة، وحول عاصمة واحدة ، وتحت راية واحدة ، رغم أنف الاقطاعية الطاغية، وضد المصالح الخاصة القبلية والطــائفية • فاذا ما نحن ذكــرنا الدولة

الجزائرية ، واذا ما نحن ذكرنا الوطــن الجزائرى ، فقد ذكرنا الاتراك العثمانيين ، سواء أكنا من المعترفين أو من الجاحدين .

ثم اننى لا أتدخل مع ذلك فى طرائق الحكم ، ولا فى آثار هذه الدولة فى مضمار العلم والعمران ، فذلك ليس فى نطاق بحثى هذا ، وله مجالات أخرى . ولقد أوضحت رأيى عن ذلك صريحا فى كتابى « محمد عثمان باشا ، داى الجزائر » انما أقول بصفة عابرة ، مغتنما هذه الفرصة ، ان تاريخ الدولة الجزائرية لم يدرس بعد ، ولا يمكــن أن يدرس الدراسة الحقة ، الا بعد تعريب الوثائق الطائلة الموجودة الآن فى خزائن الدولة التركية ، من جهة ، وبعد تعريب كــامل « دفتر تشريفات » الجزائرى المكتوب باللغة التركية ، والذى هو من بين الوثائق المهمة العديدة ، التى يجب تعريبها ، والتى أخذها الفرنسيون معهم ، عند انسحابهم النهائى من أرض الجزائر . فهذا العمل العظيم ، الشاق ، انما هو عمل دولة لا عمل أفراد ، يجب أن تتولاه لجنة مختصة من الامناء الثقات ، وبعد ذلك ، وبالمقابلة مع النصوص الغربية ، والتى كتــب أغلبها لغاية استعمارية مسيحية لا غبار عليها ، يمكن أن يكتب التاريخ الحق لهذه الفترة مــن تاريخنا ، دون تجن أو محاباة .

وثانيهما — اننى لست متحاملا على الأسبان ، وأكن للشعب الأسبانى كل تقدير . بل انما هى الحقائق التاريخية أجلوها بكل وضوح . فاذا أنا ، خلال بحثى هذا ، قــد هاجمت المتعصبين ، وسفاكى الدمــاء . وناكثى العهود والمواثيق منهم ، فقد اعترفت بكل أمانة ونزاهة ، ببطولة أبطالهم ، وحمية مقاتليهم ، بل اننى قد أبرزت بطولات تعمد نفس الأسبان غمط حقها ، أو نكران جهودها . ولقد حملت على بنى قومى ممــن يستحقون

حكم التاريخ الصارم ، مثلما حملت على الأسبانيين الذين يستحقون ذلك • فليست القضية قضية عنصرية ، انما هى قضية تاريخية مجردة ، يقال للمحسن فيها أنه المحسن ، ويقال للمسىء فيها انه المسىء •

وأخيرا أقول : ان العالم وحدة ، وما من حادث وقع فى جهة من جهات الأرض الا وكان متأثرا من قريب أو من بعيد بمجرى الحوادث العالمية• فدراسة أى عصر من العصور ، أو أى حادث من الحوادث الكبرى ، يجب أن يقترن حتما بدراسة الظروف والملابسات التى أحاطت به • بذلك نضع الأمر فى اطاره الحقيقى ، وتقودنا تلك الدراسة حتما الى تصور الواقع بصفة جلية ، وعندئذ نرى أن ما وقع انما كان واجب الوقوع ، وأن النتائج مربوطة بأسبابها ، وتلك هى حتمية التاريخ •

من أجل ذلك ترانى أستهل هذا الكتاب بتمهيد طويل ، أجول به خلال حالة العالم ، ومنه بلادنا ، فى أوائل القرن السادس عشر ،وسندرك بعد الاطلاع على هذا التمهيد ، أن الغزو الأسبانى لبلادنا ، ونشأة الدولة الجزائرية بتعاون بين الشعب وبين رجال النجدة التركية ، انما كانا ضربة لازب ، وحتمية واقعية لا مناص منها •

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت ، واليه أنيب •

أحمد توفيق المدنى

تمهيـــــد

١ ـ مخلفـات القرون الوسطى :

نستطيع أن نؤكد أن الحروب الدينية المسعورة التى أثارتها أوروبا المسيحية ضد الاسلام ، والتى كانت فى حقيقة أمرها حروبا استعمارية تامة الأركان ، كانت السبب الأساسى فى خروج العالم من طور الجهل والظلمات الى طور العلم والنور ، ومن طور استعباد الشعوب واذلالها ، الى طور نهضة الشعوب واسترجاعها شيئا فشيئا حرياتها الطبيعيـــة وتمكنها من المشاركة فى حكم نفسها أولا ، ثم من فرض ارادتها وتوليهـا زمام الحكم وتصريف الأمور فى بلادها ، أخيرا .

ولست هنا بذاكر تفاصيل هذه الحروب الثمانية (١٠٩٥ ـ ١٢٧٠) التى دارت فوق أديم الارض العربية : سوريا ـ فلسطين ـ مصر ـ تونس والتى انتهت باندحار التعصب الديني الوحشى ، والجشع الاستعمارى المادى الذى يمت الى اللصوصية وأعمال السلب والنهب بنسب قريب ، انما أنا ذاكر هنا بصفة أكثر ما تكون ايجازا واختصارا ، بعض النتائج العظيمة التى أسفر عنها ذلك الصراع الهائل العظيم ، الذى ألقى الغرب بقضه وقضيضه ، على الشرق الاسلامى .

ذهب الصليبيون الى البلاد الاسلامية ـ وهـم معتقدون أنهـم سيلاقون هنالك جموعا همجية ، وعصابات وحشية ، ونظاما وثنيا يصادم

تعاليم المسيح ويتنافى مع الاخلاق الكريمة والفضيلة • (على فرض أن الجماعات الوحشية الصليبية كانت تفهم معنى الفضيلة والأخلاق) •

فاذا بهم ، ولأول وهلة بعد المذابح الأولى ، يجدون أنفسهم أمام مدنية زاهرة ، وأخلاق كريمة ، ودين سمح ، ورجال ونساء تحلـــوا بالفضائل وامتازوا بالكمال الانسانى الى أقصى حـــدوده ، ويرون فى الشرق الاسلامى الى جانب ذلك عيشـا رغدا ، ورفاهية عارمة ، وخيرات دافقة ، ومعالم قائمة ، وقصور ومساجد وديار علم ما كانت تخطر لهـم عـــلى بـــال •

كل ذلك غـير من عقيدة الصليبيـين فى الشـرق والاسـلام ، وهـذب حواشيهم ، وأدخل الكثير من مدنية الشرق وعوائده وأخلاقه عليهم • كانوا يرجعون الى بلادهم وهم يحملون عقلية أخرى ، ويفكرون تفكيرا آخر ، ويبذرون ، من حيث يعلمون أو من حيث لا يعلمون ، بذور انقلاب عام شمل بلادهم جميعا ، فنا ، وعلما ، وحضارة وعمرانا ، وذلك بتفاعل المدنيات الاسلامية واللاتينية واليونانية •

من هنالك أشرقت أنوار عصر النهضـة على أوروبا .

من هنالك ، كما يقول مسيو موليلى ، فى دائـــرة المعارف الكبرى ، فقد الصليبيون أول ما فقدوا ذلك التعصب الدينى الذى كـــان السبب المباشر للصليبية فقد وجدوا أنفسهم أمام رجال ، أكثـــر منهـــم غنـــى وثروة ، وأكثر منهم حذقا فى معرفة أمور الحياة ، يعيشـون تحت سماء صافية الأديم ، وأنهم ، كرجال مثلهم ، لا يقلون عنهم قيمة ، ولا أريحية ولا فروسية ••• وأن الكثير من هؤلاء الصليبيين انغمسوا فى حيـــاة الشرق واتخذوها لنفسهم شرعة ومنهاجا •

هذا الى جانب ما أخذه الصليبيون من الشرق ، من صناعات جديدة، وعلوم ، ونباتات وما أقتبسوه من نظم • ثم ربطوا مع الشرق علاقات اقتصادية وتجارية واسعة النطاق •[1]

لكن التأثير الشعبى كان أعظم من كل ذلك ، وأجل خطرا • فالحروب الصليبية التى قادها الملوك والأشراف والنبلاء ، رغبة فى استثمارها لمصلحتهم الخاصة ، ولفائدة الاقطاع الاجرامى الذى كان مخيما على أوروبا بأكملها ، قد أدت على عكس ما أراده الأشراف والاقطاعيون الى توسيع حريات الشعب ، والى ادراكه كنه نفسه ، واقتناعه بأنه فى بلاده صاحب الحق المطلق ، فانطلقت الشرارة التى فجرت طاقات التحرر فى الشعوب ، والتى سارت سيرها المتواصل نحو الانطلاق ، تتعثر أحيانا ، وتنهزم أمام الطغاة أحيانا ، لكنها كانت تعلم أنها بعد ذلك التعثر وبعد تلك الهزائم ، ستحقق أهدافها ، وسيكتب لها النصر المبين •

أول ما بدأ من ذلك ، هو تحرر المدن من سيطرة الاقطاعية فى أوروبا • وكانت تلك بداية الانطلاقة•

ذلك أن النبلاء والاقطاعيين الذين قادوا الصليبيات ، كانوا فى مسيس الحاجة الى مقادير طائلة من المال ، من أجل جمع الرجال ، واقتناء ما يلزمهم من سلاح وعتاد • فكان أهل المدن يدفعون تلك المقادير ، مقابل تحررهم من ربقة الأشراف والاقطاعيين •

وهكذا تمزقت الحلقة الاولى من سلسلة الاستعباد •

---

(١) اما ما اخذه الشرق عن الجموع الصليبية مقابل ذلك فيقول عنه الفيلسوف المؤرخ غستاف لوبون : لقد راينا من خلال اعمال الصليبيين اينما حلوا ، انهم كانوا عبارة عن وحوش • يقتلون وينتهبون الاصدقاء و الاعداء على حد سواء • فلم يستفد الشرق اى شيء من وجود هؤلاء المتوحشين الفلاظ •» مدنيات العرب ص ٢٤٢»

وما برحت الشعوب تمعن فى تمزيق الحلقات بعد ذلـك ، الى أن تحررت بصفة مطلقة ، بعد قرون من الجهود المتواصلة والجهاد المرير.

فلأول مرة فى تاريخ العالم ، يرغم شعب من الشعوب حكومته على الاعتراف بحقه ، وضمان حريته ، وتسجيل مكاسبه فى دستور مكتوب.

كان ذلك سنة ١٢١٥ • وكان الشعب شعب انكلترا • وكان الملـك الذى أرغم على امضاء الدستور هو الملك يوحنا ، الذى تولى الملك بعد رتشارد قلب الأسد ، الذى سجـل ببطولته ، وبانهزامه فى الحروب الصليبية أمام صلاح الدين الايوبى ، اسمه على صفحات التاريخ •

كانت خيبات يوحنا متوالية ، ســواء فى سياسته الداخلية أو فى سياسته الخارجية • فانهــزم فى فرنســا ، وقد كان الانكليز يحتلون شمالها ، انهزاما شنيعا (١٢١٤) وانهزم أمام البابا ، واضطر لاعـلان تبعيته لسلطان رومة •

يومئذ ثار الشعب والبورجوازية وثار معهما الاشراف والنبلاء ، اذ أدركوا أن عهد ملوك الاطلاق لا يؤدى بالأمم الا الى الخراب والدمار، وكان مــن نتيجة ثورتهم أن اضطــر الملك لاعلان الميثــاق الأكبر • (١٥ جوان ١٢١٥) •

ومما يقتضيه ذلك الميثــاق :

١ ــ لا يلقى القبض على انسان ولا يسجن ، ولا تؤخذ منه ممتلكاته ولا ينزع منه أى حق من حقوقه ، أو أى حرية من حرياته ، ولا يعدم انسان بأى صفة من الصفات ، الا بعد محاكمته والحكم عليه ، طبقـا لقوانين البــلاد •

٢ ــ لا يمكن للملك وحكومته فرض ضريبة على الشعب الا بعــد مصادقة مجلس ممثلى الأمة •

٣ ــ يعترف الملك للشعب بحقه فى الثورة وحمل السلاح ضد الملك والحكومة ، فى حالة ما اذا وقعت منهما مخالفة لنص هذا الميثاق •

لكن الملك هنرى الثالث ، (١٢١٦ ــ ١٢٧٢) الذى خلف الملك يوحنا السالف الذكر ، كان خاملا ، ضعيف الارادة ، معتمدا فى ادارة مملكته على رجال من الفرنسيين والايطاليين ، وكان من نتائج سياسته الهوجاء أن منيى الجيش الانكليزى بانهزامات كبيرة خارج البلاد •

وثارت ثائرة الشعب من جديد ، وجمعت الثورة تحت قيادة أحد كبــار الاقطاعيين ، الشعب والنبلاء والبورجوازية ورجــال الدين ، وأعلنت الثورة قيام البارلمنت ، سنة ١٢٣٩ • وهو أول حكم نيــابى منظــم فى العــالم •

وكان أول شىء عمله « البرلمنت » هو رفض المصادقة على ما كان يطلبه الملك من مال ، للقيام بحروبه الهوجاء ومصالحه الخاصة ، واضطر الملك أخيرا ، سنة ١٢٨٥ ، أن يقسم على احترام الدستور والبرلمــان الموســـع •

وشاهد العالم يومئذ شيئا غريبا : شاهد ممثلى الشعب ، وخاصة منهم الأشراف والبورجوازية ورجال الدين ، يجتمعون بصفة منتظمة ثلاث مرات فى السنة للإطلاع على حالة الدولة والنظر فى شؤون الأمة• ثم ينتخبون من بينهم ١٥ رجلا ، يطلقون عليهم اسم « المجلس الخاص » يتولى الحكم مع الملك ، ويراقب سير الأمور العامة •

ومنذ سنة ١٢٦٥ ، أخذ الشعب يوسع حرياته ، فلم يبق المجلس

ممثلا لبعض الطبقات العليا ، بل أصبح يمثل كامل الشعب الأنكليزى .

*

واقتفى الشعب الفرنسي أثر الشعب الانكليزى فى ذلــك المضمار وحاول أن يفرض ارادته ، وأن ينال حقوقه ، شيئا فشيئا .

فى سنة ١٣٥٦ ، كان ملك فرنسا يوحنا الطيب يخوض غمــار تلك الحرب الضروس ، التى كـــان هدفها اما استقلال فرنسا بنفسها ، أو تبعيتها للمملكة الانكليزية . ولكل من الفكرتين أنصار وشيعة ، داخل البلاد الفرنسية ، ثم انهزم الملك هزيمة منكرة أمام الانكليز وأنصارهم وسيق أسيرا ذليلا الى لندرة .

تولى يومئذ زمام الأمر ولى العهد شارل ، ولم يكن لديه من مال ، ولم يبق حوله من جندى فالانهيار كان تاما ، والهزيمة كانت عارمة .

أدرك يومئذ أن لا ملجأ له الا الشعب ، وأن هذه الجموع التى كانت تحكم ، وقيد الذل فى أرجلها ، وسيف الجلاد فوق أعناقها ، انما هى القاعدة الحقيقية التى لا يمكن حكم بدونها ، ولا يرتكز نـــظام الا عليها . فدعا لعقد اجتماع يحضره ممثلو طبقات الأمـــة : الأشــــراف الاقطاعيون ، ورجال الدين ، وعامة الشعب .

برزت حينئذ زعامة شعبية خـــلال اجتماعات المجلس هى زعامة اتيان مرسيل ، عميد تجار باريس . وأخذ المجلس يطـــالب بحقـــوق وحريات للبورجوازية ، لم تكن تخطر على المالكين والأشراف الاقطاعيين ببـــال .

واضطر ولىي العهد القائم مقام الملك ، من أجل الحصول على المـــال والرجال لاستمرار الحرب ، أن يعلن استجابة لارادة المجلس سنـــة

١٣٥٧ ، « الميثاق الكبير » الذى يقتضى جعل المجلس العام دوريا ، واحداث اصلاحات عظيمة فى الادارة ، وعلى الأخص أن يدخل ضمن مجلس الملك الخاص ، رجالا من الذين اختارهم ورضى عنهم الزعيم البورجوازى اتيان مرسيل •

لكن نائب الملك ما كان يومئذ الا مخادعا ، فبمجرد ما تمكن من حاجته ، نقض العهد سنة ١٣٥٨ وأراد حرمان الشعب من بصيص الحرية الذى حصل عليه •

وكان الشعب بالمرصاد • فقام الزعيم البورجوازى اتيان مرسيل على رأس جماهير الشعب الكادحة ينادى باعادة الحقوق ، وتوسيعها وغل أيدى الملك والنبلاء • ثم هاجم الشعب وعلى رأسه الزعيم اتيان مرسيل قصر الملك ، وقتل اثنين من المارشالات الذين كان الملك يعتمد على اخلاصهم ، وكانا من أكثر خصوم الشعب شدة وعنادا • واثر هذه الثورة الشعبية ، اضطر نائب الملك للخروج من باريس ، وأخذ يستعد للرجوع اليها من جديد ، على رأس جيش يعيد للملكية ما فقدته من سلطة ومن هيبة •

يومئذ رأى اتيان مرسيل ومن معه ، أنه لا تمكن مقاومة الملك ، ولا يمكن تحقيق المكاسب الضئيلة ، الا بالاتجاه للشعب •

فى تلك الأيام ، كانت الثورة الشعبية التى يدعوها التاريخ باسم « الجاكرية »(١) قائمة على قدم وساق • وقد سئم تلك الحياة التى هى شر من حياة العبيد ، وتلك المعاملة الفظة الغليظة التى كان يعامل بها من قبل الأشراف والاقطاعيين الذين حالوا بينه وبين أرضه ، وسلبوه كل

(١) كان النبلاء والاقطاعيون يطلقون باحتقار اسم «جاك» على البدوى عامل الارض •

ما منحه الله للبشر من حقوق الحياة ، فحمل السلاح ، تحت قيادة غليوم كان وأخذ يحارب الاقطاعيين ورجال السلطة مهما كانوا ، ودامت تلك الثورة شهرا (٢٨ ماى — ٢٤ جوان) •

فمارسل‌اتيان مد يده من باريس الى هذه الثورة ، معينا لها ، مستعينا بها • لكن المسعى قد خاب من الجانبين معا • ذلك أن المدن الكبرى فى الناحية الشمالية الغربية من فرنسا ؛ قد امتنعت عن مساعدة الثورة ، وأخذ الثائرون وكانوا قد أصبحوا تحت حكم الاقطاع المظلم أشبه بالحيوان منهم بالانسان ، يرتكبون انتقاما الجرائم والموبقات وأعمال التخريب والتحطيم والنهب والسلب ما جعل الناس — ولو كانوا يذوقون من أغلال الاستعباد الشيء العظيم — يمسكون عن مساعدتهم فأخفقت الحركتان اخفاقا ذريعا •

فأما حركة الجاكيين فقد أخمدها الملكيون والنبلاء وسط فظائع وأهوال لا يستطيع قلم وصفها ، وأما حركة باريس ومارسيل اتيان ، فقد قضى عليها الملكيون كذلك • واغتيل الزعيم عام ١٣٥٨ وبقيت فرنسا بعد ذلك — والى أيام الثورة الفرنسية الكبرى مرتعا خصبا للاقطاعية والظلم الأسود والاستعباد الفظيع •

واقتدت شعوب أخرى فى أروبا الغربية والجنوبية — ما عدا أسبانيا التى كانت غارقة فى لجج التعصب الدينى الضيق الى الأذقان — بهذه الحركا ت، وأخذت تشق لنفسها بنفسها طرق الحياة الحرة السعيدة ، فكان عصر النهضة فى الأدب ، وكان عصر النهضة فى العمران ، وكان التحرر التدريجى فى أروبا من ربقة النظام الكنسى وسلطة رجال الكهنوت المظلمة ، ثم كانت حركة الاصلاح الدينى العظمى (اللوثرية البروتستانية)

فانطلقت الافكار، وتحررت العقول، واتجهت الانظار نحو النور الجديد •

هذه حركة شملت أروبا الغربية والوسطى والجنوبية ، ما عدا أسبانيا التى كانت فى صليبيتها العنيفة ضد مسلمى الاندلس ، بعيدة كل البعد عن هذه الحركات التحررية ، سواء من ناحية الحكم الشعبى ، أو من ناحية النور والمدنية ، ولقد كانت أسبانيا حرية بأن ترث تلك المدنية الاسلامية الشامخة الذرى ، التى نشأت فوق أرضها ، والتى كان أقطابها من بين بنيها ، الا أنها ولسوء الحظ ــ حظها وحظ الانسانية ــ كانت تمعن فى تحطيم تلك المدنية وتراثها العظيم تحطيما اجراميا فظيعا، تناول كل شىء ، العقل ، والكتاب ، والجدار ، والارض •

فبينما كانت أروبا تفتح طريق الحرية والنور ــ كانت أسبانيا تحت قيادة رجال الكنيسة الذين تركوا وراء ظهورهم تعاليم المسيح ، تتوغل فى مهامه الجهالة وتتخبط فى الظلام •

وتم النور فى أروبا باكتشاف المطبعة الحديثة •

ذلك أن الدنيا لم تر ، منذ الخليقة الى يومنا هذا ، اختراعا غير حياتها ، وفجر أمامها ينابيع المعرفة ، وأخرجها من الظلام الدامس الى النور الساطع ، كاختراع المطبعة ذات الاحرف المنفصلة ، التى حطمت احتكار العلم ، وجعلت المعارف والأفكار والآداب فى متناول الناس جميعا •

وقع هذا الفتح الانسانى الأكبر ، فى منتصف القرن الخامس عشر، وينسبه الناس وينسبه التاريخ للألمانى غوطمبرغ ، سنة ١٤٣٦ ، بمدينة سترازبورغ •

لكن الحقيقة التاريخية تقول أن غوطمبرغ الألمانى قد هذب فقط ،

وأصلح الطريقة الطباعية التى اخترعها الهولانــدى لورنت كوستر ؛ وطبع بها أول كتاب مؤلف من ثمانى صفحات • وكان ذلك سنة ١٤٢٣م •

لكن غوطمبرغ وشريكه فولست ، قـــد استثمرا ذلك الاكتشاف ؛ فأصبح عملا صناعيا منذ سنة ١٤٥٠ ، ونشرا عددا من الكتب بصفة آلية مما جعلها فى متناول الجميع ، بينما كان الناس قبل ذلك لا يعرفون الا الكتاب المخطوط ، الغالى الثمن العزيز المنال •

فاختراع المطبعة ذات الأحرف المتنقلة ، انما هو ثورة عالمية عارمة، أثرت على مستقبل الفكر الانسانى وأخرجته من طور الى طـــور • ولا تزال تسير به الى الأمــــام •

ولست بصدد دراسة المطبعة والطباعة ، فمـــا ذكرتها الا فى نطاق الصورة المجملة التى أحاول أن أقدمها لقراء كتابى ، عـــن الحالة العامة التى كانت تسود العالم أيام قيام الدولة الجزائرية العثمانية ، ووقوع الحروب الجزائرية الأسبانية • انما واجب الانصاف يقتضينى أن أقول كلمة موجزة عن الطباعة وتاريخها •

ان الهولاندى لورانت كوستر ، ثم الألمانى غوطمبرغ ، لم يخترعا الا الأحرف الطباعية المنفصلة ، ليس الا • واخترعا لها الآلة الميكانيكية التى تسمح باستخراج النسخ العديدة من الصفحات المكونة من تلـــك الأحـــــــرف •

أما نفس الطباعة أى اخراج نسخ عديدة من نص واحد بواسطة عملية آلية فذلك أمر قديم ، بل قديم جدا ، وقد أثبت التاريخ أن أول طباعة من هذا النوع انما وقعت فى سومر ببلاد ما بين النهرين (العراق) قبل المسيح بنحو ٢٨ قرنا • وكان الطبـــع يقـــع يومئذ بواسطة نقش

النصوص بصفة ناتئة فوق صفحة من الحجر . ثم توضع فوقها على التوالى ألواح من الطين ، فتأخذ الأشكال المنقوشة ثم تجفف على النار، فتصبح نسخا عديدة ترسل الى الأمكنة النائية .

وقد اكتشفت سنة ١٨٤٢ ، فى خرائب مدينة نيتوى بالعراق ، مكتبة كاملة للملك العراقى صرغون ، كلها « مطبوعة » على هذه الطريقة .

وتفنن الصينيون بعد ذلك ، بما عرف ويعرف عنهم من دقة وذوق حساس سليم ، فى تحسين وتطوير هذه الصناعة ، فأصبحت الكلمات تنقش على صفحة من الخشب ، وتطبع فوق الورق ، بل تستعمل الألوان العديدة ، والصور الفنية المتقنة ، الى جانب ذلك .

وفى مفتتح القرن السادس عشر ، أيام كانت أسبانيا تجتاح سواحلنا فى غزوة صليبية عارمة ظهرت الطباعة العربية ، وكان ظهورها فى نفس مدينة غرناطة سنة ١٥٠٥ بأمر من الملكين فرناندو وايزابيلا ، اذ كلفا خوان فالبرا بطبع كتابين يستعين بهما الرهبان لتنصير المسلمين ، فطبع كتاب « وسائل تعلم قراءة اللغة العربية ومعرفتها » ، ثم كتاب « معجم عربى » بأحرف قشتالية .

بل أن الحضارة الأندلسية الغرناطية قد فكرت فى استعمال الطباعة بأحرف عربية منتقلة ، وأن الأجل المحتوم فاجأها وهى على أبواب الانجاز ، فأخذ فردنياندو جلاد مسلمى الأندلس الفكرة ، وبادر بتنفيذها ، من أجل استعمالها وسيلة من وسائل التنصير ، ومحاربة العروبة والاسلام .

واننى أعتقد أن هذا العمل لم يكن وليد وقته ، ولا نتيجة تفكير ملكى،

ولقد ظهرت الطباعة فى أسبانيا أول ما ظهرت سنة ١٤٧٤ بمدينـة بلنسية ، وأخذت تطبع الكتب الدينية الكنسية . ولم يكن سبك الأحرف العربية وتركيبها بعد ذلك بالأمر العسير .

فلو أن الله مد فى عمر دولة الاندلس عشرين عاما فقط ، لكانت المطبعة العربية قد أخرجت للناس ، ولا ريب ، ثمرات العقول والأفكار ، ووزعت على العالم العربى آلافا مؤلفة من كتب العلوم والفنون والآداب .

٢ ـ النهضة التجارية الكبرى
والأسواق العالمية

من أهم ، بل من أكبر ما نتج عن الحروب الصليبية السالفة الذكر ، تطور الحركة التجارية ونموها فى العالم ، بين شرقه وغربه ، وذلك يرجع الى سببين :

أولهما ـ اكتشاف الأوروبيين لأسلوب الحياة الشرقية الاسلامية ، وما فيها من بذخ ومن ترف ومن كماليات ، وتقليدهم لذلك حتى أصبحت تلك الحياة تعتبر عند الطبقة الموسرة فى أوروبا عنوان الكمال ودليل الرقى. ومن أجل ذلك ، كان عليها أن تستورد من الشرق الاسلامى كل المواد والبضاعة والاقمشة التى تستلزمها تلك الحياة .

وثانيهما ـ انتظام خطوط المواصلات بين الغرب والشرق ، أثناء الحروب الصليبية ، والتعارف الذى تم بين الجانبين بواسطة تلك الحروب وما تخللها من فترات السلام ، فأصبحت المعاملات التجارية مزدهرة بين الجانبين ، وازدادت نموا وازدهارا بعد انتهاء هذه الحروب .

واستولى الاحتكار على هذه التجارة منذ البداية . فتأسست الديار التجارية الكبرى ، ونشأت الشركات المساهمة ، بل أخذت الصناعة الناشئة تحاول أن تمد الأسواق التجارية بما تستطيع انتاجه ، ليغنيها ولو شيئا ما عن بضاعة الشرق .

أسفرت تلك النهضة التجارية الكبرى عن تكوين نظامين عظيمين فى أوروبا ، هيمنا بصفة تكاد تكون مطلقة على الحركة التجارية بـين الشرق والغرب من جهة ، وبين أقطار الغرب فيما بينها ، من جهة أخرى .

أهم النظامين هو نظام « الهانز » المأخوذ من كلمة هانزا الألمانية ، ومعناها الشركة . وهذا النظام يشمل الاتفاقات التجارية التى تنعـقد بين المدن المختلفة لكى تحتكر التجارة وتحتكر حركة النقل الكبرى .

فكان « الهانز » الجرماني يمثل اتحـاد تسعـين مدينـة المانية . بـين ساحلية وداخلية ، وكان يحتكر التجارة فى بحـرى الشمال والبلطيق ، ويملك مستودعات ضخمة للبضائع المختلفة فى كامل ألمانيا ، وروسيا ، وبلاد اسكاندينافيا ، وأنكلترا ، وكان « الهانز » يومئذ كأكبر الشركات الرأسمـالية فى عصرنا الحاضر ، يمـلى ارادته على الدول ، ويسـير السياسية الدولية حسب مصالحه الاقتصادية .

الى جانب ذلك ، نشأت ببلاد الشمال الفرنسى وبلجيكا ، صناعـة زاهرة غنية ، أخذت تنمو وتنتشر ، ولا تزال على نموها وانتشارها الى يومنا هذا ، هى صناعة الجوخ (الملف) والأقمشة الصوفية الرفيعة . وأصبحت مدينة « ابروج » فى بلجيكا ، مركـز صناعة وتبادل تجارى منعدم النظير . ثم زاحمتها وخلفتها فى ذلك مدينة أنفرس ببلجيكا أيضا ، فصارت مركز التجـارة العالمى الاول . ولهـا نفوذ سياسى عظيـم .

انما التجارة مع الشرق كـانت مركزة فى المدن الساحلية الأوروبية على البحر المتوسط . كمدينة فينيسيا (البندقية) . وجنوة الايطالية . وكانت لهما معا تجارة واسعة مع السواحل العربية الافريقية وخاصة الاسكندرية ، وبجاية ، وأصبحت مدينة جنوة لا تملك أسطولا تجاريا

فحسب ، بل أصبحت من أجل تجـارتها ومبادلاتها تملك مستعمرات عديدة : كجزيرة قبرص ، وجزر في الارخبيل اليوناني ، وجزيرةاقريطش ومدن ومراكز على ساحل البحر الأسود ، وملكت كما سيمر بك مدينة جيجل على الساحل الجزائري مدة من الزمن •

وكانت التجارة الاسلامية العربية زاهرة غنية في ذلك الحين ، لها السلطان المطلق على البحار الجنوبية والشرقية القصوى ، فتنتقل الى الشرق اهم واغلى ما تنتجه الصين وجاوى والهند وما اليها ، ثم من الشرق وعلى طريق الاسكندرية ، ينقل ذلك الى أروبا •

فكانت البندقية يومئذ مدينة عالمية ضخمة ، تجد فيها أجناس البشر من كل صقع ومن كل دين ، يتبادلون أهم ما تنتجه بلاد الدنيا قاطبة

وكانت أهم صادرات الشرق الاسلامي يومئذ ، للبندقية وللشركات التجارية الكبرى : القطن ، والحرير ، والعطور ، والتوابل ، والحجارة الكريمة ، وأدوات الترف والزينة من ذهب وفضة •

كما كانت أهم صادرات المغرب الاسلامي : الحبوب والصوف والمرجان والجلود •

واستمرت الرأسمالية المحتكرة في أروبا ، توالي محاولاتها التوسعية وتريد فرض سلطانها المالي والتجاري على العالم ، وأدى بها ذلك الى أمرين عظيمين ، كان لهما الأثر الفعال في تطور حياة العالم ، وتغيير موازين القوى فيه :

أولهما الاكتشافات البحرية الكبرى •

وثانيهما : فتح عهد الاستعمار الكبير واستعباد الشعوب •

٣ ـ الاكتشافات البحرية الواسعة

الأمر الذى أثبته التاريخ ، هو أن هذه الاكتشافات العالمية الكبرى، التى قام بها المكتشفون المغامرون الاقوياء خلال القرن الخامس عشر ، انما كانت موجهة أصالة ضد العرب وضد الاسلام .

أما أنها ضد العرب بصفة خاصة ، فذلك من أجل القضاء على تجارتهم الواسعة فيما وراء البحار . وقد رأيت فى الفصل السالف أن العـــرب كانو ينقلون عبر بلادهم أهم ما تنتجه بلاد أقصى الشرق وبلاد الجنوب، ومن المدن الساحلية العربية كانت الشركات الأروبية الكبرى تنقل ذلــك الى بلادهــا .

فعندما تضخمت هذه الشركات الرأسمالية وقوى ساعدها الى أن أصبحت أقوى من الدول ، أرادت أن تغزو الأسواق فى البحار النائية، وأن تحل محل التجار والبحارين العرب فى نقل تلك البضائع النفيســة ، والاستحواذ عليها بثمن زهيد ، ومن ثم وجب اكتشاف طرق بحريـــة جديدة ، تمكن هؤلاء المحتكرين من غشيان تلك الأقطار النائية ، من غير واسطة العرب . بل بتحطيم حركة النقل التجارى العربية التى كـــانت تمون أروبا كلها بجميع ما هى فى حاجة اليه من المواد السالفة الذكر .

وأما أنها ضد الاسلام والمسلمين عموما ، فان الفكرة التى دفعت بالمغامرين الى اكتشاف البلاد فيما وراء البحار المعروفة كانت فكـــرة صليبية حقيقية ، تريد أن تأخذ بلاد المسلمين من الخلف ، لاستعمارها ولاستثمارها وتنصير أهلها .

وكان من غايات هـذه الحركة الواسعة النطـاق التى تولى كبرها الاسبان والبرتغاليون وهم فى غمرة تحطيم الدولة الاسلامية والمدنيـة الاسلامية فى بلاد الأندلس ، البحث عـن شخصية خيالية أسطورية ، تدعى « الراهب يوحنا » وقد ثبت يومئذ فى الأذهان ، وشاع وذاع ، أن هذا الراهب يوحنا المسيحى ، يملك بلادا شاسعة مسيحية ، مفرطة الغنى ، عظيمة الموارد ، وأن بلاده هذه تقع على الأرجح جنوب بـلاد المغرب العربى • فليقع البحث اذن عنه وعن دولته ، وليعقد الاتفاق معه، على أن يهاجم بلاد المغرب العربى من الجنوب ، بينما يهاجمها فرسـان المسيحية (الأسبان والبرتغاليون) من الشمال ، فتتكون فى افريقيـا الشمالية الغربية والوسطى ، دولة مسيحية عظمى ، تقضى على الاسلام، وتستولى على موارد البلاد الضخمة من معادن وحجارة كريمة، ومـن توابل ومواد عطرية تستنزف منها أروبا المقـادير الهائلة ، وكان الذى تولى كبر هذه الدعوة هو الملك البرتغالى هنرى الملاح (١٣٩٤ — ١٤٦٠) الذى كان يمعن فى محاربة المغرب الأقصى •

هذه هى الفكرة الأساسية •

كانت المطبعة قد أذاعت عـلى الناس منذ عهد اختراعها الحديث ، الكتب العلمية القيمة ومنها الكتب الجغرافية اليونانية ، ككتاب بطليموس الذى يثبت بحجج قاطعة كروية الأرض • وآمن الناس بهذا المبـدأ ، واستنتجوا منه ، ان الانسان اذا ما خرج من نقطة ما ، وسار على خط مستقيم ، فانه راجع لا محالة لتلك النقطة التى ابتدأ منها المسير •

وهكذا فتح عصر المغامرات البحرية والاكتشافات الكبرى •

ولم يدر البحار العربى شهاب الدين أحمد بن ماجد ، الذى كان أعلم

علماء زمانه فى فن الملاحة ، والذى ألف من بين كتبه الثلاثين فى علم البحر كتاب « الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد » لم يدر حين اجتمع بالبحار البرتغالى فاسكو دي غاما سنة ١٤٩٨ فى شرقى افريقيا ، وقاده فى الطريق التى يجهلها يومئذ كل أروبى على الاطلاق ، الى مدينة كالاكوت فى الجنوب الغربى من بلاد الهند ، انه كان يقود أول حركة استعمارية أروبية مسيحية ، لتحطيم العرب واذلال المسلمين •

وقد خرج البرتغالى فاسكو دى غاما يوم ٨ جويليت ١٤٩٧ ، والتقى بابن ماجد فى مرسى مدينة ميلاند ، على الساحل الافريقى الشرقى ، فاستأجره لقيادة أسطوله نحو الهند، ووصل كالاكوت يوم٢٠ماى١٤٩٨•

ولا يذكر اليوم ابن ماجد أى انسان ، بل يذكر كل الناس فاسكودى غاما •

وفى نفس السنة التى أذاق الله فيها مسلمى الأندلس ، نتيجة التفرق والتخاذل والشقاق الداخلى أمام العدو ، سنة ١٤٩٢ ، التى دخل فيها فردنياند الكاتوليكى ملك اسبانيا ، وايزابيلا الكاتوليكية زوجه ، مدينة غرناطة الزاهرة اللامعة ، خرج كريستوف كولومبس ، المغامر الجنوى، لحساب ملكى اسبانيا يحاول الوصول الى الهند — مصدر الغنى والثروة والأرباح الطائلة — سائرا من الشرق الى الغرب ، فاكتشف البلاد الأمريكية ، وهو يعتقد أنه قد وضع رحاله ببلاد الهند الشرقية ، وأطلق على سكانها اسم « الهنود » (٣ أوت ١٤٩٢) •

وخلال سفرات متتالية ، فيما بين سنوات ١٤٩٣ — ١٥٠٤ اكتشف سواحل أمريكا الجنوبية (التى اكتشفها القرطاجنيون الكنعانيون قبله بنحو ١٩ قرنا) وابتدأت يومئذ عمليات النهب والسلب والاجرام

وتحطيم مدنية كانت من أرقى مدنيات العالم فى ذلك الحين .

وفى سنة ١٥٠٧ ، « اكتشف البحار الايطالى أميريك فيزبوسى . أن هذه الارض المكتشفة ليست بلاد الهند ؛ بل هى عالم جديد . وهكذا أطلقوا على هذه القارة اسم «أميركا» .

ثم كانت رحلة ماجلان البرتغالى حول الأرض لحساب اسبانيا نوتمت هذه الرحلة خلال ثلاثة أعوام (١٥١٩ — ١٥٢٢)

وهكذا عرفت كل البحار ، واكتشفت جميـــع الاقطـــار ، ولم يبق فى العالم من مجهول الا المقدار الاقل .

٤ ـ نتائج الاكتشافات العالمية

كان الاسبانيون والبرتغاليون كما رأيت ، هم الذين تولوا أكبر هذه الاكتشافات البحرية العالمية ، ومن الطبيعي أن يكونوا أول المستفيدين منها • ولقد كانت النتائج عظيمة جدا :

١ ـ الاستيلاء على طريق البهارات والتوابل ـ بادر البرتغاليون باعلان حرب قاسية عنيفة فوق متن البحار ، ضد البحارة العرب أولا ، وضد الاسطول البندقي أخيرا ، وتمكنت البرتغال بعد قهر الاولين وكسر شوكة الثانين من الاستيلاء على طريق البهارات ، واحتكار هذه التجارة الرابحة ، بل واحتلال الكثير من الأرض التي تنبت هذه المواد •

ولقد قاوم المسلمون هذه الغزوة الراسمالية الاستعمارية مقاومة عنيفة ، برا وبحرا ، وأدركت دولة المماليك التي كانت تحكم مصر وبلاد العرب هدف المعركة وخطورتها ، فلبت دعوة سلطان المسلمين في بلاد الهند ، وانجدته باسطول عربي كبير ، تحت قيادة حسن مشرف ، يحمل جيشا كانت أغلبيته ، كما يقول المؤرخ الكبير ابن اياس مؤلفة من المغاربة (سكان شمال افريقيا) ومن التركمان • وغادرت القوة مرسى السويس في شهر نوفمبر ١٥٠٥ (جمادى الثانية ٩١١ هـ) فطهرت البحر الاحمر من قرصان البرتغال وحصنت مدينة جدة ، وأقامت قلاعا على الساحل العربي ثم تقدمت لمصارعة الاستعماريين فوق عباب المحيط الهندي • واستمرت هذه النجدات تترى الى ما بعد استيلاء العثمانيين على مصر • وقد سارت آخر قوة لدحر البرتغاليين يوم ٢٨ رمضان ٩٢٥ (سبتامبر ١٥١٩) تحت قيادة حسين خوجة العثماني •

٢ = نشأة الاستعمار الرسمي = كانت اسبانيا والبرتغال وحدهما

فوق المسرح العالمى الفسيح ، قبل أن يتألــق نور الهلال العثمــانى فى سمــــاء أوربـــا ، فباكتشاف أمريكا من جهة ، وبالاستيلاء على طريق التوابل ومصادرها بالشرق الاقصى ، أصبحت كل من اسبانيا والبرتغال تتكران فى الاستيلاء على العالم ، وكاد يقع الصدام بين الدولتين الصاعدتين لولا تدخل البابا فى الموضوع ، وعقد معاهدة تورد سيلاس سنة ١٤٩٥ ، التى تقسم العالم شطرين يفصل بينهما خط الطول الذى يمر بجـــزائر آســور فى المحيط الاطلسى • فكل ما هو واقــع شرقى ذلك الخط يعتبــر منطقة نفوذ اسبانى ، لاسبانيا أن تفعل فيه ما تشاء •

بينما كل الأقطار الموجودة غرب ذلك الخط تعتبر منطقة نفوذ برتغالى ، تفعــل البــرتغــال فـيهــا مــا تــريــد •

وانطلقت أيدى اللصوصية والسلب والنهب والتحطيم تعمل عملهـــا دون ضمير رادع ، ولا خشية من تدخل أحـــد •

وهكذا ابتدأ الاستعمار العالمى بأبشع صوره وأقذر وسائله • وتغيرت الوضعية الناجمة عن معاهدة (تورد سيلاس) الانفة الذكر ، فعقــدت اسبانيا والبرتغال معاهدة جديدة ، عام١٥٠٩ فى مدينة فيلا فرنكا ، فكانت تقتضى أن يكون المغرب الاقصى للبرتغال ولاسبانيا المغرب الاوســـط (الجزائر) • ثم أنطلقتا تفتكان بالانسانية فتكا ذريعا ، فى أمريكا، وفى آسيا ، وفى افريقيا •

٣ = تحطيم مدنيات انسانية عالية = حطم الاسبان فى أميركا دولة المكسيك ، التى كانت مهد مدنية رفيعة ، حيث كان يعيش شعبان كبيران متحضران عاملان ، هما شعب الازتيك ، والكيشواش • وكانــا مــن الشعوب التى تباشر الزراعة بصفة علمية عالية ، معتمدة علـــى الـــرى

وعلى السدود • وكان الشعبان يجيدان الصناعة من تعـدين الذهـب والنحاس ، وحياكة الانسجة القطنية ، وكانت لهما مدن ضخمة كمكسيكو ، ومعالم رفيعة ، وحـياة اجـتماعـية منظمـة •

حطم الاسبان كذلك بصفة وحشية قاهرة مدنية شعب الانكـاس فى البيرو ، وكان هذا الشعب يعبد الشمس ، وله فى بلاده شبكة من الطرق المهـدة • وكانت الارض عندهـم مؤممة بصفـة مطلقة • فكل عشيرة وكل
المهدة • وكانت الارض عندهم مأممة بصفة مطلقة • فكل عشيرة وكـل
عائلة لها ما يكفيها من الارض لاجل معاشها • لكنها لم تكن تستطيـع بيع الارض أو التصرف فيها • فهى ملك جميع الشعب • وكانت لهـا قوانين مدققة لتوزيع العمل وتنظيم الحياة الاجتمـاعية •

حطم الاسبان هنا لك ، كما حطموا فى المكسيك كل شىء لا من معالم تلك الحضارة فحسب ، بل حطموا أيضا نفس الحياة البشرية • فكـان السكان المساكين الذين وقع استعبادهم يهلكون بالملايين، الى أن انقرضوا تحت وقر البأساء والاعمال الشاقة التى كانت مفروضة عليهم من سـن ١٨ الى سن ٥٠ سنة •

٤ = استعباد الزنوج = من أجل استثمار خيرات البلاد ، وتعويض اليد العاملة المحلية التى أخذت فى الانقراض والفناء ، عمد الاسبان الى السواحل الافريقية المختلفة ، حيث نظموا تجارة النخاسة المرذولـة ، وأصبحوا يسوقون الى الاعمال الشاقة فى البلاد الاميركية المستعمرة ، الآلاف العديدة من الزنوج المستعبدين ، رجالا ونساء وأطفالا ، وراجت تلك التجارة وذاعت ، وهى سبب وجود الزنوج السود فى البلاد الاميركية حيث لا يزالون الى يومنا هذا فى الولايات المتحدة يقاسون اشنع انواع

الميز العنصرى، ويعاملون معاملة تشمئز منها النفس الانسانية .

٥ ـ الانهيار الاقتصادى الاسبانى ـ الاستعمار شر كله . فالاسبان الذين تكالبوا على الاستعمار وسرقة ذهب المكسيك والبيرو ، والذين حطموا مدينة العرب فى بلادهم ، وأخرجوا منها ملايين الايدى القوية العاملة التى جعلت من بلاد الاندلس الاسلامية جنة الدنيا علما وعملا ، قد أصبحت حياتهم حياة كسل وخمول لا يعملون عملا ، ولا يباشرون حرفة ؛ يعتمدون من جهة على السلاح يحاربون به أقطار أروبا المغرب العربى من أجل التوسع والسلب والنهب واكتساب الشهرة والجاه ، ويعتمدون من جهة أخرى على الاسلاب والغنائم المسروقة من أهل أميركا ، فانحطت الاخلاق ، وبارت الارض ، واندثر العمران ، وكسدت التجارة ، وأصاب اسبانيا انهيار اقتصادى لم تقم له بعد قائمة ، رغم محاولاتها الاروبية والاميركية ، وخاصة محاولاتها فى بلادنا الجزائرية .

ثم حذت دول أخرى ، وشركات رأسمالية عظمى ، حذو الاسبان والبرتغاليين ، فى استعمار اقاليم اخرى ، وانتهاب خيراتها ، وكانت لهم كذلك صحف سوداء قاتمة ، ليس هذا مجال ذكرها .

٥ = اسبانيا والعرب الاندلسيون واروبا

والآن علينا ان نلقى نظرة موجزة على اسبانيا ، لا لكى ندرس تاريخها بصفة تفصيلية ، ولا لنرى كيف كانت قبل الفتح الاسلامى الرحيم ، بل لنعلم فى ايجاز كيف كان تاريخ المسلمين فيها ، وكيف نشأت الدولة الاسبانية الحديثة على انقاض المسلمين ، وكيف عامل الاسبان بقايا المسلمين المنكوبين فى تلك البلاد التى أحيوها بعملهم ، واضاءوا أرجاءها بحضارتهم ، وسقوا أرضها بعرقهم ، وأغدقوا منها أنوار المعرفة والعلم والفن على اروبا الغارقة فى لجج الجهل والاستعباد والظلمات ، والتى أضاعوها بعد ذلك ، بخلافاتهم ، وتخاذلهم ، وتنازعهم على الملك الواهى والتيجان الزائفة ، ثم ما كان لكل ذلك من أثر فى حياة المغرب العربى وما نتج عنه من محاولة الاسبان لاستعمار أرضنا ، وتنصير قومنا ، وتسليط سيف الاستعباد فوق رقابنا ، ثم قيام دولتنا الجزائرية التى كسرت ذلك السيف ، ومحقت تلك المحاولات ، وركزت حكم العروبة والاسلام فى أرضنا ، الى الابد .

١ = فتح العرب لاسبانيا = فى حماس عظيم وجرأة نادرة ، اندفع المسلمون من مغربنا العربى ، تحت راية طارق ابن زياد الشهير ، يفتحون بلاد اسبانيا ، استجابة لرغبة المظلومين المنكوبين من اهلها .

ولقد كانت شبه الجزيرة الاسبانية خاضعة لسلطة شعب الفيزيكوت الذى تسلط عليها ، بعد شعب الوندال ، وأصبحت دولة موحدة ، عاصمتها

طليطلة ، ولرجال الدين في حكمها اليد الطولى والكلمة العالية .

مات ملكها يامبا سنة ٦٨٧ م فسادت بعده الفوضى ، واختل النظام ، وتطلع الى عرش المملكة مغتصب اسمه رودريك ودام الحال كذلك ، في ظلمات بعضها فوق بعض ، الى سنة ٧١٠ م ، حيث طلب مستحق العرش الشرعي ، آسيلا ، نجدة المسلمين ، فكانت انطلاقة طارق بن زياد المشهورة .

بعد معارك عديدة ، توطد أمر المسلمين بالبلاد ، بل غامروا تحت قيادة عبد الرحمان الغافقي ، وحاولوا بسط سلطان المسلمين شمال اسبانيا ، وكانت وقعة بلاط الشهداء (بواتي ٧٣٢ م) ثم رجوعهم الى اسبانيا ، بعد ان تركوا في البلاد الشمالية جاليات عديدة كان لها شأن عظيم .

واستمر توارد الولاة على الاندلس من قبل بني أمية ، طيلة مدة هذه الدولة بدمشق ، وقد كثر عدد المسلمين بالبلاد ، وجاءتها القبائل العربية (١) والبربرية من كل صوب في أعداد قليلة ثم تكاثر عدد المولدين الذين هم ابناء مسلمين واسبانيات ، فتكون في اسبانيا خليط عجيب من الناس ، تمكن تحت راية العروبة والاسلام ، من انشاء تلك الحضارة العربية الاندلسية التي لا تزال حديث الدهر وأعجوبة الدنيا .

أول ما يسترعي النظر في تاريخ اسبانيا العربية ، هو تلك الحرية الدينية الواسعة النطاق التي تركت للرعايا من المسيحيين عملا بآية « لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي » فتعاقبت أجيالهم وتسلسلت

---

(١) يقول العلامة المختص الدكتور حسين مؤنس انه لم يدخل الاندلس طيلة مدة الحكم الاسلامي اكثر من ٣٠ الفا من العرب - مجلة العربي - جانفي ١٩٦٦ .

فى المسيحية دون اى عائق ، وكانت تلك المسيحية تحمل تحت طياتهـا حنينا طبيعيا الى الحكم المسيحى ، ورغبة فى ارجاع الدولة للمسيحيين . وكانت تلك هى الجرثومة التى نخرت جسم الدولة شيئا فشيئا الى ان كانت النهاية الفاجعـة .

وهنا لك ملاحظة أخرى عن تاريخ العرب فى اسبانيا ، الا وهى تغافل المسلمين عن نشأة وعن نمو الدول المسيحية فى شمال البلاد الاسبانية ، وافساح المجال أمامها للتوسع والانتشار ، بما كان فيه المسلمون مـن خلافات وفتن وحروب داخلية ، وكان الواجب يقضى بتوحيد كامل البلاد الى حدودها الطبيعية اى جبال البرينى . وكان ذلك ميسورا فى اول الامر وكان ذلك يعود أيضا بالخير العميم على العرب وعلى أهل البلاد معا .

كان عصر الولاة ، مزيجا من الحروب بين المسلمين والنصارى ، وبين المسلمين انفسهم ، وكان فى الحقيقة عصر مخاض ولـد أثناءه المجتمـع الاندلسى ، واستعد للقيام بدوره الانسانى العظيـم .

اطاحت دولة بنى العباس فى الشرق بدولة الامويين ، وجاء الاندلس صقر قريش عبد الرحمن الداخل الاموى سنة ١٣٨ هـ ، يحمل بين جنبيه عزيمة البطل ، فاذا به يؤسس دولة بنى أمية بالاندلس على قواعد متينة سليمة ، وتألق نجم مملكة الاندلس الكبرى ، حول العاصمة قرطبة ، تألقا ربما لا يضاهيه نظير . واستمر ذلك النمـو والازدهار طيلـة امارة بنى أمية . ثم رأى عبد الرحمان الثالث ان يجعل الامارة خلافة تامة الاركان، وطالت ايامه (٩١٢ ــ ٩٦٤ م) وكانـت اسعد وازهر ايام المسلمـين بالاندلس ، بلغت فيها المدنية والحضارة أوجها ، وانتشرت فيها العلوم والآداب انتشارا منقطع النظير ، ثم كانت ايـام ابنه الحكـم الثـانى

(٩٦١ ــ ٩٧٦) استمرارا لنمو وامتداد المدنية الاسلامية رغم عهد تخلل ذلك العهد من حروب داخلية . وفتن لا اول لها ولا آخر . وقلاقل مستمرة بين القبائل المختلفة ، وحروب دامية مع الدول النصرانية الاسبانية .

هذه في الحقيقة ظاهرة جديرة بالدراسة وامعان النظر في تاريخ المدنية العربية في بلاد الاندلس وأكاد أقول : في كل مكان

ترى القلاقل والفتن والثورا تسو الدماء في الداخل ، ممتزجة مع الحروب ضد النصارى خارج حدود المملكة . فتقول انه يستحيل قيام أية مدنية وأي عمران ، وسط هذه الحالة الحربية التي لا أمن فيها ولا اطمئنان .

لكنك ــ من اعجب العجب ــ ترى الى جانب ذلك مدنيه وعمرانا وعلما وادبا وفلسفة واختراعا وتعمقا في الفن . فتقول ان البلاد التي تنجب كل هذا ، لم تعرف شقاقا ، ولم تقدم على فتنة . ولم تكتو بنار حرب أهلية ولا حرب خارجيـــة .

فالتاريخ الاندلسى ، كالتاريخ الاسلامي عامة ، يؤلف بصفة واقعية مجردة تاريخين اثنين ، لا تجانس بينهما أبدا : تاريخ الحروب والسياسة والدسائس والشقاق والفتن والتكالب الاعمى على العروش والسلطان . والتاريخ الآخر ، الذى يقع خلال ذلك ، وهو تاريخ تلك المدنيه الشامخة الذرى التي كانت نعمة من عند الله على الانسانية ، والتى كانت منبع نور وهداية ، في كل الميادين ، لكل شعوب العالم المعروف .

أخذ العقد ينفرط سنة ١٠٠٨ م ٣٩٩ هـ وابتدأ عهد الانهيار ، بعـــد أيام الحاجب المنصـــور (٩٧٦ ــ ١٠٠٢)

يقول الاستاذ لوسيور فيدائرة المعارف الفرنسية « ابتدأ عهد الانهيار حين اخذ أدعياء الملك يتزاحمون على الخلافة ، واخذ امراء المقاطعـــات

وحكام المدن يدعون الاستقلال ، وآل امر خلافة قرطبة الى فوضى متواصلة ، مكنت الافارقة البربر من الانتصاب باسبانيا من جهة ، ومكنت المسيحيين الشماليين من استرجاع البلاد شيئا فشيئا .

« وخلال القرن الحادى عشر بلغت الفوضى أقصى مداها ، وأعلن الامراء استقلالهم فى : قرطبة — رندة — الجزيرة — غزلونة — قرمونة — بطليوس — مورون — اشبيلية — مالقة — طليطلة — المرية — بلنسية — دانية — مرسية — الخ . الخ ..

« كان هذا العهد عهد انقلابات فى القصور ، وقلاقل وفتن يقوم بها الجند ، ومعارك محتدمة الاوار بين الامراء ، وبين مختلف القبائل فيما بينها ، ودامت هذه الحالة قرنا ضاعت معها حيلة التاريخ .

« لقد كان ملوك النصارى مختلفين أيضا ، وكانوا يتدخلون فى هذه المعارك . لكنهم جمعوا أمرهم أخيرا ، واتحدوا ضد المسلمين من أجل ابعادهم عن أرض أسبانيا ، وأخذ الفونسو السادس ملك غاليسيا وقشتالة يهدد نفس بلاد الاندلس » اه

ذلك أنه بينما كان عقد الخلافة قد تناثر ، وتفرقت البلاد مع ملوك الطوائف ، كان ملوك النصارى قد جمعوا أمرهم ، فانضمت ممالك استوريا — وليون — وغاليسيا — وقشتالة لبعضها . وأصبحت تدعى : مملكة قشتالة .

النجدة المغربية : امام هذا الخطر الذى يهدد مملكة الاندلس — أو بقاياها — بالانهيار ، دعا المسلمون لنجدتهم بطل المغرب العربى والاسلام يوسف بن تاشفين ، رأس دولة المرابطين ، فلبى الطلب ، وقام على رأس مغاوير المغرب للجهاد ، فنال النصر الاعظم فى واقعة

الزلاقة (١٠٠٨٢ م ٤٧٩ هـ)

ثم رجع الى الاندلس بعد ذلك فاتحا قاضيا على الفتن والخلافات سنة ١٠٩٠ م . وقضى على ملوك الطوائف الذين مزقوا البلاد . ثم رجع للاندلس التى أصبحت ولاية مرابطية ، سنة ١٠٩٧ ثم سنة ١١٠٣ . وأوصى أن تكون بلاد الأندلس لأبنه « على » من بعده .

وما كان سلطان المرابطين يسقط تحت ضربات المهدى محمد بن تومرت والبطل عبد المؤمن بن على ، الذين أسسا على انقاضه مملكة الموحدين حتى أخذ أمن الاندلس يختل ، وأخذ ملوك النصارى يتحفزون لاعادة فتح البلاد ، بينما ظهرت من جديد رؤوس فتنة « ملوك الطوائف »

واستنجد الاندلسيون من جديد برجال المغرب العربى . ودولته الفتية الجديدة دولة الموحدين ، فلبت الطلب واسرعت للجهاد .

أرسل عبدالمؤمن جيشه الىالاندلس سنة ١١٤٦م. فتمكن منهاثمسار اليها بنفسه سنة ١١٦٠ ، ودحر جموع النصارى الطامعين فى الاسترجاع. وجمع شمل البلاد فى قبضة ابنه يوسف (١١٦٣ — ١١٨٤ م)
ثمَ انتصر خلفه ابو يعقوب المنصور على النصارى نصره الاكبر فى معركة الارتقص ، (١١٩٥)ووقف تقدم ملكى قشتالة وارغون مؤقتا .

لكنهما أعادا الكرة بصفة عظيمة ، وانتصرا على المسلمين الانتصار الحاسم ، فى الموقعة المساة بالعقاب (لاس نافاس) التى وقعت أواخر صفر ٦٠٩ (١٢١٢ م)

قال شكيب أرسلان (١) : فجمع (محمد الناصر بن أبى يعقوب

(١) آخر بنى سراج وخلاصة تاريخ الاندلس .

وحكام المدن يدعون الاستقلال ، وآل امر خلافة قرطبة الى فوضى متواصلة ، مكنت الافارقة البربر من الانتصاب باسبانيا من جهة ، ومكنت المسيحيين الشماليين من استرجاع البلاد شيئا فشيئا •

« وخلال القرن الحادى عشر بلغت الفوضى أقصى مداها ، وأعلن الامراء استقلالهم فى : قرطبة — رندة — الجزيرة — غزلونة — قرمونة — بطليوس — مورون — اشبيلية — مالقة — طليطلة — المرية — بلنسية — دانية — مرسية — الخ • الخ ••

« كان هذا العهد عهد انقلابات فى القصور ، وقلاقل وفتن يقوم بها الجند ، ومعارك محتدمة الاوار بين الامراء ، وبين مختلف القبائل فيما بينها ، ودامت هذه الحالة قرنا ضاعت معها حيلة التاريخ •

« لقد كان ملوك النصارى مختلفين أيضا ، وكانوا يتدخلون فى هذه المعارك • لكنهم جمعوا أمرهم أخيرا ، واتحدوا ضد المسلمين من أجل ابعادهم عن أرض أسبانيا ، وأخذ الفونسو السادس ملك غاليسيا وقشتالة يهدد نفس بلاد الاندلس » اه

ذلك انه بينما كان عقد الخلافة قد تناثر ، وتفرقت البلاد مع ملوك الطوائف ، كان ملوك النصارى قد جمعوا أمرهم ، فانضمت ممالك استوريا — وليون — وغاليسيا — وقشتالة لبعضها • وأصبحت تدعى : مملكة قشتالة •

النجدة المغربية : امام هذا الخطر الذى يهدد مملكة الاندلس — أو بقاياها — بالانهيار ، دعا المسلمون لنجدتهم بطل المغرب العربى والاسلام يوسف بن تاشفين ، رأس دولة المرابطين ، فلبى الطلب ، وقام على رأس مغاوير المغرب للجهاد ، فنال النصر الاعظم فى واقعة

الزلاقة (١٠٠٨٢ م ٤٧٩ ﻫ)

ثم رجع الى الاندلس بعد ذلك فاتحا قاضيا على الفتن والخلافات سنة ١٠٩٠ م • وقضى على ملوك الطوائف الذين مزقوا البلاد • ثم رجع للاندلس التي أصبحت ولاية مرابطية ، سنة ١٠٩٧ ثم سنة ١١٠٣ • وأوصى أن تكون بلاد الاندلس لأبنه « على » من بعده •

وما كان سلطان المرابطين يسقط تحت ضربات المهدى محمد بن تومرت والبطل عبد المؤمن بن على ؛ الذين أسسا على انقاضه مملكة الموحدين حتى أخذ أمن الاندلس يختل ؛ وأخذ ملوك النصارى يتحفزون لاعادة فتح البلاد ، بينما ظهرت من جديد رؤوس فتنة « ملوك الطوائف »

واستنجد الاندلسيون من جديد برجال المغرب العربى . ودولته الفتية الجديدة دولة الموحدين . فلبت الطلب واسرعت للجهاد •

أرسل عبدالمؤمن جيشه الى الاندلس سنة ١١٤٦م• فتمكن منها ثم سار اليها بنفسه سنة ١١٦٠ ؛ ودحر جموع النصارى الطامعين فى الاسترجاع• وجمع شمل البلاد فى قبضة ابنه يوسف (١١٦٣ — ١١٨٤ م)
ثم انتصر خلفه ابو يعقوب المنصور على النصارى نصره الاكبر فى معركة الارقص ، (١١٩٥)ووقف تقدم ملكى قشتالة وارغون مؤقتا •

لكنهما أعادا الكرة بصفة عظيمة ؛ وانتصرا على المسلمين الانتصار الحاسم ، فى الموقعة المساة بالعقاب (لاس ناناس) التى وقعت أواخر صفر ٦٠٩ (١٢١٢ م)

قال شكيب أرسلان (١) : فجمع (محمد الناصر بن أبى يعقوب

---

(١) آخر بنى سراج وخلاصة تاريخ الاندلس •

المنصور) جموعا لاجل الجهاد، قيل نحو ستمائة ألف مقاتل، ([1]) والتقى بالافرنج وفيهم ابن اذفونس (الفونس) وصاحب برشلونة ، فكانت الواقعة المساة بالعقاب، ولم يقم بعدها للمسلمين فى تلك البلاد قائمة تحمد . وهلك فيها أكثر المجاهدين ، وبالغ بعض المؤرخين فقال انه لم ينج منهم غير الألف . وهو بعيد عن التصديق)

ولمع فى هذه المعركة الحاسمة اسم الفونسو الثامن ملك قشتالة ، فتوجهت اليه والى مملكته انظار وعواطف وسواعد الذين يريدون — وما أكثرهم — تحرير الاندلس من المسلمين .

اما المسلمون ، فقد عادوا بعد حين الى خلافهم ، والى ملوك طوائفهم وأخذت ممالكهم بعد حين تسقط شيئا فشيئا بين يدى ملوك الاسبان ، ولقد كانت تسقط فى الكثير من الاحيان ، باعانة وبمساعى المسلمين الناقمين !

مملكة غرناطة :

أما أمير أرجونة ، فقد أسس فى غرناطة مملكة بنى نصر ، (ينتسبون الى سعد بن عبادة زعيم الانصار) واعترف به اهل الجنوب ملكا ، سنة ١٢٣٥ ، (٦٣٣ هـ) واصبحت هذه المملكة بعد نوائب وويلات ، هى الدولة الاسلامية الوحيدة التى بقيت قائمة ما يزيد عن القرنين والنصف قرن (١٢٣٥ — ١٤٩٢) ونتحت عصرا جديدا — وسط القلاقل والفتن والدماء — من الحضارة والمدنية ، ورفعت منار العلم والمعرفة والادب والفن ، وتألقت — وهى تسير نحو الاضمحلال والتلاشى — تألقا غريبا ، وكثرت فيها

(١) مبالغة فى العدد غير معقولة .

الثروة والاموال ، ونشطت فيها الزراعة نشاطا غريبا ، ونالت صناعتها شهرة ذائعة ، الى ان كانت النتيجة المحتومة لكل امة انشقت على نفسها ، وجعلت الاهها هواها ، وانغمست فى البذخ والرفاهية ، وتركت الحديد الى الحرير ، فكانت معركة السنوات العشر (١٤٨٢ — ١٤٩٢) التى شنها الملك فرديناندو الكتوليكى ، والملكة ايزابيلا ، صاحبا عرش مملكتى قشتالة وأراغون ، تؤيدهما بالمال والسلاح والرجال كل المسيحية فى اوربا ، اطاعة للامر الصادر لها من البابا الذى فرض على المسيحيين ضريبة دعاها « ضريبة الصليبية » . وبعد حروب ووقائع كانت سجالا ، تغلبت العزيمة الاسبانية والقوة المسيحية على عوامل الانهيار والاضمحلال التى سادت المسلمين . وما أغنى عنهم فى آخر أيامهم ، جهاد القائد البطل الذى نسجل اسمه على صفحات التاريخ : موسى بن أبى الغسان ، الذى وقف ضد الاستسلام قائلا : أى باعث بنا الى اليأس فان دم الابطال من عرب الاندلس فاتحى هذه الديار ، يجرى فى عروقنا ، وعندنا قوة وافرة ، وجيوش معودة مجربة فى الوقائع ، لا نرتاب فى اقدامها ، ولدينا عشرون الف شاب يمكنهم ان يدافعوا عن دورهم واسوارهم اعظم قوة واكثف جيش » الخ ..

ذلك ان مملكة غرناطة لم تستسلم كما قلنا دون مقاومة وجلاد ، يقول عن ذلك المؤرخ الانجليزى الكبير واشنطون ارفنج :

« ان هذه الحرب (حرب تحطيم مملكة غرناطة) حقبة عظيمة الشأن فى تاريخ الدهر ، بما تخللها من باهر الثبات والاصرار ، فلمن الكيفت توالت فيها على المغاربة (اهل الاندلس) مدة عشرة سنوات يبدون انقطاع ، فأخذت مدائنهم الواحدة بعد الاخرى ، وفنيت رجالاتهم قتلا وأسرا ،

وقاتلوا عن كل مدينة وبلدة وحصن وبرج بل عن كل صخرة ، كأنما هم ينتظرون الفتح . ولم يجدوا مكانا تثبت فيه أقدامهم ولا جدارا يمكنهم رمي السهام من ورائه الا واعتصموا به ينازعون العدو وطنهم المحبوب حتى لم يبق لهم الا عاصمتهم مقطوعا عنها كل مدد ، غير طامعة في ادنى غوث ، تنزل على اسوارها امة بقضها وقضيضها لم يزالوا يدافعون عنها ، كأنما هم يترقبون معجزة يرسلها الله في حقهم »

وضاق عليهم الحصار ، وبنى فرديناندو ايزابيلا مدينة كاملة تجاه مدينتهم، أشعارا لهم بأنهم لن يرجعوا عنها أبدا.وبدأ للشبان والمجاهدين تحت زعامة موسى بن ابى الغسان الثبات والموت الى آخر رجل ، تحت سنابك الخيل . اذ لم يبق هنالك الا أحد أمرين : الاستسلام ، أو الهلاك المحقق في معركة انقاذ الشرف .

لكن أهل غرناطة (٥٠٠ ٠٠٠ نسمة) خافوا فضيحة النساء وانتهاك حرمة البنات ، وتشتيت الشمل ، وفقد المال ؛ فقرروا الاستسلام بعد مقاومة بطولية للاسبان ، ورضوا أن يكونوا من رعايا الدولة الاسبانية مقابل اعترافها بحرية دينهم ، واحترام عقائدهم وعوائدهم ، والمحافظة على أموالهم وممتلكاتهم ، وحرية من أراد منهم الانتقال بماله وأهله الى بلاد المغرب العربى . وهكذا استسلمت آخر دولة اندلسية ، وخرج ملكها أبو عبد الله يبكى وينوح ، وأمه عائشة الحرة تقول له : أبك مثل النساء ملكا لم تدافع عنه دفاع الرجال !)

فالاسبان الذين تمكنوا أخيرا من تحطيم مملكة ومدنية الاندلس الشامخة ، التى شغلت من التاريخ٧٨٢سنة ، بقوا يتذكرون — ولم ينسوا أبدا — ثلاثة أمور :

١ = ان جنود الفتح الاسلامى لاسبانيا قدمت من بلاد المغرب العربى •

٢ = عندما كادت الممالك الاسلامية الاندلسية تنهار تحت ضربات الاسبان الفتاكة ، وتحت عوامل الفتنة والانقسام ، جاءتها النجدة ، فيما يشبه الفتح الجديد ، من بلاد المغرب العربى أيضا ، فى شخص يوسف بن تاشفين والمرابطين ، وفى شخص عبد المؤمن بن على والموحدين •

٣ = ان المسلمين الذين اضطرتهم الانتصارات الاسبانية الى ترك أوطانهم وأموالهم وممتلكاتهم ، انما لجأوا الى بلاد المغرب العربى المختلفة ، يستثيرون أهلها ، ويبثون فى صفوفهم دعوة الجهاد المقدس ، ووجوب ارجاع بلاد الاسلام الى الاسلام •

فكانت هذه الامور ، علاوة على الامور الاخرى التى سوف نعرض لها فى مجال البحث ، من جملة الاسباب التى وجهت أنظار الاسبان المنتشين بلذة الفوز والانتصار ، الى ربوع مغربنا العربى ، كما سنرى •

المدنية العربية :

اتماما لهذه الصورة الوجيزة عن بلاد الاندلس ، نريد أن نأتى بلمحة خاطفة عن مدنية العرب الشامخة الذرى بالاندلس ، مما له علاقة ببحثنا هذا •

يقول الاستاذ لوسيور السالف الذكر :

« ان ملوك وأمراء الاندلس كانوا يحكمون البلاد طبقا لتعاليم الدين الاسلامى •

« أما المغلوبون ، سواء كانوا من النصارى أو من اليهود ، فلم تغتصب منهم أرضهم ، ولم تنتهك حرمة منازلهم ، فكانوا جماعة أهل

الجزية يدفعونها من ايرادهم ، وكانوا يتكلمون فى آن واحد اللغة العربية واللغة الاسبانية .

« ولقد نشطت اعمال الزراعة نشاطا عظيما وخاصة بمقاطعات بلنسية ومرسية والاندلس ، حيث لا نزال الى يومنا هذا نعجب بالسدود البديعة التى شادها العرب هناك ، وحيث يبدو ان الفاتحين هم الذين أدخلوا الى البلاد غراسة التوت ، وتربية دود القز ، وشجر اللوز وقصب السكر

« أما الصناعة فقد كانت مزدهرة فى عدد عظيم من المدن : فقد كان فى مدينة جيان ستمائة مصنع للحرير . وكان يوجد بمدينة المرية ستة آلاف منسج لصناعة الجوخ (الملف) والحرير المطرز ، وأقمشة القطن .

وفى مدينة بايزا كانت تصنع الزرابى
وفى مالقة مصانع البلور
وفى قرطبة مصانع الجلود المزركشة

أما الاسلحة والحلى ، فقد كانت تصنع فى قرطبة ومرسية وطليطلة ، وسرقسطة . وكانت كل هذه البضاعة تطلب بشغف فى أفريقيا وأروبا .

أما الورق ، فقد كان يصدر منذ سنة ١٠٠٩ من مدينة شاطبة بكميات وافرة .

« وكانت المناجم والمعادن تستثمر فى الحمة ، ووادى القنال ، ومرسية

والخلاصة ان الازدهار المادى كان عظيما فى المدن الغنية ، وفى البادية الآهلة ، واذا كنا لا نستطيع تصديق المؤلفين العرب الذين

يقولون انه كانت توجد على ضفتى الوادى الكبير ١٤ الف قرية ، فالامر المحقق هو ان هذه الناحية كانت على ازدهار عظيم .

« ولقد اعتكف العرب فى اسبانيا على الاداب والعلوم والفنون ، فكانت لهم مدنية ، وان لم تكن مبتكرة ، الا أنها كانت ذات لمعان شديد .

أما عدد العلماء من كل نوع الذين ذكرهم المؤرخون فهو لا يكاد يصدق.

ولنذكر منهم على سبيل المثال علماء الدين كابى على القالى (١) .

والفلاسفة كابن رشد (٢) . وعلماء الرياضيات كابن زلطى : وابن جابر والاطباء الذين ذاع صيتهم حتى بين المسيحيين

والمؤرخ ابن حيان (١٠٧٦)
وابن الخطيب (١٣٧٤)
وابن بشكوال (١١٨٣)
والجغرافى الادريسى (٣) ١١٥٤
وابن جبـــــير (١٢١٥)

---

(١) اسماعيل البغدادى . ولد بالعراق . واشتهر بقرطبة حيث استقر وعلم وتوفى (٩٠١ ـ ٩٦٧ م) اشتهر بالادب وعلم اللغة .

(٢) ابو الوليد محمد بن احمد ـ القرطبى ـ (١١٢٦ ـ ١١٩٨) شارح كتب ارسطو ـ شهرته عالمية ـ وفق بين الدين والفلسفة .

(٣)رحالة جغرافى . ولد بالمغرب الاقصى . واستقر بالاندلس عالما ومعلما وذاع صيته ثم صحب الملك رجار فى صقلية . واحرز شهرة عالمية بتاليفه كتاب « نزهة المشتاق » ونقشه لصورة الارض المعروفة يومئذ فوق كرة من الفضة .

وجمهرة غفيرة من الشعراء من بينهم عدد كبير من النساء ٠

ومن بين الاثار العمرانية ، نذكر :

مسجد قرطبة الاعظم (٧٨٦ — ٧٩٦)

وقصر الزهراء الذى خرب من سوء الحظ (٩٦٥)

وباب الشمس فى طليطلة (١٠٩٥)

ـ والقصر والخيرالدا فى اشبيليــة (١١٧١ ـ ١١٩٦)

وجنة العــريف (١٣٥٠)

وحدائق قصر اشبيلية (١٤٦٦)

اسبانيا الحديثة = ميلاد اسبانيا الحديثة الموحدة ، يرجــع الى ١٤٦٩ ، بالمصــاهــرة السعيــدة على الوحــدة الاسبانيــة ، التى تمت بــين فرديناالد ملك أراغون ، وبين ايزابيلا وارثة عرش قشتالة ، التى مــــات أخوها الملك ، فورثت عنه العرش ، وهكذا تكونت سنة ١٤٧٤ ، اسبانية المسيحية الموحدة ٠

وتم تحطيم مملكة غرناطة كما رأيت ٠

لكن اسبانيا كانت كما يقول أغلب المؤرخين قد فقدت روحها وقوتهــا العلمية والمدنية والحضارية ، بتحطيم دولة العرب ، وبأبعــاد العــرب والمستعربين بعــد ذلك عــن البــلاد ٠

لكنها كانت يومئذ فى غمرة النصرين العظيمين:النصرعلىالمسلمينواكتشاف أميركا ، تسعى جهدها لتوحيد السلطة بين أيدى الملك ، والضرب بصرامة على أيدى الاقطاعيين والنبلاء ، خوفا من تشتت شمل المملكة كمــــا تشتت أيام العرب ٠ فوقع الحد من نفوذ النبلاء ، بل انهم كانوا يبعدون

اما الى افريقيا أو الى ميادين الحروب • وأصبح الملك سلطانا مطلقـــا لا معارض لقوله ، ولا راد لارادته •

ثم ساد أسبانيا بعدقليل عصر من الظلمات والارهاق،وتحكم فيها الجهلة من الرهبان حكما كانوا لا يريدون منه الا محق كل أثر لدين آخر (اسلامى أو يهودى) فسنت بدعة محاكم التفتيش الرهيبة التى هى سبة فى وجه الانسانية ووصمة عار وشنار فى وجه المسيحية (والمسيح وتعاليم دين الانجيل بعيدة عن ذلك كل البعدوهى التى تتلخص فى قول المسيـــح : (المجد الله فى الاعالى ، والناس المحبة وللارض السلام) فأصبحت مدن وقرى أسبانيا كلها محارق فظيعة تستحيل فوقها رمادا بقايا المسلمــين واليهود ، ومن يتهمون بأنهم أعداء الكاتوليكية والملك •

أشنع الخيانة وأفضع الغدر = قبل ابو عبد الله كما رأينا تسليم مملكة غرناطة للاسبان ، والانسحاب الى جبال البشرات : مقابل تلك المعاهدة التى عقدها مع الاسبان والتى قال هو بنفسه عنها، فى رسالته لسلطان فاس « ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها، وأعطى من أمانه ، المؤكد فيه خطه بايمانه » ما يقنع النفوس ويكفيها الخ ••

لكن القضية كلها كانت من سوء حظ اسبانيا وسوء حظ المسلمـــين معا ، كذبا ونفاقا ، وما كانت العهود والمواثيق والايمان الفاجرة الا مكرا وخديعة ، اذ ماكاد الملك الاندلسى يغادر غرناطة ومن معه من الرجـال والنساء الاحرار ، حتى قلب الاسبان للمسلمين ظهر المجن ، وأخـذوا يظهرون ماكانوا يبيتون • فأسلمت المدينة الى حكم الرهبان فعلا ، فمنهم من كان فى أول الامر يمسح المسلمين بواسطة الضغط والامانى،ويحذرهم سوء العاقبة ، حتى قالوا ان الراهب هرناندو نصر فى يوم واحد ثلاثة

آلاف من سوقه المسلمين ، بدعوى أن آباءهم كانوا من النصارى • لكن المتنطعين من رجال الكهنوت ، وخاصة الكاردنال خيمينين الذى سنصطدم به وجها لوجه عما قريب بوهران ، أقنع الملك والملكة بنقض العهد الذي بواسطته استسلمت غرناطة دون قتال ، فوقعت الوصمة التاريخية التى انغمس فيها الملك والملكة ، وخانا اليمين ، ونكثا العهد ، وأعلنا أنه يجب على مسلمى غرناطة وما حواليها: اما اعتناق المسيحية، أو مغادرة البلاد • فخرج الناس رجالا ونساء وأطفالا هائمين على وجوههم، لا يحملون من متاعهم الا النزر القليل ، يلتجئون الى جبال البشرات التى بقيت فى أيدى المسلمين (معترفة بسلطان الاسبان) أو يغتنمون فرصة وجود أى مركب ينقلهم الى بلاد الاسلام• وهنا، وبهذه المناسبة السوداء الرهيبة يلتقى تاريخنا لأول مرة بالبطلين العملاقين التركيين ، عروج وخير الدين ، على رأس عمارة القرصان التى كانت تقاتل الدول النصرانية المحاربة للاسلام ، فأنقذا من تلك المحنة القاتلة ما يزيد عن العشرة آلاف نسمة • لكن المستضعفين من الرجال والنساء فى غرناطة ، بقوا فى دوامة تلك المحنة ، فأجبروا على التنصر وقلبهم مطمئن بالايمان،وأقفلت مساجد المسلمين أو حولت الى كنائس ، وتناولت يد الوحشية القاسية كتب المسلمين التى هى ثمرات العلم والمدنية خلال سبعة قرون ، فأحرقت وأتلفت ، واغلقت وهدمت الحمامات ، بل كان الذي يرتاد الحمام يعتبر مسلما ويحاكم ويحرق ، وهكذا بادت غرناطة المسلمة العربية ، التى أبى اهلها الدفاع عنها خشية أن ينالهم الاذى وأن يفتنوا ••

أما « الموريسكو » أى بقايا العرب والمسلمين فى الاندلس ، والذين بقوا على ساحل البلاد الجنوبى او الذين هاجروا اليهم من بعد ، فلم

يسلموا من ذلك الاذى ، وذاقوا من عذاب الهون ألوانا لم يشهد التاريخ مثلها الا أيام جنكز خان وهو لاكو . وطالت الحروب بينهم وبين الاسبان وكانت سجالا ، لكن المآل كان محتوما . واستصرخوا ملـوك وأمـراء المسلمين ، فلم تستمع لهم أذن ، ولم تحرك لنصرتهم يد ، الا من هـذه العاصمة الجزائرية التى أصبحت فى ذلك الوقت دولة مرهوبة الجانب ، فجهزت أيام البطل العظيم «قلش على» حملة لاعانتهم ، وأمدتهم — وهى تحت الخطر العظيم — بما استطاعت من سلاح وعتاد ورجال ، مما ستراه بحول الله مفصلا فى مكانه من هذا الكتاب .

واستمرت المحنة ما يزيد عن قرن ، (١٤٩٣ — ١٦١٠)، وتوالـت هجرات الاندلسيين الى بلاد المغرب العربى ، والمشرق الاسلامى ، خلال تلك الايام السوداء كلها ، ناقلة معها فى اول الامر علمها وفنها وأدبهـا واختصاصها ، وناقلة فى آخر الامر بؤسها وشقاءها وألمها وظغينتها ، فكان جملة من خرج من اسبانيا من المسلمين خلال قرن ونيف ، يبلـغ الثلاثة ملايين من الرجال ، ويقدر عدد من تمكن من الخروج الاخير ، بنحـو نصف مليـون نسمة ، كما يثبته المؤرخ بيتـانلى لامبـول فى كتابـه « الاسلام فى أسبانيا » . ولقد كان من بينهم — لا محالة — جواسيس واعوان لاسبانيا ، مهما قل عـددهم .

هذه هى المحنة الدهماء التى كانت تقف بالمرصاد لمغربنا العربى، لوقدر للمخطط الاسبانى النجاح ، اثر غزوته الصليبية التى شنها على بلادنا منذ تحطيمه مملكة غرناطة ، والتى لم تنته الا بعد حروب دامت ثلاثمائة سنة ، هى موضوع كتابنا هـذا .

يقول الاستاذ • ل • لوسيور ، المذكور آنفا ، فى دائرة المعـــارف الفرنسية الكبرى :

« عندما رجع من نابولى الملك فرديناندو الثانى ، لكى يستعيد الوصايه المرة الثانية على حفيده ، لم يبذل جهدا عظيما من أجل ارجاع الامن الى نصابه ، وترك زمام السلطة بيد وزيره (الكاردنال) خيمينيس •

فهذا الوزير الماهر ، الذى باشر الحكم من سنة ١٥٠٨ الى سنة ١٥١٧ • بادر بارسال حملات على افريقيا الشمالية ، على نية حمل أهلها المغاربة على اعتناق الدين المسيحى قسرا » اهـ

وكان يعيش فى اسبانيا ، تحت رحمة الاسلام وعدله ، نحو المليونين من اليهود ، كانت بأيديهم ، كما هى العادة ؛ التجارة الواسعة واعمال النقود والمبادلة ، فصدر الامر من ديوان التفتيش سنة ١٤٩٢ بابعادهم عن اسبانيا ، فهاجر منهم نحو مليون وثمانمائة الف تفرقوا بين افريقيا الشمالية وبلاد الدولة العثمانية الشرقية وقتل منهم بعد التعذيب والتنكيل زهاء المائتى ألف • (وكان سكان أسبانيا ذلك الوقت ٨ ملايين نسمة) •

التوسع الاسبانى وأوروبا • ان أسبانيا التى خسرت بهذه الصفة اهم عناصر الانتاج والزراعة والتجارة والعلم ، أصبحت بـــلادا بائســـة تتخبط فى ديجور الظلام يكتنفها من كل جانب ، وقد خـــربت الارض ، وغاضت الترع والقنوات المعدة للرى ، وسادت البطالة ، واعتمد الناس على ما يرد عليهم من أميركا المنكوبة ، من ذهب وفضة وخيرات • ولقد أصبحت الجندية حرفة وطنية ، فما كان فى الاستطاعة تسريح الجيوش ، لانها لن تجد أمامها عملا تقوم به ، وأخذت مئات الآلاف من الناس ،

رجالا ونساء . تهاجر الى بلاد امريكا الوسطى والجنوبية تفتن اهلها والاستمتاع بخيراتهم وأرضهم .

ثم رنت دولة اسبانيا بعين الطمع الى اروبا . محاولة بطرق ملتوية الاستيلاء عليها أو على أكبر جزء منها . وكانت أروبا يومئذ مستعدة لعصر النهضة الذي عرف الانسان بنفسه وبمحيطه وبعلوم الحياة وفروعها ، نتيجة حتمية لما تدفق على اهل اروبا من علم العرب ومدنيتهم المتسربة اليهم منذ أمد بعيد من صقلية و الاندلس أيام الحكم الاسلامى . ثم من تأثير الحروب الصليبية المباشر . وما تحققه على المجتمع الاروبى من تطور عظيم . كما رأينا فى عصر سابق . فى ميادين العلم و الاخلاق والسياسة والعمران .

يمكننا أن نقول — دون مجازفة — فى الوقت الذى استرجعت وحدتها السياسية والجغرافية واستعادت استقلالها القومى بعد حروب دامت زهاء ثمانية قرون ، ببسالة واقدام وتصميم — نقول ان اسبانيا يومئذ كانت تمثل الجهل والفاقة والظلام . والحكم المتعسفى لتجاهل البشر ، بينما كانت أروبا تستعد لعهد النهضة الكبرى .

فلم تكن بلادنا فى المغرب العربى فحسب ، ضحية العدوان الاسبانى ، بل ذاقت أروبا من ذلك الشىء الكثير ، أواخر القرن الخامس عشر ، والى السبعينات من القرن السادس عشر ، أى قبل وأثناء العدوان الاسبانى على بلادنا ، واننا لنرى وجوب تقديم صورة مصغرة لذلك، بغاية الايجاز، حتى نعرف من هى اسبانيا التى كانت تقاتلنا وكنا نقاتلها ، وحتى نعلم جيد العلم ما هى الظروف التى احاطت بذلك القتال المرير .

كانت البلاد الايطالية خلال ذلك العهد ، وهى تستعد لعصر النهضة ،

مقسمة سياسيا الى دويلات وامارات ، تكاد تكون الحرب فيما بينهـا صناعتها القومية .

وكانت أسبانيا تملك فى تلك الساعة جزيرة صقلية وجنوب ايطاليـا (مملكة الصقليتين) ومدينة نابولى . وقد تسلم تاج هذه المملكة ، ملـك أسبانيا وهو مقيم بمدينة القل بشرقى الجزائر ، فى أول محاولة اسبانية توسعية خلال القرن الثالث عشر ، كما سيأتيك مفصلا فى استطـراد ، عند كلامنا عن ملحمة مدينة القل .

وكان الشعب متذمرا من الحكم الاسبانى ، يحاول الثورة ، بل يثور أحيانا ، ولا يجد الى التحرر من سبيل .

كان ملك فرنسا يومئذ ، شارل الثامن ، يدعى استحقاق عرش نابولى، من أرث ملكى ، فاحتدمت من أجل ذلك نيران الحرب بـين الاسبـان والفرنسيين ، وهى المعروفة بحرب الستين سنة ، وصارت فرنسا أثناءها تطالـب أيضـا بملكية ميلانو الايطالية ، وكان الايطاليون يتدخلون ـ وهم فى أرضهم ـ لفائدة هذا أو لفائدة ذلك . وتغلب الجانب الاسبانى على الجانب الفرنسى فلحقت به الهزائم المنكرة .

وكان يحكم المانيا فى ذلك العصر الامبراطور الكبير مكسيمليـان دى هابسبورغ (العائلة المالكة التى استمرت تحكم النمسا والمجر الى سنة ١٩١٨) وكان الامبراطور لا يرى بعين الرضى هذا التوسع الاسبـانى الفرنسى على حساب البلاد الطليانية التى كان بعضها (دوقة ميلانو) تابعة لـه .

فما عتمت الحرب ان انقلبت حربا اروبية عامة ، كانت فرنسا تقف فيها وحدها ، أمام اسبانيا ، والمانيا ، وانضمت لهما انجلترا وسويسرا

وجمهورية البندقية ، وعقد البابا الذى كان يشرف على محاربة الفرنسيين، يوليوس الثانى ، بين كل هؤلاء ما أسموه « العصبة المقدســـة » وكانت نتيجة هذه الحروب المتوالية انهزام فرانسا ، واشتداد ساعد أسبانيا .

عاصرت هذه الحروب الاروبية الاولى حقبة العدوان الاسبانى على البلاد الجزائرية خاصة ، وبقية بلاد المغرب ، وتطورت سنة ١٥٢٠ ، الى قيام أمبراطورية عظمى فى التاريخ الاروبى ، هى أمبراطورية شارل كنتوس (أى شارل الخامس) أو شرلكان كما ندعوه فى تاريخـــنـــا .

وقد جمع بين يديه ، بواسطة وارثات ملكية متعـــددة : أسبانيـــا ، والنمسا ، وبلجيكا ، وهولاندا ، وصقلية ، وسردينيا ، ونابولى ، وجزءا من ألمانيا ، وأغلب البلاد الاميركية المعروفة .

ومات الامبراطور مكسيميليان ، فعين الامراء والملوك شرلكان خلفا له ، وأصبح ، بإسم أمبراطوريته العظيمة ، ورجالها الأشداء ، يقف وجها لوجه امام فرنسا ، والامبراطورية العثمانية ، ودولة الجزائر التى ذاق فوق أرضها مرارة الاندحار الفادح ، ثم انتهز تمزق ، تحت ضربـــات الاتراك العثمانيين الفتاكة ، الذين تحالف معهم ملك فرنسا فرنسوا الاول زمنا ما ، ضد العدو المشترك شرلكان

سجل التاريخ فى صفحة شرلكان ، أسوأ وأفظع حدثين فى ذلك العصر: احتلال روما عاصمة البابا سنة ١٥٢٧ ، بعد حصار مرير ، وتخريبهـــا ، وانتهاك حرمتها ، بواسطة جنوده من الألمان والاسبان ، وذبح أهلهـــا تقريبا . ثم احتلال تونس وتخريبها ، وانتهاك حرمة سكانها بواسطة قـــوات الجيش سنة ١٥٣٥ .

٦ = الدولة العثمانية

عندما كانت النكبة العارمة تحل بالمسلمين فى الاندلس على الصفة التى ذكرنا ، وعندما كان نجم المسلمين يأفل ببلاد المغرب الاسلامى الاروبى ، كان هناك نجم اسلامى ساطع يتألق نوره ببلاد المشرق الاسلامى ، هو نجم الدولة التركية العثمانية ، التى نمت فى أروبا بلاد الاناضول ، ثم تدفقت سيلا اسلاميا عارما على ما يليها من أقطار أروبا وافريقيا وآسيا •

ليس الاتراك بغرباء عن العالم الاسلامى ، فهم أمة من آسيا الوسطى، يرتبطون بقبائل الهون والمغول بأوشاج وثيقة ، وتناولت بلادهم منذ نشأة الدولة الاسلامية دعوة الاسلام ، فدخل أكثرهم فى دين الله أفواجا ، وقربهم خلفاء بنى العباس ، واتخذوا منهم البطانة والحاشية ، والقادة والجند ، فتكاثر عددهم حتى أصبحوا ذوى حول وقوة فى عراق العباسيين وما حواليه ، وصار لهم الملك والدولة فى بغداد ــ تحت سلطة الخليفة الاسمية ــ منذ اليوم الذى قلد فيه الخليفة الواثق تاج الملك فى نفس بغداد ، زعيم الجند التركى ، وأعطاه لقب السلطان ، سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) بينما كان الخليفة المعتصم قد أدخل قبله ١٨ ألفا من الاتراك فى الدواوين الحكومية ، وكلف جيشا مؤلفا من خمسين ألفا من الاتراك بحماية الثغور • (سنة ٢١٥ هـ) • وأصبحت الدولة فى العراق العباسى وفى المقاطعات الاسلامية الآسيوية تحت سلطة بنى بويه الاتراك ، التى نقشت اسم سلاطينها فوق الدنانير • ثم حلت محل دولة بنى بويه ،

بعـد ملك وراثى دام ١٣٩ سنة ، دولة الاتراك السجلوقيين ، سنـة ٤٢٢ هـ (١٠٣٠ م) التى حكمت العراق تحت اسم الخلافة العباسية وحكمت مختلف الجهات الاسلامية الآسيوية طيلة ١٦٨ سنة ؛ وتلقت هذه الدولة صدمة الصليبيين ثم صدمة المـغـول •

يقول ابن خلدون عن هؤلاء الترك ، مصورا الواقع أدق تصوير : (حتى اذا استغرقت الدولة العربية فى الحضارة والترف ، ولبست اثواب البلاء والعجز، ورميت الدولة بكفرة التتر الذين أزالوا كرسى الخلافة، وطمسوا رونق البلاد ، وأدالوا بالكفر من الايمان بما أخذ أهلها عند الاستغراق فى التنعم ، والتشاغل فى الملذات ، والاسترسال فى الترف، من تكاسل الهمم والقعود عن المناصرة ، والانسلاخ من جلدة البأس وشعار الرجولية ، **فكان من لطف الله سبحانه ان تدارك** الايمان باحياء رمقه ؛ وتـلافى شمل المسلمين بالبلاد المصرية بحفظ نظامه ، وحماية سياجه ، بان بعث لهم من هذه الطائفة التركية وقبائلها العزيزة المتوافرة ، أمراء حاميـة وأنصارا متوافرة ، •••••يدخلون فى الدين بعزائم ايمانية ، واخلاق بدوية ، لم يدنسها لـؤم الطباع ، ولا خالطتها اقذار اللذات ، ولا دنستهـا عوائد الحضارة ، ولاكسر من سورتها غزارةالترف »

ويقول عن دولتهم فى الاسلام :

« وكان مبدأ ذلك واقعة المتوكل ، وما حصل بعدها •• من تغلب الموالى واستبدادهم بالامر والسلطان • ونهج السلف منهم فى ذلك السبيـل للخلف ، واقتدى الآخر بالأول ، فكانت لهم دول فى الاسلا ممتعددة ، تعقب غالبا دولة أهل العصبية وشوكة النسب ، كمثل دولة بنى سامـان وراء النهر ، وبنى سبكتين بعدهم وبنى طولون بمصر ، وبنى طغـج •

وما كان بعد الدولة السلجوقية من دولتهم مثل بنى خوار زمشاه بـما وراء النهر ، وبنى طغر لتكين بدمشق . وبنى أرتق بما ردين ، وبنـى زنكى بالموصل والشام ، وغير ذلك من دولهم » (1)

وهكذا تحت ستار الدولة العباسية ، ومنذ القرن الثالث الهجـرى ، فقد العرب الملك والسلطان،وأصبحوا يذعنون بصفة فعلية للحكم الاسلامى التركى ، نظرا للامراض الاجتماعية التى أصابت العرب ، ونظـرا للصلابـة وشدة المراس والبداوة التى كانت عند الاتراك .

ولقد أسفرت الحروب الصليبية فى المشرق العربى عن نتيجتين عظيمتين أولاهما : ان قهر الحملات الصليبية وكسر شوكتها ، والالقاء بها الـى البحر ، قد تم بواسطة الجهاد الاسلامى الاكبر الذى قاده الاتراك أولا ، تحت سلطان السجلوقيين ، ثم قادوه ثانيا تحت راية صلاح الدين وأبطال الايوبيين ، ثم قادوه أخيرا تحت راية سلاطين المماليـك .

اما النتيجة الثانيـة ، الحتمية ، فقـد كانت تمكـن الاتراك مـن قيـادة الدولة الاسلامية ، بواسطة دولة المماليك الاتراك التى نشأت بمصر ، والتى حكمت الشرق العربى (مصر والشام وجزيرة العرب وما اليها) حكما قويا حفظ دولة الاسلام ، وأنجب من الملوك العباقرة أمثال الظاهر بيبرس قاهر الصليبيين ، وأمثال قطز منقذ البلاد الاسلامية من كارثة المغول . (معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠ م (٦٥٩ هـ)

وهكذا ، آل حكم بلاد المشرق العربى ـ ماعدا العراق الذى كان يحكمه المغول ثم الفرس ، بعد تنكيل المغول به اشنع وأبشع تنكيـل ـ الـى

---

(1) تاريخ ابن خلدون ـ طبع بيـروت ـ ج ٥ ـ ص ٧٩٨ وما يليها .

سلطنة المماليك الاتراك بمصر ، الذين حفظوا الدولة وحفظوا الجماعة ، وتداركوا بقايا المدنية العربية ، وعمروا البلاد على مقدار عظيم ، الى أن أدرك دولتهم الهرم ، وأخذت ترسب فى مهاوى الاضطراب والفتن .

فى ذلك الحين ، بالذات ، برزت للعالم دولة تركية فتية ، يانعة ، قوية ، جريئة ، هى دولة بنى عثمان ، التى سيكون لنا معها على مسرح التاريخ شأن وأى شأن : ففى سنة ١٣٠٠ ميلادية ، (٦٩٩ هـ) وضع الامير التركى عثمان بن أرطغرل ، سليل احدى العشائر التركمانية القوية التى نزحت من بلاد تركستان الى هضبة الاناضول . أسس الدولة الاسلامية الجديدة ، على انقاض احدى الامارات السجلوقية التى انقرضت فى نفس تلك السنة ، لموت سلطانها علاء الدين ، تحت ضربات غارة مغولية . فشتت عثمان شمل الغارة المغولية . وفتح مدينة بورصة واتخذها عاصمة لهذا الملك الناشىء .

ثم أخذت الفتوحات المدهشة تتوسع بصفة غريبة : وأخذت الممالك والامارات النصرانية تسقط تحت ضربات الفاتح العثمانى ، واستفاقت المسيحية فاذا بها تقف امام خطر جد عظيم يهدد كيانها فى الشرق الاوروبى بينما كانت تبذل الجهود للتخلص من دولة الاسلام فى الغرب الاوروبى (دولة الاندلس .)

تداول السلطنة خلال الفترة مابين ١٣٠٠ و١٥١٦ ميلادية تسعة سلاطين ، وجهوا جهودا تكاد تكون فوق طاقة البشر ، لنشر الدولة الاسلامية فوق ربوع أوربا الشرقية ، وانشأوا من أجل ذلك جيشا كان يعتبر أحسن جيوش العالم وأشدها قوة واقتدارا ، هو جيش «الينى تشرى» او الانكشارية ، كما أنشأوا العمارة البحرية الحربية التى حملت لواءهم

المنصور فوق عباب كل البحار . فسادت امام انتصاراتهم الباهرة وانتشارهم السريع فى اوروبا فكرة انهم مردة فى البر وشياطين فى البحر ، وانهم لا يغلبون .

كانت الفكرة الاساسية عند الدولة العثمانية ، خلال القرون الوسطى وما بعدها ، الى عهد التنظيمات ، هى ان الاسلام كله فى حالة حرب مستمرة مع المسيحية كلها ، لا يستثنى من ذلك الا الامم والدول الداخلة تحت الطاعة والتى تدفع الجزية ، أو الدول التى ترتبط مع الدولة الاسلامية بمعاهدة ، الى أجل معين . فاذا ما أنتهى الاجل ولم تتجدد المعاهدة ، أصبحت حالة الحرب سائدة من جديد بين الجانبين .

(وكانت هذه هى القاعدة التى سارت عليها الدولة الجزائرية منذ نشأتها سنة ١٥١٦ الى أخريات أيامها سنة ١٨٣٠)

فالسلاطين العثمانيون وجهوا كل جهدهم كما قلنا لفتح أروبا، ونشر لواء الاسلام فوقها . وتمكنوا خلال القرنين الاولين من احتلال بلاد البلقان ، وبلاد المجر ، والكثير من بلاد النمسا ، وجنوب البلاد الروسية حول البحر الاسود، ، ووقفوا أمام جدران مدينة فينا وأسوار مدينة البندقية .

ولولا نقمة الله التى انصبت على المسلمين من جديد ، متقمصة شخص الطاغية السفاح المخرب تيمورلنك ، سليل جنكز خان وهولاكو ، على رأس الوحوش من قبائل المغول ، ومحاربته وقهره للسلطان بايزيد (٢٠ يوليو ١٤٠٣) ولولا ما عقب ذلك من فترة خلال عطلت سير الفتوحات الاسلامية خمسين سنة ، لبلغت الدولة العثمانية مبلغا عظيما ، قبل أن توحد أروبا جهودها وقبل أن تستعد للمقاومة المستميتة .

لكن هجمة المغول المخربة، ضد العثمانيين (وضد المماليك فى سوريا،

حيث وقعت نكبة حلب ودمشق الاليمة الفاجعة) ، لم تمنع الاتراك العثمانيين من جمع شملهم ، وتوحيد دولتهم من جديد ، والمحافظة على كل ممتلكاتهم الشاسعة في اروبا ، بل اقتحموا بعد ذلك بقليل (سنة ١٤٥٣) تحت قيادة السلطان البطل محمد الثاني الفاتح مدينة القسطنطينية العظمى عاصمة مملكة الروم الشرقية ودعاها (اسلام بول) أي مدينة الاسلام ، (وحرفت الكلمة الى استامبول وأصبحت عاصمة دولة الاسلام الى سنة ١٩٢٢)، وقد أحدث هذا الفتح العظيم دويا عالميا منقطع النظير، واعتبره المؤمنون في كل جهات الارض انتصارا اسلاميا هائلا ، بل بعثا جديدا للاسلام، بينما اعتبره المسيحيون نكبة دهماء أصابتهم في الصميم فهناك السرور والابتهاج ، وهنا الحزن العميق والاسى .

ويقابل هذا تماما، بصفة عكسية، ذلك الحادث الجلل الذى وقع باسبانيا ، بعد اربعين سنة من ذلك ، وهو سقوط مدينة غرناطة بأيدى المسيحيين، فعم الفرح والجذل كل بلاد الصليب . واشتركت كل بلاد الاسلام في اللوعة والاسى

لم يتعرض الاتراك العثمانيون الى ذلك الحين للبلاد العربية التى كانت كما رأينا تحت سلطان الاتراك المماليك ، بل اكتفوا بمحاربة الفرس الايرانيين الشيعيين الذين أخذوا يحاربونهم على أطراف السلطنة في المشرق ، وغلبوهم مرارا ، واستخلصوا من أيديهم كامل « دياربكر » وبعض بلاد «الجزيرة» ثم استأنفوا محاربتهم بعد ذلك ، الى ان استخلصوا من بين أيديهم بغداد وكامل بلاد العراق .

لكن سلطان دولة المماليك ، الذى كان يحكم مصر والشام وفلسطين والحجاز واليمن، وشرقى ليبيا، الملك الاشرف السلطان قانصوه الغورى،

كان يخاف يوما تتحول فيه أنظار العثمانيين اليه ، فتحالف مع الشاه اسماعيل سلطان فارس، واتفقا على محاربة الدولة العثمانية (1)

فما كاد السلطان سليم ياوز (القاطع) العثمانى ينتهى من محاربة الفرس ، واستخلاص ديار بكر والجزيرة من بين أيديهم ، حتى أمر جيشه بالتوجه لمحاربة المماليك ، فهزم السلطان الغورى فى معركة مرج دابق ، حيث قتل تحت سنابك الخيل ، واحتل العثمانيون كامل بلاد الشام ووصلوا حدود مصر (أوت وسبتمبر ١٥١٦) ثم هاجموا مصر التى تولى طومان بك ملكا عليها ، فاحتلوها بعد ان ابلى المماليك والمصريون بلاء حسنا فى الدفاع عنها ؛ (٢٢ جوان ١٥١٧) وعندئذ خضعت كامل البلاد العربية للسلطان العثمانى ، وتسلم ياوز سليم الاول لقب الخلافة من يد آخر الخلفاء العباسيين بالاسم . وخطب باسمه على كل منابر المسلمين بالشرق والغرب ، الى حدود المملكة الحفصية . واصبحت الامبراطورية العثمانية تمتد من مدينتى فينا وبودابيست (عاصمتى النمسا والمجر) فى قلب أروبا، الى مدينة طرابلس الغرب، وأحيطت أروبا بالخطر الاكبر ؛ واستعدت لمقاومة جيوش الاسلام المكتسحة . وهنا وقف العثمانيون وجها لوجه ، أمام دولة اسبانيا التى كانت مهيمنة على اروبا الجنوبية الغربية والوسطى .

هكذا كانت حالة أروبا، وحالة المسلمين، وحالة بلاد الاندلس البائسة عند وقوع العدوان الاسبانى واشتداد خطبه على بلادنا الجزائرية ، وبقية بلاد المغرب العربى .

---

(1) محمد فريد بك « تاريخ الدولة العثمانية » .

بقى علينا أن نلقى نظرة فاحصة سريعة ، على حالة المغرب العـــربـــى تجاه هذه التيارات العالمية المتشاكسة، وأمـــام هاتين القوتين الرهيبتين الصاعدتين : قوة الامبراطورية الاسلامية العثمـــانيةشرقـــا ، وقـــــوة الامبراطورية الاسبانية المسيحية غربا

٧ = المغرب العربى أوائل القرن السادس عشر •

تقهقر ، وفوضى ، وانحلال •

تلك هى الكلمات التى تلخص لنا ؛ دون حاجة الى اطناب وتفصيل حالة بلاد المغرب العربى المؤلمة ، فى مفتتح القرن السادس عشر ، وهى تجابه الاحداث الجسام ، وتشهد خروج العالم من عصوره الوسطى المظلمة ، الى العصر الحديث •

فبينما كانت اسبانيا قد حطمت آخر ممالك المسلمين ببلاد الاندلس ، وبينما كان نجم الدولة الاسلامية العثمانية يعلو وينمو ويجر الذيل فوق ميادين القارات الثلاث : اوروباو آسيا ، وافريقيا • وبينما كان السلطان المسيحى يجمع صفه ويوحد قواه ويستعد للمعركة الحاسمة ضد الاسلام والمسلمين ، وبينما كانت اوربا قد أخذت ـ وراثة عن المسلمين ـ تضع الاسس المتينة لحضارة جديدة ، ونهضة اقتصادية عظيمة ، وتكتشف الاكتشافات العالمية التى غيرت وجه التاريخ ، كان المغرب العربى مقسما ـ نظريا ـ الى ثلاث دول، ورثت أمجادا عظيمة، وتمتعت خلال تاريخها الحافل بجلائل الاعمال ، بنهضة عالية فى ميدانى العلم والعمران، وعلى بساط الادب والفن، هى الدول التى قامت على انقاض دولة الموحدين :

١ ـ دولة بنى حفص بتونس (وطرابلس والشرق الجزائرى)

٢ ـ ودولة بنى زيان (بالوسط والغرب من أرض الجزائر)

٣ ـ ودولة بنى مرين (بالمغرب الاقصى) ٠

لكن ازدهار هذه الدول قد أخذ يذبل شيئا فشيئا، وسقطت كلها فى وهدة الانقسامات والحروب الداخلية الهوجاء، فحروب داخل كل دولة بين الطامعين فى العرش ، وما يجره ذلك من المحن والبلايا ، وحروب بين الدول الاسلامية تقود الحفصيين تارة الى فاس ، وتقود المرينيين تارة أخرى الى تونس ، ودولة بنى زيان بين شقى الرحى ، تنتمى مرة لهذا وتنتمى مرة أخرى لذلك ، وتلعن وجوب التخلص منهما معا ، وهكذا انقضى القرن الخامس عشر كله فى مد وجزر ٠ واستقلت الجهات العديدة فى أطراف وفى وسط المغرب العربى بنفسها ، مؤلفة امارات اقطاعية أو ملوك طوائف واهين ، يطفون كالفقاقيع فوق سطح الماء ثم يرسبو نبسرعة، فلا تكاد تعرف خلال فترة الانحطاط والتدهور ، حدودا معروفة لدولة، ولاتخوما مرسومة لامارة، وذاق الشعب من جراء هذه الجرائم التى لا يغفرها الله ولا يستسيغها التاريخ ، اهوالا وخطوبا لايستطيع القلم وصفها، مع أن المغرب العربى كان عامرا بالرجال، مزدانا فى كل جهاته بالعلماء والادباء ، لم ينضب فيه الى جانب تلك الحروب معين المعرفة والفن ، وكان جديرا بأن يؤلف وحدة سياسية واقتصادية واجتماعية تجعل منه دولة عزيزة الجانب قوية السلطان ، على غرار دولة الموحدين ٠ ولعل ذلك كان مقصد بنى حفص ــ ورثة الموحدين ــ من جهة، وكان كذلك هدف بنى مرين من وراء هذه الحروب والفتن المتواصلة، لكن لم تكن لاى من الدولتين المقدرة ولا الاستعداد لتحقيق هذا المطمح العظيم ، رغم ان أبا فارس عزوز الحفصى ، كان من تحقيق الوحدة قاب قوسين أو أدنى (١٤٢٥)وهنا يجب علينا ان نبدى ملاحظة ، انصافا

للحقيقة والتاريخ ، وهى ان دولة بنى زيان التلمسانية ، قد ذهبت ضحية محاولات الحفصيين ومحاولات المرينيين معا، فكل من الجانبين كان يرى ــ الا فى فترات قليلة ــ وجوب محقها، والاستيلاء على أرضها تحقيقا للهدف الذى كان يجرى وراءه . فاستنزف ذلك قواها المادية والمعنويــة ، وعجل بها الى مهاوى الانحطاط ثم الاضمحلال .

واعجب العجب، هو أن يد الاستعمار المسيحى الاروبى قد أخذت تطرق أبواب المغرب بشدة منكرة، وتنذره بالويل والثبور منذ بداية القــــرن الخامس عشر، حين تطاولت أيدي الاسبان الى مدينة تيطوان ، (سنة ١٤٠٠) فأخذتها وحطمتها ، وقتلت النصف منسكانها ، وساقــت الباقــين من رجالها ونسائها أسرى وسبايا الى اسبانيا : فى حين كان ملك المــغرب أبو سعيد عثمان يحارب مملكة بنى زيان بتلمسان من أجل ارغامها علــى التبعية لبنى مرين ، فاحتل تلمسان واطرد ملكها أبا زيان ، ونصب مكــانه أبــا محمد عبد اللــه .

وتطاولت بعدها يد البرتغال على مدينة سبتة، سنة ١٤١٥، فاحتلها الملك جوان بنفسه ، بينما كان أبو سعيد ، يحارب أبا حمون ، من أجل تلمسان أيضــا !

اجتمع المسلمون فى المغرب الاقصى على مقاتلــة البرتغــال من أجــل استرجاع سبتة ، وأعانهم على ذلك أهل الاندلس ، لكنهم أخفقوا سنــة ١٤١٩، وقتل السلطان عبد الحق المرينى بيد الشعب الثائر الساخط على تمكين اليهود من زمام السلطة بأمر السلطان

وهكذا انتهت دولة بنى مرين (١١٩٦ ــ ١٤٢٨)وخلفهــا فرع منهــم كان يحكم سلا ، هو فرع بنى وطــاس .

وتستمر الحالة هكذا ، ويا للاسف ، طيلة قرن ونيف، كأنما هي حالــة جنو نجماعي قد أصابت القوم كلهم، من بني حفص وبني مــرين وبني زيان، ولو أردت أن أدمى قلبك كما يقطر قلبي دما وأنا أدرس هـــذه الحقبة من تاريخنا خلال هذا القرن المظلم، لسردت عليك مـآت الوقائع من مثل هذه وأعظم منها، ودماء المسلمين تسيل غزيرة بأيدي المسلمين والاخوان ينتهكون حرمة الاخوان كما قال ابن حمديس الصقلي :

ولم ترحم الارحام منهم أقارب ... تروى سيوفا من دماء الاقارب

ويلخص هذه الحالة المؤلمة المؤرخ العسكري الفرنسي بيشو، فيقـــول في الجزء الثالث من كتابه: تاريخ افريقيا الشمالية، ما تعريبه :

« ان العائلات المالكة الحفصية والزيانية والمرينية، التي كانت تتطلع لطلقنا منيراء قد انغمست في حروب طويلة مزمنة، وروت أرض هذه البلاد (المغرب العربي) بالدماء، ثم سقطت في مهاوى الانحطاط، فطوال قرن كامل لم يبق لامراء هذه العائلات المالكة من السلطــة الا اسمها . وكان الملوك لا يفكرون الا في احباط المؤامرات والفتن التي يثيرها ضدهم أفراد من عائلاتهم من أجل الاستيلاء على العرش، أوفي اخماد الثورات التي تقوم بها قبائل سئمت حكم العجز والطغيان . ولقــد ضربــت الفوضى أطنابها في كل مكان ، فسكان الولايات القسنطينية ، وسكان مدينة الجزائر وأهل الشرق الوهراني، لم يبقوا معترفين بسلطة أحد عليهم. أما بالمغرب الاقصى ، فان أمراء عائلة بني مرين قد اقتطع كل واحد منهم لنفسه امارة صغيرة لم يكن في وسعه الدفاع عنها ضد مطامع جيرانه ، فهذه الفوضى قد سهلت بصفة غريبة مهمة البرتغاليين والاسبانيين ، سواء في احتلال البلاد أو في توسيع منطقة نفوذهم فيها »

صدق اللـــه العظيم : فانها لا تعمى الابصار ، ولـــكن تعمى القلـــوب التى فى الصدور . ويقول المؤرخ ف . ابروديل ، فى بحثه القيم الثـــرى المنشور بالمجلة الافريقية ١٩٢٨ ، عن وصف حالة مغربنا الـــعربى ، فى مفتتح القرن السادس عشر، ماخلاصته :

« لقد كان الشمال الافريقـــى مستودع الرجال الذين كانوا يهبـــون دوما لنجدة مسلمى الاندلس ضد الاسبان . وذلك لغاية سنة ١٤١٥ .

وبعد انهيار مملكة غرناطة، طلب الملك (أبى عبد الله) أن ينسحـــب مع ذويه الى بلاد المغرب ، فتحرج فردنيادو وايزابيلا من ذلـــك حرجـــا كبيرا، خشية أن يطلب عم الملك مددا من الشمال الافريقى يأتى به لنجدة المسلـمين . انما تمكـن الراهب خمنيـس بعـد مـن اقنـاعهما بأن لا خطر البتة من وراء هذ الانسحاب الى المغرب ، لان حالة الخـــلاف والشقـــاق المستحكمة الحلقات بالبلاد الافريقية الشمالية لن تسمح لاهلها البتـــة بالاقدام على مثل هذا العمل »

ويقول فى موضـع آخر: ان جاسوسـا من الجواسيس الذيـــن أرسل بهم فردينياندو الى بلاد المغرب العربى، قد أرسل الى ملكه تقريـــــرا مفصلا جاء فيه : ان كامل بلاد شمال افريقيا يجتازفترة انهيار نفـــسى يظهر معها ان الله قد اراد أن يجعل هذه البلاد ملكـــا لصاحبى الجلالة المـــسيحيـــة . »

ثم يقول : « فى نهاية القرن الخامس عشر ، كانت الفوضى السياسية والاضطرابات ، وتداخل الممالك بعضها ببعض ، قد بلغت فى الشمـــال الافريقى مبلغا لا يمكن ان نلخصه فى صفحات . وان الانسان ليصاب بنوع من الذهول وهو يتلو قائمة الممالك والامارات التى اقتسمت رقعة هذا

الشمال الافريقي، والتي وصفها ليون الافريقي وصفا مدققا، في كتابه (وصف افريقيا) (١)

ويقول : « كانت وهران تبدو أواخر القرن الخامس عشر ، وهي تحت السلطة الاسمية لبني زيان، في صورة جمهورية تجارية حقيقية مستقلة .

أما مدينة بجاية ، فقد كانت في نفس ذلك العصر تكتسب ثروة طائلة وبصفة مستقلة، من التجارة الواسعة التي كانت تتعاطاها مع البلاد الطليانية ، ومن القرصنة »

« ... كانت مملكة تلمسان تشمل بصفة غير محددة الغرب الجزائري الحالي ، وكان رجال الدولة (أواخر القرن الخامس عشر) قد تحرروا من السلطة المركزية ، فكان أدعياء الملك لا يجدون صعوبة في جمع الانصار لمحاربة السلطان القائم . وكان الابناء يثورون ويخلعون آباءهم . كما كان الابناء يحاربون بعضهم بعضا لاقتسام ملك أبيهم .

«ونفس الفوضى كانت موجودة بالبلاد التونسية حيث آل أمر بني حفص الى العجز التام، فكان الملك لايملك حق التصرف ولافي نفس العاصمة تونس، حيث كان يحتمي بحرس من المرتزقة المسيحيين . وكان جبل الرصاص على مقربة من مدينة تونس خارجا عن طاعة السلطة المركزية، بينما كانت أكثر القبائل التونسية مستقلة فعلا . »

أما مؤرخونا الجزائريون ، فيقولون عن هذه الحالة البائسة ، ما يزيد هذه الصورة بشاعة وشناعة :

---

(١) ليون الافريقي : الحسن بن الوزان الفاسي ، وليد غرناطة ، سيأتي ذكره في ما بعد .

يقول الاخ الاستاذ عبدالرحمن الجيلالى ، (تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ١٨١):

« لقد أخذ صرح بني عبد الواد يتساقط ، منذ ان ركن ملوك هذه الدولة منبني زيان الى التواكل والتخاذل ، واخلادهم الى الدعة ، واستمهادهم الراحة وتثاقلهم عن القيام بالمصالح العامة ، وانهماكهم فى التهالك على الرئاسة ، وقصر اشتغالهم على أنفسهم شخصيا ، فأنمحت يومئذ هيبتهم عن نفس الرعية، وانتشرت الفوضى بين الناس فى كل ميادين السياسة والاجتماع ، واستبد الولاة ورؤساء القبائل والشيوخ وعمال الجهات وولاة النواحى وقادة الجيش بما اتصل بأيديهم من اسباب الولاية والحكم ، ٠٠٠٠ وملوك الاسبان يومئذ يترصدون مثل هذه الامور خلسة ويترقبون الظروف المواتية للقضاء على دولة الاسلام بهذا الشمال الافريقى »

ويقول أخى المرحوم مبارك الميلى فى كتابه : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث (ج ٢ ٠ بيروت ص ٣٨٣)

« فانها (الدولة الزيانية) منذ نشأتها لم تزل تصطلى بنار الحروب الداخلية والخارجية ، فمن غارة مرينية ، الى حرب حفصية ، ومن مناهضة مغراوية أو توجينية ، الى منافسة زيانية ، ومن دسيسة سويدية (أى من قبائل سويد) الى مشاقة عامرية (أى من بنى عامر) ٠ » الخ ٠٠

على ان الاسبانيين والبرتغاليين ، قد استهلوا كما رأيت عدوانهم ضد مغربنا العربى ، مبتدئين بالمغرب الاقصى ، وقد كان فى القسمة من حصة البرتغال ٠

فعند بداية القرن السادس عشر ، كانت دولة البرتغال تملك فى المغرب الاقصى مدن : سبتة ــ طانجة ــ اصيلا ــ ازمور ــ الصويرة ــ أسفى

ـ مع كامل مقاطعة دكالة الممتدة بين مصب نهرى ام الربيعة وتنسيفت على المحيط الاطلنتى •فكل الساحل المغربى على البحر المحيط ، كان قد سقط، أيام الفوضى والاختلال المرينى ، تحت سيطرة البرتغال ؛ بعد حروب ومعارك قاسية عنيفة ، أبلى فيها المجاهدون المغاربة البلاء الحسن، بما عرف عنهم من قوة ايمان وشدة مراس • لكن الشعب، مهما كان قوى العزيمة فهو لا يستطيع ان يعمل عملا منظما متواصلا دو نقيادة حكيمة ماهرة • ولم تكن له من سوء الحظ تلك القيـــادة •

أما الاسبان، فقد ملكوا بالبلاد المغربية صخرة باديـــس (فاليس) الحربية • ومدينة مليلة، التى لاتزال بأيديهم ـ مع مدينة سبتـــة وبلدة ايفنى ـ الى يومنا هذا •

وانتقاء لخطر اتحاد اسلامى موسع فى افريقيا ، ضد الصليبية الاسبانية، فقد أرسل الملك فرديناندو عام ١٥٠١ ، بعيد سقوط غرناطة ، وأثنـــاء اشتداد المحنة الدهماء على مسلمى الاندلس ، وفدا الى مدينة القاهـــرة عاصمة دولة المماليك ، يرأسه بطرس مارتير دانتريرا ، فتمكن هنا لك من عقد معاهدة صداقة وحسن تعامل بين الاسبان ودولة المماليك • وكـــان سلطان مصر يومئذ هو قانصوه الغورى آخر سلاطين المماليك بمصر • وقد كان موليا القسم الكبير من عنايته ، لمقاومة الغزو البرتغالى فى المحيط الهندى وما حواليه ـ كما رأينا آنفا ـ وله فى ذلك آثار محمودة •

٨ = القرصنة

هنالك قبل كل شيء ، بون شاسع بين لصوصية البحر ، التى يقوم بها مغامرون من اجل السلب والنهب والسبى ، والتى تدعى بالفرنسية PIRATERIE وبين القرصنة COURSE التى هى نوع من انواع الحروب البحرية التى تقع بين الدول المتعادية ، والتى كانت الغاية منها ضرب اقتصاديات العدو، بالاستيلاء على البضائع الصادرة منه أوالواردة عليه ، واسر من يعمل فوق ظهر تلك السفن المعادية •

فهذه القرصنة ذات نظم ، وقوانين ، ولها تقاليد معروفة لاتحيد الدول ولا يحيد القراصنة عنها •

جاء فى دائرة المعارف الفرنسية الكبرى :

« كانت الحكومات فيما سلف تسلم أوراقا رسمية للقراصنة ، فتكسبهم بذلك صبغة مشروعة ، تميزهم عن لصوص البحر ، وتجعلهم شبه جنود متطوعين أحرارا يعملون فوق البحر

« ومعلوم أن لصوص البحر يباشرون مهنتهم باستمرار، بينما القراصنة لايعملون الامدة الحروب فحسب •

« ولقد انتشرت القرصنة انتشارا هائلا اثر اكتشاف الدنيا الجديدة فقد كانت السفن الاسبانية التى تحمل الذهب الى اسبانيا، فريسة طيبة تستثير الطمع فى النفوس ، فانهال عليها القراصنة المغامرون من الانجليز والهولانديين ، وكان نجاحهم منشطا لغيرهم على الاقتداء بهم •

« وقد سلحت فرنسا نفسها عددا جسيما من سفن القراصنة ، لأن حب المغامرة الذى هو من طباعنا، يتفق كل الاتفاق مع هذه الغزوات الخطرة• وفى هذه المدرسة القاسية العنيفة نشأ القراصنة من أمثال : جون بار ، وسيركوف ، ودوكى تروان• ولقد اشتهرت أعمال سيركوف بصفة أخص فى خليج البنغال ، (ناحية الهند) وفى مدخل مضيق السند ، وذاع صيتها•

« ومن أجل القيام بهذه الاعمال يجب ان يكون الرجال من أصحاب العزيمة والشدة ، ولم نفقد ابدا أمثال هؤلاء الرجال •

« فمن سنة ١٧٩٣ ، الى سنة ١٨١٥ ، ضبط القرصان الفرنسيون ١٠٨٧١ سفينة تجارية انجليزية ، منها ٩٤٩ سفينة فى سنة واحدة ، هى سنة ١٧٩٧ »

ولقد نشطت القرصنة الاسلامية داخل القيود وفى نطاق القرصنة العالمية ، فى ناحيتين :

أولا هما — ناحية الشرق، حيث كانت السلطنة العثمانية، أيام عنفوان قوتها ومنعتها ، تحارب جل الدول الاوروبية الواقعة على ضفاف البحر المتوسط • فالى جانب اسطولها الضخم العتيد الذى كان يدوخ البحر ويحتل الجزر والموانى وينقل الجند والعتاد، أنشأ المجاهدون الاتراك اسطولا للقرصنة النظامية ، يحارب من حارب سلطانهم ، ويسالم من سالمه، وعظم شأن هذه القرصنة فأصابت تجارة وأرزاق الدول المعادية فى الصميم • واشتهر من قراصنتها ابطال عمالقة ، لعبوا فى التاريخ الاسلامى أدوارا سجلت اسماءهم فى سجل الخالدين أمثال عروج وشقيقه خير الدين، وأمثال قالش على، وطور غود، وسنان واضرابهم •

وثانيهما — بلاد المغرب العربى، حيث نشأت القرصنة الاسلامية أول

ما نشأت ببلاد الاندلس ، وكانت مدينة المرية مركزها الاكبر ، فكانــت باعمالها الواسعة فى البحر المتوسط وفى المحيط ، وفى مضيق جبل طــارق تشارك فىذلك الصراع الاسلامى المسيحى الرهيب ، وتتصدى لسفــن الاسبــــان وحلفــائــهـــــم •

ذلك بينما كان للاسبان وللبرتغال قراصنة ، فى ذلك الحين ، من اولى القوة ومن أولى البأس الشديد، يعترضون فى كل البحار سير السفــن الاسلامية ، وخاصة على سواحل المغرب العربى • وازدادات هذهالقرصنة على السواحل المغربية جرأة وعدوانا ، عندما حم القضاء بمسلمى الاندلس واخذت بقاياهم وفلولهم تخترق البحر ، فارة بدينها وشرفها وبقايا متاعها وأموالها الى سواحل الشمال الافريقى ، فكانت سفن القراصنة الاسبانية والبرتغالية تستحوذ على السفن الاسلامية وتسبى منفيهـــا من رجـــال ونساء ، وتأخذها مع ما فيها من متاع •

أنما اشتد عضد المسلمين فى المغرب العربى بمن جاءهم من مهاجرى الاندلس الثغريين، العارفين با لملاحة وفنونها، الماهرين فى صناعة السفن، فأخذت المدن الساحلية المغربية تنشىء سفن القرصنة دفاعا ، وتقابــل العدوان بالمثل ، وصارت سفن المسلمين تخرج منسلا ، ووهران ،وشرشال والجزائر، ودلس، وبجاية، وجيجل، تخرج جريئة الى سواحل أسبانيا تقابل فيها العدوان بمثله، فتخرب معالم العدو، وتأخذ ما استطاعت أخذه من خيراته وأرزاقه، وتسبى مااستطاعت سبيه من رجاله ونسائه، وتمد يد الاعانة والمساندة للمنكوبين البائسين من رجال الاندلس •

ولقد كان لمدينة وهران فى مستهل القرن السادس عشر ١٢ سفينــة قرصان من نوع بركنتى BRIGANTINS ، بلغ من قوتها ومن جرأتها

انها هاجمت سواحل ألشى واليكانتى وأخذت منها الغنائم والاسلاب ، ثم سارت ست منها الى مرسى مدينة مالقة الاسبانية ، فدخلتها واحرقت داخلها كل السفن المعادية التى كانت بها .

يقول الاستاذ ف . ابروديل فى بحثه عن الاسبان والمغرب العربى ، (المجلة الافريقية ١٩٢٨) :

« ان القرصنة لم تكن فى غرب البحر المتوسط بالشىء الجديد، فمنذ قرون عديدة كان المسلمون وكان المسيحيون يقومون بأعمال القرصنة فى البحر . ولايحق لنا أن نغالط التاريخ . فان القراصنة المسيحيين كان عددهم كبيرا جدا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، بهذا البحر المتوسط ، ثم خفت وطأة القرصنة المسيحية بعد ذلك (١) لكن القرصنة الاسلامية ، ازدادت ضراوة فى الشمال الافريقى ، بعد ابعاد مسلمى اسبانيا واضطرارهم الى الالتجاء لهذا الشمال .

(١) لانهـا نقلت ميـدان أعمالها الى المحيط الاطلسى بعد اكتشاف امريكا .

الفصل الاول

صبغة العدوان الاسبانى وأسبابه المباشرة



صبغةالعدوان صليبيـــة

علينا ، قبل ان نلج باب التفاصيل الحربية والسياسية الذى هو الهدف الاساسى من عملنا هذا ، ان ندرس بصفة مجملة صبغة هذا العـــدوان الاسبانى الذى استمر طيلة ثلاثة قرون ، وما هو الشعار التى كانـــت تحمله اسبانيا ، وهى تبعث على سواحلنا الفيالق المؤلفة من أقوى الجنود، والعمارات البحرية التى تشمل أضخم سفن القتال .

لقد كتب الباحثون الاروبيون كثيرا ، حول هذا الموضوع . ولهم فيه دراسات ممتعة . والفكرة الاساسية التى تجلى من خلال هذه الدراسات تؤيد تأييدا تاما ماكنا ولا نزال نؤكد ، من أن هذه الحملات كانت تكتسى صبغة صليبية دينية لاشية فيها . وان التعصب المسيحى الضيق للحوصلة، والذى هو أبعد شيء عن دين المسيح عليه السلام ، كان هو الذى تولى كبرها ، وباشر تنظيمها ، واشرف على معاركها .

ان الدولة الاسبانية التىنشأت وترعرعت أثناء قيام دولة ا لمسلمـــين بالاندلس ، والتى استمرت تقاتل المسلمين طيلة قرون عدة ، قد قامـــت على أسس دينية صرفة، بين جدران الكنائس والمعابة المختلفة ، وقد اشعل رجال الدين من قساوسة ورهبان جذوة الحماس الصليبى فى المجـــموع

رجال الدين من قساوسة ورهبان جذوة الحمـــاس الصليبى فى الجموع

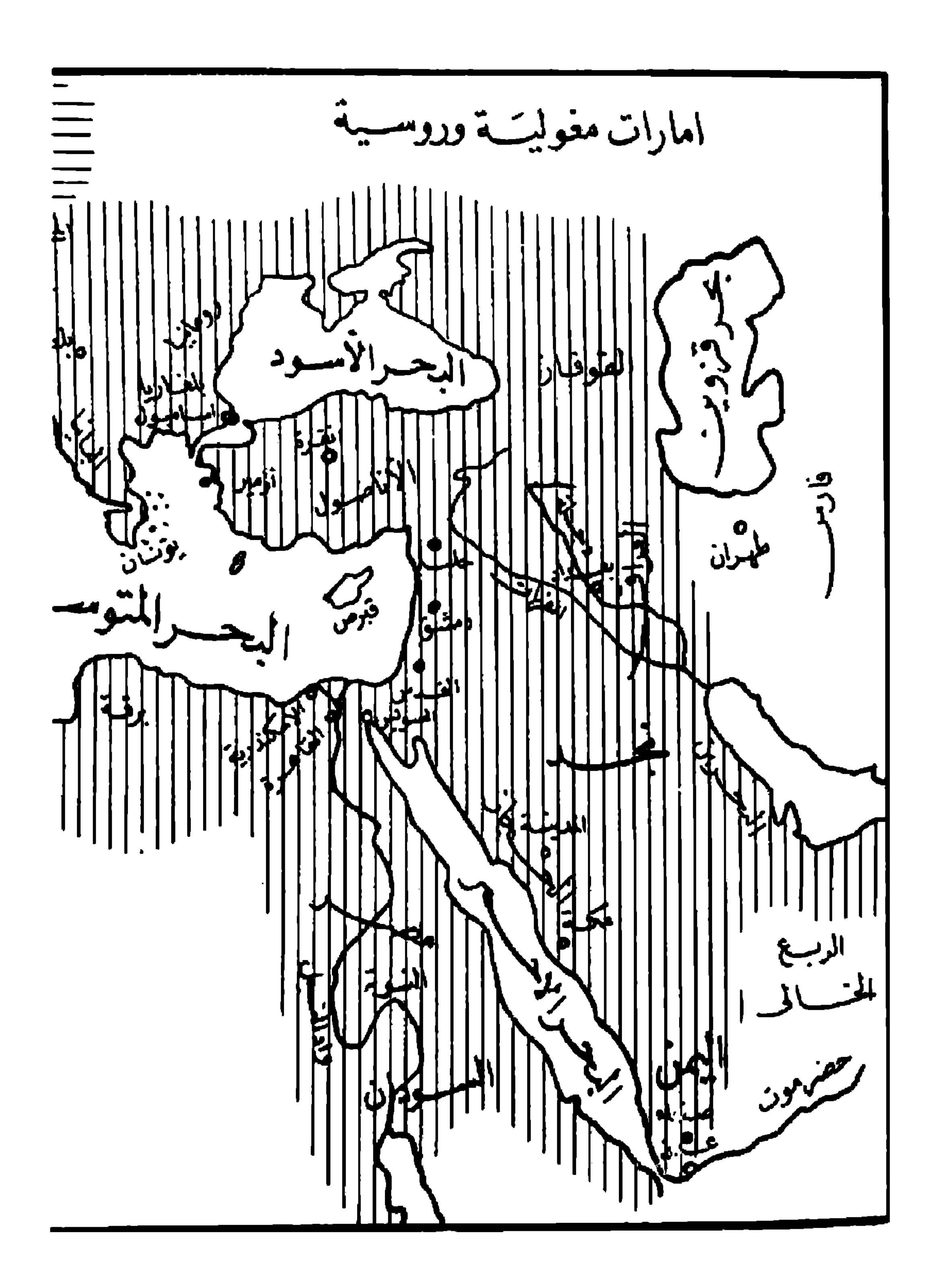
الاسبانية المختلفة ، سواء الخاضع منها لسلطان المسلمين أو المنضـوى منها تحت الدول الناشئة ، وجمعوا الشعب ، مستعملين كـل وسائـل الترغيب والترهيب، حول هذه الدول، مقابل أنهم تسلموا فيها زمـام السلطة، وأشرفوا فيها على سير الامور •

ولا يجب ان ننسى ذلك الدور الاساسى الذى قام به البابا فى مدينة رومة ، من أجل حمل البلاد المسيحية قاطبة ، على وضع كل امكانياتهـا البشرية والمالية ، تحت تصرف ملوك اسبانيا ، من أجل ابعاد المسلمين عن بلاد الاندلس اولا ، ومن أجل اخضاع بلاد الشمال الافريقى للحكم المسيحى وللدين المسيحى أخيرا •

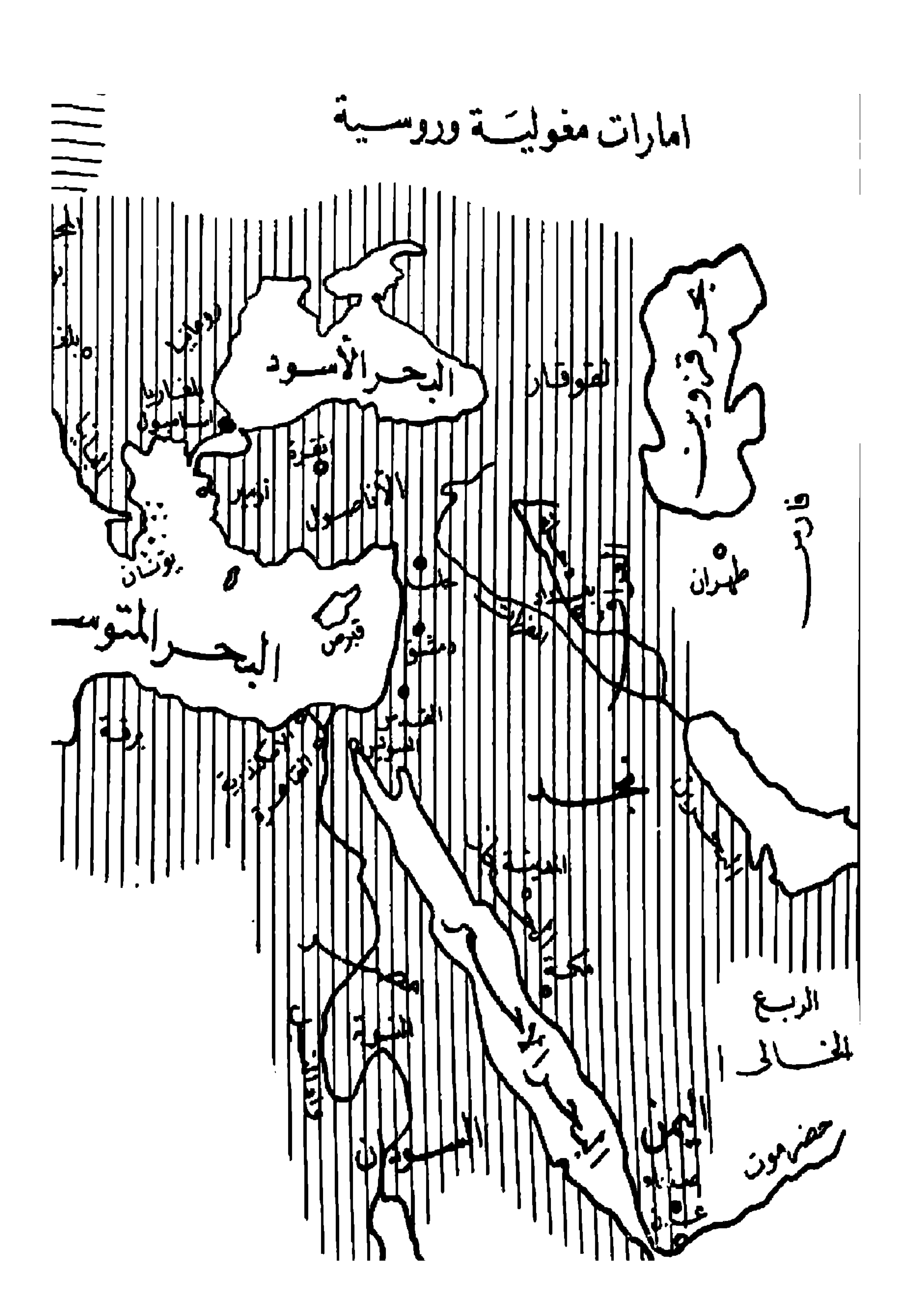
فالبابا رأس المسيحية ، قد أصدر أمره السامى لكل المسيحيين بـأن يستمروا على دفع الضريبة الصليبية CRUSADA لملوك اسبـانيا من أجل الحرب الافريقية ، وجمع القساوسة والرهبان أمـوالا باهضة فى ذلك السبيـل ، بل انهـم باعـوا ذخـائر الكنائس وكنـوزها الثمينة لكى يزودوا الجيوش المسيحية بالمال والعتـاد •

والملكة المناضلة ايزابيلا ، المجاهدة فى سبيل المسيحية جهادا عظيما ، والتى كان لها أكبر الاثر فى تحطيم دولة المسلمين بالاندلس ، واحتـلال غرناطة ، تركت عند موتها وصية لمن يتولون الملك بعدها ، بأن يحققـوا الامنية الغالية على قلبها ، والتى كانت تود لوانها قد حققتها بنفسهـا لو طال بها الاجل ، الا وهى فتح افريقيا ، وعدم الكف عن القتال فى سبيل الدين ضـد الكفـار » اه •

وعندما جهزت اسبانيا ، تحت ضغط الكنيسة واستفزازات الراهـب خيمينس ، اسقف طليطلة ، جيشها واسطولها لغزو المغرب العربى بمبادر


امارات مغولية وروسية
البحر الأسود
البحر المتوسط
القوقاز
الأناضول
قبرص
يونان
دمشق
طهران
قبرص
برقة
الربع
الخالي
اليمن
حضرموت
السودان

امارات مغولية وروسية





امتداد الأمبراطورية العثمانية
والأمبراطورية الاسبانية
أوائل القرن السادس عشر

الأمبراطورية العثمانية

الأمبراطورية الأسبانية



المحيط الأطلسي
انجلترا
هولاندا
برلين
ألمانيا
باريس
فرنسا
البندقية
مرسيليا
طولون
روما
نابولي
صقلية
مالطة
مدريد
البرتغال
البليار
سردينيا
طنجة
فاس
مراكش
تلمسان
وهران
الجزائر
بجاية
تونس
جربة
طرابلس
فزان
امتداد الأمبراطورية العثمانية
والأمبراطورية الاسبانية
أوائل القرن السادس عشر
الأمبراطورية العثمانية
الأمبراطورية الأسبانية

البابا بنشر قرار يعطى به الولاية للكى اسبانيا على كامل الارض التى يفتحانها بهذا المغرب ..

وكان نفس البابا ـ اسكندر الرابع (بورجيا الشهير) قد أصدر سنة ١٤٩٤ : عندما ابتدأ التفكير الجدى فى احتلال المغرب العربى ، عهدا ، يبارك به الصليبية الاسبانية بافريقيا .

يقول المؤرخ الاستاذ ابروديل فى كتابه الآنف الذكر :

« ان التعصب الدينى ، والرغبة الجامحة فى محاولة تنصير المسلمين وارادة ابعاد حدود الاسلام، كل ذلك مجتمعا قد حدا الاسبانيين أواخر القرن الخامس عشر ، وطوال القرن السادس عشر ، الى التدخل بالغزو فى البلاد الاسلامية بالشمال الافريقى . والكلمة التى نجدها معبرة عن هذا المعنى ، والتى لا نجد مندوحة عن استعمالها ، هى كلمة « الصليبية »

ثم يقول : ان الحروب الاسبانية فى افريقيا قد أخذت صبغة الصليبية الحقيقية ، وذلك نظرا للدور الممتاز الذى قام بأدائه رجال الكنيسة والكهنوت من اجلها . فالكنيسة باسبانيا قد اهتمت ، بجميع ما لديها من الحماس ومن الجرأة، بهذه المعركة ضد الافريقيين. بل ان الكنيسة قد أرادت فى الكثير من الاحيان اعتبار هذه المعركة . معركة خاصة بها .

« ان خيمينس ، قد قدم من ماله الخاص ، فى هذه الصليبية التى قام بها فى افريقيا، المقادير التى أمكن بها تجهيز العمارة البحرية . ثم انه من أجل انجاز العملية، قد استنجد كرم الكنائس فى اسبانيا، فبعثت اليه كما يقول مرسولى MARSOLLIER ، بمقادير طائلة من المال ، بل ان كثيرا من القساوسة والرهبان قد باعوا ماعونهم الفضى ، من أجل المساركة فى الحملة ضد السواحل الافريقية .

« لهذا نستطيع أن نقول بأن حملة خيمينس كانت صليبية،وأنه يستحق من أجل ذلك أن يدعى بآخر عظماء الصليبيين » •

ويقول الاستـاذ أ • كات فى كتابـه :

« لم يكن للاسبان من هم الا نقل الحرب الـى افريقيا ، بعد ان كانت نفس البلاد الاسبانية مسرحا لهذه الحر بطيلة قرون ، وارغام العـرب من أهل افريقيا على اعتناق دين المسيح ، بواسطة السلاح »

واصرح من ذلك ما يقوله المؤرخ الشهير ، بربروجر ، فى كتابه عـن صخرة مدينة الجزائر :

« ان الراهب خيمينس ، يستحق كل تقدير،من أجل تفكيره على الاقل فى انقاذ شمال افريقيا من الوحشية الاسلامية ، لكى تنتصر فيها المسيحية والحضارة »

ويكفينا هذا المقدار مما نقلناه لك ، لاستجـلاء الصـورة الصليبيـة الواضحة لهذا العدوان الاسبانى •

ولكى أكون منصفا ، ولكى تكون منصفا معى ، يجب على أن أذكـر بهذه المناسبة ان فتحنا لاسبانيا ، قبل العدوان الاسبانى على بلادنـا بنحو ثمانية قرون ، انما كان جهادا فى سبيل الله ، وكان حملة دينيـة اسلامية لا شك فيها ، وان نتيجتها العملية كانت اقامة حكم الاسـلام فى تلك البلاد ، بواسطة دول اسلامية عديدة ، وان الملايين من المسيحيين الاسبان ، قد دخلوا فى دين الله من جراء ذلك أفواجا•انما الفارق بيننا وبينهم ، فى هذا المد والجزر من الحروب الدينية ، هو ان فتحنا الاسلامى قد كون مدنية وحضارة ، وتفجرت بواسطتهينابيع العلم والمعرفة والفن والادب على ربوع أروبا ، واننا لم نرغم أحدا أى أحد على اعتناق الدين

الاسلامى ، لا بواسطة الضغط ، ولا بواسطة محـــاكم التفتيش ، ولا بواسطة المحارق والعذاب المهين •

اسباب حربيـــة :

الى جانب هذه الصبغة الدينية الحادة ، توجد اسباب أخرى سنذكرها، اهمها الاسباب الحربية •

فالاسبانيون لم يستطيعوا التخلص من احتلال العرب لبلادهم الا بعد كفاح قاس عنيف ، ذاقوا خلاله الامرين ، دام زهاء الثمانية قرون •

ومهما أطنبنا فى ذكر مزايا الفتح الاسلامى ، ومهما قال عنه وعن آثاره العمرانية والعلمية كتاب العالم والمنصفون من مؤرخيه ، على اختـــلاف أزمنتهم وأوطانهم ، فان تلك القرون الوضاءة اللامعة ، ما كانت فى نظر الوطنيين الاسبان ، وخاصة منهم الامراء ورجال الدين ، الاعهد احتلال أجنبى بغيض ، جعل الدخيل حاكما فى الاصيل ، وجعل راية الاسلام مرفوعة وراية المسيحية منكسة ، ولا توجد نفس بشرية فى مشـــــارق الارض ولا فى مغاربها ، تستسيغ حكما أجنبيا ، يخالفها جنسا ولغة ودينا وعادات وأخلاقا ، مهما كانت مزايا هذا الحكم ، ومهما كانت آثـــاره ، ومهما طالت مدته •

ألم نتحمل نحن هاهنا فى الشمال الافريقى، وقبل انبلاج النور المحمدى الهادى ، أعباء الاحتلال الرومانى طيلة قرون سبعة ، فناصبناه طيلة تلك المدة ، العداء ، وأرهقناه بثوراتنا المتوالية ، وما زلنا نتربص به الدوائر ، حتى قضينا عليه القضاء المبرم باعانة قوم الونـــدال ؟

كذلك كانت أعمال الوطنيين الاسبان مستمرة طيلة القرون الثمانية ، تشتد ساعة ضعف المسلمين ، وتضعف ساعة قوتهم ، الى ان ابتلانا اللـــه

بداء الشقاق الاكبر، كما رأينا فى فصول التمهيد لكتابنا هذا • فيومئذ اشتد ساعد الاسبانية المسيحية ، وانتظم شملها ، وتوحدت قيادتها ، واستلمت مقاليد أمورها الايدى القوية والعزائم الشديدة ، فقادتها من نصر الى نصر الى أن وقعت الكارثة ، وانهارت آخر دولة من دول الاسلام بهاتيك الديار •

فالاسبانيون يومئذ ، وقد ثملوا بخمرة النصر ، كانوا يخشون قبل كل شيء رد الفعل الافريقى • كانوا يعلمون من أمرنا أكثر مما نعلم • وكانوا يعرفون أننا — ذلك الحين — كنا نجتاز فترة انهيار ، وكنا نموج بين أحضان الفتن والشقاق والحروب الداخلية • لكنهم كانوا يعلمون أيضا ان المغربى هو المغربى ، فى ايمانه ، وفى شدة شكيمته ، وصلابته بـله وبطولته فى الحرب ، وفى تضحياته التى لا تقف عند حد ، ويعلمون ان ما أصابنا يومئذ لم يكن الا نتيجة اختلاف الملوك والقادة والزعماء • وان هذا الشمال الافريقى سوف يتغلب على هذه المآسى ، فتجتمع كلمته مرة أخرى ، وذلك أخشى ما كانوا يخشونه ، تحت زعامة دولة قوية ، أو تحت قيادة عصامى مغامر • وعندئذ يتغير وجه التاريخ من جديد •

كانوا يعلمون أن الامة التى أخرجت من أحشائها أمثال طارق بن زياد، ويوسف بن تاشفين ، وعبد المؤمن بن على ، ستنجب لامحالة امثالهم ، اذا ما هى بقيت حرة مستقلة ، متمتعة بسلطانها القومى ، ليس لها فرق اديم أرضها من محتل غاصب يكبح جماحها •

كان الاسبان يخافون أن يعيد عليهم المسلمون الكرة من جديد • وعلى الاخص كانوا يخافون أن تمتد الايدى المساعدة الاسلامية من هذا الشمال الافريقى ، لاولائك الابطال المقاومين الذين قوض الاسبان سلطانهم ،

فالتجأوا الى جبال « البشرات » بدينه مهوايمانهم وعزائمهم ، يذودون عن بقايا حياتهم بسلاحهم ، حتى الموت ·

فالقاعدة الحربية التى تتبع باستمرار فى مثل هذه الحالة ، هى حمل الحرب الى أرض العدو ، ووضعه فى وضع المدافع عن عقر داره ، حتى لا يفكر فى مداهمة دار جاره ·

وليس نزول الاسبانيين هو الاول من نوعه فى مغربنا العربى هذا · بل لقد كان ــ لنفس الاسباب التى ذكرنا ــ هو الثالث من نوعه ·

فالرومانيون عندما ضيق عليهم بطل الدنيا فى عالم الحروب ، حنبعل القرطجنى الخناق ، ووطىء فى القطر الطليانى أكنافهم ، رأوا ، وحقا ما رأوا ، ان خلاصهم من ذلك الخطر الداهم ، لا يكون الا بنقل الحرب الى نفس البلاد الافريقية التى جاء حنبعل يفتح ايطاليا لحسابها · وتم لهم الامر ، فاضطر حنبعل وجنده الافريقى الكنعانى الى الانسحاب من ايطاليا ، ثم لحقت به الهزيمة فوق أرض وطنه ، يوم وقعة زاما · فكانت هذه العملية هى السبب المباشر فى تقويض أركان الدولة القرطاجنية ·

أما فى عهدنا الاسلامى ، فنذكر اعتداء ملوك النرمان ، بعد ان حطموا ملك المسلمين بجزيرة صقلية ، على سواحلنا وعلى مدائننا المغربية ، بنفس طريقة الاعتداء الاسبانى ، ولنفس الاسباب الحربية ·

فملوك النرمان ، كانوا يخافون ، كما خاف الاسبان من بعدهم ، ان يعيد المسلمون الافارقة عليهم الكرة ، وان يحاولوا من جديد استرجاع الجزيرة التى فتحها أبطال بنى الاغلب على يد الفقيه القاضى أسد بنى الفرات ، وكانت ــ كما كانت بلاد الاندلس ــ درة لامعة فى تاج المدنية الاسلامية ، وكان لها أعظم الاثر فى بث انوار العلم والفن والمعرفة ببلاد

ايطاليا وأروبا الوسطى ، فجاء ملوك النرمان يشقون عباب البحر بخيلهم ورجلهم ، واحتلوا اهم المدن الساحلية بمغربنا العربى على ضفاف البحـــر المتوسط الغربى ، وخربوها تخريبا ، وحطموا اماراتها الواهية .

ثم كان أخيرا ، العدوان الاسبانى على بلادنا .

اسباب ســياسيــة :

ان ملوك اسبانيا الذين تمكنوا من توحيد الدولة فى البلاد الاسبانية قد استولوا على زمام الامور بيد من حديد ، تحمل السيف والانجيل فى آن واحد ، وأصبحوا يطمعون — وادء الغرور قاتل فتاك — فى سيادة الدنيا ، ويلقون بأنظار الجشع والطمع على القارة الاروبية والقارة الافريقية ، كما ألقوها من قبل على القارة الاميركية التى قاست من جراء ذلك أقسى المحن وشر أنواع البلايا .

لقد اصبح ملوك اسبانيا يضربون شمالا وجنوبا وغربا ، الضربات القاسية المتاكة، فذاقت منهم أروبا الامرين، وكانوا يحاولون اعادة أمجاد وممتلكات الامبراطورية القديمة ، وصاروا لا يتحملون رؤية دولة أخرى تنازعهم السيادة والسلطان شرقا أو غربا ، وتقتسم واياهم خيرات البر وتجارة البحر . فهذا المد الاستعمارى الجشع ، كان من جملة الاسباب التى القت بهم على سواحلنا .

أعانهم على ذلك ما كانوا يعلمونه من حالة التفكك والانحــلال التى أصبحت عليها بلادنا . وذلك الفراغ العظيم الذى حل بساحـــة الحكـــم فيها . فظنوا انهم ، مع تحقيق الاهداف السالفة ، وتحت شعار المسيحية المنتصرة ، يستطيعون بكل سهولة تعمير هذا الفراغ .

على انهم كانوا يعلمون ان سماء الشرق الاسلامى قد اطلعت هـــلالا

جديدا منيرا ، هو الهلال العثمانى ، وان هذا الهلال قد أخذ ينمو ويزدهر وينتشر بصفة لا نظير لها • وانه سيلقى بأنظاره ، ولو بعد حين ، الى هذه الاصقاع الاسلامية المغربية التى اختل نظامها ، وتشتت شملها • فلا ريب أن الاسبان كانوا يعتقدون أنهم ان لم يسبقوا الاتراك العثمانيين الى هذه الربوع ، فان الاتراك العثمانيين الذين اصبح خطرهم فى البحر عظيما ، سيسبقونهم اليها ، وسيكون لهم يومئذ مع الاسبان شأن عظيم ، لا فى بلاد المغرب فحسب ، بل فى نفس اسبانيا أيضا •

اسباب اقتصادية :

وتوجد الى جانب كل ذلك اسباب اقتصادية لا يستهان بها :

أن تقويض دولة الاندلس الاسلامية ، وانهيار النظامين الاجتماعى والاقتصادى الاسلامين فى بلاد اسبانيا ، ثم تشتيت شمل المسلمين وابعادهم عن البلاد ، وقد كانوا دعامة الاقتصاد وخلايا العمل ، كل ذلك قد وضع اسبانيا أمام مشكل اقتصادى رهيب ، فالانتاج قد تعطل بصفة تامة ، وانعدمت وسائل التصنيع ، وأصبحت التجارة الخارجية بين تصدير واستيراد كلمة لا مدلول لها • أما المعاملات المالية والقروض وما اليها ، فقد أصبحت أثرا بعد عين ، منذ ابعاد اليهود واحراق من بقى منهم على قيد الحياة •

أمام هذه الحالة، لم يبق للاسبان من سبيل لكسب المعيشة الا ذلك النوع من اللصوصية المسلحة العدوانية التى تدعى الاستعمار • فاندفعوا فى غزوات ومغامرات لا نهاية لها ، خلال اروبا وخلال اميركا ، يستحوذون فيها على كل شىء ظلما وعدوانا ، بواسطة بذر الموت والخراب ، ثم يأتون بذلك الى اسبانيا غنيمة سخنة •

أما الرجال الاشداء ، فقد أخذوا يهاجرون افواجا الى بلاد العالم الجديد ، يستعمرونه ويستقرون به ، دون أمل فى الرجوع .

فكيف يعيش الاسبانيون اذن ؟ ومن اين يأتون بقوتهم اليومى ، اذا علمنا أن الغنائم والاسلاب التى يؤتى بها من أميركا ومن غيرها انما هى للاغنياء والنبلاء وللمغامرين دون سواهم ؟

ان اكتساح المغرب العربى واخضاعه للحكم الاسبانى ، يضع حلا لهذه الأزمة الخانقة . فالمغرب العربى قد اشتهر يومئذ ، ومن ازمان طويلة ، بأنه مهد الخيرات ، ومنبع الثروات : مزارع غنية ، وغابات كثيفة ، ومروج خضراء لا يدرك البصر نهايتها ، وثروة حيوانية تكاد تكون خيالية ، وسواحل غنية بالمرجان ، وصناعة جلود وصوف وحرير تمتعت بسمعة عالمية . كل هذا ، مع ما كان ينتاب هذا المغرب من حروب وفتن وقلاقل وعدم استقرار الحكم فى اى مكان .

فالمغرب العربى مستعمر يمكن أن يزود اسبانيا بما هى فى مسيس الحاجة اليه .

ومن أجل احتلاله وارغام اهله على قبول التبعية الاسبانية والدخول ضمن دائرة الدين المسيحى ، يجب استعمال جند كثيف ، يعيش على البلاد المحتلة ، فيخفف عن أسبانيا بذلك غائلة الخصاصة .

ومن المغرب العربى يقع الاتصال برا بأفريقيا الوسطى ، وقد شاع يومئذ وذاع عنها انها بلاد التبر ، وان خيراتها لا ينضب لها معين .

زد على كل ذلك ، ان الاستيلاء على سواحل المغرب العربى ، يقضى القضاء المبرم على القرصنة الاسلامية التى نشأت على ضفافه ، والتى

كانت تقابل العدوان بالعدوان ، وتستعيد لهؤلاء المنكوبين من مسلمي الاندلس ، نزرا مما أخذ منهم ظلما وعدوانا •

ثم ان التمكن من احتلال المغرب العربي،يجعل الحوض الغربي من البحر المتوسط بحرا اسبانيا بحتا ، اذا علمت ان اسبانيا كانت تملك الساحل الجنوبي الغربي من ايطاليا ، وتملك كل الجزر التي به : صقلية ، سردينيا ، كورسيكا ، الباليار • فهي بذلك تستطيع تشكيل وحدة اقتصادية قوامها الاتصال المباشر بين شمال البحر المتوسط وجنوبه،في الحوض الغربي منه، وتحيي بذلك سياسة « بحرنا » الرومانية •

فاذا كانت اسبانيا لم تستطع تحقيق أي شيء من هذه الغايات ، ولم تتمكن من احتلال المغرب العربي ولا من ارضاخه ، فما كان ذلك من أجل انهماكها في الحروب الاروبية ، كما يقول بعض الذين يريدون الدفاع عاطفيا عن القضايا الخاسرة ، وما كان ذلك أيضا من أجل انها قررت من عند نفسها الاكتفاء باحتلال المدن الساحلية ، وعدم التوغل في داخل البلاد • كلا • انما كان ذلك نتيجة لهذه المقاومة الصلبة العنيفة التي قابل بها شعبنا المجاهد الابي هذه الغزوة الصليبية الاستعمارية ، سواء قبل ان يأتيه المدد العثماني ، أو بعد ماجاءه هذا المدد ، وذلك رغما عن خيانة الخائنين ، واعمال المتعاونين ، فالشعب هو الذي قاوم • والشعب هو الذي ضحى ، والشعب هو الذي انتصر • والشعب هو الذي حطم آمال واعمال الاستعمار الاسباني ، كما حطم من قبلها وكما حطم بعدها ، آمال وأعمال كل المستعمرين •

فالمجد والفوز والخلود ، للشعب المجاهد البطل !

الفصل الثاني

العدوان الاسباني قبل النجدة التركية

١٥٠٥ - ١٥٢١

الـفصـل الثـانى

العدوان الاسبانى قبل النجدة التركيـة

١٥٠٥ ــ ١٥١٢

الحكومات ومواطن القبائل يوم الغزو الاسبانى .

كان المغرب العربى يشمل كما رأينا ، منطقتين متباينتين :

منطقة تخضع للحكومات الواهية التى كانت تكاد تلفظ انفاسها الاخيرة:

بنو حفص بتونس ، يحكمون ــ نظريا ــ البلاد التونسية وطرابلس ، ومنهم فرع يحكم شرق البلاد الجزائرية : بجاية وقسنطينـة والزاب .

وبنو مرين الوطسيون يحكمون المغرب الاقصى الى مدينة وجدة . وبنو زيان التلمسانيون ، يحكمون (نظريا) مابين ذلك . انما لا يحكمون عمليا الا تلمسان وضواحيها وساحل البحر الى مقربة من مدينة الجزائر .

أما بقية البلاد الوسطى والجنوبية ، فكانت مقرامارات قبلية عديدة . تشمل مشيخة مدينة الجزائر . و (سلطنة) كوكو التى يحكما ابن القاضى، وهى القسم الغربى من جبال القبائل الكبرى .

أما القسم الشرقى من تلك الجبال ، فتحت امرة الامير عبد العزيز الحفصى ، يحكمها من عاصمته : قلعة بنى عباس . وكانت المزاحمة عـلى أشدها بين كوكو وقلعة بنى عباس . وامارات أخرى واهية تقتسم الرقعة الوسطى ، لا تدين فى الغالب بالولاء لأحد . ومنهـا :

امارة بنى المهلهل التى استبدت بأمور القيروان وما اليها ، وفصلتها عن الدولة الحفصية بتونس .

وامارة عائلة بوعكاز المعتمدة على عصبية العرب الذواودة ، وقد واتخذتها منذ ما يزيد عن القرن عاصمة لها .

وامارة عائلة بوعكاز المعتمدة على عصبية العرب الذواوة ، وقد نصبت سلطانها على الزاب والحضنة وبعض جهات الصحراء.

أما القبائل الكبرى العربية والامازيغية (البربرية) التى كانت تقتسم رقعة المغرب الاوسط (البلاد الجزائرية فيما بعد) فأهمها : (١)

« القبائل العربية »

١ — الثعالبة ، فرع من المعاقيل ، يستوطنون متيجة ، وضواحى مدينة الجزائر .

٢ — الضحاك وعياد — يستوطنون جهة حمزة . ويتصلون شرقا بالذواودة .

٣ — يزيد = يكتنفون قبائل صنهاجة البربرية فى السهول والوهاد الشرقية ويحيطون بها فى الجبال .

٤ — حسين — من مضارب وبقا عيزيد ، فى الشرق ، الى هضاب تيطرى .

٥ — عطاف = فى الوهاد والسهول الواقعة غربى مدينة مليانة .

٦ — سويد = هضاب وسهول السرسو الى وادى مينا .

---

(١) انظر التفاصيل والاصول والفروع فى « كتاب الجزائر » للمؤلف ط . القاهرة .

٧ ــ مالك يستوطنون البقاع التى حوالى مدينة وهران ومرساها الكبير •

٨ ــ ديالــم = يسكنــون اواسط جبال الونشريــس ، شرقى وادى الشــلــف •

٩ ــ = عروة يسكنون شرق وجنوب جبال عمور •

١٠ ــ عــمور = قسم منهم يسكن جنوب وهران ، وقسم آخر جنوب تــلمســان •

١١ ــ بنو عبيد الله من المعاقيل : يسكنون السهول ووهاد غربى تلمسان•

١٢ ــ زغبة ــ تسكن أشهر بطونها : الاثبج ، ومحايا ، وحميان ، جنــوب مدينة تــلمســان •

القبــائل البربريــة :

١ ــ زواوة = تسكــن بكاملها جبــال جرجرة •

٢ ــ صنهاجة = الجبال التى تقع جنوب جرجرة ، وتمتد الى متيجة •

٣ ــ مغراوة = جبال مليانة وتنس ، الى مصب نهــر الشلف •

٤ ــ توجــين = جبال الونشريس ، ويجتمعون هنا لك مع بقايا لواته وهوارة •

٥ ــ فطــين = شــمــال تــلمســان •

٦ ــ بنو عبــد الواد = تلمســان وسوادها •

٧ ــ بنو ميزاب ــ ببلاد الشبكة (وهم من بقايا بنى واسين)

٨ ــ راشــد ــ جنوب جبال عمــور (وهم من بقايا بنى واسيــن

٩ــ مغراوة = الواحــات الجنــوبيــة •

احتلال المرسى الكبـــــرى

عند ما صح العزم من الملك فرديناندو الكاتوليكي، جلاد مسلمي الاندلس، على الشروع فى فتح سواحل المغرب الاوسط (بلاد الجزائر فيما بعـد) لم تكن الخزينة الاسبانية تسمح بتجهيز الجيش ولا جمع وتزويد الاسطول. فالكنيسة وحدها هى التى مكنت الدولة الاسبانية من الاقدام على هـذا العمل ، وفتح أول ثغرة فى جدار المغرب الاوسط الساحلى (١)

فالكاردينال الوزير خيمينيس ، تطوع يومئذ من ماله الخاص بما جهز الاسطول ، واعانته الكنيسة بأموالها ، فامكن جمع الحملة والاقدام عـلى الغزو الذى استمر بعد ذلك نحوا من ثلاثمائة سنة .

واليك الوقائع ، كما أثبتتها تقرير اسبانى ، نقله الى الفرنسية المؤرخ بيليسى :

غادر الاسطول الاسبانى مدينة مالقة يوم ٢٩ أوت ١٥٠٥ ، وكان يقوده دون رايموند دى قرطبة . ويمتطى صهوة الاسطول جيش قوامه خمسة الاف رجل تحت امرة القائد دون ديقوفرنانديزدى قرطبة .

وصل الاسطول ، بعد ان اعترضته رياح معاكسة . امـام « المـرسى الكبـير » يوم ١١سبتامبر . وكان هذا التأخر مفيدا للاسبانيين ، لان جماعة المسلمين الذين جاءوا من كل حدب تلبية لداعى الجهاد ، عنـدمـا

---

(١) وان كـان الاسبـان قد احتـلـوا مرفا عناية منذ سـنة ١٤٦٣ م (٨٦٧ هـ).

بلغهم نبأ اقلاع الاسطول الاسبانى ، قد ملوا الانتظار ، وقلت لديهم المؤن ،فرجع اكثرهم الى دياره ، تاركين فى المرسى الكبير عددا قليلا منهم من أجل المراقبة والاستطلاع ، حتى اذا ما تبين أمر العدو ، استصرخوا قومهم فرجعوا الى الميدان • أما حامية المرسى الكبير المرابطة من أجل الدفاع عن الموقع الحربى البحرى العظيم ، فلم يكن عددها يتجاوز الخمسمأية من المجاهدين •

وصل الاسطول ، فلم تكن الحامية الصغيرة تستطيع صد الجند عن النزول الى البر ، رغم المقاومة العنيفة القاسية التى قام بها رجال تلك الحامية • واستمرت هذه المعركة الغير المتكافئة ثلاثة أيام متواصلة : خمسمئة مجاهد يقفون فى وجه خمسة آلاف قرم اسبانى ، مجهز احسن تجهيز • واستشهد خلال المعركة قائد الحامية الباسل ، فاحتل الاسبان القلعة وتحصنوا فيها •

عندئذ اجتمع أهل المدينة واصحاب الرأى فيها فى دار المزوار،وتشاوروا فى الامر • فمنهم من رأى وجوب تنظيم المقاومة الشعبية ، والدفاع عن المدينة شبرا شبرا • ومنهم — وهم الكثرة — كما يقول صاحب التقرير ، رأوا ان هذه المقاومة لن تغنى عنهم فى واقع الامر شيئا ، نظرا لكثرة عدد الاسبان ، وقوة سلاحهم ، وانهم قد احتلوا قلعة الساحل • فالمقاومة التى يتلوها الانهيار ، سيكون مآلها ان يأتى السيف عليهم جميعا ، علاوة على فضيحة النساء وانتهاك الحرمات •

وقف الشاب المجاهد موسى بن على ، يلهب حماس الناس ، ويستفز الشعور من أجل المقاومة اليائسة ، لكن أغلبية القوم لم تكن معه ، فقرروا

عقد اتفاقية مع الاسبان تضمن لهم الحياة وحرية الانسحاب من المدينة •
وهكذا تم الامر ، وهم تحت طائلة الحصار الضيق •

وقد اعطى القائد العام الاسباني ، أجل ثلاث ساعات للمسلمين نكـي يخلوا المدينة وبقية الحصون ، وينسحبوا عن آخرهم : من التاسعة صباحا الى الظهر • على شرط ان لا يأخذوا معهم اى شيء من الزاد والمؤن ، ولا من حيوانات الجر ، ولا من الاسلحة • اي انهم لم يأخذوا معهم الا ثيابهم وما خف من أموالهم •

وقد اخلى المسلمون المدينة اول الامر من النساء ، ثم تبعهم الرجال • وعندما تم انسحاب المسلمين ، دخل الاسبان المدينة ورفعوا فوقها اعلامهم، وأقاموا صلاة الشكر لله •

وقد ذهب المركيز القائد الاعلى توا الى مسجد المدينة الاعظم ، فأمـر حالا بتحويله كنيسة للنصارى ، وكرسه وباركه ، واطلق عليه اسم « كنيسة القديس ميكائيل » واقيم به القداس صبيحة الاربعاء ١٥ جويلية •

وقد وجد الاسبانيون بالمدينة (تنفيذا لشروط الاستسلام) ٣٥ أسيرا مسيحيا ، من بينهم سبعة نساء • أكثرهم من بقايا الحملة الخائبة الـتى قام بها البرتغاليون ضد المدينة سنة ١٥٠١

وبلغ رجال الشعب فى الداخل امر الاسبان ، فجاءوا راكضين نحـــو المدينة للمشاركة فى الدفاع ، لكنهم وجدوا الامر قد انقضى ، فاكتفـوا بتبادل بعض الطلقات مع المحتلين •

ورغم الامر الصارم الذى اصدره القائد العام ، بعدم تحطيم شـىء فى المدينة ، او القيام بأعمال حفر فيها ، وقد كانت اسبانيا تريد الاحتفاظ بها كمركز لعملياتها المقبلة ، فان الجيش الاسبانى قد اندفع محطما ومنقبا

من أجل التفتيش عن الاموال والذخائر التى يكون المسلمون قد تركوها ورائهم)

هذا تفصيل الوقائع كما يرويها التقرير الاسبانى

ويؤكد المؤرخون ان حصار الاسبان للمرسى الكبير قد استمر ٥٠ يوما وان المدينة لم تستسلم ، الا بعد ان لم يبق من سبيل للمقاومة .

ويطنب مؤرخو الافرنج فى ذكر معركة المرسى الكبير ، ويشيدون بالدفاع المجيد الذى قام به المجاهدون ضد تلك الحملة القوية . وقد لخص كل ذلك المؤرخ الفرنسى قرامون (١) فيقول ما خلاصته :

« أن السفن الاسبانية كانت تضع على مقدماتها أكياس الصوف ، حتى لا تصيبها قذائف المسلمين ، وانها منذ اقترابها من الساحل ؛ تبادلت طلقات المدفعية النارية ، لكن كان لتلك الطلقات من الدوى أكثر مما كان لها من المفعول .

« ولقد قاوم المسلمون عملية النزول مقاومة يائسة عنيفة ، ورغما عما أبدوه من شجاعة وحمية ؛ فان المدفعية الاسبانيسة قد اضطرتهم لترك مراكز الدفاع ، والانسحاب الى الداخل .

« رغما عن زوبعة شديدة وأمطار غزيرة ، فان المعركة استمرت بعنف غريب الى منتصف الليل .

« ثم استؤنفت المعركة من الغد ، وكان يوم جمعة ؛ واستمرت عنيفة قاسية كامل النهار . ثم ازدادت شدة وعنفا عندما جاء المجاهدون من الداخل بعد ما بلغهم نبأ نزول الاسبان فى حمية جنونية ، بينما كانت

De grammont: HISTOIRE d'ALGER SOUS LES TURCS (1)

مدفعية الحصون الاسلامية ترمي الاسطول الاسباني بقذائف من الحجارة تزن ٤٠ رطلا ٠

« واستمرت المعركة الى الليل ، رغم استشهاد قائد الموقع الذى أصابته تذيفة مدفع اسباني ٠

« أثناء الليل ، تشاور المسلمون فيما بينهم (أنظر التقرير الاسباني السالف الذكر) وكانت خسائرهم عظيمة جدا ، ولم يبق منهم الا أربعمائة رجل ٠ وعندئذ قرروا الاستسلام ٠ وتم الامر ٠

وفى الغد (يوم السبت) وصل المجاهدون وجيش ملك تلمسان ، وكان عددهم ٢٢الفا من الرجال،والفين من الفرسان ، وكان الاسبان قد تحصنوا بالمدينة ونصبوا عليها مدافعهم فور تسلمهم لها ، وبادر المسلمون بمهاجمة المدينة بواسطة الفرسان ٠

« يقول قونز الزدى اخورGONZALEZ DE AIORAوكان حاضر المعركة :

« لم أر فى حياتى اطلاقا أبدع من هذه الفرقة المؤلفة من ثلاثمائة من الفرسان العرب التى كان يقودها القائد ابن دالى ، ولا أرهف سلاحا سواء من حيث خيولها المطهمة البالغة منتهى الجمال ، أو من حيث ذلك الجهاز الفاخر المطرز الذى كان يكسوها »

لكن هذا الهجوم الصادق العنيف لم يستطع ان يزحزح الاسبان عن المدينة ٠

وقد أرانا التاريخ هذه المعركة الاولى سنة ١٥٠٥ كما أرانا تاريخ المعركة الاخيرة، سنة ١٧٩٢ ، وما بينهما من معارك حادة عنيفة ، ان الجندى الاسبانى اذا ما هو تحصن واتخذ مراكزه للقتال وراء الجدران ،

أصبح كأنه قطعة من جلمود ، أو قطعة من حديد ، يموت ولا يستسلم ، الا نادرا •

فهذه المعركة الاولى كانت اشبه شيء بمعركة استطلاع عرف فيها كل من الاسبان ومن العرب ، مدى قوة الخصم ، ومدى استعداده ، وطريقته فى القتال ، واستماتته فى الدفاع •

والحقيقة ان خيبتنا فى هذه المعركة الاولى ، كانت قبل كلشىء نتيجة الاستهانة بشأن المخابرات وتنظيم الاتصال بين مختلف فرق الجهاد •

فلقد كانت المعركة تنقلب الى انتصار اسلامى حاسم اكيد : لو ان الجيش الاسلامى الكبير الذى وصل مدد اللمدينة يوم السبت ، أخبر المدافعين بواسطة رجال الاتصال : عن قرب وصوله ، اذن لتابعوا كفاحهم المضنى يوما آخر — يوما واحدا فقط — الى حين وصول النجدة • وما كانوا يسلمون المدينة يوم الجمعة ، لو أنهم علموا أن جيش النجدة يصل يوم السبت •

وما كاد خبر الاستيلاء على المرسى الكبير يصل مسامع اسبانيا ، حتى غمرتها موجة من الفرح والابتهاج ، واعلن فيها العيد لمدة اسبوع • لانها رأت فى هذا الفوز بشائر النصر المقبل ، وتحقيق آمالها التى شرحناها فيما سلف •

وبمجرد تمركز الاسبان بالمرسى الكبير، وخيبة حماة الانقاذ الاسلامية ، فتح الاسبان سوقا تجارية الى جانب المدينة : من أجلتزويد حاميتها بما يلزمها من المواد الغذائية الوافرة ، مقابل ماعند الاسبان من ذهب وفضة وهكذا • نشأ منذ الوهلة الاولى ، أول تعاون مع العدو • لكن جماعة المسلمين — كما يؤكد فرامون — قد اعتبرت اولئك المتعاونين

خونة مارقين ، وعاملتهم معاملة الاعداء ،واخذت توالى غاراتها عليهــم . وعلى سوق التعاون دون انقطاع ، الى ان احتل الاسبان مدينة وهران . كما سيأتيك تفصيله ، فاتسعت دائرة الاحتلال الاسباني ، واتسعت دائرة الجهاد الاسلامي ، واتسعت ايضا دائرة التعاون الاجرامي مع العدو .

جاء الامر من قبل ملك اسبانيا ، بتعيين القائد فرديناندر حاكما على المدينة . ومدينة المرسى الكبير هذه ، كانت خلال القرن الثـانى عشر الميلادى مركزا للعمارة البحرية الضخمة ، التى انشأها بطل المغرب والاسلام ، عبد المؤمن بن على رأس الدولة الموحدية .

وفى القرن الخامس عشر الميلادى ، عندما تدفق سيل المهاجريــن الاندلسيين على سواحلنا ، اعان ملوك بنى زيان على بناء بلدة بالمرســى الكبير ، سكنها المهاجرون الاندلسيون الى جانب العرب من اهل تلك الناحية

واصبحت البلدة ومرساها مركزا من أهم مراكز القرصنة الاسلامية ضد السفن المسيحية التابعة للاعداء .

وخلال حرب القرصنة البحرية الطويلة المدى ، احتــل البرتغاليــون مدينة المرسى الكبير من سنة ١٤١٥ الى سنة١٤٣٧ثم أبعدوا عنها .

وعادوا اليها مرة اخرى ، وتمكنوا من احتلالها . ولبثوا فيهاهذه المرة ستة أعوام ، من سنة ١٤٧١ ، الى سنة ١٤٧٧ ، حيث أبعدوا عنها نهائيا . الى ان احتلها الاسبان كما رأينا ، ونصبوا فوقها راياتهم يوم ٢٣ اكتوبر سنة ١٥٠٥ .

والمدينة لا تبعد عن وهران الا مسافة ٨ كيلومترات فقط ، وهى واقعة على نفس الخليج التى تجثم فيه مدينة وهران .

انتصار الاسلامي العظيم في مسرغين

في السهل الممتد شمالي بحيرة وهران الكبرى ، والـذي تفصله عـن الساحل جبال وعرة وان كانت قليلة الارتفاع، توجد قرية مسرغين ، والتي لم تكن ايام وقائعنا هذه الا مضارب قبائل عربية ، ذات حول وطول ، وذات ثروة وغنى تدعى « دوار الغـرابـة »

ولقد مل القائد الاسباني دون دياقو المقام محصورا بين جدران المرسى الكبير التي اصبحت عبارة عن معقل عسكري ضخم ، فأراد أن يجرب حظه في معركة سافرة مع المسلمين ، لا يحول بينهما جدار ، ولا يختفي أحدهما وراء معقل ، وكان موقنا من النصر ، مؤمنا بأنه سيرجع الى المرسى الكبير جائز واسلاب واسرى من الرجال والنساء، يباعون الرجال منهم ثماق الاعمال، وتستعمل النسوة الحرائر لمآرب أخرى ، على ان الغاية لم تكن فحسب لولدة الغزو والرجوع بالاسلاب ، بل كانت استطلاعا لمدى قوة المسلمين ومدى استعدادهم ، فيما يلي المرسى الكبير ، ووهران ، وكانت أيضا من اجل معرفة المسالك التي تؤدي الى مدينة تلمسان.

هذا هو اصل غزوة مسرغين ، التي تبعد ثلاث مراحل عن المرسى الكبير.

وكان القائد الاسباني وهو يستعد لهذه الحملة المفاجئة ، قد اصطنـع — ويا للعار — رجالا من قبيلة جيزة المرابطة حول المرسى الكبير ووهران، — فاتخذ من بينهم أدلة وحرسا مرتزقا

ولم يكن يصل المرسى الكبير بمسرغين الا الطريق السهل الذي يمـر

تحت حصون وجدران مدينة وهران الاسلامية ، فهذا طريق لا يمكن سلوكه من أجل غزوة مفاجئة ، لا نحامية وهران ستترده لا محالة على أعقابه ، وهكذا عزم على مهاجمة مسرغين بسلوك شعاب الجبال واوديتها نفيضمن للجيش السلامة فى ذهابه وفى أيابه ، يقوده مرتزقة جيزة •

ففى يوم ٦ جوان ١٥٠٧ ، غادر دون دياقو المرسى الكبير على الساعة التاسعة ليلا • يجر وراءه كامل الحامية الاسبانية ، حيث لم يترك لحراسة المدينة الا جمعا قليل العدد فوق الاسوار • ودخلوا وراء الادلة ، فى شعاب الجبال يسيرون سيرا مضنيا شاقا ، يقتفى الواحد منهم اثر الاخر على الطريقة المعروفة بالسلك الهندى • ولم يحدثوا اى ضوضاء أثناء تسربهم هذا ، فما كاد يطلع الفجر حتى كانوا قد اتموا قطع المسافة ، واحاطوا بالدوار العربى من كل جهة ، وبادروه بالهجوم •

ذهل العرب اولا من هذا الهجوم القوى المفاجىء ، لكنهم — كمايقول المؤرخون الافرنج أنفسهم — قد استرجعوا حالا ثباتهم ، وقابلوا الهجوم بمقاومة عنيفة صارمة ، لكن الاسبان كانوا مستفيدين من المباداة ،وكانوا مستفيدين أكثر من ذلك من وفرة عددهم ، فاستشهد كل المسلمين الذين كانوا يستطيعون حمل السلاح ، وسيق الاحياء من رجال ونساء واطفال فى طريق الاستعباد ، وقد جمع الاسبان بين كل اثنين منهم فى قيد واحد ،وعبأ الاسبان غنائمهم من السائمة وحيوان الجر ، ونظموا سيرهم واخذوا يعبرون المسالك الجبلية من أجل الرجوع •

هكذا انتهت المرحلة الاولى من هذه المعركة التاريخية الكبرى •

لكن المرحلة الثانية قد ابتدأت حالا • اذ ان رجال الشعب من أهل الدواوير القريبة من المكان ، والذين بلغتهم أنباء النكبة التى حلت باخوانهم

« الغرابة » وذلك بواسطة الذين تمكنوا من مغادرة ارض المعركة . من اجل طلب النجدة . قد هبت فيهم روح الحمية فامتشقوا الحسام ولبوا داعي الجهاد، واندفعوا لا يلوون على شيء لينقذوا اخوانهم من الاسر والهوان. وليصونوا شرف نساء وبنات العرب . من ان يلحقه على يد الاسبان . العار والشنار .

وما هي الا ساعة من نهار ؛ حتى احدق المجاهدون بالقافلة الاسبانية التي تسوق امامها غنائمها واسلابها واسراها . والتحمت بين الجانبين معركة قاسية عنيفة . ويقول مؤرخو الافرنج . ان الضباب كان سائدا على ارض المعركة ؛ فلم يستطع الاسبان استعمال اسلحتهم ؛ ولم يتمكنوا من رؤية اعدائهم . وقد ادخلت صيحات العرب الوحشية (؟) الفزع والهلع الى قلوبهم ؛ فاختل نظامهم ؛ وفقدوا الامل في النجاة .

هنا مبدأ الدور الثالث من المعركة . فان النذير قد وصل الى مدينة وهران ؛ وبلغت أنباء المعركة وتطوراتها قيادة الجيش الاسلامي . فبادر باخراج الحامية نجدة للمجاهدين ؛ ووصل الجيش الى ميدان المعركة المتسع خلال الفجاج العميقة وشعاب الجبال . فتعالت اصوات التهليل والتكبير من كل جانب ؛ واستبشر المؤمنون بهذه النجدة القوية فتزايدت حميتهم؛ وانهالوا في هجوم مركز على الكتيبة التي فيها الغنائم والاسرى، والتي يقودها خونة جيرة ؛ فقضت عليها قضاء مبرما ؛ وفكت قيود الاسرى من رجال ونساء ؛ واسترجعت كل الغنائم والاسلاب ؛ فازداد بذلك رعب الاسبان وتقهقرهم ؛ وانهال عليهم العرب من كل جانب يعملون في رقابهم السيف ؛ فكادوا يقتلون عن آخرهم ؛ لولا ان مناديا من اهل الاندلس المتجنين الذين خضعوا لاسبانيا وتنصروا ؛ نادى المسلمين بلسان

العربى : ان اسروهم ولا تقتلوهم ، فانكم ستكسبون مالا كثيرا عندما يبعث لكم اهلهم بفديتهم ، وهكذا مال بعض المسلمين عن قتل الاسبان الى أسرهم، فأسروا بعض المئات، وجندلوا من الاسبان ثلاثة آلاف قتيل، وانهزم أحد ضباط الاسبان الى المؤخرة ، يعلم القائد بالكارثة السوداء التى اصابت جنوده فلم يعد يفكر الا فى فتح طريق الرجوع الى المرسى الكبير، على رأس قلة من فلول جيشه بقيت الى جانبه . وتقدم ؛ وقاوم رغم شيخوخته ببسالة تدعو الى الاعجاب ، الى أن قتل تحته فرسه ، وكاد يفقد روحه فى المعركة ، لولا ان بعض الفرسان الذين بقوا حوله قد أثروا حياته على حياتهم، ورضوا لانفسهم الموت مقابل نجاة قائدهم ، فسلمه أحدهم جواده ، وتمكن من مغادرة ارض المعركة بهذه التضحية ؛ صحبة خمسة من رجاله ، واختبأوا فى شعاب الجبال بقية اليوم ، والعرب يلحون فى طلبهم ، الى أن جن الليل ، فشقوا طريقهم حتى وصلوا اسوار المرسى الكبير .

لكن مصيبتهم لم تنته عند هذا الحد . فالاوامر الصارمة التى تركها القائد للحامية الحارسة على الاسوار ، كانت تقتضى ان لاتفتح الابواب مطلقا ، وبأى حال من الاحوال ، لاى احد كائنا من كان ، قبل مطلع الشمس .

فتنفيذا لهذه التعليمات التى اعطاها القائد والتى كان هو بنفسه ضحيتها، امتنع الحرس عن فتح الابواب ، وبقى القائد منبوذا بالعراء مع البقية الباقية من رجاله ، حتى مطلع الشمس ، فدخل المدينة مقهورا مندحرا ، وهو الى الموت اقرب منه الى الحياة ، وما كادت تزول عنه آثار المحنة ، حتى ذهب الى اسبانيا يقص على رجالها ماراى وما سمع ، ويطلب منها

المبادرة بالنجدة ، والقيام بالاعمال الحاسمة قبل فوات الاوان .

وبعد الهزيمة بأيام قليلة ، حلت بساحة المرسى الكبير نجدة اسبانية مؤلفة من خمسمائة رجل من المقاتلين المدربين .

ولقد حاولت حامية وهران استثمار هذا النصر ، واسترجاع المرسى الكبير ، الا ان مدافع الحصون الاسبانية المسددة الطلقات قد صدتهم عن ذلك ، فرجعوا الى وهران ، واعتصموا بها . منتظرين الحملة الاسبانية التي كان الكردينال خيمنيس يبذل النفس والنفيس في سبيل جمعها والارسال بها ، لتحقيق النصر في هذه الحملة الصليبية التي تولى كبرها .

ماســاة تنـس

بعد الانتصار الاسباني بالمرسى الكبير ، وتحصنهم به تحصنا يتحدى القوى العربية حواليه ، وبعد انتصار المسلمين انتصارا باهرا بمسرغين ، انتصارا كاد يقطع على الاسبانيين أمل التوغل في البلاد ، لم يبق من شك يخامر أي نفس في هذا المغرب العربي ، في ان الاسبان يستعدون لامر جلل ، ويتحفزون لاستعباد ولاذلال هذا الجزء الغربي الذي يليهم من العالم الاسلامي .

ولقد طارت أنباء هزيمة المرسى الكبير ، كما طارت أنباء انتصــــار مسرغين الى مختلف الجهات المغربية ، وفهم الناس مغزاها ، وأخــذوا يستعدون للجهاد الاكبر ، حماية لاوطانهم ، وفداء لدينهم .

لكن ـــ ويا للفضيحة ـــ وجدت هنا لك، أثناء هذه الفترة المظلمة القاتمة، أنفس مسلمة رأت الافادة من هذا الوضع الجديد ، والاستعــانة بهــذه القوة الدخيلة المسيحية ، شفاء لما في صدورها من أحن ضد اخوتها وبني

عمومتها ، وارضاء لمطامح ومطامع فى تنبوئى عرش بتلمسان قـد تداعى بنيانه وانهارت أركانه ، فلم تبق منه الا صورة مشوهة ، تدعو الى البعد عنه ولا تدعو الى الاقتراب منه ، لو تغلب العقل على الهوى .

لم يضع الحاكم الاسبانى للمرسى الكبير وقته سدى ، بل كان اثنـاء المدة القصيرة التى كان يمثل فيها وحده ، فى مكان ضيق ، كل آمال اسبانيا وكل مطامعها ، يوالى جهوده بواسطة جماعة اصطفاهم من انذال الخونة المارقين ، من الاعراب المحيطين بالمرسى الكبير ، وهم الذين أطلقت عليهم جماعة من المسلمين فى ذلك العصر لقب المغطسين (١) كما أطلقت جماعة المسلمين على أمثالهم من أشباه الرجال ، أثناء حكم الاستعمار الفرنسى ببلادنا ، لقب (البياعين) لعنهم الله اجمعين ، فى الاولين وفى الاخرين .

وكانت تلك الجهود التى يوالى الحاكم الاسبانى بذلها ، ترمى الى بث بذور الفتنة والشقاق بين المسلمين ، والوعد ببذل الاعانات والمساعدات ، مادية وأدبية ، لمن يشاق الله ورسوله منهم ، كما كانت من جهة أخـرى تهىء لاحتلال مدينة وهران . وقد نجحت مساعيه فى الحالتين كما سترى .

فى سنة ٩٠٩ هجرية (١٥٠٣ م) تولى عرش بنى زيان فى تلمسان السلطان ابو زيان الثالث ، الملقب بالمسعود . لكن عمه ابا حمو ، المعروف بـ (بوكلمون) ثار عليه ، وأخذ منه العرش وسجنه ، واحتل فى التاريخ الجزائرى حقبة مضطربة ، تحت اسم (أبى حمو الثالث) وسيأتيـك من أبنائه ما يثير الشجون . فبعد عامين من ولايته ، وقعت نكبة المرسى الكبير .

---

(١) الكلمة الاسبانية : MOGATEZES

وبعد عامين من هذه النكبة ، وحين كانت اسبانيا تستعد للضربة الحاسمة فى وهران ، والمسلمون من رجال الشعب يستعدون للجهاد ، تنجح مساعى الحاكم الاسبانى ، فيعلن يحيى الثابتى ، شقيق الملك المخلوع السجين أبى زيان السعيد ، الثورة على عمه ، ويتغلب على مدينة تنس باعانة وتأييد من أسبان المرسى الكبير ، وتحت حمايتهم ، وهكذا أخذت قطرة الزيت الاسبانية تنتشر شيئا فشيئا ، بواسطة السيف والنار تارة ، وبواسطة الدسائس والفتن تارة أخرى، فوق أديم هذه الرقعة الجزائرية.

فالمسلمون الذين كانوا يستعدون لخوض غمرات الجهاد ، والذين كانوا يحاولون جمع صفوفهم لتلقى صدمة الاسبان بوهران ، قد انغمسوا بعد ذلك فى مستنقع فتنة داخلية مشوهة ، وجهز ابو حمو الثالث جيشه لقتال ابن اخيه بتنس ، كما جهز يحيى جيشه لقتال عمه ، واستعرت بينهما نار المعارك تترى ، كانت فيها هامات المسلمين تتساقط تحت ضربات سيوف المسلمين . وكانت المعارك الاولى نصرا للسلطان على ابن أخيه ، لكن جيش تلمسان رفض بعد ذلك الاستمرار على القتال ، فثبت ابن العم الثائر فى تنس . ورجعت جموع أبى حمو الى تلمسان .

لم يقل التاريخ لماذا رفض جنود تلمسان استمرار القتال ضد الثائر فى تنس . اتراهم أرادوا حقن دمائهم فى فتنة داخلية ، استعدادا لما سيأتى من القتال مع الاسبان ؟

نكـــبـة وهـــران

اتم الكاردينال الاسبانى الجسور ، خيمينيس ، تجهيز حملته الكبرى ضد مدينة وهران ، وكانت هى الهدف الاول من جهاده المرير فى سبيـــل القضاء على الاسلام فى المغرب العربى ..

ابحرت الحملة من مرسى قرطاجنة الاسبانية ، يوم ١٦ ماى ١٥٠٩ ، وكانت تشمل خمسة عشر الفا من اشداء المقاتلين ، يتولى قيادتهم بطرس النفارى PEDRO NAVARRO وقد اسعفتها ريح طيبة ، فكانت امـــام المرسى الكبير يوم ١٧ ماى . ونزلت بكل سرعة الى البر دون ادنى عائق ، ضرورة أن اسبانيا كانت تملك المرسى الكبير ، وقد هيأ حاكم المرسى كل الوسائل والاسباب من أجل نصر سريع . وانضم رجال الاسطول البحارة الى الجيش وبادروا وهران بالقتال .

لم يكن المسلمون المجاهدون فى وهران ، أقل حمية ولا أقل عزيمة من الاسبان ، فخرجوا للقاء العدو مستبسلين ، خارج أسوار المدينة ، انما كانوا أقل منه عددا وأقل منه وعدة، فاضطروا تحت ضغط الاسبان وكثافة عددهم الى الرجوع حالا الى وهران ، والاحتماء بحصونها واسوارهـــا المنيعة . فوقفت كل فرقة على السور الموضوع تحت حمايتهـــا ، أو وراء ابواب المدينة المكلفة بالدفاع عنها . واستعدوا لخوض المعركة .

انما حاكم المرسى الكبير كان قد هيأ المعركة على طريقة اخرى ..

كان قد اشترى بذهب وفير ، وبوعود جمة لا حد لها ، ذمة اليهودى

اشطورا ، من مهاجرى الاندلس ، من الذين انقذتهم نفس مدينة وهران وأهلها من المحارق الاسبانية ، وقد كان اشطورا هذا قابض المكوس العام لمدينة وهران ، واشترى هو — بنفس الوسيلة وبنفس الطريقة — ذمة اثنين من قابضى المكوس الذين يعملون تحت ادارته ، وهما القائد الخائن عيسى العريبى ، والقائد الخائن ابن قانص .

فبينما كان المسلمون على الاسوار ووراء الابواب ، يستعدون للحملة الكبرى ، تجمعت الجموع الاسبانية حوالى باب من ابواب المدينة وقع الاتفاق من قبل عليه ، وفى الساعة المعينة ، فتح اشطورا والخونة الذين معه ذلك الباب (١) فتدفق الاسبان الى داخل المدينة وكأنهم السيل الجارف يصرخون ، ويقتلون كل من وجدوه أمامهم ، دون اعتبار لجنس أو لسن . نذهل المسلمون من هول المفاجأة الفاجعة . وافلت زمام الموقف من بين أيديهم . ثم ان المدافعين عن الاسوار والحصون ، ارتدوا الى داخل المدينة ، عندما رأوا تدفق سيل الاسبان ، وذلك من أجل الدفاع عن ديارهم وعن حريمهم ، فاقتحم الاسبان بقية الابواب ، وولجوا المدينة من كل جهة ، يذبحون ويقتلون . ويدمرون . فامتلأت الطرقات بجثث القتلى ، وكان عددهم يزيد عن الاربعة آلاف مسلم ومسلمة ، حتى ليقال ان الكاردينال خمينيس نفسه ، وكان يراقب المعركة عن كثب ، لم يستطع ضبط دموعه وهو يشاهد بشاعة ذلك المنظر وشناعته .

ولم يترك المسلمون رغم هول الفاجعة دفاعهم عن حماهم وعن شرفهم ، فالتجأت فلولهم الى « حى الفقيه » حول المسجد الاعظم ، وتحصنوا فى

(١) وهو الذى اقيم فى مكانه اسم « لامورنا » .

الدور واستمروا يقاومون مقاومة يائسة ، خمسة أيام بلياليها ، الى أن قتلوا او أخذوا اسرى • ونهبت المدينة نهبا فاحشا ، وانتهكت كل الحرمات •

فكان عدد القتلى من المسلمين يزيد عن الاربعة آلاف •

وكان عدد الاسرى الذين استعبدهم الاسبان يزيد عن الثمانية آلاف ، سير بهم فى طريق الذل والعبودية الى اسبانيا •

وأحصى الاسبان غنائمهم بوهران ، وكان كل ما فى وهران غنيمة لهم ، فكانت تقدر بـ ٤٨ مليون دينار جزائرى اقتسمها الجند فيما بينهم •

بادر الكاردينال المنتصر ، بتحويل مساجد وهران الى كنائس ،فأصبح المسجد الاعظم كاتدرائية ، وقد احتفظ الكاردينال لنفسه بأعلام المسلمين والاسلحة الثمينة التى كانوا يحملونها ، والكتب الفنية النفيسة ، ومصباح المسجد الاعظم • وهى كلها محفوظة الان فى مكتبه جامعة مدريد • يقول الاسبان ان قتلاهم فى ذلك اليوم لم يكونوا الا ثلاثين رجلا • وهذه ولا ريب مبالغة من الاسبان ، ومن تبعهم من مؤرخى الافرنج ، يقصد منها اضفاء صبغة من القداسة على ذلك النصر العظيم • ومهما كانت المبالغة ظاهرة ، فالامر المحقق هو ان قتلى الاسبان كانوا قليلين جدا ، لان احتلال وهران لم يكن — نظرا لعنصر المفاجأة الذى عقب الخيانة وفتح الباب غدرا — معركة بالمعنى الصحيح ، انما كان مذبحة عامة فظيعة •

وربما نقول نحن ، من باب تخفيف اللوعة ، انه كان يوما بيوم والحرب سجال ، يوم لك ويوم عليك •

كان من نتائج هذا اليوم الاسود المكفهر ، الا الاسبان تمكنوا من احتلال النقطة الاساسية فى بلاد المغرب الاوسط ، ووسعوها ، وحصونها،

وثبتوا فيها رغم كل المحاولات الاسلامية مدى قرنين ، الى سنة ١٧٩٢ ، حيث استرجعتها ارادة الشعب الجزائرى فى معمعة رهيبة ستأتيك أخبارها مفصلة تفصيلا •

كان من نتائج هذا اليوم ، والرعب الذى أدخله فى النفوس ، ان ذلت دولة بنى زيان ، ونكست راسها ، فاعترف ابو حمو الثالث بنوع من التبعية لاسبانيا، وتعهد بأن يدفع لها سنويا ، جزية مقدارها اثنا عشر الف دوقة (١) واثنا عشر فرسا من جياد الخيل ، وستة من طيور البـاز الجـارحـة •

ولقد فك الاسبان فى ذلك اليوم من ربقة الاسر ثلاثمائة من الاسـرى المسيحيين كانوا بمدينة وهـران •

كما كان من نتيجة ذلك اليوم النحس ، ان معظم رجال قبائل بنى عامر، وغيرهم من الاعراب الواقعين ضمن دائرة وهران الاسبانية ، قد خضعوا وخنعوا واسلموا قيادهم للاسبان،واصبحوا لهم اعوانا، وجنودا ،وعيونا•

لم يحاول الاسبان يومئذ التوغل المسلح فىداخل البلاد• واكتفوا بذلك النصر المزدوج ، السياسى والحربى ، لانهم كانوا يرون وجوب اخضاع المغرب العربى الاوسط على مرحلتين :

المرحلة الاولى ، هى احتلال المدن الساحلية ، وحصر المسلمين داخـل البـلاد •

---

(١) الدوقـة نقد ذهبى اسبانى يساوى نحو ٢٤ دينار جزائرى ، فتكون الجزية السنوية نحو ٢٨٨ الف دينار جزائرى •

والمرحلة الثانية تأتي بعد ذلك ، وهي الزحف من المراكــز الساحليــة المحصنة على البلاد الداخلية واخضاعها •

وقد نجحوا في تنفيذ مرحلتهم الاولى ، كما رأيت وكما سترى ، أمـــا مرحلتهم الثانية ، فقد حال المسلمون بينهم وبين تنفيذها كما كانوا يريدون، وذلـك بعــد قــدوم النجــدة التــركيــة ، وبتــأسيــس الــدولة الجزائرية العثمانية، التي طهرت بواسطة كفاح الشعب أرض الجزائر من السرطان•

شيء من وهران = تقع مدينة وهران داخل الخليج الذى يحمـــل اسمها ، على خط العرض الشمـــالي ٤٣ ، ٣٠ وعـــلى خط الزوال ٥٩ ، ٢ (قرينتش) ويبلغ عرض خليجها ٢١ كيلو مترا •

وتحيط بالمدينة جبال لا يتجاوز ارتفاعها ٥٨٩ مترا •

والمدينة العربيــة التي احتلهــا الاسبان ، مبنية على جانبي فــج الــرحي (وهو يسيل الآن تحت نفق في الارض ، ويتصاعــد البناءفوق التـــلال المحيطة بالفج ، وتشغل مساحة ٧٢ هكتارا •

ولقد احصيت الديار عند الاحتلال الاسباني فكانت ستـــة آلاف دار (أي نحو ثلاثين ألفا من السكان، باعتبار معدل خمسة أنفار لكل مسكن• أما عدد الحوانيت التجارية فكانت ١٥٠٠ دكـــــان •

ولا يثبت التاريخ القديــم شيئا كبــيرا عن مدينة وهــران ذاتها ، وربما كانت مستعمرة رومانية تدعى كيزة • QUIZA انمـــا المحقق هـــو ان مرساها الكبير كان في التاريخ القديم يتمتع بشهرة واسعة ، وكان يدعى المرسى الالهي • PORTUS DIVINUS

لكن الثابت هو ان مسلمى بلاد الاندلس ، أيام عنفوان دولتهم ، كانوا مؤسسى مدينة وهران . وذلك سنة ٢٩٠هـ (٩٠٢ ميلادى) على يد القائد خضر، أيام الامير عبد الله الاموى، والدالخليفة عبد الرحمن الثالث. فوق أرض كانت من ممتلكات قبيلتى مغراوة ونغزاوة. وكان خضر – كما يقول الشيخ أبوراس المعسكري – عاملا بالمغرب الاوسط لبنى أمية الاندلسيين . وتبحرت – كما يقول – فى العمران وعدت من أمصار المغرب التى لاتدافع، ومن أحسن معاقله التى لاتنازع، وقصدها العلماء والتجار وأرباب الصنائع. الى أن يقول: (دخلها ابن خميس أحد العلماء الكبار فى أواخر القرن الرابع، فوقعت منه كل موقع بعد مادخل مدينة الجزائر، وكانت الجزائر اذاك قريبة عهد البناء، فقال: أعجبنى بالمغرب مدينتان بثغرين : وهران خذر . وجزائر بلكين).

يقول: ابوراس ومن علمائها ومحدثيها: أبو القاسم الوهرانى، أحد شيوخ أبى عمران بن عبد البر النمرى القرطبى ، وأبو عبد الله محمد الوهرانى، الملقب بركن الدين، كان دخل مصر فى حدود السبعين والخمسمائة، واشتهر فيها بالعلم والادب وحسن الفهم .

يقول : الى ان استولى أبو عبد الله الشيعى على افريقيا سنة ٢٩٦ ، فجهز عروبة بن يوسف الكتامى لحرب اهل المغرب (دولة بنى رستم)فأناخ على تاهرت، وملوكها يومئذ بنو عبد الرحمن بن رستم من الخوارج الأباضية فدارت بينهم حروب طوال ، غلبهم فى آخرها ، وانقرض أمرهم بها . ولما أراد الرحيل عنها عقد عليها لابى حميد بن داوس ، بن صولات الكتامى، سنة ٢٩٨، فاتصلت حروبه مع لماية، شيعة بنى رستم،

وكان هذا الحى من لماية متوطنين السرسو، تبلغ خيلهم ثلاثين ألفا أو تزيد فاثخن فيهم داوس وفرقهم ، فبعضهم انتقل الى جبل مصاب (ميـــزاب) وبعضهم لجبل راشد ••••• وأخذ وهران من الخير بن محمد بن خذر ، وولى عليها محمد بن عون نعمت الرافضة (الشيعة)المغرب الاوسط •

« ثم ان الناصر الاموى اولى : يعلى الافرينى المغرب الاوسط ، وعقد له على حرب الارفاض ، فزحف الى وهران ، وحاصر بها محمد بن عون، و (قبائل) أزديجة ، لانهم صاروا مع محمد يدا واحدة • وطالت الحروب حتى تغلب عليهم وفرق جماعتهم سنة ٣٤٣، وافتتـــح وهـــران عنوة ، واضرمها نارا ••••• وبقيت خرابا الى أن بناها يعلى الافرينى السابق الذكر) وانتقل اليها من أفكان بأهله وولده •

اليهودى الخائن يحكم المسلمين •

يقول ابو راس (ولما ملكوا المدينة ، أنزلوا اليهودى بهذا البرج (برج المرسى) وفوضوا له التصرف فى الخراجات البرية والبحرية ، وتوارثها عنه بنوه من سنة ٩١٥ الى سنة ٩٨٠ ثم جرت بينـــه وبـــين نصارى وهران منافسة، فبعثوا الى طاغيتهم ان اليهودى يريد تمليك البـــلاد للمسلمين، فجاء المكتوب بنفيه واخراجه الى عدوتهـــم •

وكان العامل من يهود هذا المرسى ، يخرج الى مطالب بنـــى عامـــر وخراجاتهم فى زى الملوك ، يخدم من اسرى المسلمين ، فينزل بفسطاطه، ويحكم بين أهل الاسلام فى شكاياتهم ويأمر وينهى • ويصفد ويقتـــل ويضرب • وهذا أكبر المصائب وأفظع المعائب • وكانت لهذا اليهـــودى جوارى من احســـن بنـــات الاســـلام • »

الادب يستفز الشعب

لم يتحمل المسلمون هذه السلسلة من المذلات: ذل الانكسار ، وذل حكم اليهودي الخائن ، وذل تمكينه من بنات المسلمين سبايا يفعل بهن الافاعيل ، وذل استكانة بنى عامر للاسبان الى ان اصبحوا اعوانهم وسندهم. فتنادوا بالصيحات، ورفعوا العقيرة باستفزاز كوامن الشعور. وقد حفظ لنا التاريخ قصيدا يعتبر نموذجا من هذا الادب الذى يعبر أصدق تعبير عن عاطفة الشعب المتأججة ، هو من نظم العالم الاديب الشيخ أحمد بن القاضى الشيخ عبد الله ابى على المساورى، شيخ العلامة سيدى سعيد قدورة الجزائرى . وفى القصيد بعض الخلل ، ناشىء عن جهل الناسخين :

فمن مبلغ عنى قبائل عامر ولا سيما ممن ثوى تحت كافر
وكل كمى من صناديد راشد بتيجانهم ، مع رأسها عبد قادر
وجيرانهم فى الغرب من كل ماجد طويل القنا أهل الوفا والمغافر
وطلحة والاحلاف فى غرب هبرة وشيخ سويد بل وكل مفاخر
وشيخ بنى يعقوب الحامى الحمى بكل قبيل مولع بالعساكر
ويا معشر الاسلام فى كل موطن وفى كل ناد سالف ومعاصر
ويا معشر الاتراك ، يا كل عالم وكل ولى حافظ للأوامر
ويا سادة العربان من آل هاشم وغيرهم بالله ما صبر صابر؟

أناشدكم بالله ما عـذر جمعكم   لدى الله فى وهران ذات الخنازر
أذلكم الجبار ! كيف رضيتمـو   بسبى العذارى من بنات الاكابر
نصرتم من جور البغات كأنكم   يهود الجزا ، تعطونها بالاصاغر
فلا همـة تعلـو بكم عن دنيـة   ولا غيـرة تـدعوكمو للمـآثـر
ولا ذمـة ترعـونها فى نبيكـم   ولا حـرمة تحمونهـا بالبـواتر
عليكم لحاف الذل! أين فحولكم   أماأبصروا فى السبى خيرالحرائر؟
وتحت اليهـودى غادة عـربيـة   يعاليها الخنـزير فوق الهـزابـر
ومـا منكم الا خصـى ، أذلـة   بميمـه النصـرانى يا آل عامـر
اضيم ملـوك ، أم تغلب ظالـم   عليكم رماكم فىجوار الكوافر؟

نكبة اسلامية عا مة

احتلال بجاية

كانت اسبانيا تسير فى معركتها الافريقية حسب خطة مرسومة مدتقة وبرنامج محكم •

فما كادت تثبت أتدامها بالناحية الغربية ، حتى وجهت انظارها الى الناحية الشرقية ، وأخذت تستعد بحرارة وبايمان ، لانزال الضربة القاصمة بمدينة بجاية . فتحطم تلك المدينة التى كانت ولم تزل الى ذلك اليوم مركز اشعاع حضارى وعلمى لم تستطع الفتن ولاالدسائس حول العرش اخماده ، وتعدم بذلك جرثومة الحياة فى هذه الدولة التى كانت تلفظ كدولة بنى زيان أنفاسها الاخيرة، أعنى بها دولة الحفصيين البجائيين • وتأخذ بعد ذلك فى اكتساح الساحل من طرفين، بعد أن تأمن على مؤخرتها من الناحيتين •

وانه لمن العجب ان تكون بجاية ذلك الحين ، مصابة بنفس المرض الذى كان ملما بدولة بنى زيان بتلمسان عندما فاجأها الغزو الاسبانى، ونكبها ماديا وأدبيا فى وهران نكبة لم تتم لها من بعدها قائمة: كانت مصابة بداء «العرشية»! فكان عبد الرحمن الحفصى قد ثار على ابن أخيه عبدالله وتولى « العرش ••• » مكانه وزج به فى السجن ، بعد ان اعتقد أنه قد أفقده البصر •

واسبانيا لم تكن تجهل شيئا مما يجرى فى البلاد ، فاستعدت

للحملة ايما استعداد، وبذل الكاردينال خيمينيس من الهمة والجهد في تجهيز الحملة ، نفس مابذله في تجهيز حملتي وهران والمرسى الكبير •

اسند القيادة الى بطرس النفارى « بدرو نافرو » فاتح وهران وجلادها الفظيع، فأخذ يستعد تحت طى الكتمان، حتى لاتتسرب أنباء المسيرة الى بجاية ، وامتطى صهوة اسطوله بالمرسى الكبير يوم ٣٠ نفمبر ١٥٠٩ مدعيا العودة الى اسبانيا • واتخذ طريقه فعلا صوب الشمال ، انما ارسى على جزائر الباليار الاسبانية ، فقضى بها شهر دسامبر القاسى ذا الرياح المتقلبة •وجاءه المدد من اسبانيا الى هنالك ، فنظم الحملة ورتب تفاصيلها ، ووضع على الاسطول الاميرال خير ونيمو فيانلى •

يوم غرة جانفى ١٥١٠ ، أقلع الاسطول ، يشمل ٢٠ سفينة كبيرة تحمل على متنها عشر ةآلاف رجل من صفوة الجيش، تعززهم مدفعية ضخمة وآلات عديدة وسلاح وفير •

وكانوا أمام مدينة بجاية يوم ٥ جانفى •

عندئذ رأى المسلمون الخطر، وكانت قد بلغتهم ولاريب مأساة وهران؛ فتنادوا للجهاد، واستعدوا للدفاع عن مدينتهم وعن دينهم وعن ميراثهم الحضارى التالد العظيم •

تسلقت فرقة منهم تقدر بنحو العشرة آلاف رجل مرتفعات جبال القورايا ، لكى تمنع الاسبان من النزول الى البر • وأخذت المدفعيتان البجائية والاسبانية ، تتبادلان رمى القذائف ، لكن البون كان شاسعا جدا بين مدفعية مهاجمة ، تابعة لدولة نامية ، متحدة ، ذات قيادة حديدية، وبين قوة مدفعية تابعة لدولة متخاذلة ، منهارة ، تحكمها ان صح التعبير يد شلاء وفكر شريد • فما هو الا امد قليل ، حتى تمكن الاسبان من

مد أخشابهم المهيأة للنزول، فيما بين السفن والساحل، فى ذلك المكان البديع الحسن ، الخلاب المنظر ، المعروف الى اليوم « ايقواد » .

كانت المعركة والحق يقال معركة شعب لا معركة حكومة . فالشعب البجائى البطل هو الذى تولى كبر المقاومة ، وهو الذى استعد لكل تضحية ، فلم يفقد عزيمته ولا هو فقد ثباته ، عندما رأى الجيش الاسبانى الجريئى ينزل الى الارض بقضه وقضيضه، بل أخذ يستعد للدفاع اليائس عن مدينة الناصر ، فكان الناس يومئذ مثلهم كمثلخلية النحل ، يقوم كل فرد فيها بعمل لفائدة الدفاع. والذى يدل على تصميمهم وعزمهم على الدفاع اليائس هو مبادرتهم باخراج النساء والصبيان من المدينة المهددة، والارسال بهم الى مدينة جيجل.

فى تلك الساعة ، وامام ماكان باديا من هذا التصميم ، قسم القائد دون بدرو الاسبانى جيشه الى اربع فرق ، وجعل كل فرقتين منها فيلقا، ثم اصدر أمره للفيلق الاول بأن يتسلق مرتفعات قورايا ، ليشرف على المدينة من اعلاها ، ولكى يمنع وصول المدد والنجدات اليها . اما الفيلق الثانى، فقد اسندت اليه مهمة مهاجمة المدينة مما يلى الساحل ، والاقتراب منها شيئا فشيئا، حتى تقع ضمن منطقة حصار حديدية .

التحمت المعركة اولا بين المجاهدين ا لمسلمين وبين الاسبان الذين أخذوا يتسلقون الجبل تنفيذا للخطة. واشتدت المعركة، لكن الاسبان تمكنوا رغم ذلك الدفاع من الوصول الى أعلى المدينة، واحتلوا أرباضها المرتفعة .

فى نفس الوقت ، كان الفيلق الثانى يسير صوب المدينة محاذيا البحر، الى ان وصل المدينة ودخل أرباضها السفلى ، وهى المدينة العتيقةالتى

أفرغت من أغلب سكانها، دون مقاومة تذكر . وفى وسط بجاية العتيقة التقى الفيلقان ، وانتهى الامـــــر .

كان المسلمون قد اعتصموا بالديار، وارادوا المقاومـــة اليائســـة حتى الموت ، لكنهم سرعان مارأوا وجوب الانسحاب وراء بجاية ، من أجـــل استمرار المعركة وصد الاسبان عن التوغل فى البلاد .وهكذا غـــادروا المدينة بعد معارك لم يكتب لهم فيها النجاح، استبسل فيها الشعب الذى لم تكن له قيادة حكمية مدركة ، وكان على رأسهم فى الانسحاب ، المـــلك عبد الرحمن! ودفع الشعب ثمن الهزيمة غاليا جدا، اذماكاد الجيش الاسبانى يحتل البلدة، حتى أعمل السيف فى رقاب من وجدهم من أهلها والمدافعين عنها ، واسرف فى القتل ، كما أسرف من قبل فى وهران ، فانجلت المذبحة الفظيعة عن مصرع اربعة آلاف وماتئة من الشهداء . وامعن الأسبـــان فى بجاية تخريبا ونهبا ، على غرار ماوقع بوهران ، واستحوذوا على نفائس بجاية وثروتها التالدة والطريفة، فنقلوها غنيمة الى أسبانيا، على متـــــن ثلاثين سفينة، ابتلع البحر أكثرها قبل وصولها الى المراسى الاسبانية . وتناولت يد التخريب والتحطيم بعد ذلك معالم المدينة التيكانت غرة فى وجه الفن المعمارى العربى ، فمنار قصر الجوهرة الـــذى كان ارتفاعـــه سبعين ذراعا لم يبق منه الا اسمه ، والمسجد الاعظم لم يبق منه الا رسمه. والويـــــل لمـــــن غـــلـــب .

هذا ، ويقول المؤرخ العربى ابو على ابراهيم المـــرينى ، الذى كتـــب عن هذه المصيبة بعد أمد طويـــل : ان المقاومة الاسلامية قد كانت عارمة، وأنها كبدت الاسبان خسائر عظيمة . وقد كانت قصته هـــذه موجـــودة بخزائن الولاية العامة الجزائرية قبل الاستقلال . ثم أخذها الفرنسيون

عند انسحابهم ، مع جملة ماأخذوه من ثروتنا التارخية العارمة (١) ونقلوه الى بعض المدن الفرنسيـــة •

لكن الحقيقة المؤلمة كانت غير ذلك ، وياللأسف !

فالاسبان لم يتكبدوا فى بجاية الاخسائر طفيفة • والقائـــد الظافر بدرو نفارو ، قد ارسل الى الملك تقريره عن الوقائع ، يقول : ان احتلال المدينة كان سهلا ، وان العملية كانت ميسورة مع ان اسوار المدينة كانت عالية قوية ، والمواقع الجبلية كانت حصينة ،وعدد المجاهدين المسلمين كان كبيرا، والمؤ نوالذخيرة كانت موجودة، فالمقاومة الطويلة الناجحة كانت وميسورة• يقول الباحث بول ونتر فى فصل قيم ثمين نشره بمجلة الجمعية الجغرافية لشمال افريقيا (عدد ١٢٠) فى تعليل ذلك، ان المسلمين ربما كانوا يستقدون ان الاسبان ماجاءوا الا من أجل السلب والنهب ، وانهم مـــتى ادركـــوا غايتهم، وبلغوا هدفهم، فانهم سوف يغادرو نالبلاد مع الاسلاب •

الذى يؤكده التاريخ ، هو ان نكبة بجاية ، وتخريب معالمها ، وذبـــح أربعة آلاف ومائة مسلم فيها ، لم يكلف الاسبان خسارة تذكر •فذهبـــت المدينة وذهب اهلها ضحية الخلاف والشقاق ، وفقد الـــروح المعنويـــة ،

---

(١) أعلـم من تحرياتى الخاصة ان الفرنسيـين قد نقلوا الوثـائـق التاريخيـة المتعلقـة بالبلاد الجزائرية قديما وحديثا ، فيما بين شهرى نوفمبـر ١٩٦١ وجوليت ١٩٦٢ ، الى فرنسا ، وضعـوها ضـمن ٤٣٦ كيسـا يـزن كـل كيـس ٢٠ كيلـو • فالصنـاديق التى تحمل ورقـة حمراء وجهـوا بها الى مدينـة ايكس ان بروفانـس ، والصناديـق التى تحمـل ورقة خضـراء وجهـوا بها الى مدينـة ايكـس ليبـان ، فيكـون الـوزن :
(٤٣٦٩ × ٢٠ : ٩٥٣٨٠ لا) •

وانعدام القيادة الحكمية الواعية ، أما الشعب فقد قام بواجبه ، ودافع كما استطاع أن يدافع، ومات كما لم يكن يجب أن يموت .

شيء عن بجاية لا يستطيع المرء مهما أوتي من حذق ومن مهارة ، ان يلخص تاريخ هذه المدينة العجيبة في مغربنا العربي ، ولا ان يوجزذكر ماطفحت بوصفه أمهات الكتب عن علو شأن بجاية الحمادية، التي اختطها الملك الحمادي الناصر سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) واتخذها عاصمة لمملكة بني حماد، الى أن تسلمها منهم الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي سنة٥٤٧هـ (١١٥٢م) واتساع عمرانها، وارتفاع معالمها ومساجدها وتصورها ومدارسها . وما كانت تعج به من كبار العلماء الاعلام ، ومن الادباء والشعراء ، ومن كبار الباحثين الضاربين في كل فن ، ومن تجارة واسعة عريضة ربطتها مع أغلب بلاد البحر المتوسط . ثم انهابقيت رغم ضياع ملكها ، ووقوعها ضمن الدائرة الموحدية الواسعة ، ثم ضمن الدائرة الحفصية الضيقة ، مدينة علم وعمل ، ومركز اشعاع حضاري عظيم ، الى ان حلت بها النكبة السوداء .

جاء في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى: « من جملة أسباب ثورة بجاية ، علاقتها الواسعة المتصلة مع بيزا (ايطاليا) وجنوة ، وما لفي ، ومرسيليا وبرشلونة (اسبانيا) . ورغما عن اعمال القرصنة التي كان المسلمون والمسيحيون يقومون بها فالحركة التجارية قد استمرت بها واسعة جدا . فكانت بجاية تصدر الحبوب والزيت والصوف والشمع ، والجلود . وكثير من مدن اروبا ، كالجمهوريات الطليانية ومرسيليا ، قد عقدت مع بجاية معاهدات سلام وتجارة،وكانت لها قنصليات بالمدينة .اهـ.

وكانت عند أيام النكبة تشمل ثمانية آلاف من الدور ، أي نحو الاربعين

الفا من السكان، ولقد وصفها ليون الافريقى (الحسن بن محمـــد الوزان الفاسى) (١) أجمل وصف ، اذ قال انها كانت محاطة بأسوار عالية وتشمل ثمانية آلاف أسرة ، وديارها جميلة البناء حسنة المنظر ، وانها كانـــت زاخرة بالمساجد والمدارس التى يتعاطى الطلاب والشيوخ فيها دروس علوم الدين والرياضيات المختلفة ، كما كان بها عدد من البيمار ستانـــات لمعالجة المرضى ، وفنادق عديدة لايواء التجار والمسافرين ، ويقول انهاكانت معقلا دينيا قبل كل شيء ، يدعونها مكة الصغيرة.

وتقع المدينة على خط الزوال ٤٥ ، ٢ (قرينيتش) وخط العرض ٤٥ ، ٣٦ وسط خليج ذى جمال خلاب . تكتنفه جبال قورايا التى يبلـــغ ارتفاعها ٦٠٠ متر ، أما عرض خليج بجاية فهو ٢٨ ميلا ، وينحصر بين رأســين بارزين فى البحر ، ويبلغ عمقه ٨ أمتار . وهذا ماجعل بجاية ذات مرسى من احسن مراسى البحر المتوسط واكثرها ضمانالراحة السفن ، وبعدا عن زوابع الشمال والغرب . من أجل ذلك اختط الكنعانيون مدينتهم الشهيرة « صلدة »داخل ذلك الخليج ، ثم أصبحـــت « صلدايى » عند الاحتـــلال الرومانى . وصارت أخيرا بجاية، وهو اسم القبيلة الأمازيغية التى تسكن رقـــعـــتهـــا .

وتقع المدينة ــ وهذا مهم جدا لما سيأتى تفصيله من وقائعها المقبلة ــ على مجرى وادى الصمام ، الذى يخترق الجبال القبائلية تحت اســـم « وادى الصمام » عند مدينـــة أقبو .

---

(١) ولـد بقرطبـة حوالى ١٤٨٣ وتوفى حـوالى ١٥٣٠ اسـره النصـارى فى البحـر فتظاهر بالتمسح . الف كتـاب « وصف افريقيـا » الشهـير .

بعد النصر الاسباني استكانة سلطان تونس الحفصي :

يقول المؤرخون الاسبان والافرنج ، انه ماكادت أنباء النصر فى بجاية تبلغ مسامع اسبانيا وبلاد المسيحية ، حتى غمرتها موجة من الابتهاج ، واعلنت الاعياد العامة ، وتوارد الناس على الكنائس يقدمون الشكر للـــه على ما منحه من نصر لجيوش الصليبية •

أما فى البلاد الاسلامية ، فقد احدثت هذه النكبة رجة اسى عميـــق ، وخاصة لقرب العهد بينها وبين نكبة وهران، وساد القســـم الشرقى من البلاد نوع من الهلع فى القلوب ، سواء بالبـــلاد الحفصيـــة التونسية أو البلاد الحفصية القسنطينية ، فبادر السلطان الحفصى بتونس ابو عبـــد الله، عم المتوكل، باسترضاء الملك الاسباني، والتقرب اليه، بله اعـــلان شيء من التبعية له ــ تماما كما فعل ملك تلمسان بعد نكبة وهـــران ــ وتعهد بدفع جزية سنوية للملكالاسباني ، مع فرسين من جياد الخـــيل واربعة من طير الباز ، دليل خضوع ورضوخ ، وهو يعتقد امام نكبة بجاية وكارثة وهران ، وتنمر الاسبان ، ان ذلك هو أخف الضررين •

رضـــوخ مدينـــة الجـــزائـــر

كذلك ساد الهلع مدينة الجزائر ، وكـــانت كمـــا علمت مشيخـــة مستقلة تابعة نظريا لمملكة بجاية ، يتولي حكم الجماعة فيها الشيخ «سالم ابن التومى » وعلمت انها ستكون الضحية المقبلة للاسبان،بعد أخذالطرفين الشرقى والغربى : وهران وبجاية ، فاجتمع أهلها ، وتشاوروا ، وقـــر قرارهم على وجوب استرضاء الاسبان ، وعقد اتفاق معهم ، يصون لهم حياتهم ، ويضمن لهم بقاءهم •

فخلال شهر جانفى من السنة المذكـــورة (١٥١٠ م) ، أى بعـــــد

أيام معدودات من نكبة بجاية الدامية ، غادر مدينة الجزائر وفد أعيانها ، يرأسه شيخها سالم التومي (١) ، متوجها الى بجاية ، حيث اجتمع ببيدرو نفارو . واتفق الطرفان على أن يعقد السلام بين المدينة وبين الاسبان . وان يتعهد الجزائريون باطلاق سراح من بأيديهم من أسرى المسيحيين . وان لايتعدى الجزائريون بشر لسفن الاسبان . وان يسافر وفد منهم لاسبانيا لعقد اتفاقية نهائية مع حكومة الملك وان يدفع الجزائريون لحاكم بجاية الاسباني نفس المقدار من المال الذي كانوا يدفعونه لملك بجاية ؛ اعترافا بالتبعية ، وذلك مقابل ان لا يتعرض الاسبان لمدينة الجزائر . ولا يحاربونها ولا يعتدون عليها .

وفي سنة ١٥١١ ، سار الوفد الجزائري الى اسبانيا ، وتفاوض مع مجلس سرقسطة SARAGOSSA ، واتفق الجانبان على ان يسلم الجزائريون أكبر جزرهم الصخرية التي يدعوها البكري « اسطفلة » للاسبان ، لكي يقيموا عليها معقلا ، يحرس تجارتهم ويضمن حرية مواصلتهم البحرية ، ويجعل مدينة الجزائر نفسها تحت رحمة مدافعهم ، الى أن يباشروا تنفيذ خطتهم الثانية ، التي هي التوغل داخل البلاد مرتكزين على البلاد الساحلية التي يحتلونها .

وبمجرد أمضاء الاتفاق، أرسل الاسبان أحد المهرة من مهندسيهم العسكريين : مرتينودي رنتيريا ، فأشرف على بناء القلعة البحرية التي أصبحت تدعى « صخرة الجزائر » PENONDARGEL على انقاض منار اسلامي قديم ، كان قائما هنالك من أجل هداية السفن ، وارشادها

(١) يقول بعض المؤرخين ان سالم التومي ارسل وفدا ولم يكن فيه .

للتجمع • وهكذا دفعت مدينة الجزائر عن نفسها شر الغزو والعــدوان ، واصبحت راضخــة للاسبــان ، تعيش تحت رحمة مدافع • صخرة الجزائر • وتتحمل الضيق والمذلة على مضض ، الى حـــين •

احتلال • وملكان • وشــعب

بينما كان الاسبان يجوسون خلال الديار فى بجاية ، يذبحــون بقايــا الرجال وينهبون الاموال ، وبينما كان المقاتلون من اهل بجاية ينسحبون وراء المدينة ، بشيء من أسلحتهم وبقية من عزيمتهم ، من أجل استمرار المقاومة ، وصد العدو اذا ماحاول التوغل داخل البلاد ، وأثناء ذلك الهــرج والمرج ، تمكن « الملك » عبد الله ، ملك بجاية الشرعي المخلوع ، المسلوب البصر، من مغادرة سجنه، وسار به البعض الى مكان فيه جماعته من أنصاره •

ففى يوم عيد الفصح من تلك السنة الرهيبة، وقف على أسوار المدينة المنكوبة وفد من العرب، يحمل راية بيضاء، ويتقدمه شاب أعمى، يطلب المثول بين يدى القائد بيدرو •

علم بيدرو ان ذلك الشاب الاعمى ، انما هو الملك المخلوع عبد اللــه ، ولا أسميه كما يسميه التاريخ ولا كما يدعوه أنصاره « مولاى عبد الله » فمولانا هو الله وحده، فأحسن استقباله ،واستمع الى قصتــه البائسة الحزينة ، وعرضه حالا على طبيب الاسطول الاسبانى ، الذى قرر بعد فحصه ، انه لم يفقد نور بصره ، وان النار التى وضعت أمام عينيه لــم تؤثر على القرنية، ولم تتلف العصب البصرى، بل أصابت الاهداب فقط، فالتحمت، وبقيت العين وراءها سليمة •

وبعملية جراحية بسيطة ، فصل مابين الاهداب ، فارتد الملك بصــيرا

واعلن الولاء لاسبانيا ، والخضوع لها ، والعمل تحت رايتها ، وتحقيق مآربها ، متى ما استرد عرشه .

قرر بدور نفارو المبادرة من الافادة بهذا المدد الذى جاءه من السجن ، ورأى أنه يستطيع بواسطة هذا الملك أن يقسم المجاهدين الى نصفين ، وان يحارب الواحد بالآخر ، فبادر باحتضان عبد الله ، ومكنه من سكنى بعض أرباض بجاية الخربة ، صحبة عائلته وأهله . وراسل ملك اسبانيا يبين له أهمية الامر، ومدى الفائدة المادية والمعنوية التى تعود عليها من هذه العملية .

الخروج للحرب

لم ينتظر بيدرو نافارو جواب الملك ، بل بادر بتجهيز الجيش وعزم على مهاجمة المجاهدين فى المعاقل التى التجأوا اليها ، قبل ان يشتد ساعدهم ، وقبل ان يتلقوا المدد من جهات البلاد .

غادر بجاية الخربة الدامية يوم ١٣ افريل، ومعه ١٥٠٠ من الجيش الاسبانى ، و « الملك » عبد الله وجماعة من رجاله وفرسانه . فاخترقوا الجبل المحيط ببجاية ، وجاسوا خلال السهل ، ووجدوا خيام « الملك » عبد الرحمن المهزوم، وفلول جيشه، ولم يكونوا مستعدين للدفاع، فبعد معركة قصيرة انهزم عبد الرحن ورجاله ، تاركين خيامهم ومتاعهم ، غنيمة للاسبان .

ولا ريب لدينا ان وجود عبد الله مع الاسبان صحبة أنصاره وأعوانه، قد أحدث ماكان يرجوه الاسبان من البلبلة فى صفوف المسلمين، وفيهم بدون شك من كان يعطف على الملك الشاب المظلوم، وكان ذلك من أسباب سرعة الهزيمة التى منى بها عبد الرحمن وبقايا رجاله .

لكن بيدرو نافارو لم يكتف بذلك، بل تتبع عبد الرحمن الى أن أدركه بعد حين، وشبت نيران معركة جديدة، قاسيـة، كان العـرب أثناءها يوجهون ضرباتهم الى صدور أعدائهم من بنى دينهم ووطنهم من أنصار أحد الملكين أكثر مما كانوا يوجهونها للاسبان • وأسفرت المعركة المؤلمة عن انكسار اسلامى شنيع ، فادح ، واستشهد خلال المعركة ثلاثمائة شهيد ، من بينهم امرأة « الملك » عبد الرحمن وابنته ، وانهزم هو مع فلول جيشه لا يلوى على شىء ، وعسكر بعيدا عن الاسبان •

كانت غنائم الاسبان هذه المرة عظيمة الشأن ، عالية القيمة اذ تمكنوا من ضبط كل الاموال والذخائر الثمينة التى كان عبد الرحمان قد اخرجها معه حين انسحابه من بجاية ، وكانت تشمل كميات عظيمة من الذهب والفضة والحجارة الكريمة ، والاقمشة الحريرية ، زيادة عما وضعوا عليه ايديهم من اغنام ، وابقار وخيل ، واسلاب حملها تسعمائة بعير •

يقول الاسبان — ومبالغتهم هاهنا واضحة فاضحة — انهم لم يخسروا خلال هذه العملية الا قتيلا واحدا لا غير • ولا يهمنى من الامر عدد قتلى الاسبان ، انما يهمنى أمر هذه الهاوية السحيقة التى انحدر اليها المسلمون، من جراء هذا التخاذل ، وهذه المنازعات الاجرامية ، حول عروش أفضل منها النعوش ، ومن أجل ملك أفضل منه مملكة النحل ، أو مملكة النمل •

عبـد اللـه ملكـا

وأخيرا ، جاء رد الملك فرديناندو من أسبانيا ، على مقترحات الحاكـم العام دون بدرو والمتعلقة باستعمال «الملك» عبد الله دمية يحكم بواسطتها

اشلاء مملكة بجاية القديمة ، التابعة اسما لمملكة قسنطينة ، التى هى تابعة اسما لمملكة تونس الحفصية .

والرسالة الملكية الاسبانية ، كانت آية فى الدقة ، آية فى التعبير عن آمال اسبانيا الدينية والسياسية ، ومنهاجها فى العمل .

لهذا فانا أذكرها هنا نصها ، بصفة تكاد تكون حرفية ، حسب الوثيقة الاصليـــة الاسبانية المحفوظة بخزينة أوراق قلعة سيما نكاس (١) .

ماى ١٥١٠

«لتكن المعاهدة مع مولاى عبد الله مبنية على الواقع الحاصل ، ولتكن ذات مفعول دائم .

« وبما أن بجاية قد اصبحت ضمن ممتلكاتنا ، تنفيذا للقرار الصادر بذلك من الكنيسة الرومانية ، فلا يمكن أن يعطى لمولاى عبد اللـــه لقب « ملك بجاية » بل ليكن ملكا على أى مكان يختاره ، فيما عدا البـــــلاد الساحليـــة ، اذ ان مدينة بجـــاية ، وملحقـــاتها ، ومداخيلها ،وتولى الاحكـــام فيها ، وكذلك كل البلاد الاخرى والمدن والقرى الموجودة على ساحــــل

---

(١) قلعة عتيقة باسبانيا فى مقاطعة ، بلدة الوليد ، بالشمال الغربى
بناها الكردينـــال خيمانـاس عـلى اطـــلال قلعـــة عربيـــة ، لتكـــون خزينـــة عامـــة لاوراق
ووثائـــق الدولة ، وهى تشمـــل ٣٣ مليـــون وثيقة ، مقسمة على ٨٨ الف ملف ، بديعة
التظيم والتنسيق ، ولها فهارس محكمة الوضع ، فى عدد كبير من المجلـــدات المطبوعـــة
فى «بلـــد الوليـــد» ، وقـــد قضيت بها يوما من امتع الايام ، وتمكنت من نقل وتصـــوير
عدد من الوثـــائق مما تجـــده فى هـــذا الكتاب .
وقد سهل لى المهمة مديرها وموظفوها ، فاسجل لهم شكـــرى .

البحر ، يجب أن تكون لنا وحدنا خالصة بصفة تامة مطلقة ، ولا يحق لمولاى عبد الله أن يدعى أى حق له عليها ، أو أى حكم على سكانها من النصارى أو المسلمين .

« وبما أن البلاد المذكورة ، ومدنها ، وقراها ، هى من ممتلكاتنا الخاصة ، فاننا نعترف لمولاى عبد الله بالملك على بقية البلاد الداخلية من المملكة ، مع مداخيلها ، وأحكامها ، انما نحتفظ لانفسنا بالحق الأعلى فى الاشراف على القضاء الذى هو من حق السيادة .

« كما أن الملك يجب أن يلتزم بدفع جزية سنوية ، نترك لك حرية تقديرها . كما يسمح لعبد الله ، ومائة من أعوانه ، أن يسكنوا مؤقتا ربض بجاية ، الى أن يجد عاصمة لملكه ، على شريطة أن لا يبنى بذلك الربض مسجدا » اهـ

اللعب على الحبلين ، واستثمار « الملكين » .

فى شهر جوان من نفس تلك السنة ، اسندت ولاية بجاية وما اليها من البلاد التى احتلتها اسبانيا ، الى دون انطونيو دى رافانيدا . وغادر دون بيدرو نافارو بجاية يوم ٧ من الشهر المذكور .

وارسلت الى دون انطونيو تعليمات ملكية جديدة ، تدل دلالة قاطعة على أن المحاولة مع « الملك » عبد الله لم تلق أدنى نجاح ، رغم محاولة اسبانيا استثماره الى الحد الاقصى .

فالملك فرديناندو يبعث للوالى الجديد رسالة مؤرخة بيوم ٢٣ اكتوبر ١٥١١ ، يخول له فيها حق التعاقد مع أى من الملكين ، عبد الله أو عبد الرحمن ، لكنه يفضل أن يكون عبد الله ، على شرط أن يكون التعاقد مع من

يعطى أكثر الضمانات لاسبانيا ومن يكون أحفظ لمصالحها .

فأما « الملك » عبد الرحمن . الذى لا يزال على رأس القوة من المجاهدين يصد تقدم الاسبان نحو داخل البلاد . فيجب أن يعامل معاملة « النـد »

وأما « الملك » عبد الله . التابع فى بجاية منتظرا أن يخلق له الاسبان ملكا، فيجب أن يعامل أثناء المفاوضات وحين عقد المعاهدة معاملة « التـابع »

معاهدة البؤس والشقاء

لم يستطع دون أنطونيو أن يفاضل بين الملكين . فكلاهما : سواء منهما الخاضع أو المتظاهر بالمقاومة . كان يريد التعاقد مع اسبانيا بما يـرضى مصالحها ويحقق آمالها . مقابل أن تعترف به ملكا : وأن تحميه وتوطـد لـه ملكــه .

ولم تكن لاسبانيا رغبة حقيقية فى التورط فى حرب داخل البلاد قبل الاوان ، فاذا ماهى نصرت أحد الملكين على الآخر : وتعاقدت معه . كان عليها أن تنصره عسكريا ؛ وأن تحارب خصمه : الى أن تقضى عليـه ان استطــاعــت .

فأمام ما وجده دو نأنطونيو من حسن استعداد عند الجانبين ، تمكن من أن يفرض عليهما معا — معاهدة تبعية لاسبانيا توطد السلام بين الجانبين « الملكين » من جهة ،وتجعلهما فى ركاب اسبانيا من جهة أخرى .

ونستطيع أ نتلخص معاهدة الخزى فى النقط التالية نقلا عن نصها الرسمى :

بين الملك فرناندو ، وملك اسبانيا والصقليتين
وبين مولاى عبد الرحمن ملـك جبال البـربـر
وبين مولاى عبد اللـه حفيـده

انعقدت معاهدة على القواعد والاسس الاتية :

أولا — انعقد بهذه المعاهدة صلح دفاعى هجومى ، فى سبيل مصلحة اسبانيا ، بين الملك عبد الرحمن والملك عبد الله ، كما انعقد بينهما معا من جهة ، وبين الملك فردنياندو من جهة أخرى حلف دائم المفعول .

ثانيا — يستمر « مولاى » عبد الرحمن ملكا على جبال القبائل .

ثالثا — يعترف عبد الرحمن علنا بامتلاك اسبانيا لمدينة بجاية ، وصخرة الجزائر ، وتادلس ، وكل المراسى التى على البحر ، وما يتبعها « ولم يذكر هنا ذكر مدن وسواحل الناحية الغربية ، لانها داخلة ضمن نطاق التعاقد مع بنى زيان فى تلمسان »

رابعا — ارجاع كامل الاسرى المسيحيين الى الاسبان ، دون أدنى مقابضة .

خامسا — العمل على اصلاح كل القلاع والمعاقل الموجودة فى المملكة .

سادسا — يبعث الملك عبد الرحمن بولده محمد رهينة عند الاسبان كما يبعث الملك عبد الله بولده البكر [1] رهينة أيضا ، وذلك لضمان تنفيذ المعاهدة .

---

(١) لهذا الولد مأساة محزنة ، فقد سلمه ابوه للاسبان رهينة وهو صغير السن ، وسلمه هؤلاء للرهبان كى يتولوا تعليمه وتثقيفه وتعميده ، فنشا وشب وهو لا يعرف غير النصرانية دينا . واطلقوا عليه اسم فيرناندو ، ومنحه ملك اسبانيا لقب « انفانت » الذى لا يطلق الا على أبناء العائلة الملكية . ومات مسيحيا فى اسبانيا .

سابعا ـ يتعهد العرب بان يزودوا مدينة بجاية الاسبانية سنويا بالمواد والمقادير الآتية :

٣٦٠٠ فنيق من القمح «الفنيق نحو ٥٠،٣٦ ك»

١٠٠ فنيق من الشعير

٥٠ فنيق من الفول

١٠٠٠ رأس من الغنم

٥٠ بقرة

١٠٠٠ حمل من الحطب ٠

فأما احمال الحطب فتسلم مجانا لحامية بجاية ٠

وأما بقية المواد ، فان الموردين يتقاضون ثمنها ٠

وهكذا زين للملك فرديناندو أنه أصبح ـ نظريا ـ يملك من وراء الملك عبد الرحمن جبال القبائل ، وخيل اليه أنه أصبح سيد البلاد الشرقية من قطرنا هذا دون منازع ٠ انما نسي أن الشعب كان بالمرصاد ٠

غرور لا يعرف حداً :

يقول الاستاذ بول فانتتر سالف الذكر ،في مجلة الجمعية الجغرافية لافريقيا الشمالية :

« أن الملك فرديناندو قد اصبح بعد هذا النصر ، يعلن جهارا عن فكرته في وجوب تعميم المعركة الصليبية ، ويجاهر أنه سوف يتعقب الكفار (المسلمين) الى أن يسترجع من بين أيديهم بيت المقدس، ثم عزم فيحميته المسيحية على ان يسير بنفسه على رأس جيشه الى افريقيا ، وأن يضع يده في يد فرسان جزيرة رودس من أجل الاستيلاء على مصر ٠ وكان

احتلال بدرو نافار مدينة طرابلس (الغرب) نقطة أساسية من نقط هذا البرنامج » .

بجاية تحت القهر والاستعباد

أصبحت مدينة بجاية الخالية من سكانها المسلمين ، والتى لا يقطنها الا رجال الحامية الاسبانية ، ومن تبعث بهم اسبانيا من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، والمبعدين والغير المرغوب فيهم ، الى جانب الملك الحثالة عبد الله الذى لا يملك من الملك الا اللقب ، ومائة من رجاله التابعين لاسبانيا أكثر مما هم تابعون له ، أصبحت عاصمة بنى حماد وبنى حفص ولاية اسبانية ، يتولى أمرها الحاكم العام وهو ذو سلطة مطلقة داخل المدينة وخارجها .

والى جانب الحاكم العام ، يوجد ممثل العدالة ، وهو القاضى الاسبانى L'ALCADE وكان أشبه شىء بمعاون للحاكم العام . لكن الاسبانى المستوطن الذى كان يركب رأسه فى أكثر الاحايين،لم يكن معترفا بسلطته ، ولا مطيعا فى أكثر الوقت لاوامره . وكانت الفوضى ضاربة أطنابها فى المدينة وضواحيها بصورة غريبة .

أما المشرف على الادارة المحلية ، ويدعونه الفيدور ALVUDOR فقد كان من أهم وظائفه ، تسلم الخمس من الغنائم والاسلاب التى تؤخذ أثناء الاغارات على المسلمين، والارسال بها الى التاج الاسبانى . وهذا مما أخذته اسبانيا عن نظام الغنائم فى الاسلام .

أما من حيث الحالة الاقتصادية ، فقد أعلى الملك فرديناندو سنة ١٥١٠ حمايته للتجارة الاسبانية مع بجاية ، فرض ضريبة مقدارها ٥٠ بالمائة ،

على الاقمشة الصوفية المستوردة من بجاية اذا لم تكن صادرة الى مرسى برشلونة رأسا •

« وكان لبرشلونة فى القديم امتياز منذ سنة ١٣٠٩ م مع بجاية فى شأن التبادل التجارى ، فرأى الملك فرناندو وجوب احترامه لفائدة المدينة الاسبانية الكبرى » •

وكانت بجاية فى هذه الفترة تستورد من أجل الجنود والسكان ، وبالاخص من أجل التجارة مع المسلمين فى الداخل ، الاقمشة من الحرير الملون ، والطيب والعطور كالمسك والعنبر والعود ، وذلك من مدينة البندقية التى كانت لا تزال محافظة على مركزها التجارى كواسطة بين الشرق والغرب •

وكانت بجاية تصدر مقابل ذلك ما تنتجه البلاد الجبلية ، من أخشاب وتين ولوز ، وما تنتجه المعامل اليدوية حوالى بجاية من أقمشة حريرية بديعة كانت من أهم ما يرغب فيه المترفون الاروبيون • كما تبعث بالمرجان الذى يخرج من بحارها ، والحلى الذى يصنع — ولا يزال يصنع الى اليوم — بالبلاد القبائلية، وترسل لاسبانيا كميات ضخمة من الصوف ومن الجلود التى تنتجها القلعة •

وأما من حيث المالية فقد كان الملك فردنياندو أعلن أن بجاية يجب أن تكتفى بمواردها المالية ، وذلك سنة ١٥١٠ ، بحيث أن بجاية لا تتلقى أى اعانة مالية من اسبانيا، سواء لدفع أجور الجيش، أو لدفع جرايات الموظفين، أو للقيام بالاعمال الواجب القيام بها •

فكانت تلك الموارد عبارة عن الجزية والاتاوات التى فرضها الاسبان الغالبون على شيوخ وأمراء المسلمين المغلوبين • ولقد كانت تلك

المقادير تكفى ـ بصفة نظرية بحتة ـ لقيام الادارة المحلية بما هو مطلوب منها، انما الامر كان مخالفا لذلك تمام المخالفة من الناحية العملية فالمسلمون لم يكونوا يقبلون التعهد بدفع الجزية او المغارم الا من أجل التخلص من الضيق أو لكسب الوقت ، لكنهم لم يكونوا يدفعون ذلك الا نادرا ، وبصفة مؤقتة . فاشتدت الضائقة بالمدينة وبأهلها الى درجة فادحة .

يقول الاستاذ فنتر:كان من جراء انسحاب المسلمين من بجاية وانحصار الاسبانيين بها ، ان اشتدت الضائقة بالاسبانيين الى درجة أنهم كانوا يضطرون لاكل القطط واليرابيع ، وجثث الخيل ، مدة شهر كامل ، الى ان أتتهم أول سفينة تحمل الاقوات من اسبانيا . »

وكان الجندى الاسبانى ، كالموظف الاسبانى ، يتقاضى فى أغلب الاحيان مرتبه مواد عينية ، بأسعار دون سعر السوق ، وكان عليه ان يتولى مبادلتها مع السكان من أجل الحصول على النقد ، وكثيرا ما كانت هذه المقايضات تتسرب الى خارج بجاية فيقع التعامل مع المسلمين ، وأصبح الاسبانى لا يبيع المواد التى يحصل عليها فحسب ، بل يبيع أيضا سلاحه وذخيرته للمسلمين .

حدود المدينة الاسبانية ببجاية :

كانت مدينة بجاية الاسلامية ممتدة الاطراف فسيحة الارجاء ، عالية الاسوار .

لكن الاسبان عندما عمروا المدينة بعد خروج واخراج سكانها المسلمين، لم يكن لهم من العدد ولا من الاستعداد ما يمكنهم من الدفاع عنها . فرأوا وجوب اختصارها ، والاكتفاء بما به الحاجة منها ، مما يمكن الدفاع عنه.

فأنشأوا من أجل ذلك أسوارا جديدة ، تبتدىء عند ساحل البحـــر ، ثـــم ترتفع الى القصبة ، مخترقة جنان رافع ، ثم تنحدر نحو البحر محاذية لمسجد الشيخ عبد الله الشريف ، وتشق قصر الجوهرة الملكى البديع الذى حطموه وتركوه ركاما ، وتصل الى البحر جنوب مرجة المرجانى . وهكذا أنشأت بجاية الاسبانية الصغيرة الكئيبة .وفوق احدى قلاع هذا السور الجديد نقشت العبارة الآتية باللغـــة الاسبانية :

« فرناندو الخامس ملـــك اسبانيـــا »
« افـــتـــك هذه المدينـــة بـــقوة الســـــلاح »
« مـــن أبنـــاء هـــاجـــر اللـــئـــام »
« ســـنـــة ١٥٠٩ »

فمن أجل انشاء هذه المدينة الصغرى ، وقع تقويض وتحطيم نصـــف المدينة القديمة الزاهـــرة ، فحطمت دورها وقصـــورها ، وأتلفـــت مساجدها ومدارسها ، وطمست أغلب معالمهـــا .

السياسة الجديدة

لكن فرديناندو ، أمام خراب المدينة والضائقة الكبرى التى وقعت فيها، راجع سيـــاسته بعد حـــين ، وأرسل الى الـــوالى العـــام انطونيو دى رافانيدا رسالة مؤرخة بيوم ١٣ أكتوبر ١٥١١ يقول فيها ما خلاصته :

« عليك ان تعمل ما يمكن عمله ، من أجل ارجاع السكان المسلمين الى مدينة بجاية . واذا ما هم طلبوا الضمانات من أجل عدم ارغامهم عـــلى اعتناق الدين المسيحى فاعطهم ما يطلبون من تأكيدات .

« وخذ الى قلعة بجاية قبل رجوع المسلمين ، كـل الصلبان ، وأثـاث الكنائس الموجودة ببجاية (وكانت كلها كما رأيت مساجد للمسلمين) ولا تترك بها الا الجدران والسقوف ، والابواب والنوافذ ، واوصد أبوابهـا بعد اخلائها ، لكيلا يدخلها العرب مرة أخرى ، حتى نجدها على حالهـا ، عندما يهيء الله الاسباب وتسمح مشيئته بأن يعمر المسيحيون المدينـة كلها ، وتفتح الكنائس أبوابها من جديد • »

وأعلن الحاكم هذه السياسة الجديدة ، ورغب المسلمين في الرجـوع الى ديارهم — أو بعض ديارهم على الاصح — فرجعوا وتسلموا أقسـام المدينة الواقعة بين السورين القديم والجديد ، وكانت بهذا القسم ، مـن بقايا المدينة الاسـلامية ، خمسة صهاريج تجمع من ماء المطر نحو مائتى الف لتر •

وعاد الانتعاش للمدينة بعد رجوع الكثير من المسلمين الى هذا القسـم منهـا •

المقاومة الشعـبيـة :

لكن ، رغما عن خنوع واستسلام الملكين السالفى الذكر ، ورغما عن كل الاساليب الفظيعة التى استعملها الاسبان لاخماد شوكة المسلمين حوالى البلدة الاسيرة فان الشعب الابى المجاهد ، لم يستسلم لليأس ، ولم يترك فترة مـن الوقت تمر ، دون أن يعمد خلالها الى أعمال المقاومـة وحـرب الكمين •

لم يعترف سكان زواوة من رجال القبائل الامجاد، بسلطة « الملـك » عبد الرحمن كما أرادت اسبانيا ، وتنادوا بوجوب الجهاد ضـد المحتـل الغاصب ، واعترفوا بامارة الامير أبى بكر ، الذى كان يحكم قسنطينـة

باسم الحفصيين ، وأخذوا يوحدون صفوفهم ، والتف حولهم المجاهدون من أهل التل ومن سكان الهضاب العليا ، واتخذ الامير أبو بكـر مقـرا لقيادته بلدة زيانية ، وأخذ يناوش باستمرار جيش الاسبان ، بل انـه هاجم مرة بجاية ، واحتل المجاهدون بابا من أبوابها ، مما يلي جهـة المسلمين الخاضعين للحكم الاسبانى ، لكن المجاهدين اضطروا للرجـوع الى مراكزهم • وآب أبو بكر الى مقر ولايته بقسنطينة ، وبقى المجاهدون فى صياصى جبالهم ينتظرون الزعيم الذى يقودهم نحو النصر والحرية ، ولم يطل بهم الانتظار •

احتلال عنابة والمدن الساحلية :

أصبحت اسبانيا ، اثر هذه العمليات ، سيدة الموقف دون منازع ، فيما بين بجاية شرقا ووهران غربا ، وصخرة الجزائر وسطا •

ثم ان القيادة الاسبانية المحكمة ، التى كانت تنفذ برنامجا دقيقا من أجل احتلال البلاد الساحلية ، كما أسلفنا ، قد أصبحت تضيق الدائرة،وتقتطف المدن الساحلية كأنها تقتطف ثمارا ناضجة من حديقة نام عنها حارسها •

وهكذا احتلت اسبانيا مدينة عنابة الجميلة المتحضرة ، بعد مقاومة لا تكاد تذكر ، وسلك فيها جندها ما كان يسلكه باستمرار فى المدن التى يحتلها : سلب ونهب وانتهاك حرمات ، ثم ترك بها حامية لحراستها • وكان ذلك سنة ١٥١٠ ، اثر احتلال بجاية •

كان الشعب كله فى هذه البلاد التى أصبحت تدعى فيما بعد بالبلاد الجزائرية يضطرم غيضا ، وينطوى على كمد جريح ، ويريد أن ينفجر كالاعصار فى جهاد يسترجع به بلاده ، وينقذ به أمته ودينه وشرفه •

لكن هيهات ! لم تكن لديه القيادة التى تسوقه فى طريق النصر ، ولم يكن بين يديه السلاح الذى يحقق الامل . وأخذ ينتظر فى صلابته وفى عزيمته وتصميمه فرجا من الله ، يأتيه فى صورة بطل زعيم موحد ، يجمع الكلمة ، ويرفع راية الجهاد

المغرب الجديد ، والجهاد الصادق :

تمكن الاسبان كما رأيت ، فيما بين سنتى ١٥٠٥ و ١٥١١ أى خلال ستة أعوام فقط ، من الاستقرار بالساحل الشمالى من هـذا المغـرب العربى ، تاركا الساحل الغربى منه ، على المحيـط الاطلسى ، نهبـا للبرتغاليين ، يعبثون بمدنه وقراه ويعيثون فسادا ، فيما تمكنوا مـن احتلاله من البلاد . أى كامل الساحل وما عليه من مدن ، ومقاطعة دوكالة كاملة .

وما كان الشعب هنالك ، وهو منا والينا ، روحا ودما ، واحساسـا وشعورا ، الا كالشعب هنا : يرغب رغبة صادقة فى الجهـاد ، ويريد أن يموت فداء دينه ووطنه . لكن أين القائد الجامع ، وأين السلاح الدافع ؟

فدولة بنى مرين الوطاسية ، أصبحت وهى على آخر رمق ، كالقلب العليل لا يستطيع أن يرسل دما نقيا الى اعضاء الجسد . الا أن الشعب هنالك ، قد غير المنكر بيده ، وأقام على انقاض هذه الدولة التى فقدت وسائل الحياة ، وانهارت تحت مفعول سموم الانحلال ، دولة جديدة ، فتية ، بايعها الشعب وأيدها ونصرها ، على أن توحد شمله وترتق فتقه وتحسن تعبئته من أجل الجهاد الاكبر، وتطهر البلاد من الغاصبين. وهكذا نشـأت بالفعل دولة الاشراف السعديـين سنة ١٥٠٩ ، (٩١٦ هـ) على يـد الشريف أبى عبد الله القائم ، وولديه أبى العباس أحمد الاعرج ، ومحمد

المهدى، فتغيرت بذلك صفحة التاريخ فى القسم الغربى من مغربنا العربى الكبير ، كما ستراه ان شاء الله فيما يلي من صفحات هذا الكتاب .

آخر مراحل المد الاسبانى : مدينة طرابلس

ولم تكن مطامع الاسبان لتقف عند حد عنابة وما حواليها من المدن الساحلية ، بل كانت تريد أن تمتد الى ما وراء ذلك ، الى نفس مملكة بنى حفص ، وكانت تريد احتلال الساحل الشرقى كما احتلت الساحل الشمالى .

فسار بدرو نفارو ، بعد توطد أمر الاحتلال الاسبانى الى حين بمدينة بجاية وما حواليها ، على رأس أسطول يحمل طائفة من قدماء الجنود الاسبان المجربين يرتاد الساحل الشرقي التونسي لكي يجد نقط الضعف الذى تمكنه من النزول والتي يتخذ منها مراكز لعملياته المقبلة .

لكن رجال الشعب فى القسم الشرقى من وطننا المشترك ، سكان مملكة بنى حفص التونسية كانوا قد اتعظوا بماوقع للبلاد الساحلية الجزائرية، وهالتهم نكبات وهران وبجاية وما اليها ، فتقدموا للثغور يعمرونها ، وللسواحل يحرسونها ، وما تركوا من ثغرة يستطيع عدو أن ينال منها منالا . ذلك رغما عن عجز الدولة الحفصية ، وعن وهنها، وعما كانت تعانيه من آلام النزع الاخير . وكان ملكها يومئذ هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد المسعود (١٤٩٣ م ـ ٨٩٩ هـ) .

فبدور نفارو ، سيرا مع الخطة المحكمة التى سهلت له احتلال الساحل الشمالى ، وهى الاحداق بالمنطقة من طرفيها ، ثم تضييق الدائرة شيئا فشيئا حول الوسط، رأى أن يفاجىء مدينة طرابلس الغرب، وأن يتمكن منها ، ثم يتقدم نحو الشمال الذى يكون واقعا بين طرفى الكلابة القوية .

وهكذا سار نفارو الى مدينة طرابلس ، وهى يومئذ آخر حدود الدولة

الحفصية التونسية جنوبا ، فارسى على ساحلها اسطوله ، رغم مقاومة عنيفة ، وبادرها القتال

وكان أهــل طرابلس الزاهرة الغنية ، أهل شهامة وكفاح ، يمتازون بالصلابة وصعوبة المراس فى الجهاد ، على مقدار امتيازهم بالكرم ولين الجانب ودماثة الخلق الكريم زمن السلام • فتنادوا للجهاد ، وبرزوا للعدو أسودا ، والتحمت نيران معركة قاسية عنيفة ، يقول الاسبان انهم قد خسروا اثناءها ثلاثمائة رجل ، بينما هم قد الحقوا بواسطة سلاحهم الجديد ومدافع اسطولهم خسائر فادحة بالكرام المجاهديــن ، يقــول الاسبان انها كانت تبلغ الستة آلاف شهيد، ثم اقتحموا المدينة المكافحة، متخطين جثث شهدائها الابرار ، فاحتلوها ، وفتكوا باهلها فتكا ذريعا ، وارتكبوا ما كان سبق أن ارتكبوه فى غيرها ، مما سلف ذكره (٩١٦ هـ ١٥١٠ م)

الموجة الاسبانية تتحطم فى جربة :

من طرابلس ، أخذ بدرو نفارو ينفذ خطته ، فسار فى أسطوله نحــو الشمال الغربى جاعلا جزيرة جربة اليانعة ، وجهة نظره • ووصلهــا • وكانت جربــة مستعــدة الاستعــداد كلــه للقــاء العــدو ، اذ علمــوا أنــه ما تغدى بمدينة طرابلس الا لكى يتعشى بهم • فشكلوا الكتائب ونظموا الصفوف، وبايعوا الله على الموت فى سبيل الدين والشرف •

كانت المناوشات آخر جويلية ١٥١٠ على ساحل البحر ضعيفة ، فتمكن بدرو نفارو من انزال جنده دون كبير عناء ، وأصحب جنده عتــاده ، واستعد لاحتلال الجزيرة • لكنه لم يتمتع بهذا النصر كثيرا ، فصيحات

التهليل والتكبير قد تعالت من مختلف الجهات ، كأنها رعود قاصفة تنفجرت من قلوب المؤمنين ، وانهالت كتائب المجاهدين تترى ، تصادم الاسبانيين فى حملات صادقة لا تعرف الا النصر أو الاستشهاد • وكانت النتيجة باهرة، وكان نصر الله عظيما، فالاسبانيون لم يستطيعوا الثبات أمام الابطال المدافعين ، فانسحبوا الى أسطولهم ، يحملون بقايا رجالهم ، وبقايا عتادهم، بعد أن تركوا فوق أرض الجزيرة ثلاثة آلف من القتلى ، ورجعوا الى مركزهم بمدينة طرابلس ، يحاولون الكرة من جديد ، مرات عديدة ، على جربة الابية الظافرة ، لكن زوابع الخريف حطمت اثناء العمليات أغلب سفنهم •

محاولة خائبة عند قرقنة :

رغم كل ذلك أرادت القيادة الاسبانية ، وهى كما علمت ذات عزم وتصميم ، أن تحتل مكانا على الساحل الشرقى التونسى كلفها الامر ما كلفها، فصعدت نحو الشمال، وخالت أن جزائر قرقنة يمكن أن تكون صيدا ميسورا ، فانزلت بها خمسمائة من جنودها المدربين ، لكن أهل قرقنة لم يكونوا دون أهل جربة استعدادا وتصميما ، فما كاد المقام يستقر بالاسبانيين المهاجمين ، حتى كر عليهم أهل جزائر قرقنة ، فى حملة قوية جريئة، والتحمت نيران معركة قاسية، كان النصر فيها للمجاهدين ، فقضوا على كامل رجال الحملة الاسبانية ، ولم يبقوا منهم رجلا واحدا على قيد الحياة • ورجع بدرو نفارو الى مدينة بجاية ، يجر ذيول الخيبة من هذه الحملة التونسية ، وذلك فى شهر فيفرى ١٥١١ ، ثم عزله الاسبان عن ولايته ، بعد خياناته الاتى ذكرها ، فغادر بجاية نهائيا ، يوم ٧ جوان ١٥١١ ، كما رأيت فيما مضى •

استعباد مدينة مستغانم •

لم تشأ مستغانم أن تقع فريسة للاسبان بعد معركة غير متكافئة ، فاتصلت بهم ، كما اتصل بهم سليم التومي ، اثر احتلالهم لبجاية ، وعقدت بين الجانبين المستغانمي والاسباني ، اتفاقية حفظ التاريخ لنا نصها الاسباني في خزينة أوراق سيمانكاس الانفة الذكر ، وهذا تعريبها :

٢٦ ماي ١٥١١

ان قائد ومرابطي وشيوخ مستغانم ومازغران ، وكذلك جميع السكان من عرب ويهود ، يلتزمون بخدمة جلالة ملك وجلالة ملكة قشتالة بأمانة واخلاص ، ويدفعون لهما كل المكوس والضرائب والاتاوات التي كانوا يدفعونها من قبل ، برا وبحرا ، لملك تلمسان • ويكون الدفع غرة شهر جوان من كل سنة ، بين يدي قابض مدينة وهران •

••••• ويطلق أهل مستغانم ومازغران سراح كل الاسرى المسيحيين الذين هم تحت أيديهم •

••••• ويحق للسنيور دون دياقو فرنانديز دي قرطبة القاضي ALCADE والقائد العام لمملكة تلمسان Capitaine général ان يحتل قلاع وحصون المدينتين اذا طلب منه صاحبا الجلالة ذلك، كما يحق له أن يبني غيرها، دون أي اعتراض من أهل المدينتين على ذلك، بل ان أهل المدينتين، على العكس من ذلك ، ملتزمون بتسليمه كل ما يحتاج اليه من حيوانات نقل ومن مواد بناء وذلك بأسعار محددة مدققة •

•••• كذلك يلتزم أهل المدينتين بتموين مدينتي وهران والمرسى الكبير

ولايسمحون مطلقا بتعمير أو تفريغ أى سفينة بمرسى مستغانم الا باذن من جلالة الملكين •

وعلى سكان المدينتين أعلام القائد العام المذكور، بكل ما يهم جلالتيهما الاطلاع عليه ، وبكل ما يتعلق بسلامة وهران والمرسى الكبير • وعليهم الامتثال لكل أمر يلقى اليهم من أجل الحرب والسلام •

القائد والمرابطون والشيوخ والسكان العرب واليهود ملزمون بتنفيذ هذه الشروط المقررة ،، وعلى صاحبى الجلالة مقابل ذلك الدفاع عنهم ضد أى عدو يأتيهم من البر أو من البحر •

ولا يرغم أهل المدينتين على أعتناق الدين المسيحى ، ويسمح لهم الملكان بأن يستمروا على العيش وعلى حكم أنفسهم حسب شريعتهم ، وتبقى لهم ديارهم وممتلكاتهم ا هـ •

وأخذ الاسبان أثر أمضاء المعاهدة، يحملون الناس فى كل من المدينتين، على امضاء « شواهد اخلاص » أمام القاضى، تسجل قبولهم للمعاهدة ، والتزامهم بخدمة ملكى اسبانيا، كما نرى فى الوثيقتين المكتوبتين بلغة عامية سوقية، تدل على أن الذين كتبوها وأمضوها، لم يكونوا من العلماء ولا من الطلبة، ولا من الرجال المرموقين فى ذلك العهد •

وقد جاء فى الوثيقة الاولى بالنص :

« الحمد لله أشهدو على أنفسهم كافة أهل مستغانيم وتمزغران خاصة وعامة وفرهم الله وقرئى عليهم ما كتبه اليهم الفارسان المعظمان المحترمان المقربان القايد رتديلش والقائد غومس اعزهما الله وفهموا ما فيه

صورة وثيقة اخلاص مستغانم المفروضة : ←

الحمد لله اشهد من وقف على انه يسمع كاتبه اهل ... [illegible]
جماعة وعامة ... [illegible] ... الله ... عليهم ما كتب ... [illegible]
... [illegible] ... الشروط العايد
... [illegible] ... الله ... [illegible]
بما ... [illegible] ... بامر السلطان ... [illegible]
وخدمته ... [illegible] ... رضا ... [illegible]
بعهد الله ... [illegible] ... التغيير ... [illegible] ... السلطان
والسلطان ... [illegible]
الله ... الشهد محمد بن عبد الرحمن ... [illegible] ... وسعيد بن ... [illegible]
و... بن عبد الرحمن ومحمد بن عبد العزيز ... [illegible] ... والحاج ... [illegible]
ومحمد بن ... [illegible] ... الصفاقسي ... [illegible] ... وعلي ... [illegible]
والحاج محمد بن ... [illegible] ... وعلي بن ... [illegible]
واحمد بن ... [illegible] ... وعبد الله ... [illegible]
وعلي بن ... [illegible] ... واحمد ... [illegible] ... وعبد القادر
... الحاج عبد الرحمن ... [illegible] ... ومحمد بن ... [illegible] ... وعبد الله ... [illegible]
... [illegible] ... والحاج علي ... [illegible] ... وبلقاسم ... [illegible]
... [illegible] ... ومحمد بن ... [illegible] ... ومحمد بن ... [illegible] ... وعبد الله ... [illegible]
وعبد ... [illegible] ... الحاج ابراهيم ... سليمان بن علي
... [illegible] ... وعلي بن ... [illegible] ... والحاج ... [illegible]
ومنصور بن ... [illegible]

... [illegible] ...

كبارا وصغارا ورضو بما سمعوا وقالوا كلهم سمعا وطاعة بأمر السلطان السلطانة وخدمتهم ونحنالهم رعية وعلى ذمتهم نعمــر أرضنا وهـــم ضيافنا بعهد الله وميثاقه لاتبديل ولاتغيير وأمرنا الــى الله ثم السلطان السلطانة وهم بحال صحة وطوع وجواز الامر بتاريخ او اخر شهــر الله مايى وبذلك شهد محمد بن عبد الرحمن البصلي وسعيد بن بوبكــر ولحسن بن عبد الرحمن ومحمد بن عبد الحق بن الزلاط والحاج سالـــم ومحمد بن موسى وعيسى بن القــايد وعلى بن قاسم والحــاج محمد بن تام وعلى بن خلفة بن الشنديخ واحمد بن بشير وعثمان العمان وعبد الله الهوارى وحميد القاضي وعلى بن معرف واحمد الدهو ومحمد بن الرفيس وعبد الله التازى الحاج عبد الرحمن المركك والحاج على القشاع وبلقاســم بـــن الهوارى ومحمد بن كنيز ومحمد بن قلالى وعبد الله بن ماصوص وعبد الرحمان بن بوعجاج والحاج براهيم سليمــان بن على طيفــل بن المرو وعلى بن بوعنقــة والحاج الرماش ومنصور بن الجنون (امضاء محمد بن عبد الرحمن ؟) لطف الله به

علم بتبوتــه عن قاضى مستغــانم (امضاء : يحيى بن عبد .... الخطيب لطف الله به) اه

أما الوثيقة الثانية، وهى أعمق فى العامية والسوقية، فنقول بالنص ، وقد اضطررت لبيان بعض كلماتها بين قوسين - والدليل القاطع على املائها هو انها محررة بالتاريخ الفرنجي الذى يجهله كل الناس اذاك فى بلادنا :

« نهر الجمع (نهار الجمعة) ثلاثين من ماى عام الف وخمس ماية وحد عشر عام الحج عبد الله البحى ويسف (يوسف) العبد الواد وحمد بن بزين والحج احمد بن حنين والعباس بن الغزال وصالح بن لندلس ومحمد

بن الوعان وعمر بن كركيش وعلي بن حسين (وهو الكاتب فيما يظهر)
ملن حن حلفن بالله الذي لااله الا هو عالم الغيب والشهاد والطالب الغلب
الله وعلى هذا الرهط حلف أهل مستغانم وتمزغران قدم (قدام) القاضي

صورة الوثيقة الثانية

انهم نحن نحرز ونوفق ونحبس ونجعل يتحبس ويتحرر كل ما هو فى العقد وكل شيء كف (كيف ، مثل) نس (ناس) اجواد امن رعى لدى السلطان والسلطانة ضيافن لدب ولاالقدام منكسر ولانوافق على كسير ونخدم للسلطان والسلطانة صيافن مصواب وعلى حق كف (كيف، مثل) يعمل رعية أجواد ونحن التزمن بهذا أتو وصحيح كف التزام أهل مستغانم وتمزغران قدم (قدام) القاضى وبش (باش، لكى) يكون هذا صحيح وحق ارقين خط يدين (أيدينا) فى هذا العقد الحج عبد الله البحى ويوسف العبد الواد حمد بن بزنين أحمد بن حنين العباس الغزال صلح بن لندلس ومحمد بن الوعات وعمر بن كرديش و (امضاء) : على بن حسين بن عمر • » اه

عمر• » اه

بهذه الوسائل السخيفة الصبيانية، اعتقد الاسبان انهم تمكنوا نهائيا من ناصية مستغانم وتمزغران ، وانهم وضعوا فيما بين وهران ومدينة الجزائر منطقة سلام وأمن لهم•

لكن الرجال الاحرار الصناديد، وشباب الشعب الفدائى البطل، كانوا فى كل من المدينتين، يستعدون للوثبة الكبرى، وتحطيم اغلال المذلة والاستعباد، الى ان كانت نكبة الاسبان الحاسمة فى نفس المدينتين، وفيما بينهما، حسبما سيأتيك به البيان •

وقد كان أهل مستغانم ذوى قوة قبل ذلك فى البحر• وكانت لديهم سنة ١٥٠٥ عمارة مؤلفة من ١٢ سفينة قرصنة يركبها مهاجرو الاندلس الثغريون• ولقد هاجموا انتقاما من الاسبان مدن بلنسية• والشى • واليكانتى وغنموا منها •

الفصل الثالث

العدوان الاسباني بعد النجدة التركية

الى استشهاد البطل عروج

١٥١٢ - ١٥١٨

بطلان مسلمان، في ميدان النضال والشرف

عروج وخير الديـــــن

الاصـــل والنشاة

لانتعرض هاهنا لاصل ومنشأ البطلين المجاهدين، الذين لرغبة الشعب، ومن أجل انقاذ وتوحيد الشعب، هذه الدولة الجزائريـــة غيرا مجرى التاريخ في بلادنا، وأنشآ لنا باعانة الشعب، واستجابـــة العزيزة الجانب، المرفوعة الرأس، الا قليلا، لان الذى يهمنا من أمرهما، انما هو هذه الصفحة البيضاء النقية التي رسماها بالسيـــف وبالقلم، في سجل التاريخ الجـــزائري ، منذ ذلك اليوم الاغـــر الذى تقدما فيــه ، متطوعين في سبيل الله، لانقاذ مدينة بجاية من الرجس والارهاق، الى اليوم الذى نال فيه أولهما فضـــل الشهادة في ميـــدان البطولة والشرف، وغادر فيه ثانيهما أرض الجزائر بعد أن أقام الدولة وألف الجماعة، وأنقذ البلاد ، وقهر العدو .

ان حياتهمـــا قد أضحت أسطـــورة من الاســـاطـــير العـــالمية ، ألفت فيها

الكتب، وكثرت فيها الاقوال، واختلفت حولها الاراء، فلم تتفق الاحول أمر واحد ، الا وهو انهما من أشداء الصناديد ، ومن عظماء الابطال ، ومن اولى العزم الذين سمت بهم عصاميتهم فبوأتهم اعلى المقاعد وحققت لهم، وبهم أغلى الامال •

امتدت الدولة العثمانية، كما رأينا فى التمهيد السالف الذكر، اواخر القرن الخامس عشر، فشملت كامل بلاد البلقان، والجنوب الغربى من اوربا، واحتلت جزر بحر الارخبيل، وتركت فى كل قطر من الاقطار التى فتحتها، نخبة صالحة من كرام المسلمين الاتراك، يحكمون البلاد وينشرون الدين ، فمن أبنائهم وأبناء الذين شرح الله صدورهم للاسلام على أيديهم، لاتزال توجد الان، بعد خمسة قرون، هذه الملايين من المسلمين فى المانيا، ويوغوسلافيا، واليونان الشرقية ، وغيرها •

ففى جزيرة مدلى من بحر الارخبيل، عاش تركى من بقايا الفاتحين المجاهدين، اسمه يعقوب بن يوسف، كان متزوجا من سيدة اندلسية، ولدت له اولاده الاربعة: اسحاق ، وعروج ، وخسرف ، ومحمد الياس •

ولقد انشغل المؤرخون كثيرا بهذا النسب، وادعوا فيه مختلف الاقاويل، فمنهم من يقول ان السيد يعقوب كان مسيحيا واسلم، ومنهم من يقول ان زوجه كانت أرملة راهب يونانى، الى غير ذلك مما لا يهمنا أمره كثيرا ولا قليلا، انما الذى نستطيع أن نؤكده، بناء على مابين ايدينا من وثائق، هو ان السيد يعقوب بن يوسف كان تركيا مسلما، كما سنرى بعد قليل، عند تصحيحنا لاسم ابنه البطل عروج •

أما ابناؤه، فقد نشأوا نشأة اسلامية صلبة، وترعرعوا فى حجر الجهاد الاسلامى العنيف، يوم كانت الملحمة عامة عارمة، بحرا وبرا، بين

المسيحية والاسلام. فاذا كان ابنه محمد الياس قد اختار طريق العلم والتبحر فى دراسة القرآن والفقه، فان الاخرين قد اندفعوا فى طريق الجهاد منذ نعومة أظفارهم، واختاروا البحر مجالا لجلادهم. واذا كان الدم الاندلسى يجرى فى عروقهم عن طريق والدتهم، فان نداء الدم قادهم للجهاد فى الحوض الغربى من البحر المتوسط، حيث كانت دولة المسلمين تذل وتهان وتنقرض بالبلاد الاسبانية، وحيث كان المستضعفون من الرجال والنساء يحاولون الفرار بدينهم وبشرفهم من ذلك الجحيم الاليم، فيقعون غالبا بين أيدى القراصنة الاسبان الذين يستعبدونهم ويغذون بهم أسواق الرقيق .

عروج : يقول التاريخ انه هو الذى فتح امام اخوته أبواب المغامرة فى سبيل الله على أمواج البحر، وانه اندفع فى ذلك الميدان ولم يكد يعدو السنة العاشرة الا قليلا، وذاق من البحر حلوه وذاق من البحر مره، وتمكن من تجهيز مركب جهادى وتولى قيادته وهو فى مقتبل الشباب، واسره الاعداء فى بحار الشرق، فعمل فى المجاذيف والقيد فى رجله مدة سنتين. لكنه تمكن من الفرار اذ القى بنفسه فى البحر وهو على مقربة من سواحل مصر الكريمة، فنجاه الله ،ومن هناك ركب البحر عائدا الى جزيرة مدلى، حيث ابوه واخوته، لكنه كاد يسقط من جديد اسيرا بين ايدى الاعداء، فالقى بنفسه من جديد بين احضان حبيبه ـ البحر ـ وكان على مقربة من سواحل قرمان التركية، فأكرم كوركود ابن السلطان بيازيد، وكان يتولى امارة قرمان، مثواه، ورأى فيه مثال الجندى المغامر ذى الباس الشديد، فجهزله سفينة قرصنة، وبعث به غازيا فى بحار ايطاليا، حيث كانت الحرب ضد الاسلام والمسلمين على أشدها، فاقتنص

سفينتين محملتين بضائع ثمينة، تابعتين لدولة البابا، واقتنص سفنا أخرى ايطالية ، وآوى الى مرسى الاسكندرية بعد ان دفع الخمس من الغنائم لبيت مال المسلمين، ثم ركب البحر من جديد، على رأس عمارته، وقد أصبحت له عمارة صغيرة مما غنمه، وانضوى تحت لوائه جماعة من المجاهدين الاقوياء ،وعزم على أن يلقى بثقله فى الميدان الغربى، وبجهة الاندلس موطن أمه بصفة أخص، واختار جربة مركزا لاعماله وهناك جاءه أخوه خسرف، وقد أصبح مثله على رأس سفينة قرصنة حربية، وانطلقا من هناك الى ناحية الاندلس ينصران الاسلام، وينقذان اللاجئين الاندلسيين الى العدوة المغربية ويمعنان فى أسطول النصارى تقويضا واسرا .

هنالك أطلق النصارى لقب « بربروس » أى ذى اللحية الشقراء ، على كل من الاخوين الذين أصبحا مصدر الرعب والفزع فى البلاد النصرانية المتاخمة ، وفى بحارها .

وهناك اقترح فضلاء الاندلسيين والمغاربة على خسرف أن يغير اسمه، وأطلقوا عليه منذ تلك الساعة اسم « خير الدين » وكانت العناية الالهية قد اختارته للقيام بدور بطولى فى بلادنا الجزائرية غير الله به حالها الى أحسن حال .

وفى حوالى سنة ١٥١٠، (رأى السلطان الحفصى أبو عبد الله محمد، وكان لا يزال فى الدولة الحفصية رمق ، أن يستعين بهذين البطلين لحماية الدين والدولة ، وأن يجعل مما يدفعانه من خمس الغنائم موردا ثريا لخزانة الدولة التى لم تكن مزدهرة ، فأقطعهما مرفأ « حلق الوادى » يتخذان منه قاعدة لمحاربة من يحارب الاسلام .

خرج الاخوان البربروسان من مقرهما الجديد غازيين فى سبيل الله على رأس عمارة مؤلفة من ثلاثة سفن قرصنة • فالتقيا فى عرض البحر بسفينة حربية كبيرة تنقل من نابولى الى برشلونة ثلاثمائة جندى أسبانى• وكانت السفينة النابولية أقوى بحجمها وبنيران مدفعيتها مـــن مجموعـــة العمارة الاسلامية، لكن نيران الجهاد المتقدة فى نفسيهما، وحب الانتقام من هؤلاء الاسبان الذين لاتزال أيديهم محمرة من دم المسلمين ، فاندفع الاخوان يحاولان أسر السفينـــة، وهاجماها فى مناورات بحرية غريبة سبع مرات، وهى تلقى بمقذوفاتها الضخمة عليهم، فلا تصيبهم الا قليلا • فلما كانت المرة الثامنة، مكنهما الله منها وأصيب البطل عروج بجرح بليغ من قذيفة، فتولى خير الدين القيادة، وحاذى السفينة المعادية فالتصـــق بها ، والقى بنفســه على ظهرها وتبعه الكرام المجاهدون ، فاستولوا عليها بعد معركة عنيفة، واسروا كل من بها، ودخلوا بها الى مرسى حلق الوادى وهى تحمل رايتها •

واعترفنا بجميل السلطان أبى عبد الله محمد، فقد ساقا اليه فى أبهة تفوق الوصف، هدايا فاخرة مما غنماه، زيادة عن الخمس الشرعى • تشمل عددا من كبار وكبيرات الاسرى، واشتد اعجاب السلطان بهما والتقدير لهما ، واستمر على أعمال الغزو والجهاد • ونقه عروج من جرحه، فاسترجع مركز قيادته، يشد أزره شقيقه خير الدين، الى ان كانت سنة ١٥١٢، وابتدأ نجمهما يلمع فى سماء المغرب الاوسط، مما هو مجال بحثنا هذا •

تصـــحيـــح اســـم عـــروج :

تذكر كتب التاريخ الغربية، كما تذكر كتب التاريخ العربية اسم عروج

بفتح العين ، وتشديد الراء . وهذا غلط ، سببه عدم التعميق فى دراســة الوثائق ليــس الا .

فالاسم الحقيقى لهذا البطل الاسلامى العظيم ، مؤسسس دولة الجزائر، انما هو عروج (بضم العينوضم الراء) وهى عربية صميمة معناها الارتفاع والصعود ودخلت التركية عن طريق ذكرى حادث عظيم فى حياة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، هو حادث « الاسراء والمعراج »

ولا أكاد أرتاب فى ان البطل المتحدث عنه قد ولد ليلة المعراج ، فدعاه أبوه « عروج » تيمنا بذلك الحادث العظيم . كما يطلق الاتراك كثــيرا اسماء « رجب ، وشعبان ، ورمضان ، ومحرم » على مواليدهم الذيــن يولــدون خــلال تلك الاشهــر الحــرم .

واخواننا الترك لا ينطقون حرف العين ، بل يقلبونها الفا يندمج مــع ما بعده، فمدينتنا عشاق وعين أونى مثلا وهما فى بلادهــم تلفظان حسب نطقهم : أوشك، وأين أونى، وكلمة « عروج » ينطقون بها « أوروج » .

هذا هو الاسم الذى اشتهر به بطلنا شرقا وغربا . وقبل أن يرجــع الجزائريون هذا الاسم الى أصله العربى ، ويعيدون له عينه نطقا ، كانوا فى مستهل الفتح يكتبونه على الطريقة التركية « أوروج » يدل على ذلك أثران قديمان، لايزالان موجودين الى اليوم: أحدهما الرخامة المنقوشة التى كانت موضوعة على باب حصن شرشال . وثانيهما، الرخامة المنقوشة التى كانت على باب مسجد الشواش بالعاصمــة الجزائريــة . فرخامة شرشال قد نقش عليها (وهى بمتحف شرشال)

« بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله . هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركى ، فى خلافة الامير القائــم

بامر الله ، المجاهد في سبيل الله • أوروج بن يعقوب باذنه ، بتاريخ اربع وعشرين بعد تسعمائة • « أي سنة ١٥١٨)

أما رخامة مسجد الشواش الذى هدمه الفرنسيون، والذى كان على مقربة ساحة الشهداء فى الجزائر، فهى تحمل اسم

أوروج بن أبى يوسف يعقوب التركى •

ومن هذا نستخلص أيضا ان والد البطلين المنقذين كان تركيا صميما، خلافا لما يدعيه كثير من مؤرخى الافرنج • ونزيد على ذلك، لتصحيح هذا النسب واضفاء نور جديد عليه ، هذه الرخامة الموجودة بمتحف مدينة الجزائر ، والتى كانت موضوعة فوق باب المسجد الذى أمر ببنائه فى الحضرة الجزائرية « السلطان » خير الدين وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

فى بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له

فيها بالغدو والآصال

أمر ببناء هذا المسجد المبارك السلطان المجاهد فى سبيل رب العالمين مولانا خير الدين بن الامير الشهير المجاهد أبى يوسف يعقوب التركى بلغه الله أقصى سؤله وأعانه على جهاد عدو الله ورسوله بتاريخ أوايل جمادى الاولى من عام ستة وعشرين وتسعمائة) أى (أفريل سنة ١٥٢٠)

الاستصراخ لانقاذ بجاية

تركنا بجاية وهي تحت الاسر والاستعباد، وقد سمح الاسبان لسكانها بالعودة اليها ، تحت شروط ، وعقدوا معاهدة مع « الملكين » المتنازعين . عبد الله وعبد الرحمن ، وظنوا أنهم قد أمنوا بطش المجاهدين فى هذه الناحية . وقد اسلفنا أن أبا بكر سلطان قسنطينة قد رجع الى مقر حكمه تاركا الحرب الى حين ، وان المجاهدين الذين أووا الى صيامى جبالهم لم تفتر فيهم عزيمة الجهاد ، وأصبحوا ينتظرون الزعيم الذى يتودهم نحو النصر والتحرر ، ولم يطل بهم الانتظار ..

فأخبار عروج وخ يرالدين، قد شاعت وذاعت، وملات اقطار المغرب العربى وبلاد الاندلس ، وأصبحا فى مدينة « حلق الوادى » يمثلان قوة اسلامية عظيمة ، تتوجه نحوها الانظار .

ورأى المجاهدون فىبجاية وحواليها ، وفى جبال القبائل ، وفى قسنطينة ان هذه هى الفرصة التى هياتها العناية الالهيـة للمسلمين بهذا المغرب الاوسط ، لمساعدته على الخلاص من بين براثـن الاستعمـار الصليبى الاسبانى ، فأرسل اليهما « الملك » أبو بكر الحفصى من قسنطينة ؛ كما ارسل اليهما ، حسبما يرويه العلامة المؤرخ التونسى ابن ابى الضيـاف « العلماء والاعيان من أهل بجاية ، يستصرخونه فى انقاذهامن يد العدو »

جمع عروج وخير الدين رجالهما، وتشاوروا فى الامر، وقرروا المبادرة بتلبية هذا النداء، وأيقنوا أن هذا الجهاد لانقاذ ثغور الاسلام بالمغرب الاوسط انما هو الجهاد الحق . متوكلا على الله ، واعلما جماعات المجاهدين حوالى بجاية ، وبالبلاد القبائلية ، انهما قادمان توا ، وتواعد الجانبان على الالتقاء فى ساحة الجهاد ، عند أسوار بجاية ، فى ساعة محددة .

اول ظهور الاتراك بالمغرب الاوسط

مناوشة بجاية الاولى :

أخذت وفود المجاهدين تتوارد حوالى المدينة • ونزل من جبال زوواة الابية جماعات من رجالها الاحرار، وكان الكل على موعد مع «بابا عروج وخير الدين • وكان على رأس المجاهدين القائد : الموفق ، فى نحو الثلاثة آلاف رجـــــل •

غادرت العمارة التركية مرسى حلق الوادى، وكانت تشمل خمسا من السفن ، تحمل السلاح والمدافع والرجال ، وأمت ساحة بجاية حيـــث وصلتها فى الموعد المحدد سنة ١٥١٢ •

لكن عمارة أسبانية مؤلفة من ١٥ سفينة، كانت مخيمة على مرسى بجاية، قادمة من اسبانيا ، قد اعترضت طريق اسطول المسلمين أمام المدينـــة ولم يكن فى استطاعته مهاجمتها ، نظرا لتفوقها العظيم •

وفكر الزعيمان فى الامر، فاعملا الحيلة، وتظاهرا بالانسحاب فرارا امام الاسطول الاسبانى • فانطلت الحيلة على الاسطول ، وأخذ يتتبـــع العمارة الاسلامية، الى أن أصبح تحت مرمى مدفعيتها، وعندئذ كرت عليه فى حركة بحرية بديعة ، وهاجمته بعنف وصرامة،فاستولت على احدى السفن الاسبانية، وأرسلت بسفينة أخرى الى الاعماق، وانهزمت بقية السفن على كثرتهـــا •

وهنا اختلف رأى القائدين عروج وخير الدين ، فهذا كان يرى وجـــوب

محاصرة المدينة بحرا ، وقطع كل مدد عنها ، بينما يشدد المسلمون عليها نطاق الحصار برا، الى أن تستعد للاستسلام • أما عروج فقد كان يرى وجوب النزول الى البر ، ومهاجمة المدينة من جهة ، بينما يكون المجاهدون من أهل البلاد يهاجمونها من الجهة المقابلة ، وكان هو القائد ، فأخذ برأيه•

وهكذا نزل عروج من سفنه، صحبة خمسين رجلا من رجاله الاتراك الاشداء ، وتقدم مستطلعا نحو أسوار المدينة وحصونـها ، والاسبـان ينظـرون اليهم من فـوق الشرفات ، الى أن أصبحوا على مرمى بنادق المدافعين فانهالت عليهم طلقات الاسبان، وأصابت رصاصة بندقية ذراع القائد بابا عروج فكسرتها ، ولم تدم المعركة طويلا ، وقد كانـت فى الحقيقة عمليـة استطلاع واكتشاف ، لمعرفة طريقة التحصين والاطلاع على حالة الاسوار، واختيار أحسن المواقع لمنازلة المدينـة •

يقول الاستاذ م • س • بوليفة ، فى كتابه القيم « الجرجـرة عبـر التاريخ » ، ما تعريبه :

« هذه المعركة رغما عن خيبتها، قد مكنت رجال القبائل الجبليين من الاطلاع على حقيقة تلك القيمة الحربية التى يتصف بها جيش الانكشارية• ولقد أعجب الجبليون لاول مرة بهذه الشجاعة وهذه الحمية التى يتحـلى بها الاتراك ، وفقد قائدهم لذراعه أثناء المعركة ، ولم يسعهم تجاه ذلـك الا منحهم كامل مودتهم • »

واضطر بابا عروج ، للرجوع الفورى الى تونس ، من أجل معالجـة ذراعه ، ولم يجد الاطباء يومئذ لها من علاج الا بترها ، ففصلت عن الجسد•

لكن عروج لم يواصل طريقه الى تونس مسالما متألما من الكسر الذى ألم به ، بل لقى وهو فى طريقه الساحلى سفينة معادية ، تابعة لمدينة جنـوة

الطليانية المعادية فهاجمها ، وأسرها ، وغنم مافيها ، ثم رجع بها الى تونس ضـمن عمارتــه •

الاستعــداد الاسبـــاني :

كانت هذه العملية نذيرا مبينا للاسبان ، وقد علموا أن البربروســين ما جاءا مدينة بجاية على رأس عمارتهما عابثين • وانهما لا شك راجعان بقوة كبيرة وأن حالة المعركة ستتغير بهذا التدخــل غــير المنتظــر وأن المجاهدين ستقوى عزائمهم ويشتد بهذه النجدة ساعدهم ، لذلــك بــادر الاسبان بطلب النجدة والاعانة من اسبانيا ، من جهة ، كما بادروا بفتــح مساومات مع رجال القلعة ، وراء بجاية • ورغم المحاولات الاكيدة التى بذلها أحرار زواوة الاباة ، فان زعماء « القلعة » الذين أقنعتهم حجــة الذهب الاصفر الكثير ، قد تعاقدوا مع الاسبان ، وأمدوهــم بالمــؤن والاقوات فازداد بذلك ثباتهم ، وقويت بذلك عزائمهم •

انقــاذ مدينــة جــيجل :

فقد البطل عروج ذراعه ، لكنه لم يفقد عزيمته وصلابته ، ورأى أن محاصرة بجاية واحتلالها ليس بالامر الهين الميسور ، كما رأى أن وجوده بتونس يبعده عن أرض المعركة المقبلة ، فصمم على فتح مدينة جيجل التى تقــع على بعد ١٠٢ كيلو متر غربــى بجايــة ، وانقــاذها من يد الاستعمــار الجديد ، الذى ارتكز فيها على قواعد استعمار قديم ، وذلك لكى يتخــذ منها نقطة انطلاق نحو بجاية ، ويجمع بها رجاله وسلاحه ويجعلها مركز تجمع للمجاهديــــن •

كانت مدينة جنوة الطليانية قد استقرت بمدينة جيجل منذ سنـــة ١٢٦٠ ، ووضعت بها حماية ، واتخذت منها مركزا للتبادل التجارى بين ايطاليا وافريقيا . ثم تضاءل أمر المركز التجارى شيئا فشيئا ، وتغلب الاحرار من أهل البلاد على الحامية .

لكن الاميرال أندريادوريا الشهير الذى سوف نجده أمامنا باستمرار خلال بحثنا هذا ، قد خيم على المدينة بأسطوله ، وقد كان يومئذ فى خدمة فرنسا ، واحتل جيجل بعد معركة حامية ، وأخرج منها سكانها المسلمين، ووضع بها حامية لحساب مدينة جنوة ، حتى تعيد المركز التجارى سيرته الاولى .وكان ذلك اثر اخفاق المحاولة الاولى التى قام بها عروج عـلى رأس المجاهدين ضد بجاية ، أى سنة ١٥١٣ .

واستنجد أهلها المشردون بعـروج ، وأعلموه انهم أصحاب قوة ونجـدة وأنهم سيكونون فى الساعة المعينة أبطال حومة الوغى ، وتم الاتفاق على هذا ، واستعد الجانبان للمعركة ، ثم جاء عروج على رأس عمارته البحرية ورجاله الاشواش ، يصحبه اخوته وعلى رأسهم خير الدين ، والتحمت المعركة حالا بين قوى المجاهدين وبين حامية جيجل . فعروج والذين جاءوا معه تمكنوا من النزول الى البر ، وتم الاتصال بينهم وبـين جماعـات المجاهدين من أهل البلاد المشردين ومن جاء من أجل النجدة والانقاذ . وانتهت المعركة بفتح المجاهدين المدينة ومقتل كل رجال حاميتها ، ورجع أهل البلدة الى ديارهم آمنين ، بعد ان اقتسم المجاهدون بينهم على السواء كل الخيرات والبضاعات التى كان المركز التجارى عامرا بها ، وذلـــك سـنـة ١٥١٤ .

وتم لعروج هدفه المزدوج : انقاذ بلدة اسلامية من يد العدو ، وكانت

أول بلدة ينقذها على ساحل البلاد التى أصبحت فيما بعد تدعى البــلاد الجزائرية ، والاستقرار بمركز منيع ، برا وبحرا ، يسمح له ولرجالــه الابرار بحرية المناورة من أجل تطهير البلاد من الاحتلال الاجنبى .

وهكذا استقر عروج مبجلا مكرما بين جماعة المسلمين فى بلدة جيجل . وكثرت الاتصالات هنالك بينه وبين مختلف وفود المسلمين من هذا المغرب الاوسط ، واستمر يعالج فى مقره الجديد ذلك الجرح البليغ الذى أصابه من جراء بتر ــ يده ، فسلم مقاليد القيادة البحرية لشقيقه البطل خــير الدين . وأخذ يستعد للضربات الحاسمة .

انقاذ مســــلمى الاندلــــس :

أما خير الدين ، فقد سار على رأس عمارته ، وما أمكن جمعه من السفن، ملبيا بالاتفاق مع شقيقه أصوات الاستغاثة اليائسة التى جاءت من قبل بلاد الاندلس ، حيث المستضعفون من الرجال والنساء والولدان ، الذين نكث الاسبان معه العهود وتنكروا للمواثيق ، وأصبحوا يرغمونهم ، بين الحديد والنار ، على اعتناق المسيحية ، وهم يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنــك نصــــيرا .

أنقذ خير الدين ما أمكن انقاذه ؛ لكن الاسطول الاسبانى كان لــه بالمرصاد ، فلم يستطع أن يعمل الشيء الكثير هذه المرة، وانقض على جزائر الباليار الاسبانية ، واحتل مينورقة ، واخذ أهلها أسرى ، وخيراتها غنيمة، ثم آب الى المركز العام الذى هو مدينة جيجل .

المحاولة الثانية لانقاذ بجاية :

كان المسلمون فى جهة جيجل والجبال المحيطة بها ، وأغلبهم من قبائل كتامة قد التفوا حول عروج ورأوا من ايمانه ومن أخلاقه ومن قوة شخصيته ما جعلهم يبايعونه « أميرا » ويعاهدونه على السير وراءه الى ميادين الجهاد ، من أجل انقاذ المدن الاســـــلاميـــة •

وهكذا تمكن عروج من انشاء جيش منظم ، واحسن تشكيله فى كتائب متعددة ، وعوده على استعمال الاسلحة الجديدة للرماية ، وقد وعده الشيخ أحمد بن القاضى ، شيخ بلاد زواوة الغربية « كوكو » بالاعانة والتـأييد ، وأخذ رجـال الدين والعلماء يستنفـرون النـاس الى الجهـاد فى سبيل الله ، وعمت الدعوة وانتشرت •

نهض عروج الى بجاية فى شهر اوت سنة ١٥١٤ يقود جيشا مؤلفا من عشرين ألفا من المجاهدين ، واحاط بمدينة بجاية ، واشتبك مع حامياتها فى معارك قاسية ، شديدة ، وكان فى نفس الوقت يوالى دراسة « الموقع » ويحاول اكتشاف نقطة الضعف فيه • وبعد محاولات دامت زهاء الثلاثـــة أشهر ، تبين له ان الحصون لاتقتحم على الطريقة التقليدية ، وان الاسبانى الصنديد المدافع عن حصن ، يغدو قطعة من حصنه ، لا يمكن ان يفـــرق بينهما الا الموت • فرجع عروج وجيشه الى مركزه بمدينة جيجل خلال شهر نوفمبر ، لكى يقضى فيه فصل الشتاء ويعيد ترتيب جيشـــــه ، وتزويده •

المحاولة الثالثة لانقاذ بجاية :

وتحرك فى ربيع سنة ١٥١٥ يقود جيشه برا نحو بجاية التى كانت حاميتها الاسبانية تنتظره فى عزيمة وتصميم جديرين بكل تقدير • اعتزم عروج مهاجمة المدينة حسب خطة جديدة هداه اليها تفكيره ، فجاء بالعمارة البحرية للمشاركة فى العملية ، واقتحمت سفن الاسطول مصب نهر الصمام ، ودخلت محاذية للمدينة ، وكانت مياه الوادى يومئذ غزيرة، وانزل جيشه وراء الحصون المواجهة للوادى ، ونصب الحصار بصفة محكمة حول المدينة •

وجه أول الامر قوة مدفعيته صوب معقل « القصر الصغير » وأخذ يقصفه بقوة وعنف ، الى ان نسفه نسفا ، وتركه ركاما ، ومات أكثر المدافعين عنه • أما الذين بقوا منهم على قيد الحياة ، فانهم تسللوا الى معقل « القصر الكبير » يعززون حاميته •

وظن عروج انه يستطع مهاجمة البلدة من وراء انقاض القصر الصغير• لكن خط الحصون كان متينا ، ومراكز الدفاع كانت قوية ، فلم يستطع الجيش الاسلامى اقتحام البلدة من ناحية البحر ، حيث خرائب القصر الصغير ، فولى وجهه شطر « القصر الكبير » واخذ يقصفه بمدافعه ، ويحاول تحطيمه ، وقد تقدمت نحو هذا القصر جموع المجاهدين فى حمية قوية ، واستعملوا ضده الالغام ، وأتلفوا الخندق المحيط به •

وأمر عروج رجاله بأن يشيدوا فوق المرتفع الذى يطلو بجاية، برجا عاليا ، أخذ يراقب من بين شرفاته سير المعركة ويباشر منه ضرب الاسوار بما رفعه اليه من مدافع • وعزم على مهاجمة المدينة هجوما عاما ، من كل

الجهات ، وكانت الصدمة هائلة القى المجاهدون بأنفسهم خلالها على الموت كأنهم لايريدون سواه، واستبسل الاسبان خلالها فى سبيل الدفاع استبسالا منعدم النظير ، شارك فيه المدنيون الى جانب العسكريين ، وشاركت فيه المرأة والصبى الى جانب الرجل . فكان المدنيون من نساء ورجال يقفون وراء الاسوار ، يرممون كل ثلمة تحدثها مدافع المسلمين بمجرد وقوعها، والوالى الاسبانى دون رامون كاروز، يتخطى الصفوف فى كل مكان ، وكأنه الاسد الهائج ، يحرض الناس على المقاومة الى الموت.

كان الهجوم الاسلامى محيطا بالمدينة، مركزا على خمس نقط ، كيلا يترك للمدافعين فرصة التجمع فى مكان واحد ، وكان عروج ينزل بنفسه لادارة المعركة ويباشر بنفسه عمليات الحرب ، مستعملا يده الباقية، مستعينا بيد مصنوعة من الحديد، اهداها له جنده ، لتقوم مقام الذراع المبتورة .

وهنا، ولاريب، تقع الحادثة المؤلمة التى رواها المؤرخ الكبير ابن أبى الضياف، نقلا عن المصادر الصحيحة . اذ يقول ما نصه « وضيق عليها الحصار ولما أشرف على الفتح نفذ ما عنده من البارود، فكاتب السلطان الحفصى بتونس، وهو محمد بن الحسن يستمد منه البارود فتغافل عنه، تخوفا على ملكه المشرف على الانقراض، والتقدير وراء التدابير »

وخلال هذه المعركة استشهد القائد محمد الياس ، شقيق عروج وخير الدين وكان من كبار الطلبة ، حافظا القرآن مشاركا فى علوم الدين .

أدرك عروج وشقيقه، والاركان المحيطة بهما، أن الجهود العنيفة المبذولة لن تأتى بنتيجة تذكر، وان الخسارة فى الارواح التى أصابت

جموع المسلمين تجعل من الصعب الاستمرار على مهاجمة الحصون والمعاقل التى لا تزال على حالها قوة ومنعة • يضاف الى ذلك فقد البارود الذى استنزفت الالغام والمتذورات كل مدخراته، فقرروا آسفين وجوب فك الحصار، مؤقتا، والرجوع الى المركز العام فى جيجل، والاستعداد للمعركة من جديد، فكما كا نتصميم الاسبان على الدفاع قويا، كذلك كان تصميم المسلمين على احتلال المدينة وانقاذها . قويا ، عنيفا ، جارفا •

وفك الحصار، بعد أن استشهد فى المعركة من الاتراك ثلاثة أرباعهم، وقد كانوا بالنسبة لجموع المجاهدين أشبه شىء بالضباط مديرى الحركات •

وكان وادى الصمام أثناء ذلك قدجفت مياهه فلمتبق للسفن مناستطاعة على السير فوق سطحه من أجل بلوغ البحر، حيث كانت السفن الاسبانية القوية، واقفة بالمرصاد، ولكيلا يترك المسلمون سفنهم بين يدى الاسبان، باشروا احراقها ، ثم نصبوا على الوادى جسرا من الاخشاب والقوارب، اجتازوه ببقايا قوتهم، ومعهم ستمائة أمير اسبانى، راجعين الى مركزهم بجيجل ، العاصمة المؤقتة ، للدولة الفتية التى كانت فى دور المخاض •

فاتحة العلاقات مع الدولة العثمانية :

كان من عبقرية عروج وخير الدين، ومن حسن سياستهما الاسلامية ، وانقيادهما المنعدم النظير للمبادى الاسلامية السامية التىخرجا مجاهدين فى سبيل الله من أجل تحقيقها انهما ماكادا يفتحان مدينة جيجل ، ويستحوذان فيها على النفائس ومختلف البضاعات التى وضعها فيها أهل

مدينة جنوة المعادية للسلمين ، حتى بادرا بارسال هدية فاخرة للسلطان سليم العثمانى فى استامبول، أخذاها من نصيبهما الخاص من تلك الغنائم، وشرحا للسلطان العثمانى ماهما عليه من جهاد مرير فى سبيل انقاذ وطن الاسلام من بين براثن الصليبية الاسبانية التى توشك ان تقضى عليه رغم استبسال أهله فى الدفاع الغير المنظم، وحاجتهم الاكيدة للعون والتأكيد

تقبل السلطان سليم هذه الهدية الرمزية قبولا حسنا، وقرر أن يمديد الاعانة لهذين المجاهدين فى سبيل الاسلام •

وجاءت هدية السلطان للبطلين التركيين ، ردا على هديتهما ، فكانت بردا وسلاما على قلوب المؤمنين : كانت تشل ١٤ سفينة قرصنة ، تحمل رجالا من أشداء المقاتلين ، مع كميات من الاسلحة والعتاد الحربى ، وهكذا ابتدأت العلاقات الودية الجهادية الهادفة بين الجانبين العثمانى والجزائرى، والتى كتب الله لها فيما بعد ان تغدو اسسا متينة قامت عليها الدولة الجزائرية الموحدة، المجاهدة، القوية، التى اخترقت فى الماضى القرون العديدة، والتى ستخترق بمشيئة الله وارادة الشعب، قرونا جديدة سعيدة •

الاستقرار بمدينة الجزائر

التاريخ يوشك ان يحدث حدثا جللا ، من تلك الاحداث التى لا يعرف اسرارها الا هو • واذا أراد الله أمرا هيأ له أسبابه •

كان الاخوان عروج وخير الدين ، اثر خيبتهما المريرة الجديدة امام بجاية ، يهيئان فى مدينة جيجل عاصمة الجهاد بالمغرب الاوسط ، حملة

جديدة ضد بجاية، وكانا يريدان وتريد معهما جماعة المسلمين أن تكون القاضية على الاحتلال الاسباني نهائيا في هاتيك الربوع ، فجمعت السفن العديدة ، والمدافع الضخمة ، والزاد الوافر ، والاسلحة والذخيرة التي تكفي لحملة طويلة مريرة، لايكون من ورائها الا نصر من الله وفتح قريب.

وانهم لكذلك اذا بوفد من مدينة « جزائر بني مزغنة » ، يحل بساحة جيجل، يشكو مالحق بمدينة بولكين بن زيرى من عنت وارهاق، ويؤكد اخلاص شيخها «سالم التومي» واستعداده لمد اليد الى الاتراك، اذا ما تقدموا لانقاذ البلدة من الخطر الاسباني ، المخيم عليها من حصن الصخرة «البنيون» الذي اضطر الجزائريون لتسليمه الى الاسبان، سنة ١٥١٠، (٩١٦هـ) اثر تمكن هؤلاء من الاستقرار في مدينة بجاية .

قلب عروج وخير الدين الامر على مختلف وجوهه ، ورأوا ان الاسبان يستطيعون من معقل الصخرة احتلال مدينة الجزائر متى شاؤا ، دون أي مشقة أوعناء، ضرورة أنها موضوعة منذ سنة ١٥١٠ تحت رحمة مدافعهم. وان احتلال الاسبان لهذه المدينة التاريخية الهامة سيمكنهم من مركز ممتاز يجعلهم ، الى جانب مركزهم ببجاية ومركزهم بوهران والمرسى الكبير، أكثر ضراوة وأكثر قدرة على منازلة المقاومة الاسلامية الناشئة. كما ان انتصاب الاتراك بمدينة الجزائر ، من جهة أخرى ، وهي ذات مركز ممتاز على البحر ، وفي نقطة وسط ما بين بجاية وبين وهران ، يسهل على الجيش الاسلامي مهمة انقاذ البلاد ، ويجعله يستطيع المناورة بسهولة، مواليا ضرباته نحو اليمين ، حيث بجاية وما اليها من المدن الساحلية الواقعة تحت الاسر الاسباني

وهكذا قرر عروج بكل سرعة الاستجابة للنداء الحار الصادر اليه من

مدينة جزائر بنى مزغنة، وقرر السير اليها براً، وان يسير نحوها خير الدين بحراً، فخرج عروج على رأس قوة مؤلفة من ثمانمائة من الاتراك، وثلاثة آلاف من مجاهدى الجبال القبائلية؛ بينما أبحر خير الدين على ظهر عمارته المؤلفة من ١٨ سفينة «قاليرة» و٣سفن «بركنتي» تحمل الفا وخمسمائة رجل من مجاهدى الشرق الاسلامى، فوصل عروج أولا ولحق به خير الدين؛ واستقبلتهما المدينة، كما أجمع عليه المؤرخون، استقبال الفاتحين المنقذين •

ثم سار عروج توا الى مدينة شرشال ، فاستخلصها ورجع الى مدينة الجزائر، حيث اجتمع أهل العقد والحل، واسندوا اليه خطة «أمير الجهاد» وبادروا تلك الساعة انهم قد اقاموا بعملهم هذا وبصفة فعلية ، صرح الدولة الجزائرية الجديدة وكان ذلك سنة ١٥١٦ ؛ نفس السنة التى مات فيها فرديناندو الكاتوليكى ؛ ملك اسبانيا وجلادالمسلمين فيها •

أما شيخ البلدة السابق ؛ سالم التومى ، الذى كان يحكم المدينة حكما استبداديا ، على رأس عشيرته من بنى سالم ، فقد أخذ يحاول استرجاع سلطته، واستعادة نفوذه المطلق بينما كان عروج يقيم حصنا مقابلا لحصن الصخرة الاسبانى، ويأخذ فى قصفه برمى المدافع •

نهاية سالم التومى :

الى أى مدى وصل سالم التومى فى دسائسه ومحاولاته تقويض سلطة « أمير الجهاد » عروج ؟ وهل وصل الـى درجة الاتصال بالاسبان ، والاستعانة بهم ضد مواطنيه من أهل المدينة والقوة الاسلامية التى جاءتهم اعانة على الجهاد والانقاذ ؟

الامر المحقق هو أن عروج لم يتحمل هذه الدسائس وهذه المحاولات التى تقع حواليه ، وهو فى أشد ساعات الجهاد جرحا . فأمر بقتل سالم التومى والتخلص من دسائسه . ومن المؤرخين من يزعم أنه قد نفذ فيه حكم الاعدام بيده. وأصبح صاحب السلطة الوحيدة فى مدينة الجزائر، ورفع فوق أسوارها وقلاعها راياته المؤلفة من ثلاثة ألوان : الاخضر ، والاصفر والاحمر، ونشر سلطانه بعد أمد وجيز على كامل السهول المحيطة بمدينة الجزائر . وبادر بسك النقود تحمل شعاره كتب عليها : ضرب فى الجزائر .

توجد لدينا وثيقة تدين سالم التومى ، وتقول عنه أنه قتل من أجل الاسبان . وهذه الوثيقة موجودة بين الوثائق الاسبانية المحفوظة فى سيمانكاس والتى تكلمنا عنها ، ولا نزال نذكرها ؛ ونستعمل أوراقها فيما يأتى من بحوث كتابنا .

هذه الوثيقة عبارة عن رسالة مكتوبة باللهجة العامية؛ ومرسلها هو أحد هؤلاء الاقطاعيين من شيوخ العشائر الذين رأوا أن تأسيس دولة اسلامية قوية متينة الاسس ؛ يقضى على مصالحهم ويقوض نفوذهم الواهى، فتراموا على أعتاب الاسبان يستنصرونهم على المسلمين ؛ ويرجون . من ورائهم حماية مصالحهم واستعادة نفوذهم .

تقول هذه الرسالة الموجهة الى الكاردينال خمينيس :

« الحمد لله ــ الى مدبر المملكة القشتلية وكبيرها وخليفة سلطانها قرض نال (كردينال) بعد سلامنا عليكم فالذى نعرفكم به هو ان ابن سلطان تنس هو ابنكم ومتعلق بكم . ومحسوب عليكم . وكذا ابن التومى صاحبكم فى الجزائر انذبح عليكم وعلى خدمتكم . وغفلتم عليه وعلى ابن

السلطان في (تنس) وعلى جميع من عاملكم، حاشاكم من هذا فان كنتم تعملون على همتكم أعزموا للجزيرة (الجزائر) قبل ماتجى عمارة التركى فيستولى على هذا البر الكل • ونحن عرفناك ولو يكون هذا الخبر عندكم، وأيضا ابن سلطان تنس كان عنده خاله الشيخ المنتصر ينغر عليه (أى يدافع عنه) واليوم مات • ما بقالو أحد الا الله وأنتم • اذا ما عزمتم اليه ينفسد ويفسد الحال عليكم كثيرا في هذا البر • والقائد مرتين ادرغوت عارف بكل شيء • وهو يكون عرفك بكل مقصد • وكتب لكم من مدينة مستغانم •

يصل الى يد الفاضل الشهير

قرضنال

أما ابن سالم التومى المدعو يحيى ، فقد سار بعد مصرع ابيه الى وهران يستنجد الاسبان، ويبين لهم خطر استقرار الاتراك بمدينة الجزائر ، ويستعديهم عليهم بكل سرعة ، حتى ترجع له مشيخة ابيه على مدينة الجزائر ، بعد ابعاد الاتراك عنها •

الفصل الرابع

رد الفعـل العنيف

معركة باب الواد

والانتصار الجزائرى الكبير :

ان استقرار عروج بمدينة الجزائر، وبيعة أهلها له أميرا على الجهاد، لم يلق الروع فقط فى قلوب الانانيين والاقطاعيين الذين كانوا يعيشون كالحشرات من دم الشعب ، بل القى الرعب والفزع كذلك ، وأكثر من ذلك ، فى قلب الاستعمار الصليبى الاسبانى ، الذى رأى أن آماله توشك أن تنهار ، وان برامجه توشك أن تتحطم ، وان المخطط الذى وضعه من أجل الاستحواذ على بلدان المغرب العربى توشك أن تقضى عليه هذه القوة الجديدة الناشئة الضارية، التى ذاق منها الامرين أثناء معارك بجاية ، والتى أدرك أنها لم تقل بعد كلمتها الاخيرة .

وخشى فوق كل ذلك أن ينفرط عقد انصاره ، الاقطاعيين ، وحلفائه النفعيين الانانيين ، اذا ما تغير ميزان القوى ، ورجحت الكفة لجانب هؤلاء الذين جاءوا يوحدون البلاد ، فى ميدان الجهاد ، ويقودون الشعب البطل الكريم، الذى كان لاينتظر الا قائدا حكيما يسير وراءه، من أجل استرجاع ارضه ، ومن أجل توحيد صفوفه .

لذلك رأى الاسبان، ورأى الاقطاعيون، وجوب انزال ضربة حاسمة، قاصمة ، سريعة بهذه العصبة التى لا تزال صغيرة ، والتى اتخذت مدينة

الجزائر عاصمة لكى تجعل منها منطلقا لتحرير البلاد وأهلها من الاستعمار ونوائبه ، فاتفقت غاياتهم ، وصور لهم الهوى والغرض ، ان مجرد نزول جيش اسبانى على مقربة من مدينة الجزائر ، سيوحد بين القوى المختلفة التى تخاف النظام الجديد وتخشاه ، وتعمل على تقويضه لغايات مختلفة ومآرب شتى •

وهكذا عزمت اسبانيا ، بالاتفاق مع الحثالة من عملائها ، على شن غارة على مدينة الجزائر ، تشارك فيها الى جانب الفيالق العسكرية الجديدة ، القوة المستقرة فى حصن الصخرة ، وقوات « سلطان » تنس المحتمى بالاسبان ، وقوات « الناقمين » من أشياع ابن التومى بنفس مدينة الجزائر ، وجموع الاعراب من بنى سالم المحيطين بالمدينة ، والذين ينتظرون ــ حسب تقدير المستعمرين وأنصارهم ــ أول فرصة للانقضاض على المدينة والمشاركة فى تقويض النظام الجديد والفوز بشىء من أسلابه والكاردينال خيمينس ، الذى تعرفنا عليه اثناء مذابح وهران ، والذى عرفناه قبل ذلك جلادا وحشيا ولغ فى دماء مسلمى الاندلس وشرب منها حتى الثمالة ، بعد أن حمل الملك حملا على نقض العهود ونكث المواثيق ، هو الذى أشرف على تجهيز الحملة الجديدة ضد مدينة الجزائر، ووضع على رأسها قائدا من أهم رجال الحرب الذين بين يديه ، هو دياقو دى‌فيرا

ففى أواخر شهر سبتامبر ١٥١٦، أبحرت نحو مدينة الجزائر عمارة اسبانية مؤلفة من ٣٥ سفينة ، تحمل ثمانية آلاف رجل ، مع ما يلزم من سلاح ومدافع وذخيرة ، واختارت لنزولها السهل الذى يقع عليه اليوم ربض « باب الواد » حيث كان يصب وادى المغاسل فى البحر •

وكان عروج وأبطال المجاهدين الملتفين حوله ، واثقين من أنفسهم ،

مقدرين قيمة الشعب وشدة شكيمته وايمانه وتصميمه، حق قدرها، فكان برنامجهم الحربى يقتضى :

أولا — ترك العدو ينزل ، دون كبير مقاومة ، الى البر •

ثانيا — ترك معظم القوى الاسلامية ضمن حصون وأسوار المدينة ، من أجل استعمالها عند الحاجة •

ثالثا — الاشتباك مع العدو في معارك أشبه بحرب الكمين ، حوالى المدينة ، الى ان ينال منه الجهد والاعياء ، وعندئذ تبرز القيادة معظم قوتها الضاربة الى الميدان •

أما المخطط الاسبانى فكان يقتضى :

أولا — النزول الى الساحل ، وتنظيم معسكر يشمل الرجال والعتاد •

ثانيا — تسلق المرتفعات المحيطة بالجزائر فيما يلى الاسوار ، واحتلال مرتفع القصبة والاشراف منه على المدينة وقصفها بالمدافع •

ثالثا — انتظار الجيش القادم من قبل « سلطان » تنس ، ومهاجمة المدينة بعنف، بينما يكون العملاء فيها دبروا المكيدة التى يضربون بها الجيش الاسلامى من الخلف •

وأخذ كل من الجانبين ينفذ مخططه بعناية وتدقيق • فدارت المعركة بسرعة خاطفة مذهلة، ولم تدم الا أياما قليلة، على الطريقة التالية :

يوم ٣٠ سبتمبر ١٥١٦، نزل الجيش الاسبانى الى البر، فى دقة ونظام محكمين وحط على الساحل اثقاله •

اثر ذلك ، أخذ يتسلق يومى ١ و ٢ أكتوبر المرتفعات المؤدية الى القصبة خلف المدينة •

وقد ترك عروج ، حسب المخطط ، فرقا من المجاهدين حول هاتيك

المرتفعات خارج الاسوار، فأخذت تناوش الاسبانيين وتصادمهم من حيث لا يحتسبون ، فضاق الاعداء بذلك ذرعا ، اذ وجدوا أنفسهم فى موقف حرج، بين الاسوار الحصينة من جهة، وبين فرق المجاهدين المتنقلين، من جهة أخرى ، والانكى من كل ذلك بالنسبة لهم هو أن الجيش الذى وعد « سلطان » تنس بارساله للمشاركة فى الحملة على مدينة الجزائر، ونظامها الجديد الذى اختارته لنفسها ، لم يصل أرض المعركة ، ولم تبد أدنى اشارة تنبىء بقرب وصوله، فأخذ الهلع يعصر قلب الاسبان، وأخذوا يتراجعون الى مركزهم على ساحل البحر، محتمين بمدافع الاسطول .

هذه هى الفرصة التى كان ينتظرها عروج . فما كاد الجيش الاسبانى يبدأ حركة الانسحاب ، حتى فتحت مدينة الجزائر أقفالها ، وأخرجت أبطالها ، فلم يبق بها من رجل يستطيع حمل السلاح الا برز الى الميدان ، وكانت قوة المسلمين تشمل :

أولا — الاتراك أصحاب عروج ، وهم قلة قليلة ، يقودون الفرق ويسيرون فى الطليعة .

ثانيا — رجال الاندلس المهاجرين ، الذين قال عنهم الملك الاسبانى فليب الثانى لسفير فرنسا فى بلاطه « فوكفولس » حسبما رواه هذا الاخير : يوجد بمدينة الجزائر ١٥ ألفا ممن يحسنون استعمال الاسلحة النارية من بينهم عشرة الاف رجل من العرب الذين نزحوا من أسبانيا ، فى السنوات الاخيرة ، وهم من خيرة الجنود »

ثالثا — المقاتلون من نفس سكان المدينة ، والذين كان الاسبان يعتقدون انهم سيكونون من أعوانهم فى هذه الملحمة .

وانصب جيش المسلمين سيلا دافقا على الاسبانيين، وهم يصيحون

صيحات الجهاد، ويجارون بذكر الله، فما كاد الاعراب المحيطون بالمدينة يسمعون نفير الجهاد ، وأصوات التهليل والتكبير ، حتى أقدموا على ميدان المعركة فى جموع متتالية يشدون أزر المسلمين اخوانهم، ويمعنون فى جهاد العدو •

ساد الرعب والفزع صفوف الاسبان، واختل نظامهم بصورة تامة ، فأصبحوا لا يفكرون الا فى بلوغ سفن الاسطول ، والمسلمون من حولهم ومن ورائهم وخلال صفوفهم يمعنون فيهم قتلا واسرا •

وكان البحر قد أخذ فى الاضطراب ، والسفن ملتصق بعضها ببعض ، فأخذت تتلاطم ولم يستطع الوصول اليها وركوبها الا الاقل من فلـول الجيش، تاركين فوق الميدان كل ماجاءوا به، الى جانب ثلاثة الاف من القتلى، وثمانمائة من الاسرى، حسب الروايات الاسبانية والفرنجية •

ومما زاد فى هول النكبة الاسبانية ، ان اضطراب البحر قد انقلب الى زوبعة شديدة ، حطمت من العمارة الاسبانية ، فوق صخور باب الواد ، نصفها على الاقل •

وهذا افتتحت الدولة الجزائرية الجديدة حياتها ، ولما تنقض بضعة أشهر على تأسيسها ، بهذا النصر العظيم ، الذى هز البلاد كلها طربـا وسرورا ، واحيا فى النفوس ما كاد يموت من الآمال •

التوسع بعد النصر :

وما كان مثل هذا النصر العظيم ، ليترك مدينة الجزائر لوحدها ، منفصلة عما حواليها من السهول والهضاب ، فالامير عروج والرجال الذين انضووا تحت رايته لتأسيس الدولة الجديدة، والذين ذاقوا تحت قيادته لذة الانتصار الذى وعد الله به الصابرين المجاهدين ، رأوا وجوب توسيع رقعة الدولة

الصاعدة ، وتعمير الفراغ الذي تركته عصور الفتن والاضطراب وحكم الاقطاع الرهيب الذي سادت به الفوضى ، فدان العرب الذين يسكنون متيجة لهذا النظام الذي شاركوا في اقامة دعائمه يوم شاركوا مؤسسيه وحاملي لوائه في معركة الجزائر الكبرى ، فانضمت لامارة الجزائر مدن البليدة ، ومليانة والمدية ، وما حواليها ، كما اعترفت بوجوده واعترفت بسيادته بلاد الجبال القبائلية ، وأصبحت امارة الجزائر امارة ذات شأن عظيم •

تحرير مدينة تنس :

جاء خير الدين على رأس العمارة الاسلامية ، من مدينة جيجل بعد ما بلغه نبأ النصر الاكبر ، وأرسى بأسطوله في مدينة الجزائر رغم وجود الاسبان في قلعة الصخرة • وكان الاسطول مؤلفا من عشرة سفن •

كان عروج وخير الدين يعرفان أن الاسبان لن يصبروا على هذه الهزيمة النكراء ، ولن يتركوا أرض البلاد الجزائرية غنيمة لهذه الدولة الناشئة التي لم تكن تخطر لهم على بال ، وانهم لا محالة راجعون اليها ، وانهم لا محالة مدافعون دفاع البائس عما يحتلونه من سواحلها • فبادر عروج وخير الدين بتحصين مدينة الجزائر تحصينا قويا ، وشاد الجزائريون بسواعدهم القوية وايمانهم المتين الاسوار الضخمة والقلاع الحصينة ، واستعدوا لليوم العظيم •

لكن المؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين • وما كان الصبر محتملا على « تنس » التي أقتطعتها فيما سبق الامير يحيى الزياني ، من أرض المملكة الواهية ، بعد تحطيم الاسبان لقوى المسلمين بالمرسى الكبير ، ووضع نفسه في نذالة وسقوط همة تحت حماية الاسبان ، علهم يمكنونه من « عرش »

تلمسان ، بعد انتصارهم على بنى عمه ورجال دينه وملته . ذلك الانتصار الذى علق عليه الآمال ، وآل أمر هذه « السلطنة » الى « حميد العبيد » ، من بنى مهل .

فعروج وخير الدين ، عزما قبل كل شىء ، على انقاذ مدينة تنس من هذا المتغلب الشقى ، الذى ولغ فى دماء المسلمين ، والذى جرأ الاسبان على مدينة الجزائر ووعد جيشهم بالاعانة والتأييد ، فسار اليها عروج برا ، فى شهر جوان ١٥١٧ ، على رأس جيش مؤلف من ألف تركى وفرق من المجاهدين الاندلسيين ، كما سار اليها خير الدين بحرا .

وما أغنى عن « السلطان » فى تنس ما أمدته به أسبانيا من جيش قوامه خمسمائة رجل ، ومن أسطول يشمل أربع سفن ، فان الشعب المسلم الابى ،فى تنس وما حولها ، لم ينصر هذا الخائن الفاجر ، وأنفض من حوله ملبيا داعى الوحدة والجهاد الاسلامى ، فلم يبق معه الا جند قليل ، وجمع من الاسبان الذين يؤازرونه ، ووقف عند واد الجر على خمس مراحل من البليدة ليدافع عن سلطنته ، الخيالية، واشتعلت نيران المعركة حالا بمجرد وصول جيش الجزائر الى الحومة واستعمل هذا الجيش اسلحته النارية فانهزم جماعة « السلطان » الاصغر ، لا يلوون على شىء ، ودخل الجزائريون مدينة تنس بعد أن ركب الاسبان سفنهم ، وغادروها بكل سرعة خشية أن يحل بهم يوم كيوم الجزائر الذى سارت بذكره الركبان . وقتل « السلطان » الذليل .

التنظيم الادارى الاول :

رأى عروج أن يقسم المملكة الجديدة — اداريا — الى مقاطعتين :

مقاطعة شرقية يشرف عليها خير الدين ، ومقرها الادارى مدينة دلس • ومقاطعة غربية ، يشرف عليها عروج نفسه ومقرها الادارى مدينة الجزائر العاصمة •

وغادر خير الدين مدينة تنس بعد الفتح ، وذهب الى دلس فافتتحها دون مقاومة تذكر • وانتصب بها ، ممثلا للدولة الجديدة ، ولشقيقه عروج •

استنجاد أهل تلمسان :

لم يكد المقام يستقر بعروج فى مدينة تنس ، حيث نظم البلاد حسب الحاجة وحسب الامكانيات ، حتى جاءه وفد كبير من مدينة تلمسان ، يشكو اليه سوء الحالة فى العاصمة الزيانية ذات المدنية الشامخة وذات الامجاد العالية الرفيعة ، وما انتابها من فوضى واضطراب ، من جراء فقد السلطة وتناثر عقد الحكومة ، اثر تقاتل الاخوة والعمومة والخئولة ، حول ذلك العرش الذى فقد هيبته ، وخسر قوته ، وأصبح عبئا على الشعب بعد أن كان له ملاذا •

جاء القوم يطلبون نجدة عروج والدولة الجزائرية الفتية ، ضد السلطان أبى حمو الثالث ، الذى جلس على عرش تلمسان ، باعانة الاسبان ، وتحت حمايتهم ، بعد أن اجتمع بالملك الاسبانى فى مدينة برغوس BURGOS ودان له بالطاعة وأعلن له التبعية ، وألقى بالملك الشرعى « أبى زيان » فى غيابة السجن ، وذلك بعد أن تداول ملوك تلمسان وأمراؤها فيما بينهم منذ أمد بعيد ، عمليات الخلع ، والانتقاض ، والقتل ، والسجن ، مفرقين الشعب طرائق قددا ، ممكنين الاسبان من أكتاف المسلمين •

معمعة تلمسان الهوجاء

بين الجزائريين والاسبانيين ، والزيانيين

كانت غاية البربروسين الاشقرين ، عروج وخير الدين ، غاية الرجال الاحرار من اتراك وجزائريين ، الذين أسسوا مملكة الجزائر وبايعوا عروج أميرا لها ، أن يطهروا أرض المغرب من الاحتلال الاسباني ، وأن يقوضوا ركني الاحتلال الاسباني الاساسيين : بجاية شرقا ، ووهران والمرسى الكبير غربا .

بنظرة فاحصة صائبة ، أردك رجال الدولة الجزائريين أن ناحية الغرب أكثر خطرا وأدعى الى الانتباه والحذر . ذلك أن الخطر لم يبق فيها من الاسبان وحدهم ، أن خطرهم قد تسرب الى مملكة بني زيان ، ونخر عظامها، وتمكن من رقاب ملوكها ولاأقول من رقاب شعبها، فأصبح الوجود الاسباني هنالك منذرا بالخطر الوبيل . ومن وراء الاسبان ، ومملكة بني زيان ، يوجد الخطر الداهم البرتغالي والغزو الذي لم تتمكن مملكة بني وطاس المرينية من ردعه ، الى أن أرداها ، وتخلى عنها الشعب ، لكي يقيم على انقاضها ، باسمه وبتفويض منه ، دولة أخرى ، توحد الشمل ، وتقود الشعب نحو الجهاد ، فالتحرير ،

اندفع عروج في جرأته المعهودة ، وبسالته النادرة ، يقطع المراحل نحو تلمسان نجدة لابي زيان السجين ، وشيعته وانصاره ، اعداء الاسبان .

واتخذ عروج طريقه الى تلمسان ، بين الهضاب الداخلية ، حتى لا يصطدم

بالاسبان فى ناحية وهران ، نيصدوه عن تلمسان ، أو يقطعوا عنه خط الرجعة ، ولما وصل قلعة بنى راشد وهى هوارة ، التى تبعد عن « معسكر » نحو ٢٥ كيلو مترا ، وعن مستغانم نحو ٥٥ كيلو مترا . اتخذ منها مركزا لحماية مواصلاته ، وترك بها حامية من ٦٠٠ رجل ، أمر عليهم شقيقه الثالث اسحاق بن يعقوب ، وأمرهم بالتضييق على الاسبان فى وهران ، وعرقلة أعمالهم وتحركاتهم العسكرية ، حتى لا يعوقوا سيره نحو تلمسان ، ثم انطلق كالسهم ، يجر وراءه جيش الجزائريين حتى وصل سهل اربال . حيث وجد أبا حمو ، فى جيش غفير ، شمل ستة الاف فارس ، وثلاثة الاف راجل ، يحاولون صده عن مدينة تلمسان ، فهاجمهم حالا ، ولم يكن جند أبى حمو ، رغم وفرة عدده ، متمتعا بالقوة المعنوية والحصانة الروحية التى تجعل الجندى يقاتل مستبسلا حتى الموت ، فانهزموا شر هزيمة ، وتشتتوا وواصل عروج سيره الخاطف ... فوصل عاصمة ياغمراسن العظيم ، ففتحت له أبوابها ، وتقبلته كما يقول مؤرخو الافرنج ، اقتبال المنقذ .

اما ابو حمو الثالث ، أو ابو قلمون ، كما يدعوه قومه ، فقد واصل سيره بعد الهزيمة ،ومعه جمع من الانصار ، فحل بمدينة فاس ، ومنها أرتحل الى مدينة وهران واضعا نفسه تحت حماية حاكمها العام ، مستمدا منه العون والمدد ، لكى يسترجع ملكا لم يجد من يدافع معه عنه ، بعد تعمده وضع بلاد الاسلام تحت حماية الاسبانيين .

وأجلس عروج على كرسى تلمسان ، السلطان أبى زيان الثالث المسعود ، بدل عمه الذى اغتصب منه الملك ، أبو حمو الثالث . ثم حاول عروج أن يوفق بين رغبته فى توحيد البلاد تحت ادارة مركزية قوية فى مدينة الجزائر ، والاستعداد العام لمصادمة الاسبان ، واستخلاص البلاد من بين

براثنهم ، وبين بقاء الملك لدولة بنى زيان ، على ناحية تلمسان ، ضمن دولة الجزائر .

لكن التوفيق بين عمليتى الجمع والتشتيت أمر صعب الحصول ، اذا ما نحن حذفنا من قاموسنا كلمة المستحيل . فلم يستقر الوضع بتلمسان الا قليلا ، حتى عادت الفتن والدسائس سيرتها الاولى ، يغذيها الاسبان من جهة ، ويغذيها صاحب العرش والطامعين فى العرش من جهة أخرى . وهكذا نشبت فتنةفى تلمسان . والاسبان يتربصون بها الدوائر ، وتولى كبر الفتنة نفس السلطان أبو زيان ، واشياع عمه أبى حمو معا ، فخرج عروج من تلمسان حينا ، ثم عاد اليها وقتل أبى زيان ، وجماعة من قرابته وأنصاره ، مع رؤوس الفتنة ورجال المشاغبة .

عودة الاسبان وابى حمو الى تلمسان :

وكان الملك الاسبانى الكبير كارلوس الخامس ، الذى اشتهر فىالتاريخ العربى باسم « شرلكان » قد ارتقى عرش أسبانيا ، منذ سنة ١٥١٦ ، وهو الذى كان له القسط الاكبر فى محاربة الجزائر فيما بعد ، والذى هشمته الجزائر تهشيما كما سيمر بنا بعد قليل ، فأمر حاكم مدينة وهران بأن يستعمل كل امكانياته لارجاع أبى حمو الى عرش تلمسان ، وابعاد خطر التوسع الجزائرى على انقاض مملكة بنى زيان ، وأمده بجند بلغ عشرة الاف رجل وبعتاد ، فخرج أبو حمو على رأس جموع من الاعراب ، ومعه فرقة من الجيش الاسبانى ، فداهموا أول الامر قلعة بنى راشد ، حيث رابض اسحاق بن يعقوب ، شقيق عروج ، كما تقدم لنا ، ونازلوها بقوة وبعنف ، وتمكنوا منها بعد دفاع عظيم ، ولم يستسلم لهم اسحاق الا بعد أن تعهدوا

له بأن يتركوه يسير حرا الى تلمسان ، مع بقايا الرجال الذين دافعوا معه عن القلعة، وسار فعلا يريد الالتحاق بشقيقه ، لكن جماعة أبى حمو كمنوا لهم خيانة وغدرا ، فاغتالوه هو وجماعته أثناء الطريق ، وكان ذلك أواخر جانفى ١٥١٨ •

فى هذه الاثناء ، وجيش الاسبان وجموع أبى حمو تسير نحو تلمسان ، أنزل حاكم وهران فرقة اسبانية ثانية فى بلدة رشقون الساحلية حسب مخطط مدروس ، فسارت نحو تلمسان مسرعة ،من طريق آخر ، فاجتمعت الفرقتان ، وجموع أبى حمو أمام تلمسان ، ونصبوا حولها حصارا محكما •

احتلال تلمسان ، واستشهاد عروج :

كانت معركة تلمسان قاسية عنيفة ، ورغم وفرة عدد الاسبان ، ونوعية سلاحهم وكثرة عدد أنصارهم من رجال أبى حمو ، فقد تمكن عروج والذين معه من جزائريين وتلمسانيين ، من المقاومة اليائسة مدة ستة أشهر كاملة ، الى أن تمكن الاسبانيون من تحطيم الاسوار بقصف المدافع المتواصل ، فدخلوا المدينة،وانقلبت المقاومة اليائسة الى حرب فى الاسواق،والطرقات، والمنازل ، ولما انتهى كل ذلك آوى عروج وبقية رجاله الى قلعة المشور ، فتحصنوا بها منتظرين مددا ، وقد قيل — وليس بأيدينا مايؤكد هذا القول أو ينفيه — ان عروج كان ينتظر النجدة من قبل ملك فاس الوطاسى المرينى تنفيذا لاتفاق عقد بينهما ، وان الملك المرينى قد ارسل فعلا بجيش لنصرة عروج وتمكينه من الدفاع عن تلمسان ضد الاسبان وأنصارهم • لكن ذلك الجيش سار على طريق مليلة ، فطال به السير ولم يتمكن من الوصول الى ميدان المعركة فى الوقت اللازم • فلما تم الامر قفل راجعا •

ضاق الحصار على المشور ، ولم يبق فيه الا خمسمائة رجل من الاتراك مع عروج ، عزموا على الموت عن آخرهم ، دفاعا عن القلعة التى كانت تحمل آمال الوحدة وآمال الانقاذ ٠

لكن الخديعة تنجح أحيانا فيما لا ينجح فيه السلاح ٠

جاء يوم عيد الفطر ٠ وتقدمت نحو المشور جماعة من المسلمين كثيرة العدد ، وطلبت من حماة المعقل السماح لهم بأن يقيموا صلاة العيد فى مسجد المشور ، حسب عادتهم ؛ فأذن لهم الاتراك بذلك ــ ومن خدعنا بالله انخدعنا له ــ وما كادت هذه الجماعة تدخل الحصن ، حتى أخرجت من بين ثيابها أسلحتها ، وانقضت على الاتراك الذين فوجئوا بهذه العملية ، فأمنعت فيهم قتلا ٠

لكن البقية الباقية من الاتراك لم تلبث ان استرجعت ثباتها ، ونظمت فورا خطة دفاعها ، وصادمت هؤلاء المهاجمين وتمكنت من الالقاء بهم وراء الاسوار ، وأوصدت دونهم الابواب ٠

انما أدرك عروج، ان الثلة القليلة الباقية بين يديه لاتمكنه مطلقا ــ مهما كانت البطولة ــ أن يدافع عن الاسوار وعن الابواب ؛ فقرر أن يشق طريقه بواسطة السلاح ، مخترقا صفوف أعدائه ، الى أن يصل الى ساحل البحر ، فيجمع حوله أنصارا ، وينتظر وصول أسطول الجزائر بمدد يرسله خير الدين ٠

نفذت العملية الجزائرية ، فخرج القوم من المشور ، وأموا ناحية الغرب ، ليسلكوا منها مسارب ملتوية نحو الساحل ، انما أحيط بهم عند جبال بنى سناسن٠والتحمت بينهم وبين متتبعيهم وكانوا خمسين أسبانيا تحت قيادة الفارس « كارسيادى لابلازا » معركة عنيفة غير متكافئة،وقد

رددت كل كتب التاريخ الفرنجية والاسبانية هذه العبارة « وقد دافع عروج عن نفسه مثل الاسد » رغم أنه كان لا يستعمل الا يدا واحدة ، والعشرة الرجال الذين كانوا معه ، سلكوا مثل مسلكه ، وكانوا قد تحصنوا بين جدران « زاوية سيدى موسى » الى أن استشهد كل رجاله ، وبقى وجها لوجه أمام قائد الفرقة الاسبانية ، كارسيا ، فاستمرا على المبارزة رأسا لرأس ، الى أن اخترط كل منهما صاحبه بالسيف ، وخر عروج وخـــر خصمه ، يتخبطان فى دمائهما .

ساعتئذ تقدم الاسبانيون، فاحتزوا رأس عروج، وهم لا يكادون يصدقون أنهم قد تخلصوا فعلا من هذا البطل الصنديد . وساروا بالرأس توا نحو وهران ، ومن هنالك سير بها الى أسبانيا ، حيث طاف القوم بها خلال أكبر مدنهم وذهبوا بها بعد ذلك الى أروبا ، حيث طيف بها كذلك خـــلال أغلب المدن الاروبية التى كانت فرائصها ترتعد من مجرد ذكر اسم « بربروس »

اما ثيابه المزركشة التى تركها فى تلمسان ، فقد أخذت الى أسبانيا ، وطيف بها أيضا أغلب المدن ، ثم أودعت فى معتكف القديس سان جيروم القرطبى .

وكان عروج يوم استشهاده يبلغ الخمسين من عمره ، ولم يترك مـــن بعده ذرية .

يقول المؤرخ عبد الرحمان الجيلالى : « ويروى أن جثمانه جيىء به الى العاصمة (الجزائر) فدفن بجوار ضريح سيدى رمضان ، وقبره عن يمين الداخل ، متصلا بجدار المسجد » وهكذا وقعت النكبتان معا فى شهر واحد (ماى ١٥١٨) : استشهـــاد عـــروج ورجـــالـــه ، ودخول عشرة آلاف رجـــل مـــن الجيـــش الاسبـــانى مدينـــة تلمســـان لكى يعيدوا الى العـــرش


البحر الأبيض المتوسط
بنزرت
القالة
عنابة
القل
جيجل
تونس
القبائل الصغرى
قسنطينة
سطيف
الكاف
سوسة
القيروان
المهدية
صفاقس
بايليك الشرق
بسكرة
قفصة
الجريد
وادي
توقرت
ورقلة


البحر الابيض المتوسط
بنزرت
تونس
القبائل الصغرى
قسنطينة
سطيف
الكاف
سوسة
المهدية
القيروان
بايليك الشرق
صفاقس
بسكرة
قفصة
الجريد
جربة
توقرت
ورقلة

الجزائر العثمانية

دار السلطان
مليانة
المدية
الونشريس
مازونة
قلعة بني راشد
مسرغين
معسكر
شعبة اللحم
تلمسان
بايليك الغرب
بايليك تيطري
الأغواط
عين ماضي
يزاب
حراء الكبرى
فجيج

الجزائر العثمانية

دار السلطان
مليانة
المدية
الونشريس
مازونة
قلعة بني راشد
معسكر
شعبة اللحم
تلمسان
بايليك الغرب
الاغواط
عين ماضي
الصحراء الكبرى
فجيج
عباس

سلطانهم « ابا حمو الثالث » .

والحق الذى لا نرتاب فيه ؛ هو أن أهل تلمسان الذين استنجدوا بعروج وفتحوا له أبواب المدينة وتلقوه على الرحب والسعة ؛ لكى ينقذهم من الملك « أبى حمو » صنيعة الاسبان ، ولكى يجلسوا على العرش أبا زيان ، لم يكونوا فى أغلبيتهم يريدون أن يتعدى الامر ذلك . لم يكونوا يريدون أن يخسروا استقلالهم ، وأن يفتقدوا ملكهم الذى تركه لهم جدهم ياغمراسن العظيم . فما كادت تنتهى فورة الجذل الاولى ، ولم يكادوا يعلمون أن عروج يريد أن تصبح تلمسان ومملكتها جزءا من دولة ضخمة هى الدولة «الجزائرية» حتى تخلوا عنه ، بل ناصبه أكثرهم العداء ، فكان ما كان بينه وبين الملك أبى زيان الذى نصبه على العرش بنفسه ، ورجال عائلته وأنصاره .

ان التلمسانيين لم يريدوا أبدا أن تدنس أقدام العدو أرض بلادهم ، لكنهم لم يريدوا أبدا — وبصفة واضحة جلية — أن يتخلوا عن مملكة هى من صنع أيديهم ، لهاتاريخها الحافل ، ولهاأمجادها العظيمة ، ولها مدنيتها الشامخة الذرى . ولولا أنهم تخلوا عن عروج ، لكان فى مقدورهم نصره وتأييده والثبات معه ، رغما عن مساعى ودسائس الاسبان ، وهم الذين طالما تحملوا اثناء تاريخهم المجيد الحافل بجلائل الاعمال ، أعواما من الحصار الضيق الشديد ، وكان لهم النصر فى أكثر الاحيان .

ما يقول مؤرخو الافرنج عن عروج :

يكاد المؤرخون الغربيون يجمعون على الاشادة بذكر هذا البطل العظيم، وما كان يتمتع به من خصال حربية ومدنية جعلته أسطورة فى البحر ،

وأعجوبة فى البر ، وما كانت له من قدرة على التنظيم ، جعلته ينشىء دولة ذات قوة وذات شأن عظيم ، قاومت فيما بعد أعاصير الزمن ما يزيد عن الثلاثة قرون .

يقول بيشو ، فى كتابه « تاريخ شمال افريقيا » السالف الذكر :

ان هذين الشقيقين (عروج وخير الدين) كان لهما من الاقدام ومن الجرأة ، مقدارا يفوق المتعارف عند الرجال ، وكان لهما من الدهاء السياسى الخارق للعادة ، ما يجعل الناس مشدوهين من وجود مثله ، عند رجلين لم تؤهلهما ثقافتهما البدائية ليقوما بهذا الدور العظيم ، دور قيادة الشعوب .

« .. وهكذا كانت الخاتمة البطولية لهذا القرصان المغامر الذى لا نتمالك أنفسنا عن الاعجاب بأقدامه ، وبجرأته النادرة ، كما نعجب أيما اعجاب بهذه العبقرية التى سادت أعماله فى ميدان الحرب وفى ميدان تنظيم الدولة كما اننا نستنكر الى جانب اعجابنا هذا ، كل الاستنكار ، ما كان متصفا به من مصانعة ومن قسوة فظيعة » .

لكن المؤرخ الكبير دى قرامون ، فى كتابه : تاريخ الجزائر تحت حكم الاتراك » يقول ، بكل انصاف وتقدير :

« ان الكثير من المؤرخين ، لا يرون فى عروج الا زعيم عصابة ، ليس الا . واننى لا أعرف حكما جائرا مخالفا للحقيقة ، كمثل هذا الحكم . فان البربروس الاول (عروج) ما كان الا جنديا من جنود الاسلام المغاوير ، جاهد فوق متن البحار جهادا لا هوادة فيه ، ضد أعداء ملكه، وضد أعداء دينه . على أنه كان ملتزما خلال جهاده هذا ، بكل القواعد والاسس التى كان العمل جاريا بها خلال تلك الحقبة من التاريخ ، فلم يكن أبدا أكثر قسوة ، ولا أقل قسوة ، من الاعداء الذين كان يمعن فى محاربتهم .

« وعندما سنحت له الفرصة ، وأمكنته غزواته من جمع قوة كافية حوله ، تمكنه من القيام بجلائل الاعمال ، حاول انشاء أمبراطورية فى الشمال الافريقى ، حيث كانت الفوضى ضاربة أطنابها .

« ان الوسيلة الوحيدة التى كانت تمكنه من ادراك تلك الغاية وتضمن له البقاء والاستمرار ، انما هى ابعاد المسيحيين عن البقاع التى يحتلونها فى البلاد .

« من أجل تحقيق هذا الهدف أخذ يحارب المسيحيين قبل كل شىء ، فى شخص حلفائهم والخاضعين لهم ، حتى يقطع عن النصارى كل طريـــق يتزودون منه ، ويضطرهم بذلك الى الاعتماد خاصة على ما يرد عليهم من اسبانيا .

« ولقد كانت بداية أمره سعيدة . وكان انتصابه بالجهات الغربية يسمح له بالقاء المهاجمين الاسبانيين الى البحر لولا أنه قتل بسبب خديعة حلفائه .

ولقد مات ، كما يقول المؤرخ الاسبانى هايدو : مأسوفا عليه كل الاسف من قبل جميع الذين انضووا تحت رايته وعملوا تحت لوائه » . اه

أما المؤرخ الكبير شارل اندرى جوليان ، فيقول فى كتابه الشهـــير « تاريخ الشمالى الافريقى » :

« وهكذا انتهت فى سن الرابعة والاربعين ، (١) هذه الحياة المجيدة فى ميدان المغامرة . انه هو الرجل الذى أنشأ كما يقول هايدو المؤرخ الاسبانى الذى عاش أسيرا فى الجزائر من ١٥٧٧ الى ١٥٨١ القوة العظيمة لمدينة الجزائر وللبلاد البربرية

---

(١) من المؤرخين من يقول : ان عروج استشهد وهو فى سن ٤٤ لا فى سن ٥٥

« انه ، بنظرة صادقة لا تخطىء ، وهي نظرته المعتادة ، قد أدرك مدى ما تستطيع أقلية عاملة تحتيقه في وسط مليء بالمنافسات بين مختلف الامارات المغربية ، لكي يؤسس على حساب تلك الامارات . دولة اسلامية قوية ؛ لا تستطيع أن تنالها بسوء هجمات النصارى .

« وعلى هذه الصفة ؛ تمكن من بسط سلطانه على جهات متيجة ووادي شلف ، وتيطري ، والظهرة ، والونشريس ، ثم تلمسان . ونسف مملكة بني زيان نسفا لم تقم لها من بعده قائمة .

« انما كانت مأثرته هذه تتلاشى وتضمحل ، لو لم يتلقفها ويحتضنها باليمين ، شقيقه خير الدين . الذي سار بها في طريق النجاح والكمال » .

أي نعم ، هذا هو الشهيد عروج بن يعقوب التركي ، وهذه هي أعماله في بلاد الجزائر ، خلال ستة أعوام ، منذ مهاجمته لبجاية أول مرة سنة ١٥١٢ ، الى يوم استشهاده ببني سناسن ، سنة ١٥١٨ ، وتأسيسه باعانة الشعب ، وبارادة الشعب ، وبتأييد الشعب ، دولة الجزائر الحديثة .

خير الدين والدولة العثمانية :

بلغت انباء فاجعة تلمسان مدينة الجزائر، فسادها الغم والهم، ولولا قوة فيإيمان خير الدين، وشدة عزيمة اصحابه واقتناع رجال الدولة الفتية الجزائرية بوجوب المحافظة على هذا التراث، وتدعيمه، وتوسيعه، والدفاع عنه أمام كل عدو؛ والتفاف الشعب عن اقتناع حول هذه الدولة الفتية التي جمعت الشمل، والتي توج الله هامتها بنصره المبين أمام غزوة الاسبان الاولى ، لولا كل ذلك لانهار البناء ، وخسرت بلاد الجزائر معركتها أمام المسيحية الغازية .

فاهل الحل والعقد الذين أجتمعوا بمدينة الجزائر عندما بلغهم أنباء هزيمة تلمسان . واستشهاد الملك عروج . عرضوا على خير الدين . في الحاح شديد . أن يتولى الامارة بعد أخيه . وأن يواصل في سبيل الله جهاده . لكنه اعتذر عن قبول ذلك . وصرح لهم بعزمه على استئناف الغزو والجهاد على متن البحار . وانه يعتزم السفر الى استانبول مستمدا منها اسطولا للجهاد ، ورابط حبلها بحبله . فقال له العلماء : ان الله يوجب عليك البقاء في هذه المدينه الاسلاميه لحمايتها ولا يسمح لك الدين بتركها نهبة للمفترس، فأجابهم . ونحن نأخذ هنا برو ايه المؤرخ التونسي ابن ابي الضياف :

« بأنه بقي منفردا دون اخوته (الذين استشهدوا جميعا فوق أرض الجزائر) وقد رأيتم ما فعله بنا صاحب تلمسان من بني زيان ، واستعانته علينا بغير ملتنا حتى كفانا الله أمره . وصاحب تونس الحفصي لا رأي له في نصرتنا واعانتنا . واسلمنا للعدو بمنع البارود عنا (أثناء حملة بجاية) لولا لطف الله . فالرأي هو أن نحل أيدينا بالقوة الاسلامية — وهو السلطان سليم خان — ونعتمد عليه في حماية هذه المدينة ، ولا يكون ذلك الا ببيعته والدخول في طاعته ، بالدعاء له في الخطب على المنابر ، وضرب السكة باسمه ؛ لنتفيأ ظل حمايته . فاستكانوا لذلك ورضوا به ؛ وأعلنوا بالدعاء له على المنابر ، وكتبوا بذلك للحضرة السلطانية وبعثوا له من السكة باسمه في الجزائر ... » اهـ .

وعلى هذه الصفة قرر الجزائريون أن تكون دولة الجزائر الفتية جزءا من الامبراطورية العثمانية ، الضخمة المترامية الاطراف ، وقرر خير الدين — مؤقتا — البقاء على كرسي الدولة ، الى أن يتخذ السلطان العثماني

قراره فيما عرضه عليه أهل الجزائر ، ويمدهم بما طلبوه من اعانـــة ، بواسطة الوفد الذى سار الى القاهرة حيث كان السلطان سليم مقيمـــا لتنظيم البلاد ، بعد اسقاط دولة المماليك ، وكان الوفد تحت رآسة الحاج حسين •

ولم يتأخر كثيرا جواب السلطان ، فقد أعلم خير الدين وأهل الجزائر بقبول ما طلبوه ، وأنه قرر أن يشمل دولة الجزائر بـــرعايته ، وتكـــون مشتركة مع الدولة العثمانية فى الجهاد ضد المسيحية ، واضفى على خير الدين لقب « باى لرباى » أى باى البايات ، باعتباره الرئيس الاعلى لكل البايات الذين يتولون أو سوف يتولون الحكم فى بلاد الشمال الافريـــقى وخول السلطان ، دولة باى لرباى ، أن تضرب السكة باسمها ، وذلـــك علامة الاستقلال ضمن الامبراطورية العثمانية •

وكان الخليفة السلطان سليم ، وهو بالقاهرة كما رأينا ، يدرك جيد الادراك أهمية هذه الدولة الجزائرية، بالنسبة للجهاد العظيم القائم فيها ضد الاستعمار الصليبى الاسبانى ، ويدرك مدى المسؤولية التى اضطلع بحملهـــا ، فبـــادر فور الاعتـــراف بخير الدين باى لرباى على دولة الجزائر ، والاعتراف بأن دولة الجزائر قد دخلت ضمن اطار الدولة العثمانية الواسع، بارسال أسطول اسلامى ، يحمل أربعـــة آلاف من المتطوعين الاتراك ، وكمية ضخمة من العتاد والسلاح • فوصل ذلك المدد بعد وقتقليل الى مدينة الجزائر ، ونزل على ساحل باب الواد ، واستبشر المسلمون خيرا كثيرا، واستعدوا لمجابهة الحملة الجديدة التى سيشنها عليهم الامبراطورشرلكان

عما قريب ، حسبما جاءتهم من أنباء ، من أجل احتلال الجزائر وتقويضها، والتخلص من التهديد الدائم الذى يصيب الممتلكات الاسبانية منها، وكذلك من أجل ارضاء الشرف ، والانتقام للهزيمة المنكرة التى حلت بجيشـــه ، أثناء محاولتهم الاولى ضد مدينة الجزائر •

الفصل الخامس

عصر خير الدين

١٥١٨ ـ ١٥٤٧

خـير الديـن :

شخصية البربروس الثانى ، خير الدين شخصية لامعة غريبة ، تكاد تكون فذة لا فى زمانهـا ولا فى محيطهـا فقط ، بل فى كل الازمنـة المتأخرة من التاريخ الاسلامى ، منذ عهد صلاح الدين والظاهر بيبرس ، وعـلى كامل الرقعة التى تحيط بالبحر المتوسط ، من مضيق البوسفور الى مضيق جبال طارق . أما سمعته فقد تجاوزت تلك الرقعة ولاريب ، وهيمنت على الافكار ، وسيطرت على الحوادث ، وطبعت عصرا كاملا بطابعها الخاص، منذ تولى مقاليد الامور على رأس الدولة الجزائرية ، الى أن لبت روحه داعى ربها راضية مرضية ، فلا غرو اذا ما نحن أطلقنا على هذه الفترة من الكفاح الاسلامى الجزائرى ، ضد الصليبية الاسبانية ، اسم : عصر خير الدين .

قال ابن أبى الضياف المؤرخ التونسى الشهير ./ « خير الدين هذا مـن رجال الدنيا، بل والآخرة، فهو كما قال بعض الأدباء خير الدين والدنيا »

والمتتبع لتاريخ هذا البطل العملاق ، يجد نفسه أمام شخصية متعددة الجوانب مختلفة المظاهر ، القاسم الاعظم المشترك بينها ، هو ايمان قوى بالله ، وصلابة فى الجهاد الاسلامى لا تلين ، الى جانب تصميم وعزم لا يتطرق اليهما أى ضعف ، ونظرة صائبة خاطفة ، لا تكاد تخطى التقدير ولا التدبير ، ولقد جاء فى الاثر : اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله ،

وجرأة واندفاع لا تباليان بالصعوبات ولا تحسبان حسابا للعقبات ؛ ودقة فى السياسة وتدبير للملك ، وعبقرية لم تتخل عن صاحبها ساعة الحرب ولا ساعة السلم ، ومقدرة على التنظيم وعلى قيادة الرجال عز نظيرها . كل هذه الصفات العبقرية مجتمعة فى شخص واحد ، قد ازدانت بالخلق الكريم ، والحلم والوقار ، والعفو عفو المقتدر الشهم ، والسيرة الشخصية الصالحةالتى لم تشبها شائبة ، ولم تحم حولها الشكوك والاقاويل ، فكان ظاهره كباطنه ، وكان باطنه كظاهره ؛ صفو ، واخلاص ، وانقطاع لخدمة الله واعلاء لشأن دينه ، وفناء فى صالح المؤمنين .

هذا هو الرجل الذى منت به المقادير الالهية على هذا الوطن الجزائرى، بعد استشهاد شقيقه عروج ؛ فنظم دولتها ، وقهر أعداءها ؛ وجمع شمل أمتها . وبادله الشعب حبا بحب ، وثقة بثقة ، كان لهما أعظم الاثر فى الداخل ، وكان لهما أعظم الاثر فى الخارج .

وانى والله لأشعر بثقل الدين الذى لهذا البطل على بلادنا فى شرق وفى وسط هذا المغرب العربى ، ولكم وددت مخلصا لو اننى وفيت بشىء من هذا الدين خلال كتابى هذا ؛ لكننى — ولسوء حظى — لست محاولا ذلك فى هذا العمل ، لانى لو حاولت ذلك — من جهة — لخرجت عن نطاق هذا الكتاب ، وقد أردته خاصا برسم وتقييم الجهاد الاسلامى فى بلادنا ضد الصليبية الاسبانية ، ومن جهة أخرى لعجزى الذى أعترف به عن الاحاطة بالاعمال البطولية التى قام بها هذا العملاق ، خارج الميدان الجزائرى، ولعل الله يقيض لذلك رجلا جزائريا، وما خلت الجزائر يوما من الرجال .

فلاعد اذن الى ذكر حوادثنا الجزائرية فى ميدان الجهادين : جهاد الجمع والتكوين ، وجهاد التطهير والتحـرير .

الانكسار الاسبانى أمام الجزائر

تجهيز الحملة : لم تصبر اسبانيا ، وعلى رأسها الامبراطور شـرلكان العنيد ، على الهزيمة المنكرة التى أصـيبت بها تحت اسوار مدينة الجزائر، فى السـنة الماضية فأخذت تسـتعد للأخـــذ بالثـــار .

والذى زاد فى قوة هذه الرغبة الجامحة فى تحطيم مدينة الجزائر واذلالها هو ذلك الفزع الذى ساد كل الاوساط الاسبانية والاروبية ، عند اعلان انضمام الجزائر للمجموعة الاسلامية العثمانية ، ومن ثم وصول الخطر الاسلامى العثمانى الى هذا القسم الغربى من البحـــر المتوسط الذى يكاد يعتبره الاسبان ، بحكم استيلائهم على أهم المدن الساحلية الجزائرية وعلى جزائره الكبرى ، ومعظم السواحل الايطالية بحرا اسبانيا صميما .

ولقد اغتنم الاسبان فرصة استشهاد عروج البطل ، وانتصارهـــم فى تلمسان ، وما أحدثه ذلك فى كل البلاد الجزائرية من حزن وأسى ، فاتفقوا مع أبى حمو ، ملك تلمسان ، على أن يشترك الجانبان فى هـــذه الضـــربة الحاسمة ، وأن يتخلصا معا من خطـــر هذه الدولة الجزائرية المهـــددة ، وذلك بأن يهاجمها الاسبان من البحـــر فى نفس الوقت الذى تتقدم فيه نحوها جيوش صاحب تلمسان، ولقد حسب الجانبان حساب كل شىء الا حساب الشعب الجزائرى ، الذى كان حذرا يقظا ، والذى كان للأعـــداء بالمـــرصـــاد .

كانت الحملة الاسبانية تشمل هذه المرة اربعين سفينة كبيرة ، تحمل على

متنها خمسة آلاف رجل من أشد المقاتلين الاسبانيين والاروبيين وم
أمتنهم عودا ، ووضعت الحملة تحت قيادة نائب ملك الصقلتين « هو كودى
منكاد Hugo de Moncade » واشترك معه فى القيادة كنائــب له ،
القائد الاسبانى كونز الفومارينودى ريبرا GONZALVO MARINO DE RIBERA
أبحر الاسطول من جزيرة صقلية أواخر جويلية فأم أول مرة مدينة
المرسى الكبير، واخذ منها جندا وعتادا، ثم سار من بعيد صوب بجاية
فأخذ منها جيشا كبيرا وسلاحا ، فما وصل امام مدينة الجزائر الا يوم ١٧
أوت سنـــــة ١٥١٩ ،

المعـــركــة

اختار الجيش الاسبانى ميدانا لعملياته ضد مدينة الجزائر : الساحل المتد على يسار وادى الحراش وكانت الخطة التى رسمها خــير الديــن والمجاهدون الذين معه ، تجعل من هذه المعركة صورة تكاد تكون طبــق الأصل للمعركة التى جرت خلال السنة الماضية أى أنهم يتركون الجيش الاسبانى بنزل البر فى النقطة التى يختارها فيحط بها سلاحه وعتاده ، ثم يناوشونه فى حرب كمين محيطين به من كل جهة، حتى ينهكه التعب وينال منه الاعياء، ثم يلتحمون به فى معركة فاصلة فى الساعة التى يرونها منــاسبـــة .

وهــكــذا كــان .

فقد أنزل الاسبانيون جندهم وسلاحهم وأمتعتهم ، جاعلين وراءهــم وادى الحراش ، وانقضت أوقات قليلة فى مناوشات بين الجانبين ، ولم يدر الجــزائريون ما هى النقطــة التى سيــركز الاسبان هجــومهم عليها ، الى ان

تحرك الجيش المهاجم بكامل قوته ، وأخذ يصعد المرتفعات المحيطة بالجزائر حتى وصلوا كدية الصابون المشرفة على المدينة من ورائها ، وأخذوا فى سرعة وفى اتقان جديرين بالاعجاب فى بناء قلعة حصينة فوق تلك الكدية ودعوها « قلعة الامبراطور » وهى التى هدمت ورممت مرارا ، وكان لها شأن عظيم فى تاريخ الجزائر ، ولا تزال موجودة الى يومنا هذا •

وجهزوها بالمدافع الثقيلة ووضعوا الجزائر فعلا تحت تهديد مدافعهم لكن مهارة خير الدين الحربية لم تمكنهم من ذلك ، فلم تصب مدافعهم الا الاسوار الخلفية دون ان تلحق بها أذى •

فى نفس الوقت الذى كانت القيادة الاسبانية ترفع فيه جدران القلعة الامبراطورية، كانت تلك القيادة تنتظر قدوم جحافل الجيش التلمسانى التى يقودها الملك عبد الله الثانى والتى كانت ركنا أساسيا فى المعركة المقبلة ؛ لكن الانتظار دام ستة أيام ، وتم بناء القلعة ، وأرهقت المناوشات أعصاب الجيش الاسبانى ، ولم يظهر أثر للجيش التلمسانى ، فقررت القيادة الاسبانية القيام بالهجوم العام ، وفتح العمليات •

وتفتق ذهن خير الدين عن حيلة حربية غريبة

أرسل جماعة من المجاهدين الجزائريين بكل سرعة الى ساحل البحر يقدرها المؤرخون بخمسمائة رجل، وما كادت هذه الفرقة الفدائية تحل بالموقع التى اتخذه الاسبان معسكرا لهم ، ولم يتركوا لحراسته الا عددا قليلا ، حتى أخذوا يدمرون المعسكر ويشعلون النار فى القوارب التى تصل الاسطول بالبحر ، ويهددون نفس سفن الاسطول •

كان الاسبانيون يرون من « كدية الصابون » تطورات هذه العملية الخطرة التى توشك ان تقضى على خط مواصلاتهم البحرى، فوقعوا فى

المكيدة، وارتدت قوات كثيرة منهم نحو البحـــر لمحاولـــة انقاذ القوارب والسفن ، وهكذا انقسمت القوة نصفين ، ففتح المجاهدون أبواب المدينة فجأة ، وانطلقوا كالسهام يهاجمون الاسبان من كل جهة ، فاختل نظامهم، وفقدوا مواصلاتهم ، وشلت حركة قيادتهم ، فأصبحوا كقطعان الغنـــم السائمة بين أيدى المجاهدين ، واخترطتهم السيوف من كل جانب ، وانصب عليهم وابل الرصاص ، فمات منهم جمع كبير ووصل الباقون منهم الى ساحل البحـــــــر •

أثناء هذه العملية ، أخذت أمواج البحر ترتفع ، واشتد هيجان المياه ، الى درجة جعلت الرجوع الى الاسطول عملية غير ممكنة ، فما استطاعها منهم الا القليل النادر، أما الكثرة الكاثرة فقد بقيت على الساحل، وأحاط بها المجاهدون من كل جهة فقتل منها من قتل ،واستسلم للأسر من بقى حيا من ذلك الجيش الذى كان يحمل آمال اسبانيا وآمال المسيحية الرسمية جمعاء ، فكان عدد الاسرى يزيد عن الثلاثة آلاف ، قتلوا من بعد عن آخرهم عندما حاولوا عملية انتقاض ، ومات غرقا فى البحر أربعة آلاف رجل • وهكذا لم يكد يسلم من هذه المعركة احد ، وكان هذا اليوم العظيم الخالد، يوم النصر المبين ، هو يوم الاحد ، ٢٤ من شهـــر أوت ١٥١٩ (٩٢٥ هـ) فالمعركة من أولها الى آخرها لم تزد عن ثمانية أيام •

لكن مأساة الاسبانيين لم تنته عند هذا الحد ، بل تعدتها الى ان أصبحت كارثة ذلك ان الرياح المعاكسة ، والامواج المتلاطمة قد ارجعت الـــى الساحل الجزائرى ٢٤ سفينة من سفن الاسطول ، بكل من فيها ، وبكل ما عليها ، فغنمها المؤمنون وتم بذلك نصر اللـــه المبـــين •

ملاحظـة عن الزوبعـة

هذه الحكاية التي قصصتها عليك ، والتي أعتمدت في تفصيلها على الصحيح من المصادر الغربية والعربية ، تجعل النصر الاكبر في هذه المعركة ، نتيجة للمناورة الناجحة التي قام بها خير الدين ، ونتيجة لقوة شكيمة المجاهدين الجزائريين الذين انقضوا على أعدائهم ، كالاسود الضوارى ، وبعدئذ ثارت الزوبعة البحرية ، فكانت خاتمة لهذا اليوم العظيم الذى فرح فيه المسلمون بنصر الله •

لكن الكثير من مؤرخى الفرنج ، يجعلون هذه الزوبعة البحرية سببا رئيسيا وأساسيا للنكبة الاسبانية ، متجاهلين على الاغلب مناورة خير الدين ، ضاربين صفحا عن بطولة المجاهدين الجزائريين الذين دبروا المكيدة واستثمروها ، حتى جاءت الزوبعة فكانت فاصلة الخطاب ، على ان نفس المؤرخ الاسبانى هايدو ، في كتابه تاريخ ملوك الجزائر ، الذى ترجمه للفرنسية المؤرخ د ى قرامون الذى ذكرناه آنفا ، يؤكد ان الزوبعة لم تثر الا عند الانهزام ومحاولة ركوب سفن الاسطول • ويزيد دى قرامون على ذلك بيانا فيقول : ان المعركة التى اسفرت عن انكسار الجيش الاسبانى قد وقعت يوم العشرين • وان الزوبعة ثارت بعد ذلك يومى ٢١ و ٢٢ • وان المؤرخين الافرنج ليفعلون هذا ، هذه المرة ، كما فعلوه من قبل بمناسبة الانكسار الاسبانى السابق ، وكما سيفعلونه من بعد بمناسبة ما سيمر بنا من انكسارات اسبانية أخرى هى أشد هولا وأعظم أثراء تغطية لهذه الهزائم ، وتخفيفا من حدة وقعها ، وغمطا لحق الشعب المجاهد النبيل •

أما نحن معشر الجزائريين والمسلمين عامة ، فنقول أنه لو صحت

أقوالهم وكانت الزوابع حقا هي التى سببت هزيمة الاسبان أمام الجزائر، ماسبق منها وما لحق ، فان الله سبحانه وتعالى يكون قد نصر بالزوابع والاعاصير هذه المدينة المجاهدة ، وهذه الدولة الاسلامية الناشئة ، كما نصر من قبل المجاهدين المسلمين الاولين ، يوم الاحزاب ، بالريح الصرصر العاتية •وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم •

ملاحظة عن جيش ملك تلمسان :

كان الملك الزياني ، صنيعة الاسبان أبو حمو الثالث ، قد قضى نحبه ، في نفس السنة التى استشهد فيها عروج ، أي سنة ١٥١٨ (٩٦٤ ﻫ) وتولى الملك بعده أخوه عبد الله الثاني ، ولم تكن سياسته كسياسة أخيه بل كان يرى أول الامر وجوب سلوك سياسة الحياد بين الاسبان وبين الجزائريين ، وان كان ولابد من الاعتماد على أحد الطرفين ، فليكن على خير الدين ، لا على الاسبان ، وكانت هذه نفس السياسة التى يراها شقيقه مسعود ، الذى أبعد أخاه عن ملك تلمسان ، ثم عاد اليه في حديث لا يكاد يصدقه العقل لهوجه ، والعرش مثل كرة المبارات ، لا تكاد تتلقفه اليد ، حتى ترمى به الى آخر ، ومن وراء كل ذلك مساعى الجزائريين ودسائس ومحاولة الاسبان، ورأى وعزيمة أهل تلمسان •

والذى نعتقده ، وسط هذه المأساة الحزينة الكئيبة ، هو أن القضية ليست قضية الملك عبد الله، أو قضية الملك المسعود، بل هي قبل كل شيء قضية أهل تلمسان وأن أهل المدينة العظيمة هم الذين أبوا أن ينصروا الاسبان على اخوتهم المسلمين ، وهم الذين أرغموا الملك على عدم الوفاء بالعهد الذى قطعه الملك للامبراطور شرلكان ، بارسال الجيش لتأييد

الحملة على الجزائر وتدمير ملكها ، وسأقدم لقراء كتابي ، مجموعة من الرسائل الرسمية ، ومن التقارير السرية ، تلقى الانوار على هذه الحقبة من تاريخ بنى زيان وهم بين الاتراك الجزائريين وبين الاسبان .

النكسة المؤلمة ، ثورة أحمد بن القاضي ، ومصرعه

ارتفع نجم خير الدين اثر هذا النصر العظيم، وعلا صيته الى السماء، وأخذت بعض الفرائص ترتعد منه فرقا ، لا فرائص الاسبان فقط ، بل فرائص البعض من ملوك المسلمين ، كسلطان بنى حفص بتونس .

يقول ابن أبى الضياف المذكور آنفا : ولما علم ذلك محمد بن الحسن دخلته الغيرة الملكية ، واشتد حذره من خير الدين وتحقق انه اذا وصل يده بالدولة العثمانية سهل عليه الاستيلاء على المملكة التونسية ، وندم على اضاعة الحزم ، فركب متن الفساد والفتنة بين نواب خير الدين ، وكاتب صاحب تلمسان يحذره غائلة خير الدين . الخ ...

وكان خير الدين قد قسم مملكة الجزائر الى قسمين ، قسم شرقى ، يشمل البلاد القبائلية الجبلية ، من شرقى العاصمة الجزائرية الى حدود المملكة الحفصية التونسية . ووضع على رأس هذا القسم صديقه ورفيقه فى الجهاد ، الشيخ أحمد بن القاضى الغبريني « سلطان كوكو » ببلاد زواوة ، وتقع قرية كوكو على بعد ١٨ كيلو مترا فى الجنوب الشرقى من مدينة أربعاء بنى راشن .

أما القسم الغربى ، وهو الممتد من الجزائر الى حدود دولة بنى زيان الغير المحددة بالضبط ، فقد وضع عليها السيد محمد بن على . وظن أنه يستطيع أن يعتمد على الزعيمين المحليين لحكم البلاد مباشرة بيد أبنائها،

تاركا لمدينة الجزائر السلطة العليا ، ومباشرة أمور الحرب والسياسة .

لكن اسبانيا ، وملوك المسلمين ، كانوا بالمرصاد .

ولقد كان« ملك » قلعة بنى عباس ، عبد العزيز ، عدو أحمد بن القاضى الالد ، من أكثر الناس نقمة على هذا النظام الادارى الجديد ، الذى يجعل من خصمه ابن القاضى ، أميرا عليه ، وحاكما فى جهته ، فكان يحمل لواء العصيان ، ويعلن الطاعة والولاء للملك الحفصى بتونس .

لكن الحالة تغيرت بصفة فجائية ، فالسيد احمد بن القاضى الغبرينى ، الذى أساءت الدسائس العلاقات بينه وبين خير الدين ، أعلن الثورة والانفصال عن الدولة الجزائرية ، منصاعا لمساعى الدولة الحفصية ، معتمدا على مددها ورجالها ، فما وسع خير الدين الا اخراج رجاله ، ومقاتلة ابن القاضى قتالا مريرا فى جبال زواوة المنيعة الشامخة ، واضطره للالتجاء الى عنابة . ثم تلقى ابن القاضى مددا من السلطان الحفصى التونسى، فعاد الى الحرب ، واستفزاز سكان الجبال ضد الحكم الجزائرى ، وساءت الحالة ، الى ان قرر خير الدين الخروج بنفسه لمقاتلة الصديق القديم المنشق . أما المؤرخ دى قرامون فيروى القصة ، معتمدا على مابين يديه من الوثائق هكذا

عزم سلطان تونس على اخضاع الجزائر لسلطته ، لانها كانت نظريا تابعة لدولة بنى حفص ، وتآمر مع ابن القاضى على ان يلتحق به أثناء اختراقه البلاد القبائلية ، وان يجتمعا على مقاتلة الجزائريين أصحاب خير الدين .

خرج خير الدين وهو يعتقد أنه سيرد غارة الحفصيين ، معتمدا على جيش الاتراك وجيش ابن القاضى ، وما كادت المعركة تلتحم فى « فليسة أم

الليل » حتى أدار جنود ابن القاضي سلاحهم ضد خير الدين والاتراك فوقعوا بين نارين ، وقتلوا عن آخرهم تقريبا ، ونجى خير الدين بنفسه وبعض رجاله الى جيجل ، وارسل يطلب من الجزائر سلاحه، واسطوله وكنـــــوزه •

ويقول المؤلف « واستمر أحمد بن القاضي يتقدم فى متيجة ويخرجها ، ودخل الجزائر ، فسلك فيها سيرة أدهى وامر من سيرة الاتراك » اه •

دام حكم ابن القاضي فى مدينة الجزائر ستة أعوام (١٥٢١ ــ ١٥٢٧) وقد كادت تتفتت تلك الرابطة التى أحكم خير الدين صنعها وشكل منهـا دولة الجزائر وسادت مختلف جهاتها الفوضى والاضطراب •

وكان خير الدين يحاول رتق الفتق من مدينة جيجل ويكثر التـــرداد بينهما وبين جربة ، ويوالى القيام بأعماله البحرية الناجحة ، من أجـل جمع قوة أخرى ، الى ان تمكن من جمع جيش جديد ، وايده ونصره عدوه القديم ، سلطان قلعة بنى عباس ، الذى كان عاداه من أجل صداقته لابن القاضي واعتماده عليه ، فبرز الى الميدان من جديد ، واسترجع مدينة القل وانضمت اليه مدينة قسنطينة ، وجاءته جموع الشعب المجاهد ، الراغب فى الوحدة ، والتفت حول لوائه من جديد فسار يشق طريقه جاهدا ، نحو مدينـــة الجـــزائـــر •

أما الشيخ أحمد بن القاضي ، فقد غادر الجزائر مسرعا ، لملاقاة خصمه العنيد بين مرتفعات ونجاح الجبال القبائلية ، والتقى الجمعان عند مضيق ثنية بنى عائشة • فانهزم رجال ابن القاضي حتى لم يبق معه الا قلة من الانصار فرأوا ان هذه الحرب الاخوية توشك أن تحطم كـل ماكسبتـه البلاد خلال السنوات الاخيرة ، وان هذه الاعمال لا تفيد آخر الامر الا

الاسبانيين لا غير ، فعزموا هم بأنفسهم على التخلص من الشيخ أحمد بن القاضي، فجاءوه الى خيمته عند غروب الشمس، وقتلوه • وكان ذلك سنة ١٥٢٧ ، وبذلك انتهت الفتنـــة

يقول المؤرخ الاستاذ س • بوليفة ، في كتابه الجرجرة عبر التاريخ :

« ودخل خير الدين مدينة الجزائر ، وقد روى أن أهل المدينة قد احتفلوا برجوعه ايما احتفال ، ذلك أن دخول خـ يرالدين للمدينة كان بمثابة تحرير لها • فالسياسة الجافة القاسية التي عامل بها ابن القاضي مدينة الجزائر على طريقته الجبلية الغليظة ، قد اوغرت ضده قلوب أهل الجزائر منـــذ عهـــد طويـــل »

ولم تستمر الحرب طويلا بين الجانبين بعد ذلك ، فجبال القبائل الحرة الأبية قد عمدت الى جمع الشمل من جديد ، وجاء الحسين بن القـــاضي شقيق الشيخ أحمد ، الذي تولى الامارة بعد مصرع أخيه ، الى مدينـــة الجزائر سنة ١٥٢٩ يستسلم استسلاما شريفا بين يدي خير الدين •

الرجوع الى الجهاد ، وتحرير معقل صخرة الجزائر •

التف الناس من جديد حول خير الدين ، ورأوا فيه المنقذ للمرة الثانية ، مما حاق بهم من فوضى واضطراب وارهاق ، اثناء فتنة ابن القاضي السالفة الذكر • فأعاد تنظيم الدولـــة ورتب أمورهـــا وشكل الجيش واحســـن تجهيزه ، وجمع اسطولا ضخما ، مما كان لديه أولا ، ومما غنمه أثنـــاء جهاده ، البحري خلال تلك الفترة ، فأصبح من جديد ، وفي مدة وجيزة على رأس دولة قوية وشعب مجاهد منقاد ، وجيش في البر واسطول في

البحر ، مستعدين للقيام بواجباتهم المفروضة لحماية بيضة الاسلام ، وانقاذ ما بقى من البلاد تحت النير الصليبى الاسبانى .

ولم يضع ساعة من الوقت سدى ، والوقت كالسيف كما قال المثل ، ان لم تقطعه قطعك، وفى هذه الحالة التى نذكرها الان، مصداق لهذا المثل .

ففى اليوم السادس من شهر ماى سنة ١٥٢٩ ، (رمضان ٩٣٦ هـ) أخذ فى قصف جدران معقل الصخرة الجزائرية ، برمى القنابل الحديدية من المراكز التى شادها من أجل ذلك على بعد ٢٠٠ متر فقط من تلك الجدران،

ولقد كان معقل الصخرة حصينا جدا ، أبدع الاسبانيون انشاءه وتعميره ووضعوا فيه من الاسلحة ومن العتاد والزاد ما يجعلهم فى أمن من كل غائلة، وما يجعلهم الى جانب ذلك تهديدا دائما لمدينة الجزائر ، يستطيعون نسفها متى أرادوا .

وأعان خير الدين وجيشه على مباشرة هذه العملية الضخمة ، ما غنمه المجاهدون المسلمون فى عرض البحر ، من سفينة كبيرة تابعة لدولة البندقية المحاربة محملة ذخيرة وسلاحا .

تقول كل كتب التاريخ ، باختصار ، ان خير الدين هاجم الحصن العظيم هجوما مركزا اماميا ، ثم هاجمه من جهة باب الواد ، ندك أسواره ، ثم احتله يوم ٢٧ من شهر ماى . لكن تقريرا اسبانيا ، محفوظا بخزائن سيمانكاس السالفة الذكر يعطينا صورة واقعية عن الحيلة الحربية التى استعملها خير الدين من أجل تحطيم القلعة واحتلالها .

يقول التقرير : ان خير الدين قد أمر بتجهيز كل السفن الحربية وشحنها بالرجال والعتاد ، واذاع فى كل مكان أنه سيبحر الى السواحل الاسبانية من أجل الغزو والجهاد ، وخرجت السفن فعلا من وراء صخور الجزائر،

واخذت طريقها نحو الشمال ، لكن تلك السفن عادت ادراجها تحت جنح الظلام ، واختبأت فى مرفأ تاما نتفوس ، فى الجهة المقابلة للجزائر على الطرف الآخر من الخليج .

ويوم الخميس ٢٢ ماى ، أخذت كل البطاريات الموجودة بمدينة الجزائر ، تقصف المعقل قصفا عنيفا وبصفة متواصلة فاستمر ذلك كامل يوم الخميس ، وليلة الجمعة الى ماقبل الفجر . ثم سكتت المدفعية ، وظن الاسبان ان هذا الدور من المعركة قد انتهى ، وانهم يستطيعون اخذ نصيب من الراحة ، وكان الاعياء قد نال منهم كل منال .

فى نفس تلك الليلة ، كان الاسطول الجزائرى يخترق الخليج من تماتنفوس الى الجهة المقابلة حيث الحصن ، وأحاطت به السفن من الشرق ومن الغرب ، وفطن الحراس الاسبان لذلك فى آخر وقت ، واعلنوا النفير، لكن بعد فوات الاوان ، حيث ان الرجال الذين حملهم الاسطول كانوا قد تمكنوا من النزول الى أرض المعقل ، وداهموا الحصن ، وتمكنوا منه .

ولقد قتل من المسيحيين أثناء هذه العملية ٦٥ جنديا ، وكانت خسائر المسلمين ــ حسب التقرير الاسبانى دائما ــ ١١ تركيا و٣٥ عربيا . وأسر المسلمون من الاسبان الذين كانوا بالحصن ٩٠ جنديا ، و٢٥ من النساء والاطفال .

أما قائد معقل الصخرة (مارتينودى فاركاس) الذى دافع دفاع الابطال عن معقله فقد كان من بين الاسرى ، وقد عذبه الاتراك ، من أجل أن يدلهم على المخبأ الذى أودع فيه مقدارا من المال يساوى ٢٠٠٠ دوقة (نحو ٤٨٠٠٠ دينار جزائرى) ثم جعلوه بعد ذلك رئيسا على بقية الاسرى

الذين كلفوا ببناء منارة المسجد (مسجد خير الدين الذى أشرنا اليـه فى فصــل سـالـف) •

أما خير الدين فقد أعلن بعد ذلك وأذاع فى جماعات المسلمين أنه من كان يؤمن بالله ورسوله ، ويريد الجنة فى الدار الآخرة ، فعليه أن ينظم الى جيشه بكل سرعة — •••وهو يعتزم مهاجمة وهران والمرسى الكبير »

هذا ماجاء فى التقرير الاسبانى عن احتلال البنيون ، أو معقل صخرة اصلقلة ، وكان احتلاله نصرا اسلاميا من الطراز الاول ، لانه طهر بصفة كاملة ساحل الجزائر الاوسط بحيث حصـر نقط الاسبانى فى الناحيـة الشرقية (بجاية وما اليها) وفى الناحية الغربية (وهران المرسى الكبير وما اليها) أما مدينة الجزائر العاصمة ، فقد أزاح الجهاد المنتصر عن صدرها وقر ذلك الكابوس النارى ، الذى خيم عليها عشرين سنة كاملة (جانـفى ١٥١٠ — ٢٤ ماى ١٥٢٩) (٩١٦ — ٩٣٦ هـ)

ان خير الدين لم يستعمل كل الاسرى كما جاء فى التقرير الاسبـانى ، لبناء منارة المسجد ، بل ان معظمهم استعمل لتحطيم المعقل ، وتقويض ما بقى من أركانه كى يقطع كل امل للاسبان فى الرجوع اليه ومحاولة احتلاله من جديد • وتم ذلك العمل بعـد أيام قليلـة •

وما كادت تتم هذه العملية ، حتى جاءت سفينة اسبانية ضخمة ، تحمل على ظهرها جيشا مؤلفا من سبعمائة رجل مقاتل ، وعتـاد وزاد ، نجـدة لمعقل الصخرة ، حتى يستطيع أن يقابل هجوم المسلمين ، ويدافع عـن وجـوده دفـاع المستميـت •

وكانت أبراج الحراسة الجزائرية تراقب بنظاراتها المقربة قائد هـذه السفينة ، وهو يحاول ان « يكتشف » معقل الصخرة ولا يجد له أثـرا

فاذا بالسفن الجهادية الاسلامية تنقض على سفينته كالصقور، وتتمكن من أسرها، والدخول بها الى الجزائر غنيمة دسمة ، بكل ما عليها ومن عليها.

بناء مرسى الجزائر الجديد

يومئذ عمد خـــير الدين للقيام بعمل يدل على عبقرية معمارية ممتازة ، فأمر جماعة الاسرى ، تحت اشـــراف معلمى البناء الجزائريين ، بنقـــل الصخور والحجارة التى تراكمت من انقاض معقل الصخرة ، وارسل السفن الى الجهة المقابلة نحو الخليج ، عند مرفأ تامانتفوس ، فجاءته بصخـــور رومانية قديمة، واستعمل كل ذلك من أجل وصل البر بجزيرة اصطفلة ، حيث كان حصن الصخرة ، وما كاد يتم بناء ذلك الجسر العريض المتيـــين الراسخ الاســـس ، والذى لا يزال يحمل الى يومنا هذا اسم « جسر خير الدين » حتى أمر بأن توصل الجزر العشرون بعضها ببعض ، ببناء دائرى متين ، ليست له الا فتحة واحدة : وهكذا أنشأ مرسى مدينة الجزائر العتيق ـ ويدعى اليوم ، الجفنة ـ وأصبح مقرا للاسطول الجزائرى يحميه من العواصف التى تحملها ريـــاح الغـــرب .

الانتصار الاسلامى العظيم بمعركة الباليار البحرية

ماكاد يتم هذا الانتصار ، ويتخلص المسلمون نهائيا من قلعة الصخرة، حتى اندفعت سفنهم حالا ، تحمل الحرب الى أرض اسبانيـــا ، وتتبـــع اسطولها دون هوادة ولا رحمـــة .

كان الاسطول الجزائرى يشمل ١٥ سفينة من نوع القاليرGALERES

وقد ألقى الرعب والهلع فى قلوب سكان السواحل الاسبانية، اذ أمعن فيهم حربا وسبيا وتخريبا ، الى درجة ان السكان تركوا قراهم خاوية على عروشها والتجأوا الى داخل البلاد . أما المعذبون فى الارض من بقايا المسلمين الاندلسيين فكانوا يبتهجون بهذا الانتقام الالهى ، ويرجون من وراء هذه الاعمال نصـــرا وتمكينـــا .

كان ذلك سنة ١٥٣٠ ، وقد تلـقى قائد الاسطـول الاسبانى أمـرا ، أمبراطوريا ، بأن يتقدم لمهاجمة الاسطول الاسلامى وأن يحطمه ويبعد عن الساحل الاسبانى خطره . فاستعد الاميرال «افريدريكوبور ـــ توندو» ايما استعداد ، وتقدم على رأس اسطول مؤلف من ١٢ سفينة حربيـــة ، يتتبع اسطول خير الدين السريع ، الى ان وجده بين جزيرتين من جـــزر الباليار الاسبانية التى تتوسط الحوض الغربى من البحر المتوسط بـــين شماله وجنوبه ، وظن القائـــد الاسبانى ان الوضع ملائم له ، فهاجـــم الاسطول الجزائرى بقوة وعنف ، والقى عليه وابلا من قنابله وقذائفه .

لكن الاسطول الاسلامى الجزائرى تلقى صدمة العدو بثبات وبصدق عزيمة جديرين بالاعجاب ، ووجه خير الدين فورا هجوما معاكسا ركـــزه على سفينـــة القيادة الاسبـانية ، وانطلق نحوها كالقذيفـة ، فاذا بسفينتـه تحاذى سفينة الاميرال الاسبانى ، وهى أكثر منها قوة وأكبـــر منهـــا حجما واذا بالمجاهدين الجزائريين يلقون بأنفسهم ، والسيوف تلمع بأيديهم ونيران الحمية والايمان تتقد فى صدورهم على السفينة الضخمة فيستقرون على ظهرها ويقاتلون من فيها قتال من يحب الموت ، فيتغلبون ، ويأسرون السفينة ، ويموت قائدها الاميرال الاسبانى موت الاشراف والصناديد ، دفاعا عن سفينته وعن شرفه وعن أمبراطوره ثم يلتفت الاسطول الاسلامى

الجزائرى فى هجومات خاطفة مركزة الى بقية سفن الاسطول ، فأمعن فيها أسرا وتغريقا واحراقا ، واسود اليوم من هول المعركة فاسفرت عن تحطيم الاسطول الاسبانى كله ، ولم تنج من هذه المجزرة البحرية الا سفينة واحدة ، فقط ، وكانت فرحة المسلمين بهذا النصر الذى مكنهم من السيطرة على البحر ، والرجوع بالغنائم والاسلاب ، تعادل الكمد والغم ، والحزن الذى ساد البلاد الاسبانية خاصة ، والبلاد المسيحية الاروبية عامة ، واعتقد الفريقان ان لهذا اليوم مابعده

جزء من ملحمة عالمية

لقد طرأ على هذه المعارك البحرية عامل جديد لايستهان به، الا وهو اسناد شرلكان الكبير ، قيادة أسطوله البحرى الذى يعمل ضد الساحل الجزائرى الى بحار ماهر ذاع صيته ، ولمع اسمه لمعانا غريبا ، هو الاميرال أندريا دوريا .

ودوريا سليل بيت من أكبر وأمجد بيوتات مدينة جنوة الايطالية ، وقد ورث عن أبيه وعن جده حب المغامرة البحرية ، وعشق الامواج ، واقتحام الاخطار بين الشراعات المنشورة والزوابع الثائرة ، وهدير المدافع ولمعان السيوف ، ولم يكن يهمه شخص الذى يعمل تحت رايته ، على شريطة أن يكون مسيحيا مقاتلا ؛ بل يهمه أن يكون مصارعا وان يحرز النصر على العدو ، فعمل أولا تحت لوآء مدينة جنوة، ثم اصطفاه فرانسوا الاول ملك فرانسا وسلمه مقاليد الاسطول الفرنسى ، الى ان بدرت من الملك الفرنسى بادرة اساءته ، فارجع اليه سنة ١٥٢٩ القلادة التى سلمها له رمزا للقيادة ، ودخل فى خدمة الامبراطور شرلكان ، الذى كان يومئذ

على رأس أقوى وأضخم دولة مسيحية فى أروبا ، تجمع تحت تاجه بلاد اسبانيا ، واغلب ايطاليا ، والنمسا والمانيا وبلجيكا ، وهولاندا ، والقسم الاكبر من بلاد أميركا الوسطى والجنوبية ، وقد وقف يومئذ وجها لوجه أمام الدولة العثمانية الاسلامية ، التى اندفع سلاطينها الاولون فى غمرة من أغرب غمرات التاريخ ، يحتلون البلاد الاوروبية الشرقية ، ويسقطون دولها وممالكها ، دولة دولة ومملكة مملكة ، الى ان وقفوا على ابواب مدينة فينــا عاصمة النمســـا ٠

واذا كانت الدولة الجزائرية الفتية ، قد اعلنت بيعتها للسلطان سليم ، ودخلت تحت راية الخلافة العثمانية ، مملكة مستقلة ممتازة ، فقد تغيرت ــ لأمد وجيز ــ صبغة الحرب الجزائرية الاسبانية ، واصبحت جزءا من هذا الصراع العظيم الذى شمل كامل البلاد البحر المتوسط وما حواليه ، بل من هذه الملحمة الاسلامية المسيحية التى تولى كبرها من ناحية الشرق السلطان سليم ، ثم ولده السلطان سليمان القانونى ، وأمير البحر بـــاى لرياى الجزائر خير الدين ، وتولى كبرها من ناحية الغرب شرلكان الكبير وأمير البحر اندريادوريا ٠

الانتصار الكبير فى شرشال

وما كان الاسبانيون ليتركوا الساحل الجزائرى وقد أعلنوا أنه مـــن ممتلكاتهم الخاصة ، مرتعا للدولة الجزائرية الحديثة ، وما كانوا ليصبروا ، وهم أهل العزيمة والعناد ، على الهزيمة المنكرة التى لحقتهـــم فى مدينـــة الجزائر سنة ١٥١٩ فصمموا على أن يضربوا هذه الدولة الاسلامية الجديدة ضربـــة حاسمة ، وان يجعلــوا من هذا الساحل الذى يسيطرون على شرقــه

بواسطة مركز بجاية ، ويسيطرون على غربه بواسطة مركز وهران والمرسى الكبير ، نقطة انطلاق لتحقيق هدفهم الاكبر : تحطيم الدولة الاسلامية وابعادها عن البحر المتوسط ، وجعل المغرب العربي من ممتلكات اسبانيا (والبرتغال) وقرر الامبراطور تعبئة حملة جديدة ، والارسال بها فورا، لتحطيم قوة خير الدين، ووضع تلك الحملة تحت راية اندريا دوريا، خصم خير الدين العنيـــد •

أخذ دوريا يجمع أسطوله فى مدينة جنوة منذ سنة ١٥٣٠ ويستعد لهذه الحملة الخاطفة •• وفى شهر جويلية من سنة ١٥٣١ ، غادر المرسى الايطالى الكبير ، على رأس عمارة مؤلفة من عشرين سفينة ، تحمل ألفا وخمسمائة من المقاتلين الاشداء ، وسار نحو الساحل الجزائرى •

ولقد كان خير الدين مطلعا على هذه الاعمال ، لكنه لم يكن يعرف وجهة الاسطول المسيحى ، وهل هو يريد مباغتة العاصمة الجزائرية، أم سيختار نقطة أخرى من الساحل الجزائرى ، ميدانا لمعركته ، فجمع أسطوله ، وكان يبلغ أربعين سفينة وأعلن حالة الانتباه ، وأخذ ينتظر الانباء •

كانت مدينة شرشال يومئذ مركزا من أكبر مراكز الدولة الجزائرية الحديثة وقد حصنها الشهيد عروج فاحسن تحصينها، وأقام بها قلعة ذات شأن واتخذت منها الدولة الجزائرية مصنعا لعتاد الجيش الاسلامى ومؤنه، ومعملا لصناعة الاخشاب ــ الكارستة ــ باللغة التركية ، تعتمد عــلى غابات الونشريس وغيــرها من الغابات الكثيفة التى كانت ــ قبل ان يحرقها الجيش الفرنسى فيما بعد ، أثناء وقائع الاحتلال الرهيبة ـــ تمثل ثروة وطنية عارمة ، ثم ان شرشال بمركزها الطبيعى المتاز ، وهى تقع فيما بين مدينة الجزائر ١٢٠ كيلو مترا غربيها) وبين مدينة وهران، تكـــون

تحت الراية الاسبانية مصدر تهديد مباشر ومستمر لمدينة الجـزائر ، ومركز تجمع لما يستقبل من الاعمال .

فمدينة شرشال اذن كانت هدف المعركة .

وكان أندريا دوريا يعلم أن هذه المدينة لم يكن لها الا رجال حاميتهـا للدفاع عنها ، مع من ينظم اليهم من المجاهدين ، وانها لا تستطيع المقاومة الطويلة ، ثم أيقن أنه اذا ما استقر بها ؛ ووضع حاميته فى قلعتها ، فلن يستطيع خير الدين ولا أسطوله ابعاده عنها .

وأفاقت مدينة شرشال ، فاذا بالاسطول الاسبانى الضخم يسد أفقها ، ويقترب منها . وفى سرعة محمودة ، تشاورت القيادة ورجال الشعب وتقرر اخلاء البلدة حالا من السكان ، والتجاء القوة المسلحة الى القلعة ، ثم الدفاع عنها ومطاولة الاسبان بها ، ريثما يقدم المدد من الجزائر ومن داخل البلاد .

نزل الاسبان مدينة شرشال دون حادث يذكر ، وتركزت الحاميـــة الاسلامية ومن معها من المجاهدين فى معقل القصبة ، وأخذوا يراقبون أعمال العدو وينتظرون ساعة الانقضاض عليه .

بادر الاسبانيون بالبحث عمن بشرشال من أسرى النصارى ، وكانوا نحوا من ثمانمائة فوجدوا مخابئهم وأخرجوهم، فانضمــوا الى الجيش المحتل ، ودلوه على ديار كبار القوم ، والبقاع التى يمكن أن تكون بهـا مخابى الاموال ونفيس الذخائر ، فانقسم الجيش الاسبانى ومن معه من الاسرى ، الى عصابات نهب وسلب ، وأخذوا يجوسون خلال الديار ، وتجرأ بعضهم على الخروج الى الحدائق والمزارع حول البلدة .

أيقنت القيادة الاسلامية ساعتئذ انه يمكن التغلـب على هـذه الفرق

اذا مانفصلوا بينها، ونازلوا كل فرقة منها على حدة، فلم يعبأوا بالفارق الكبير بين عددهم القليل وعدد عدوهم ، وفتحوا أبواب القلعة واندفعوا يجأرون بالتهليل والتكبير .وأحاطوا بالعدو من كل جانب، وحالوا بين فرقه وبين التجمع، كما حالوا بينهم وبين البحر ، بينما كانت مدفعية القلعة تقذف سفن الاسطول الاسبانى بنيرانها وقذائفها ، فاختل نظام العدو، وسادت فرقه الفوضى والاضطراب ،وأصبحوا كالهشيم تذروه الرياح بين سيوف الجزائريين ، فما انتهى اليوم حتى كانت جثث ألف وأربعمائة من الاسبانيين تكسو أرض بلدة شرشال ، بينما كان عدد الاسرى يبلغ الستمائة فما تمكن من الرجوع الى سفن الاسطول الا العدد اليسير • أى نحو ٣٠٠ رجل من بقايا الجيش الاسبانى ومن الاسرى الذين تمكنوا من النجاة •

وتلكأ دوريا فى الرحيل عن شرشال ، وهو يحمل وقر هذه النكبة التى وقعت تحت سمعه وبصره ، لكن جاءه النذير بأن اسطول الجزائر قد قدم مسرعا تحت قيادة خير الدين ، لينازل فى شرشال خصمه العنيد •

لكن دوريا درس الموقف فوجده لغير صالحه ، وأيقن أنه اذا ما حاول الثبات بأسطوله أمام خير الدين ، فان الدائرة ستدور عليه لا محالة نظرا لقوة وعدد أسطول خير الدين ، من جهة ، ونظرا لما أصاب الاسبان من هلع وانهيار نتيجة المعركة الخاسرة ، من جهة أخرى ، فبادر بمغادرة أرض المعركة ناجيا بنفسه وبسفنه وبقايا رجاله ، الى جهة الشمال •

وحل بالمدينة خير الدين ورجاله ، فما كادوا يعرفون أنباء النصر وفرار سفن العدو ، حتى أشرعوا سفنهم ، واقتفوا اثر غريمهم ، يريدون أن يصفوا معه حسابا طويلا • لكن سفن الاسبان كانت قد سابقت الريح ،

فلم يتمكن الاسطول الجزائرى من اللحاق بها والاشتباك معها فى المعركة التى كان يريدها ، ولم يتمكن الامن سفينتين أسبانيتين كانتا محملتين عتادا وأقواتا ، فأخذها بكل ما كانت تحمله .

وكان لهذا النصر العظيم ، الذى عزز وآزر النصر السابق حول مدينة الجزائر ، اثره الفعال ، داخل البلاد وخارجها .

أما فى الداخل ، فقد ازداد الشعب الجزائرى ايمانا بقوة هذه الدولة التى أقامها بارادته ، والتى أسلمها طوعا قيادته ، وأيقن أن نصر الله معقود برايتها وأن انقاذ الوطن سيكون على يدها ، فازدادت هيبة الدولة بذلك وقوى نفوذها ، وامتد سلطانها ، وأثر كل ذلك على رجال الشعب فى تلمسان وضواحيها وهم تحت سلطة بنى زيان الاسمية ، فأصبحوا ينتظرون الخلاص ، وانقاذ البلاد من احتلال الاسبان ومن سيطرة نفوذهم ، على يد هذه الدولة الجزائرية القوية ، وعلى يد ملكها خير الدين بالذات ، وستأتيك أنباؤهم بعد حين .

أما فى الخارج ، فقد كان لانباء انكسار حملة اندريا دوريا فى شرشال ، واضطراره للفرار امام اسطول خير الدين ، رجة عنيفة هزت الدوائر المسيحية وأوقعتها فى كمد وحيرة وجعلتها تفكر تفكيرا جديا فى تجهيز حملة تضع فيها كل آمالها ، وتجعلها حاسمة للقضاء على هذه القوة الناشئة الرهيبة ، كما هز النصر الاسلامى دوائر اسطامبول المتحفزة المرهفة ، وجعلتها تفكر تفكيرا جديا ، فى منح خير الدين البطل ، فرصة أكبر وأوسع لاستثمار خبرته وتمكينه من دحر اعداء الدولة واعداء الاسلام بصفة أعم وأشمل .

انقاذ جديد لمسلمي الاندلس :

كان المسلمون فى بقايا الارض الاندلسية ما بين ساحل البحر وبين جبال البشرات ، يقاسون يومئذ الامرين من هوس الحكم الاسود الذى فرضه عليهم شرلكان ، وامعانه الاهوج ، فى تنصيرهم قلبا لا قالبا ، واطلاقه العنان لرجال الكنيسة ورجال الحكم ورجال محاكم التفتيش ، يمعنون فى حملة البطش والارهاب والتعذيب الفظيع ، والقتل الذريع ، بما لا يستطيع قلم وصفه •

وتعالت الاصوات من كل جهة تستغيث برجال الدولة الجزائرية وبخير الدين من أجل انقاذهم ، والعبور بهم الى بر الامان •

وكان خير الدين قبل ذلك قد عمل فى هذا الميدان عمل الابطال ، ولم يكن عندئذ الا رئيس سفن من القراصنة المجاهدين ، فكيف به الآن ، وهو على رأس دولة قوية مجاهدة ،وعلى رأس اسطول ذاع صيته واخترقت سمعته الآفاق !

وما كان أسرع خير الدين ، لسماع أصوات الاستغاثة البائسة ، وتلبيتها، فسار يجوب البحار ، على رأس عمارة بلغ عددها ٣٦ سفينة ، حتى بلغ السواحل الاسبانية التي التجأ اليها المسلمون ، ولم يجرأ أسطول اسبانيا على صده أو محاولة الوقوف أمامه ، فأخذ خير الدين يحمل على سفنه أكبر عدد ممكن من أولئك المستضعفين فى الارض ، الفارين بدينهم وبكرامتهم ، بل انه كان يترك أكبر عدد من بحارته الجزائريين فوق أديم الارض الاسبانية لكى يحمل مكانهم عددا من اللاجئين • حتى اذا ما اوصلهم الى دار السلامة والامن ، فوق ساحل الجزائر ، عاد الى اسبانيا

ليأتي بنبرهم ، وهكذا مكنه الله من ناصية البحر ، فكرر غدوه ورواحه بين الساحلين سبع مرات متوالية ، وكان جملة من أنقذهم من رجال الاندلس ونسائهم يبلغ السبعين ألفا ، اشتد بهم ساعد المسلمين ، الى جانب اخوانهم الذين داءوا من قبلهم مهاجرين ، ونزلوا بمدينة الجزائر وسهل متيجة ، وعمروا مدنا مثل البليدة ، ودلس ، وادخلوا الى البلاد بقايا حضارتهم العريقة وصناعتهم ، وفنونهم ، وخبراتهم المختلفة ، مما سبق لنا ذكره •

المحيط بعد البحر المتوسط :

أصبح اسم خير الدين اسما عالميا ، وصار مالكا لزمام الحوض الغربي من البحر المتوسط دون منازع ، وآلى على نفسه تقويض سلطان الاسبان، ودحرهم برا وبحرا فاتخذ من جزائر هيار HYERES الاسبانية مقر لأسطوله ، ومن هناك أخذ يوالي غزواته البحرية المتصلة، المتوالية ، فيغنم من سفن العدو كل ما وصلت اليه يده •

ولقد جمع حوله يومئذ أفذاذا من الابطال الذين ستمر بنا أسماؤهم في ميدان الجهاد والعزة والشرف ، من أمثال ابنه حسان خير الدين ، وطورغود رايس ، وصالح رايس (موحد الارض الجزائرية فيما بعد) وسنان (منقذ تونس فيما بعد) واضرابهم، ولم يكتفوا يومئذ بالغزو والجهاد وتمزيق أوصال العدو بالبحر المتوسط ، بل اجتازوا مضيق جبل الفتح (جبل طارق) وأطلقوا العنان لسفنهم الجزائرية تنقض كالبزاة على السفن الاسبانية والبرتغالية الراجعة من الارض الاميركية ، تحمل ذهب الهنود الحمر المساكين، وخيراتهم وما ابتزته منهم أيدي الاثم والعدوان الاستعماري الاسود، فيغدو كل ذاك غنيمة بين يد المسلمين ،

وخلال كل ذلك ، كان البطل الشهم محمد حسن آغا ، (ويقولون عن أصله ، والله أعلم ، انه كان عبدا خصيا من جزيرة سردينيا، وان خير الدين قد تولى تربيته وتعليمه وتثقيفه . حتى جعل من العبد الخصى رجل ادارة الدولة، ممثلا لخير الدين ونائبا عنه. وقد أخذ يحصن مدينة الجزائر تحصينا جعلها قلعة شامخة تتحدى الاعاصير ، وينجز بناء مرسى الجزائر الذى باشره خير الدين منذ تحطيمه لقلعة صخرة الجزائر على رأس المقاومين الاسبان فيها ، بينما كان أهل المدينة العتيقة ورجال الاندلس الذين حلوا بها قديما وحديثا . يجددون بناء العاصمة ويرفعون فيها جدران القصور والبيوت الفخمة ذات الفن المعمارى البديع ، ويكثرون من بناء المساجد الفخمة لله ، فكان عدد المساجد يوم احتلال فرنسا لهذه العاصمة القاهرة يربو عن المائة والعشرين مسجدا .

خير الدين قبودان باشا :

اشتدت الحرب ضراوة بين الدولة العثمانية وبين اوربا التى تتزعمها الامبراطورية الاسبانية، واشتدت من جراء ذلك الحرب البحرية التى كان يقودها من الجهة الاوربية اندريادوريا ، الجنوى السالف الذكر ، الذى هزمته وأذلته مدينة شرشال ، فلم يجد السلطان سليمان العظيم شخصية من بين رجال البحر المسلمين ، تستطيع ان تقف فى وجه دوريا ، الا شخصية خير الدين ، فبادر باسناد خطة « قبودان باشا » اليه ، وهى رتبة أمير البحر العام لجميع الاسطول العثمانى ، مع بقائه على رأس الدولة الجزائرية برتبة باى لرباى كما أسلفنا .

ولبى خير الدين داعى الجهاد ، فترك على رأس الدولة الجزائرية نائبه وممثله محمد حسن آغا المذكور آنفا، وسارتوا نحو اسطامبول على رأس جزء من الاسطول الجزائرى يبلغ عشرين سفينة ، وهنالك فى دار الخلافة والسلطنة ، أقتبل سليمان أمير بحره المجاهد خير الدين ، على خير ما يتلقى به خليفة مسلم قائدا من أكبر قادة المسلمين ، وسلمه زمام البحر ، ومكنه من قيادة اسطول عثمانى يشمل ثمانين سفينة ، زيادة عن سفن الاسطول الجزائرى ، واستعد لمنازلة الاسبان .

انتقال المعركة الى تونس :

كانت السلطنة الحفصية بتونس تعانى يومئذ سكرات الموت ، وتكاد تلفظ النفس الاخير ، وقد تولى أمرها السلطان الحسن بن محمد ، الذى خلف أباه محمد بن الحسن على العرش الواهى المضعضع . ولكى نتصور انهيار الدولة ، تحت سلطة مثل هؤلاء الملوك ، وهى بين قوتين رهيبتين : قوة الاسبان وقوة العثمانيين ، أسوق لك ما قاله الدمشقى فى أخبار الدول:

« وكان محمد بن الحسن مشتغلا باللهو والخمر ، مهملا لأمور الملك ، وترك خمسة وأربعين ذكرا . خلفه منهم الحسن ، فقتل اخوته ، ولم ينج منهم الا الرشيد وعبد المؤمن لغيبتهما ، واشتغل (مثل أبيه) بالخمور والفجور ، وجمع حوله أكثر من أربعمائة غلام أمرد ... فمالت عنه الامة الى الرشيد .

« ولجأ الرشيد الى خير الدين صاحب الجزائر ، واستعان به على حرب أخيه » وما كاد السلطان سليمان يطلع على حقيقة الحالة بتونس ويدرك أن هذه المدينة التى أنحصر فيها ملك بنى حفص ، اذ هى نقطة ضعف فى

الجهاز الاسلامى الجديد ، وان العدو يوشك أن يستعملها ، مع طرابلس ، لضرب هذا الجهاز ومحاولة تقويضه ؛ حتى أمر خير الدين بالسير توا نحو تونس ، وابعاد هذه الادران عنها •

جاء الاسطول العثمانى ، تحت قيادة خير الدين ، فى شهر أوت ١٥٣٣ فعرج على مدينة عنابة وأخذ منها مددا أجاءه مع حسن آغا ، ثم تقدم نحو بنزرت برا ، وحلق الوادى بحرا ، فتمكن منهما دون عناد ، ووقف على أسوار مدينة تونس ففتحت له أبوابها ، وتقبله أهلها على الرحب والسعة،

أما السلطان الفاجر ، الحسن بن محمد ، فقد سار ذليلا ، حقيرا ، يستعدى شرلكان ورجال المسيحية على بنى قومه ، وحماة دينه •

وأما خير الدين ، فقد أخذ يجمع حوله الاعراب الذين انغمسوا فى حمأة الفوضى والفتن ، قال ابن أبى الضياف « ثم ان خير الدين كاتب الاعراب ، وحذرهم سوء عاقبة الفتنة فى الاسلام ، فأجابوه ، على شرط أن يبقى فى أيديهم ما أعطاه لهم بنو أبى حفص من الاقطاعات • فالتزم لهم بذلك ، وشرط عليهم : أن يكون مشتاهم بالصحراء ، وان يكفوا اليد العادية ، ثم بعث الى نائبه بالجزائر فى ارسال عسكر وأربعمائة فارس ، ولما وصلوا وزعهم باللجهات ، لما رأى من حال أمر المملكة » اهـ

نكبة الاسلام الرهيبة بتونس :

وصل سلطان النحس الحسن بن محمد ، الى اسبانيا ، واستنجد عاهلها، فوجد شرلكان الفرصة السانحة التى تمكنه من ضرب خير الدين فى غير ميدانه ، ومهاجمته تحت ستار ارجاع السلطنة الى سلطان ذهب طريد العدوان •

أخذ شرلكان يستعد استعدادا عظيما،ويريد أن يضرب الاسلام ويضرب الدولة العثمانية ويضرب خير الدين بالذات ، ضربات لا تقوم لهم بعدها فى الارض الافريقية قائمة •

أتم استعداده على أكمل وجه ، وأبحر من مدينة برشلونة يوم ٣١ ماى ١٥٣٥ ، يجر وراءه كما يقول المؤرخون الافرنج ، حملة صليبية حقيقية مؤلفة من ٣٠ ألفا من المقاتلين الاشداء ، يحملهم ٥٠٠ شراع ، وكانوا أمام أطلال قرطاجنة وسواحل مدينة تونس يوم ١٦ جوان ، ١٥٣٥ •

لم تكن القوة التى بين يدى خير الدين بكافية لرد هذه الحملة العظيمة ، اذ لم يكن الجيش الاسلامى يشمل الا نحو سبعة آلاف من الاتراك الذين جاء بهم خير الدين ، ونحو خمسة آلاف من التونسيين ، وتخلف الاعراب عن الجهاد ، فكانت النتيجة الحتمية ان استولى شرلكان على معقل « حلق الوادى » وهو مرسى مدينة تونس ، واستعد لمهاجمة العاصمة الحفصية ، يتقدم صفوفه بصفة رمزية نذل الانذال ، الحسن بن محمد ، الذى كان قد ابرم مع صاحبه شلكان اتفاقا رهيبا ، وتقدم الجيش الغازى نحو مدينة تونس •

فى نفس تلك الساعة ، وقع بتونس الحدث الذى عجل بالانهيار ، والذى كان سبب الكارثة العظمى ، ذلك هو انتقاض عشرة آلاف أسير نصرانى كانوا محبوسين بالعاصمة الحفصية ، فعندما خلت المدينة من الجيش الذى تقدم لقتال العدو ، وجد هؤلاء الاسرى فرصتهم السانحة ، فخرجوا ، ولموا شعثهم ، ثم هاجموا معقل القصبة الذى لم يكن به من الحرس الا القليل ، فتمكنوا منه وأداروا مدافعه صوب جيش المسلمين الذى وقع بين نارين ، وأوصدوا أبواب المدينة وقاموا عليها حراسا ، ليمنعوا خير الدين

وجيشه من الرجــوع اليها والتحصن لمــقاومة شرلكــان الى أن تــأتى النجـــدات .

تقول بعض كتب تاريخ الافرنج ، ان خير الدين قد شعر بذلك الخطــر قبل مغادرته مدينة تونس ، وانه قرر اعدام هؤلاء الاسرى ، لكن اسراع شرلكان بشن هجومه لم يترك لخير الدين وقتا لتنفيذ قراره .

قال ابن ابى الضياف : « فخرج لهم خير الدين فى اثنى عشر ألفا من صناديد المقاومين ، وصدقوا العزيمة فى القتال ، فاستولى على البــرج المذكور (برج العيون) ثم رجع بمن معه الى المدينة فاضطرب عليه أهلها» بعضهم تمسك بطاعته وهى طاعة الله تعالى ، وبعضهم جنح لطاعة سلطانهم أبى حفص .... فجمع أعيان الناس وتكلــم معهم فاختلفــوا عليه ، فتركهم وخرج بمن معه الى الحرب . وابلى خير الدين فى ذلــك اليوم البلاء الحسن ، وحرص على الموت فوهبت له الحياة ثم انهزم الى القصبــة (وكانت وقعة الاسرى)

« دخل السلطان الحسن بجيش الصبنيول الى تونس ، ولقيهم الاعراب متشرين ، فقاتلهم الصبنيول ، ودخل السلطان القصبة، ونادى بالامان — وفى باطنه ضده — والدول اذا حان انقراض أوانها ، واشرفت عــلى ما قدر من أجل سلطانها تهاونت بأمانها ، وجعلته وسيلة لغدرها ،وطغيانها، ولا ايمان لمــن لا أمان لــه ...

«وذلــك ان الصــبنيــول اشــترط عــلى الســلطــان الحســن **استباحة البلاد ثلاثة ايام** والتزم (السلطان) له بذلك ، ولا علم لاحــد

من أهلها بذلك ، فبينما الناس فى سكون عافية ، واغترار بخلب ذلك الامان، وأسواقهم مفتوحة ، اذ هجم عليهم عسكـر الصبنيـول على حين غفلة ، وامتدت أيديهم لاغتيال النفوس ونهب الاموال • وفر الى زغوان مـن أمكنته الفرصة بنفسه وبأهلـه •

« يقال : فى هذه الواقعة مات الثلث من أهل تونس ، ونجا الثلث ، وأسر الثلث ، والمأسور يفتدى ان كان له مال • وبلغت الفديـة ألف دينـار ؛ وتغيرت البلاد وطمست أعلامها ، وكان ذلك سنة احدى وأربعين وتسعمائة (١٥٣٥ م) ٩٤١ هـ

يقول التاريخ الفرنجى ان عدد القتلى من سكان تونس خلال الثلاثة الايام الرهيبة قد بلغ سبعين ألفا (١) ، وان كل مدخرات تونس وخيراتها ونفائسها وأموالها قد ذهبت ضحية الغدر والخيانة والنهب والسلب والقتل الذريع ولا أعرف فى تاريخنا الاسلامى مذبحة بلغت هذا الحد من الهول، والفظاعة والوحشية ، على يد عدو غادر ، الا مذبحـة القدس الشريف يوم دخله الجيش الصليبى أول مرة ، أو مذبحة بغداد ، يوم دخله شر خلق الله هولاكوو وحوش التتار والمـغول •

ومن العجب أن بعض مؤرخى الفرنج يريدان يشكك فى نسبة هـذه الاعمال الاجرامية الفظيعة الى شرلكان ، أو يحاول أن يخفف من وطأتها، لكن وثيقة بخزانة سيمانكاس تدين الامبراطـور وتصمه بهـذا العـار الى الابـد •

---

(١) هنرى قارو Histoire Générale de l'Algérie

ففى رسالته الموجهة يوم ١٣ جويلية ١٥٣٥ ؛ الى حاكم مدينة بجاية يقول الامبراطور فى قاعة غريبة ما تعريبه بالنص :

« ولكن ، بما أن سكان مدينة تونس لم يقابلوا ملكهم قبولا حسنا ؛ كما يستحق وكما هو واجبهم : فقد رأينا أن نأمر بنهب المدينة انتقاما منهم على سوء سلوكهم . »

وبعد ان استتب الامر على هذه الصفة للحسن بن محمد ، فوق أشلاء أمته وجثث الرجال والنساء والاطفال من بنى قومه عقد مع الاسبان معاهدة تقتضى :

١ = اعتراف الدولة الحفصية بتبعيتها للدولة الاسبانية .

٢ = ملكية الاسبان ملكية مطلقة لمرسى حلق الوادى وقرطاجنة ، ومدينة عنابة ، ومدينة المهدية .

٣ = التزام (السلطان) بأن لا يدخل بلاده أحد من مهاجرى الاندلس ، يهوديا كان أو مسلما . وتقفل شرلكان بأسطوله ، ومعظم جيشه الى صقلية .

والذى يدل على ان هذه المعركة كانت قاسية عنيفة ، هو طول أمدها ، فان الاسبان قد نزلوا الساحل التونسى يوم ١٦ جوان ، واحتلوا حلق الوادى يوم ١٤ جويلية أى بعد نحو الشهر تقريبا ، واحتلوا تونس ونكبوها يوم ٢١ جويلية أى ان المعركة الغير المكافئة دامت ٣٦ يوما .

الصفحة الأخيرة من المعاهدة التي أمليت على السلطان الحسن ، تحمل امضاءه وامضاء الامبراطور .

رجوع خير الدين لمملكته :

عاد خير الدين الى بلاده الجزائرية ، بعد ان ذاق الامرين من الجوع والظما والحر ، واستقر حينا بمدينة قسنطينة ، وطارت البشائر الى كل جهات الجزائر برجوعه ، واخذ يستعد لاستئناف الجهاد ضد الاسبان فى الميادين التى يختارها بنفسه ، وقد كانت ضراوة الاسبان قد بلغت حدها الاقصى ، وعقد شرلكان العزم على تقويض أركان هذه الدولة الجزائرية الفتية مهما كلفه الامر ، حتى يفسح فيها المجال لاستعمار اسبانيا وانتشار المسيحية عنوة واقتدارا ، وان ربك لبالمرصاد .

احتلال الاسبان مرسى هنين

كانت مدينة هنين المرسى الطبيعى لعاصمة تلمسان ، وثغرها المبتسم على البحر، نظرا لقرب المسافة بينهما ، وتقع هنين داخل جون حسن ، فى منتصف الطريق بين بنى صاف وجامع الغزوات ، وبينها وبين تلمسان على خط مستقيم ٤٥ كيلوا متـرا .

وعندما احتل الاسبان مدينة وهران سنة ١٥٠٩ ، ارسل ملك تلمسان مددا لمرسى هنين ، وحصنها ، واستعد للدفاع عنها نظرا لما لها من أهمية اقتصادية اذ كانت مركزالمبادلات التجارية مع اروبا ، وخاصة مع بلاد البندقيـة .

فى سنة ١٥٣١ ، خلال شهر أوت ، تلقى القائد الاسبانى دون الفارو دوبازان don Alvaro de Bazan أمر الامبراطور شرلكان بمهاجمة المدينة بقوة ، واحتلالها ، اذ كان الامبراطور يريد تطويق

مملكة الجزائر الجديدة ، من شرقها ومن غربها ، بسياج من الحصار متين، ويفرض سلطانه بعنف على بني حفص بتونس ، وعلى بنى زيان بتلمسان، الذين كانوا آخذين — كبنى حفص — فى الانقراض والاضمحلال .

وقف الاسطول الاسبانى المؤلف من ١١ سفينة حربية وناقلتين امام المرسى الذى لم تكن به قوة كافية للدفاع ، فأنزل بها الجيش الذى جاء به من اسبانيا ، والفرقة التى أخذها من وهران ، وهى مؤلفة من ٢٥٠ جنديا ، واحتل المدينة وتحصن بها ، بعد دفاع قام به رجال الشعب الذين لم تكن لهم قيادة ولم يكن بين أيديهم سلاح ثم أخذ قصبة البلادوغنم ما كان بهـا .

كتب الراهب أسقف طليطلة ، صاحب السلطان المطلق باسبانيا ، للامبراطور ، عن هذه المدينة :

« لقد أكد لنا الذين يعرفون البلاد ، ان لمدينة هنين ومرساها أهمية بالغة ، فهنين بلدة محصنة ذات أسوار منيعة ، ولها قلعة عظيمة ،ولا تبعد عن تلمسان الا ١٢ مرحلة ، وهذا أمر له أهميته العظمى ، بالنسبة للحركة التجارية التى يمكن أن نتداولها مع العرب ، كما ان امتلاكنا لمدينة هنين يساعدنا بالاخص ، على ابقاء ملك تلمسان تحت قبضة أيدينا، فهو لن يفكر فى مهاجمتها ، عندما يرانا قد تمكنا من البلاد داخل حدودنا الجديدة وتحصنا بها »

وفى نفس الرسالة يصف الكردينال للامبراطور كيفية احتلال الاسبان للمدينة ، يوم ٨ سبتامبر ١٥٣١ ، فيقول :

« امتطى دون الفارو وجيشه متن ١١ سفينة حربية ، صحبة سفينتين

ناقلتين ، وأخذ معه مؤنا وعتادا تكفيه لمدة شهرين ، وخرج من مالقة في شهر أوت ، عاقدا العزم على ان يقوم بعمل خالص لوجه ربنا ، مفيد لجلالة امبراطورنا •

« ثم حل بمدينة وهران ، فأخذ منها حسب التعليمات التي تلقاها مني ، ٢٥٠ جنديا ، وغادرها يوم عيد سان برتلمي (٢٤ أوت)وأناخ على مدينة هنين التي هي من ممتلكات ملك تلمسان ، فدخل أسطول جلالتكم مرساها، ومكنه الله منها ، فاحتل المدينة والقصبة •

« ولم تكن المدينة تنتظر هذا الهجوم ، ولم تكن بها كل حاميتها ، فسهل علينا الامر من جراء ذلك ، ولم تكلفنا العملية كثيرا ، حيث أن عدد القتلى من رجالنا لم يتجاوز الاربعين ، أما عدد الجرحى فمائة رجل » « وثائق سيمانكاس »

أما الدكتور لبرني ، ممثل الامبراطور بوهران ، فيكتب لسلطانه يوم ٢ سبتامبر ١٥٣١ :

« أعتقد ان احتلالنا لمرسى هنين انما هو حادث عظيم جدا • ذلك اننا باستقرارنا وبتمكننا من هذه البلدة ، نستطيع أن نعاقب ملك تلمسان ، ونجبره على القيام بتعهداته •

« وذلك ان الطريق من هنين الى تلمسان ، أقرب وأضمن من طريق وهران والمرسى الكبير ، ونستطيع من هذه البلدة ، دون كبير عناء أن ندخل مملكة تلمسان وأن نأخذ من مولاي عبد الله أحسن ممتلكاته • »

ويستدل من عدد قتلى الاسبان وعدد جرحاهم ، على أن المعركة التي دافع فيها الشعب عن نفسه وعن مدينته كانت معركة حامية ، وقد ترك الاسبان بقلعة المدينة سبعمائة مقاتل ، و١٥ مدفعا ،

لكن الشعب الأبى ، حوالى المدينة قد حاصرهم ، ولم يترك لهم فرصة التوغل داخل البلاد ، ولا هو سمح لهم بالتزود ، فساءت حالتهم ، ولم يتلقوا المدد بانتظام من اسبانيا ، فلم يستطيعوا البقاء بها أكثر من ثلاثة أعوام ، واضطروا لاخلائها بصفة تامة خلال شهر دسامبر ١٥٣٤ ، بعد أن جعلوا عاليها سافلها وامعنوا فى تخريبها ، وتقويض معالمها ، ومساجدها ، وأفسدوا مرساها ، وصارت أثرا بعد عين ، بعد أن ذاع صيتها وطارت شهرتها خلال خمسمائة سنة ، وذكرت فى تقاويم البلدان الشهيرة .

احتلال الاسبان لمدينة عنابة :

ما كاد خير الدين يغادر مدينة عنابة ، بعد انسحابه الأضطرارى من تونس سنة ١٥٣٥ ، ويعود للجزائر ، من أجل مواصلة الاستعداد للجهاد، وحمل الحرب الى بلد العدو ، حتى بادر الاسبان بمهاجمة عنابة (بونة) التى كانت تابعة اسما لسلطة بنى حفص بتونس ، والتى اعترف السلطان النذل ، الحسن بن محمد بالتنازل عنها لسادته الاسبان .

هاجم الاسبان اذن المدينة فى شهر أوت سنة ١٥٣٥ . وقد حفظت لنا الوثائق الاسبانية التى ذكرنا فيما سلف مصدرها ، تقريرا ضافيا عن هذا الاحتلال ، وكيفيته ، ونتائجه ، أرسل به قائد الحملة المركيز دى مونديخار ، الى الامبراطور بتاريخ ٢٩ أوت ١٥٣٥ ، وهذا تعريبه :

« كان البحر هادئا انما كانت الرياح معارضة ، لم يصل الاسطول الا بعد خمسة أيام الى عنابة ، وكان دون الفارودى بازان قد سبقنا اليها مع

النقالات ، وما كاد يصل حتى تلقى بعض ضربات من المدافع ، مما يـــدل على ان السكان قد صمموا على الدفاع .

« وأنزلنا الجند ، ثم شكلنا كتيبتين ، وارسلنا بهما لمهاجمة القصر . ولم يكن العرب ينتظرون هجومنا عليه ، فبادروا بالتخلى عنه . ولم نفعل ذلك اليوم شيئا آخر . فاكتفينا باحتلال القصبة والمدينة . أما النقالات التى منعتها من قبل مدافع العدو من الاقتراب ، فانها قد دخلت المرسى ، وخلال الثلاثة أيام الموالية اشتغلنا بانزال المدفعية والذخيرة والمؤن الى البر ، وبعد امعان النظر فى وضع المدينة والقلعة ، تأكد لدى أنه يجب علينا أن نحتلهما معا مؤقتا ، لأن الجند الذى يحتل القلعة لا يتمكن بسهولة أن ينجد وأن يمون اذا كان العرب يحتلون المدينة ، بل يجب أن لا نترك العرب يدخلون المدينة الا بعد التصريح لهم بذلك . فاذا دخلوهـــا لا يجـــب أن يجدوها خالية (منا) لأنهم فى هذه الحالة يخشى أن يعودوا اليها . أو ان عربا آخرين يدخلونها مكانهم ويتصرفون فيها بصفة تجعلها غير صالحة للســـكنـــى ،

« ولقد تركت ٢٠٠ جندى بالقصر ، و ٦٠٠ جندى بالمدينة .

« واذا مارأينا السماح للعرب بسكنى المدينة من جديد ، فعلينا أن نقيم حصنا فوق المرتفع الذى يعلو المرسى ، لكى نستطيع نجدة جند القصر .» اهـ

وانّنا لندرك من هذا التقرير ان العرب قد خرجوا من المدينة عندمـــا انتهوا من عملية الدفاع واستقروا حولها ، محاصرين للاسبان ، منتظرين وصول المدد ، من أجل مباشرة عملية الانقاذ .

مهاجمة الباليار :

كان لزاما على خير الدين ، وقد استقر بصفة مؤقتة بمدينة الجزائر نظرا لالتزاماته التى تفرضها عليه خطته الجديدة ، كقائد عام للاسطول الاسلامى العثمانى ، أن يشعر شرلكان بوجوده ، وأن يرد على ضربة تونس بضربة مثلها ، وأن يتحدى الاسبان فى عقر دارهم ، وأن يعلن للعالم أجمع بأن هذه السلطة الجديدة التى أقامتها ارادة الشعب بمدينة الجزائر ، انما قامت لكى تعيش ، ولكى تنمو ، ولكن تجاهد وتنتصر ، وأنه اذا أصابتها نكسة اليوم ، فانها ستعود فى الغد القريب رافعة أعلامها فارضة ارادتها ، متحدية أعداءها .

واختار خير الدين ورجاله هدفا لضربتهم الانتقامية مدينة ماهون ، عاصمة جزائر الباليار ، وجزيرة مينورقة بصفة أخص فسار على رأس عمارة ضخمة ، يتحدى أندريا دوريا ، وكامل القوى الاسبانية ، وانقض على مدينة ماهون ، فاحتلها ، وكان يستطيع ان يفعل بها ما فعل الاسبان بتونس ، لكنه تورع عن ذلك ، وعف عن سفك الدماء دون موجب شرعى، فاكتفى بالاستحواذ على كل ما فى ا لمدينة من خيرات ، وأرزاق ، وأموال، ثم احتل مينورقة بأكملها ، وعف فيها كذلك عن سفك الدماء ، انما أمعن فى جمع ما بها من ثروات وخيرات وعاد بها ، رافعا لواء التحدى ، الى مدينة الجزائر غنيمة اقتسمها المجاهدون فيما بينهم بعد تسليم الخمس لبيت مال المسلمين ، واختار من أهل ماهون ومينورقة ، ستة آلاف نسمة، جاء بهم الى جانب الغنائم المادية الهائلة أسرى وسبايا الى مدينة الجزائر .

ولقد اقضت أنباء هذه النكبة التي حلت بجزائر الباليــار الاسبانيــة مضاجع الامبراطور الذي اعتقد باطلا ان خير الدين لن تقوم له بعد حادثة تونس قائمة ، كما اهتزت لها كل أوساط البلاد المسيحية في أوروبا جزعا وهلعا ، ومحت بصفة عملية ، آثار انتصار شرلكان بتونس ، وسط لجــة من الدماء البريئة ، وعلم الناس كافة ، في الشرق وفي الغرب ، ان لهــذا التحدي الجريىء ما وراءه ، وان هذه الصفحــة من القتــال المرير بــين الصليبية الاسبانية الاروبية ، وبين الدفاع الاسلامي ، لم تنته بعد .

عودة خير الدين لاستامبول ، ونيابة حسن آغا

بعد تلك الغزوة الانتقامية الناجحة ، جاء الامر من السلطان سليمــان لخير الدين بالسفر حالا لاستامبول ، كي يقود الاسطول العثماني في حربه العنيفة ضد القوى المسيحية المتجمعة حول الامبراطور الاسباني ، والتي يقودها أندريا دوريا ، الخصم العنيد الجسور ، فغادر خير الدين مدينــة الجزائر للمرة الثانية ، تاركا على رأس الدولة من جديد ، رفيقه المقدام ، محمد حسن آغا . رجل الادارة ورجل الحرب ، وذلك في شهر دسامبــر ١٥٣٥ .

الفصل السادس

تـلاعب الاسبـان بعـرش تلمســان

أواخـــر بنى زيـــان

لنترك مؤقتا محمد حسن آغا يحكم مملكة الجزائر باسم صاحبها خـــير الدين ، ونائبا عنه ، ينظم الدولة ، ويمهد الامور ، ويجمع الكلمة ويستعد للدفاع عن الارض الاسلامية التى وضعتها ثقة سيده خير الدين على رأسها

ولنترك خـير الدين ، واندريا دوريا ، ومن ورائهمـا السلطـان سليمان وشارلكان يتصادمون برا وبحرا ، فى صراع هائل دام أعواما ، سنجمل الحديث عنه بعد حين ، ولنلق نظرة فاحصة على ما كان يجرى بتلمســان، وحوالى تلمسان مـــن مأســـاة فـــاجـعـــة •

والحق أن حديث الانهيار الزيانى كان حديثا عجيبا ، فهذه الدولة التى تصدعت وحدتها وتناثر قبل احتلال اسبانيا لوهران عقدها ، قد ازدادت بعد هذا الاحتلال رسوبا فى مهاوى الاضمحلال ، وما كانـــت سنواتهـــا الاخيرة — ٤٥ عاما منذ احتلال وهران — الا سلسلة من الدسائس والفتن ، والاضطراب ، تتنازعها عوامل عدة متباينة ، متناقضة ، لم تجد الدولة من بينها مخرجا •

العامل الاول هو حب البقاء ، وهو عامل أساسى جوهرى ، لم يكـــن وليد رغبة أصحاب العرش أو الطامعين فيه أو المتقاتلين عليه فحسب ،بل كان أيضا والى حد بعيد ، رغبة الشعب التلمسانى ، وما اليه من اطراف

هذه المملكة المتهالكة فكان من الواضح الجلى ، ان الشعب هنالك يريد بقاء الدولة الزيانية ، وكان يرى وجوب المحافظة على تلمسان العظيمة التالدة ، عاصمة للدولة ، وسط كل الاعاصير ، بل رغم كلا الاعاصير

والعامل الثانى هو نشأة الدولة الجزائرية ، كوحدة من وحدات الامبراطورية الاسلامية العثمانية الضخمة ، فهذه الدولة الجديدة تريد بلا ريب ولا شك ،بسط سلطانها على كامل الارض المغربية ،وعلى الاخص، فوق أديم هذه الرقعة التى تدعى بالارض الجزائرية ، والتى تمتد ما بين دولتي بنى حفص وبنى مرين الوطاسيين با لمغرب الاقصى •

والعامل الثالث ، هو المطامع الاسبانية الجامحة التى رأت فى تدهور الدولة الزيانية وسيلة تمكنها من تحقيق صليبيتها ، وبسط سلطانها على كامل البلاد وكان احتلالها لوهران ، وتحصنها بها أول تنفيذ لهذه الغاية، وكان رضوخ سلطان تلمسان ، أبى حمو الثالث ، لها واحتمائه بها ، امعانا فى ذلك التنفيذ ، الى ان اعتقدت أن مملكة بنى زيان قد أصبحت جزءا من ممتلكات الامبراطور ، وان على اسبانيا وحدها تقع مسؤولية ابعاد خطر الدولة الجزائرية عنها • وانك اذا ما رجعت الى صفحة سالفة، كتبناها عن تدخل عروج رحمه الله فى أمر تلمسان ، واستشهاده حولها ، رأيت صورة صادقة لهذا الاشتباك الغريب فى المصالح والاهواء المختلفة •

زد على كل ذلك ، هذا التكالب على العرش ، واحتماء كل دعى من أدعيائه بطائفة من الشعب ، أو طائفة من أصحاب المنافع والغايات والاقطاعيين ، وقد ربط بعض الملوك ومدعو الملك حبلهم باسبانيا، لاحبا ، بل خوفا وطمعا ، وربط بعضهم الآخر ، حبلهم بالجزائريين العثمانيين ،

لمقابلة ذلك التيار ومقاومته فأصبح التاريخ الزياني من جراء كل ذلـــك ، مهزلة سخيفة لا يكاد الانسان يفقه من كتهها شيئا ، اذ طالما انقلب حليف العثمانيين حليفا لاسبانيا ، وطالما انقلب حليف الاسبان حليفا للجزائريين وهـــكذا دواليـــك .

وان الذى يهمنا فى خلال بحثنا هذا ، ليس هو تفصيل احتضار الدولـــة الزيانية، انما الذى يهمنا بصفة خاصة، هو تغلغل السيطرة الاسبانية من خلال هذه الاحداث المؤلمة داخل البلاد ، وتلاعبها بمقدراتها ، وارغامها على الخضوع لمعاهدات واتفاقات كلها لصالـــح الاسبان ، وكلها لفائـــدة استعمارهم وبقائه .

قلنا فيما سلف ، ان أبى حمو الثالث ، الذى رجع مع الجيش الاسبانى، واحتل تلمسان سنة ١٥١٨ (٩٦٤ هـ) قد مات فى نفس تلك السنة ، وكـــان خلفاؤه على الملك الى سنة ١٥٤٢ كما يلى :

* أبو محمد عبد الله الثانى (١٥١٨) حاول سياسة حياد بين اسبانيا والجزائر فلم يفلح — حاول التقرب من الاسبان — ثار عليه أخـــوهأبـــو سرحان المسعود ، واستعان بخير الدين ودولة الجزائر ، فأعانته .

* أبو سرحان ا لمسعود (١٥١٩) احتل تلمسان باعانة الجزائريين . وأطرد أخاه عبد الله الثانى — بايع السلطان سليم العثمانى — ثم نكـــث البيعة وأعلننقض ارتباطه بالجزائر .

* أبو محمد عبد الله الثانى (ثانيا) — ذهب الى الجزائر ، يستنجد خير الدين ضد أخيه ، ويلتزم بالبيعة والوفاء ، فأنجده خير الدين وتحزب معه الشعب ورجع الى تلمسان ، واستمر على الوفاء — مختارا تـــارة ، ومضطرا أخرى — الى أن مات ملكا رغم الاضطراب .

هذه المملكة المتهالكة فكان من الواضح الجلي ، ان الشعب هنالك يريـد بقاء الدولة الزيانية ، وكان يرى وجوب المحافظة على تلمسان العظيمـة التالدة ، عاصمة للدولة ، وسط كل الاعاصير ، بل رغم كلا الاعـاصـير .

والعامل الثـاني هو نشأة الدولة الجزائرية ، كوحـدة من وحـدات الامبراطورية الاسلامية العثمانية الضخمة ، فهذه الدولة الجديدة تريد بلا ريب ولا شك ، بسط سلطانها على كامل الارض المغربية ، وعلى الاخص ، فوق أديم هذه الرقعة التي تدعى بالارض الجزائرية ، والتي تمتد مـا بين دولتي بني حفص وبني مرين الوطاسيين با لمغرب الاقصى .

والعامل الثالث ، هو المطامع الاسبانية الجامحة التي رأت في تدهور الدولة الزيانية وسيلة تمكنها من تحقيق صليبيتها ، وبسط سلطانها عـلى كامل البلاد وكان احتلالها لوهران ، وتحصنها بها أول تنفيذ لهذه الغاية ، وكان رضوخ سلطان تلمسان ، أبي حمو الثالث ، لهـا واحتمائه بهـا ، امعانا في ذلك التنفيذ ، الى ان اعتقدت أن مملكة بني زيان قد اصبحـت جزءا من ممتلكات الامبراطور ، وان على اسبانيا وحدها تقع مسؤوليـة ابعاد خطر الدولة الجزائرية عنها . وانك اذا ما رجعت الى صفحة سالفة ، كتبناها عن تدخل عروج رحمه الله في أمر تلمسان ، واستشهاده حولها ، رأيت صورة صادقة لهذا الاشتباك الغريب في المصالـح والاهـواء المختلفة .

زد على كل ذلك ، هذا التكالب على العرش ، واحتماء كـل دعي مـن أدعيائه بطائفة مـن الشعـب ، أو طائفة مـن أصحاب المنافع والغايات والاقطاعيين ، وقد ربط بعض الملوك ومدعو الملك حبلهم باسبانيا ، لاحبا ، بل خوفا وطمعا ، وربط بعضهم الآخر ، حبلهم بالجزائريين العثمانيين ،

لمقابلة ذلك التيار ومقاومته فأصبح التاريخ الزياني من جراء كل ذلك ، مهزلة سخيفة لا يكاد الانسان يفقه من كنهها شيئا ، اذ طالما انقلب حليف العثمانيين حليفا لاسبانيا ، وطالما انقلب حليف الاسبان حليفا للجزائريين وهكذا دواليك .

وان الذي يهمنا في خلال بحثنا هذا ، ليس هو تفصيل احتضار الدولة الزيانية، انما الذي يهمنا بصفة خاصة، هو تغلغل السيطرة الاسبانية من خلال هذه الاحداث المؤلمة داخل البلاد ، وتلاعبها بمقدراتها ، وارغامها على الخضوع لمعاهدات واتفاقات كلها لصالح الاسبان ، وكلها لفائدة استعمارهم وبقائه .

قلنا فيما سلف ، ان أبي حمو الثالث ، الذي رجع مع الجيش الاسباني، واحتل تلمسان سنة ١٥١٨ (٩٢٤ هـ) قد مات في نفس تلك السنة ، وكان خلفاؤه على الملك الى سنة ١٥٤٢ كما يلي :

* أبو محمد عبد الله الثاني (١٥١٨) حاول سياسة حياد بين اسبانيا والجزائر فلم يفلح — حاول التقرب من الاسبان — ثار عليه أخوه أبو سرحان المسعود ، واستعان بخير الدين ودولة الجزائر ، فأعانته .

* أبو سرحان المسعود (١٥١٩) احتل تلمسان باعانة الجزائريين . وأطرد أخاه عبد الله الثاني — بايع السلطان سليم العثماني — ثم نكث البيعة وأعلن نقض ارتباطه بالجزائر .

* أبو محمد عبد الله الثاني (ثانيا) — ذهب الى الجزائر ، يستنجد خير الدين ضد أخيه ، ويلتزم بالبيعة والوفاء ، فأنجده خير الدين وتحزب معه الشعب ورجع الى تلمسان ، واستمر على الوفاء — مختارا تارة ، ومضطرا أخرى — الى أن مات ملكا رغم الاضطراب .

* محمد السابع (١٥٢٤)ابن السابق ـ انصاع لدسائس الاسبان واحتمى بهم ـ هزمه خير الدين وتمكن منه ، ثم عفا عنه ، فأخلص له الى حين واستعد للجهاد ـ نكص على عقبيه ، وقبل التبعية الاسبانية ـ بقي مذبذبا ـ ذهب لوهران ملتجأ لاسبانيا بعد خلعه .

* أبو زيان أحمد الثالث (١٥٤٢) خلع أخاه السابق ، واظهر استعدادا كبيرا لمحاربة الاسبان وجمع كلمة المسلمين ، استجابة لرغبة الشعب . وسآتيك بأنبائه عند رجوعنا لذكر الحروب الجزائرية الاسبانية .ولكى نستطيع فهم هذه الحوادث ، ونفقه طريقة التلاعب الاسبانى ، ومابذلوه من دسائس ، رأينا وجوب الاستعانة بالوثائق الاسبانية الرسمية التى ذكرنا جانبا منها فيما سبق ، والتى سنورد بهذه المناسبة ، جزءا منها غير قليل ، يتعلق بهذه الفترة بالذات ، أيام ثار الامير عبد الله بايعاز وباعانة جده للأم عبد الرحمن ابن رضوان أحد شيوخ قبيلة بنى عامر على أخيه الملك محمد السابع ، والاسبان من وراء الاثنين ، يدسون ، ويحرشون ويساومون ، فلندرس اذن هذا « الملف » الذى اخترناه من بين مآت الوثائق .

من رسالة كتبها محمد السابع لحاكم وهران الاسبانى :

لقد وصلتنا رسالة سيادتكم وفهمنا محتواها . أن خادمنا الامين يعقوب بن اليسار (اليهودى) سيتقدم عليكم موفدا من قبلنا ، وسيقص عليكم حالتنا هاهنا ، وأرجوكم أن تصدقوا كل ما يقوله لكم على لساننا

١٥ / ١ / ١٥٣٠

ويقول التقرير الاسبانى المقدم من والى وهران للامبراطور عن مقابلة المبعوث المذكور :

« وعند ما سمع ابن اليسار جوابنا (عما تقدم به من العروض) قال باسم الملك الذي بعث به : بما أن بيترو دي قودوا وبارافان ، والدكتور لابريخا (الوفد الاسباني) لا يستطيعون أن يفعلوا أكثر مما ذكروه ، فأنا لا أستطيع أن أذكر لكم بقية الامور التي كلفني ملكي بعرضها عليكم ، ولهذا فسأعود اليه ، لعرض الامر عليه ، ثم أتصرف حسبما أتلقاه من تعليماته » .

وانئا لنفهم من هذه الرسالة ، ان محمدا السابع كان يفاوض الاسبان مفاوضة حازمة ، وان سفيره ابن اليسار اليهودي قد قام بواجب السفارة حق القيام وقد كان الملك محمد ، في نفس ذلك الوقت ، يساوم الجزائريين، ويعتمد على اعانتهم ، لكي يتمكن من دحر أخيه الامير عبد الله وجده عبد الرحمان بن رضوان القائم بدعوته ، ولكي يطمئن من ناحية الاسبان .

هذا ما تحدثنا عنه بأطناب وبيان جلي ، الوثيقة التالية :

تقرير اسباني عن الحالة في تلمسان

قدم التقرير ، الحاكم بيدرو دي لودي من وهران لنيافة الاسقف ، بتاريخ ٢٠ أوت ١٥٣١ .

« هذا هو تقرير أتدمه لكم عما يجرى الآن بمملكة تلمسان .

ان الملك محمدا واخاه عبد الله يتقاتلان . وقد ارسل مولاي عبد الله مزواره صحبة جماعة من الرجال لقتال أخيه محمد . ووقعت معركة يقال ان النصر فيها كان لجماعة عبد الله لكن جاء قائد بني راشد على رأس خمسمائة من رجاله فاضطر أخو الملك الى الانسحاب .

« وجميع عرب المملكة قائمون اليوم : بعضهم مع الملك وبعضهم مع

الامير عبد الله . وأنا أظن أن كل العرب فى هذه الناحية الشرقية من المملكة سينضمون الى الامير عبد الله اذا ما حل بهذه الساحة . ونرجو أن يقع هذا الامر على هذا المنوال ، لأن أخ الملك اذا أصبح حليفنا ، فاننا سنمسك بجميع خيوط اللعب ويستطيع صاحب الجلالة (أمبراطور اسبانيا) أن يفيد من الموقفحسب ارادته .

« وأنا اعتقد ان ذلك ممكن . اذا ما أخذنا بهذه الطريقة : جلالة الامبراطور يؤيد عبد الله ويعترف به ملكا . ويسلم اليه قسما مهما من الاراضى التى سنفتكها من أيدى الترك .

« لكننا مع ذلك لا نقوض سلطان ملك تلمسان ، ونترك له ما بيده من الارض . وبهذه الطريقة سيعلن الاثنان سرورهما ورضاهما ، وسيكونان معا عونا لنا على محاربة بربروس . (خير الدين)

« ان ملك تلمسان (مولاى محمد) قد دعا اليه أحد اليهود من هنا (وهران) ولا ريب أنه سيتخذه واسطة للدخول فى مفاوضات معنا . أما العرب الذين أرسلهم لنا الامير محمد ، فقد اعتبروا دعوة هذا اليهودى لتلمسان كفضيحة وبذلت كل جهدى لتهدئة خواطرهم . **وهذا ما يحدث غالبا لمن يتعامل مع الشقين فى وقت واحد . »**

وجاء فى رسالة من الدكتور لبريخا كوريجيدور وهران الى الامبراطور بتاريخ ٢ سبتامبر ١٥٣١ ، ما نصه عن الموضوع :

« اننى باذل قصارى جهدى لاقناع عرب المملكة (تلمسان) بأن ينضموا الينا وأنا معتقد أن هذه هى الوسيلة الوحيدة التى يمكننا بها معاقبة ملك تلمسان على عدم وفائه بعهوده ، وعلى عدم سماحه للعرب بأن يبيعونا المؤن كما كانوا يفعلون من قبل .

« ولقد دخلت فى مفاوضات مع الامير (عبد الله) مع حرصى على أن يعرف الملك (مولاى محمد) ذلك بصفة رسمية، حتى يعلم مدى الخسارة التى تلحقه من جراء اقلاعه عن خدمة جلالتكم •

ومنذ خمسة عشر يوما، طلب الىّ الملك أن أرسل له شخصا يستطيع التفاوض معه، فبعثت اليه باثنين من اليهود الحذرين الاذكياء، وهما أهم من وجدت هنا •

ففى أول الامر سارت الامور سيرا حسنا، وسر الملك بعودة المفاوضات، لكن ساءت الامور عند ماحل بتلمسان مندوب من قبل التركى العظيم (السلطان العثمانى) فمولاى محمد أظهر عندئذ من الاعتزاز بمجىء الرسول التركى ماجعله لايرفض فقط استقبال المندوبين اليهوديين، بل انه اسلمهما للقتل •

وفى هذه الاثناء أعلمنى الامير عبد الله بأنه سيحل قريبا بوهران صحبة نسائه واولاده والشيوخ المنضمين تحت لوائه، واعلمنى كذلك انه سيسلم الى الرهائن التى طلبناها منه، وأنا فى الحقيقة محتار من هذا الامر لاننى كنت اخبرت الامير بأنه اذا ماوضع عائلته عندنا فى مدينة وهران وحذا الشيوخ المنتمون اليه حذوه، فان جلالتكم سوف تسلم له العون من مال ورجال لكى يحتل مدينة تلمسان، على شريطة أن يكون أكثر وفاء، من اخيه فى تنفيذ شروط الاتفاقية التى ستعقد معه •»

رسالة بليغة جدا من عبد الرحمان ابن رضوان للحاكم الاسبانى

« نذكر هذه الرسالة بنصها البدوى العامى، ونذكر بين قوسين تفسير بعض كلماتها، وقد بلغ ابن رضوان أن حاكم وهران قد سافر أو سيسافر

لاسبانيا وكان يعتمد على اعانته كل الاعتماد، لنصر حفيده الامير عبد الله، ضد اخيه الملك محمد السابع

الحمد لله وحـــده •

الى الفارس الجيد الحسين (بفتح الحاء) دون مرتينى ادى القربعلى (القرطبى) اعزه الله، بعد سلمنا عليك نعرفك جنا (جاءنا) كتابك مع اتيميز والمجال الذى (الذى) عملوا تجار الله يعيشك وفرحنا بيه وسرنا وعملنا العون ونحنا مجين سع (الساعة) واحمد ولدنا مرط (مرض) مرط كبير وصل حتى الموت وشفاه الله وهذى الايام جنا خبر عليكم أنـــك مشيت لذاك البر (لذلك البر أى لاسبانيا) وتوقفنا ولادرنا اش نعملوا حتى أصحابنا العرب قلو (قالوا لنا أنهم خرج لسحر (خرجوا للصحراء) انطربنا للرأس (انضربنا للرأس) وكتبنا لك بلعزم (بالعزم) تعرفنـــا بلخبر ان كان أنت مازلت فى وهران عرفنا ، وان أنت غزم (عازم) على المشى لذلك البر عرفنا والسلام على دون فوننتشك وعرفنا كيف هو دون الهونس أى جاكش خبر عليه •

وكتب عبد الرحمن بن رضوان لطف الله وسلام •

كتب يوم الجمع السادس شهر ربيع لول عام ٣٥ »

وتفيدنا هذه الرسالة أولا ان ابن رضوان وحفيده كانا يأتمران فعلا باوامر حاكم وهران، ويعملان لحسابه، ثانيا ان الجند الذى كان يعمل معهما، كان من المرتزقة الاعراب الرحل الذين يقطنون الصحراء •

تقرير من حاكم هنين للامبراطور عن حالة تلمسان

٢٦ افريل ١٥٣٤

كتبت منذ ايام لجلالتكم اعلمكم انني اتصلت من جواسيسنا باخبار عن مولاى محمد ملك تلمسان •

« انه قد استعرض يوم ٢٠ من هذا الشهر جيشا اعده لقتالنا• وهذا الجيش مستعد للسفر حيثما يريد •

« واخبرنى احد هؤلاء الجواسيس ان الملك قد اتصل برسول من الجزائر يحمل اليه رسالة تخبره بموت بربروس (خير الدين) • فحزن الملك لذلك حزنا شديدا • وألقى بنفسه فوق الارض نائحا منتحبا ثم نهض وقال للشيوخ الذين كانوا حوله بما ان « والدى » بربروس قد مات، فلم يبق لنا من عمل نعمله، وطلب اليهم أن يعودوا الى بلادهم ريثما يتحصل من الاتراك على العون والتأييد من جديد • فلما سمع الشيوخ كلامه خرجوا من عنده وكلهم يقول فيه سوءا •

« ويقول بعض الجواسيس الاخرين انه جاءت بعد ذلك رسالة من الجزائر تؤكد أن بربروس لم يمت ، انما هو فى مكان مجهول •

« ويقول البعض ان الملك مولاى محمد لايريد أن يحارب النصارى ، لانه رجل ليس له قلب، وانه منغمس فى الملذات الى العنق• وانه لايفكر الا فى ابتزاز المال من أية جهة كانت •

ويقولون : انه جاء من مدينة الجزائر بزوجتين دخل بهما فى هذه المدينة وجاء كذلك بزوجتين اخذهما بمدينة فاس عندما كان محاربا لابيه — وبعد ما تولى ملكا بتلمسان تزوج ست عشرة مرة ولا يفعل شيئا الا

الحفلات والافراح ، ويلح فى طلب المال من أهل المدينة ومن العـــرب واليهود »

هزيمة الاسبان وابن رضوان ــ امام ملك تلمسان

تقرير الكونت دي الكوديت حاكم وهران ، للامبراطور

١٢ جويلية ١٥٣٥

« يظهر لى أن العرب الذين كان ابن رضوان يثق بهم ثقة مطلقة والذين تر كلديهم عدته الى ساعة الحاجة اليها، لم يكتفوا بخيانته وقلب ظهــر المجن له فقط، بل انهم قد انضموا لاعدائه، أما العرب الذيــن بقـــوا مخلصين له فانهم قد لاقوا عنتا كبيرا من بقية العرب الذين جمعوا مائتى رمح من قبائل بنى راشد .

« وعندما رأى ابن رضوان انه لم يتصل به احد ممن كان يعول عليهم فى تلمسان، فقد تشاور فى الامر مع المسيحيين، وعزم على الانسحاب مع الملك (أى حفيده الامير المطالب بالعرش) لكن العرب المناوئين له قـــد اقتفوا خطواته، وكى يسهل عليه الانسحاب والنجاة من اعدائه، اضطر لتر كالمدافع الاربعة التى جاءه بها المسيحيون الى هنا ، بعد أن عطلوها.

« لكن ما راعهم اثناء الانسحاب الاقائد بنى راشد يهاجمهم على رأس فرسانه هجوما عنيفا، ففقد المسيحيون والعرب ثباتهم أمام هذا الهجوم، ففروا لايلوون على شىء من أجل النجاة بأنفسهم .

خلاصة : ففريق منهم وصل الى وهران، وفريق اســر، أما فريـــق الفونسو مرتيتــز فقد التجــا الى تيفيــدة وعزم على الدفاع حتى المــوت .

لكن اخر الانباء التى وصلتنى تقول ان هذا الفريق قد استسلم، وان قائد بنى راشد قد ساقه اسيرا الى تلمسان

« ان مولاى محمد ملك تلمسان لايجهل انه قد نجا من خطر عظيم ، لكن لايجب أن ينسى أن أخاه لايزال حرا طليقـا، وهذا مـا يجعلـه مضطرا للتعامل معنا بصدق وامانة، وذلك مالم يفعله ابدا حتى اليوم .

انه قد انتصر علينالكنه رأى ماذا تستطيع القلة من النصارى أن تفعله اثناء المعركة، فكيف بها ان هى أصبحت كثرة .

ولقد اخبرنى ابن رضوان بأنه سيسير الى الصحراء لكى يأتى بماله هناك من المال وبما أنه يخشى أن يهاجمه العرب اثناء سفره، متى علموا بهزيمته، فانه قد سافر مسرعا، وفى عزمه الرجوع الى هنا، ثم المسير الى جلالتكم ليستمد منكم العون والتأييـد .

انه لايفكر الا فى أمر واحد، الا وهو الانتقام واخذ الثار من مولاى محمد، ولقد طلب منى الاذن بالقدوم الى وهران، وكذلك طلب بقيـة الشيوخ الذين بقوا على ولائهم له، وقد منحتهم هذا الاذن .

وبما أنه من المهم جدا بالنسبة لنا أن يبقى العرب دوما مختلفين، فقد حرضت ابن رضوان والشيوخ الذين معه على مواصلة القتـال .

وعلى كل فاننى مواصل الجهود لكى يتفاقم أمر الخلاف بين الطرفين . »

رسالة المنصور بن بوغنى قائد بنى راشد

بعد المعركة السالفة الذكر، كتب قائد بنى راشد الذى هزم الاسبان واعراب ابن رضوان، رسالة لابن المزوار فى وهران، تدل على تخوفه من

سوء العاقبة وانه اراد أن يخفف وطأة الهزيمة على الكونـــتد الكوديت، ويوهمه بامكان المفاوضة والاتفاق معه •

وهذا تعريب الرسالــــة :

الى السيد عبد الله بن المزوار، من أخيه

المنصور بن بوغانم • (١)

انك قد علمت بدون شك ماوقع بارادة الله بيننا وبين ابن رضوان ومن معه من العرب، فاننا قد غلبناه وانهزم هاربا تحت جنح الظلام، ولقد كنا نود لو أن هذه الحادثة لم تقع ،ولكن هي مشيئة الله وقدره، وان ابـــن رضوان الذى خدع جماعة وهران (الاسبان) هو المسؤول الوحيـــد عن هذه الحادثة•

أود بغاية الشوق أن أجتمع بكم• وبودى أن أعرف كيف تسير أموركم هناك (فى وهران) وهل الكونت (حاكم وهران) مستعد للخير باسم الله، وهل هو موتور مما حدث، وهل يمكن التفاهم معه، والمثل يقول: ان خير الصلح هو ما يقع بعد المعركة • ونسأل الله أن يكتب خير السلام • »

حول الاسرى المسيحيين بتلمسان

رسالة الكونت د الكوديت الى محمد ملك تلمسان :

« جاءتنى رســالة سيــادتكم صحبة كونـز الوادى القنطـرة تعلمــوننى فيها بأنكم لاتزالون عند حسن استعدادكم، وانكم سترسلون لنا بالاسرى المسيحيين (حسب المعاهدة السابقة)

• • • • • •

فلتعلم سيادتكم اننى لازال عند حسن استعدادى• واننى لا أكــن

---

(١) الروايات والمراســلات الرسمية الاسبانية كلها تدعوه : ابن بوغانى •

أية نية خلف لتعهداتي، واعتقد انه لاموجب لمفاوضات جديدة، فسيادتكم اعطتنا كلمة الشرف بأن ترجع لنا الاسرى المسيحيين •

(وبعد هذا تهديد علني في حالة ما اذا لم ينفذ العهد •)

* * *

جواب الملك محمد عن الرسالة السالفـــة

• • • • • •

« ارجوكم أن تطيلوا أجل العشرين يوما بعض الشيء لكي نرجع لكم المسيحيـــين فهذه قضية ليست من السهولة بالدرجة التي تعتقدونها، ولا أستطيع ارجاع الاسرى الابعد أن أضمن لهم سلامـــة الوصـــول الـــى وهران، وقد طلبت الى القائد المنصور أن يقدم على فيتلمسان وأن يأتي معه بفريق من الفرسان لكي يصحبوا الاسرى الى وهران •»

رسالة ملك تلمسان للامبراطور • ومعاهدة التبعية

« يقول ناقل هذه الرسائل من الاسبانيـــة الى الفرنسيـــة، مسيـــــو **ابريموداي**

أن الهزيمة التي لحقت بخير الدين فيتونس، واحتلال الاسبان لعاصمة بني حفص هو الذي جعلنا نفهم مغزى هذه الرسالة والسبب في ارسالها • فقد ظن ملك تلمسان بان امر الاتراك انتهى، وانه لايستطيع وحـــــده الوقوف فيوجه الاسبان فاراد أن يرجع حسن العلاقات معهـــم ــ بعـــد الحادثة المذكورة آنفا مع ابن رضوان وسنرى في هـــذه الرسالة، انه لم ينس المطالبة بشيء، من ممتلكات حلفائه الاقدمين ــ رجال الجزائر ــ في حالة ما اذا تمكن شر لكان من احتلال مدن الجزائر، ودلس وشرشال

ومع هذه الرسالة، نص المعاهدة التي عرضها، ممهورة بختمه :

تلمسان ٥ سبتامبر ١٥٣٥

« تعلمون جلالتكم اننى كاتبتكم مرارا قبل هذا، التمس منكم قبولى ضمن حلفائكم وخدامكم، وانني لم اتلق منكم أى جواب، والله يعلـــم شدة رغبتى فى أن اكون من أصدقاء جلالتكم .

وفى هذه الاثناء حاربنى ابن رضوان وجاء يهاجمنى ومعه جماعة من المسيحيين، فكنت مضطرا للدفاع عن نفسى، ولقد كلفنى هذا كثيرا، لكن لم أكن استطيع غير ذلك، ولاأعتقد أن جلالتكم تعتب على اذا انا دافعت عن مملكتى وعن نفسى .

. . . .

واني أرسل لجلالتكم معاهدة امضيتها بنفسي وختمتها بختمى، والتمس من جلالتكم المصادقة عليهـا .

خـلاصـة المعـاهـدة

١ ـ أن يعترف بي الامبراطور صديقا حليفا، ولاينصر على عدوا

٢ ـ أتعهد بان أدفع اربعة آلاف دوبلا DOBLAS سنويا وفي نفس الاجال التي تعهد بها والدى من قبلي ، على شريطة أن مداخيل باب تلمسان تكون لى ، كما كانت لوالدى (المكوس على البضائع التى تدخل وهـران أو تخرج منها ، لتلمسان او من تلمســان) .

٣ ـ اذا زادت مداخيل باب تلمسان عن الاربعة الآف دوبــلا (التى هي ماتعهد الملك بدفعه) فان الزائد يكون لى خاصة .

٤ ـ مقابل ذلك اتعهد بأن ارجع للكونت دى الكوديت السبعين أسيرا مسيحيا الذى هم الان بتلمسان، ويوجد من بينهم خمســة اسرى عنــد عائلات تلمسانية، لها خمسة اسرى بوهران، فالرجاء الامر بالمبادلة .

٥ ـ لايقبل فىمدينة وهران ابن رضوان ولاحفيده، ولاأحد مـــن

رجاله فان دخلوا وهران فرجائى الى جلالتكم ان يبقــوا بها أسرى •

٦ ـ اذا مافتح جلالة الامبراطور مدن الجزائر وشرشال وتنس، فله أن يبقيى تحت سلطاته المدن المذكورة وغيرها من المراسى التيءيود جلالته الاحتفاظ بها اما داخلية البلاد المذكورة فيجب أن ترجع لى• لانها كانت من ممتلكات آبائى وأجدادى •

٧ ـــ يكون هذا الصلح لمدة عشرة أعوام •

ولم يقبل الكونت دى الكوديت هذا النص، فارسل للملك مشروعا اسبانيا استثمر فيه فزع الملك محمد ورعبه، وهذه خلاصــة المعاهدة الجديدة التى فرضها الاسبان :

١ ـــ أنا مولاى محمد ملك تلمسان : أتعهد والتزم بمحض اختيارى ، بأن أكون الصديق والحليف والتابع لجلالة الامبراطور ، اذا ما رضى أن يشملنى بحمايته والتزم بتنفيذ الشروط الآتية :

٢ ـ أكون صديقا لمن يصادق جلالته ، وعدوا لمن يعاديه ، ولا أسمح مطلقا لاعدائه عربا أو مسيحيين باجتياز مملكتى

٣ ـ اذا جاء جلالة الامبراطور بنفسه الى مملكة تلمسان لمحاربة بقية الملوك فى البلاد فانا التزم الســير معه واضعا تحت تصرفه كل القــوى التى لدى •

٤ ـ ومقابل ذلك يتعهد صاحب الجلالة باعانتى ضد من يحاربنى أو يريد بى سوءا ، وذلك بواسطة الجيوش التى لجلالته بمراكز الحدود •

٥ ـ واذا جاءت جلالته لمملكة تلمسان بنفسها أو أرسلت جيشا لقتال أعدائها فانا أتعهد بأن أمدها بالاقوات وحيوانات الجر بأرخص الاثمان ،

٦ ـ أتعهد بأن أرجع لوهران فى مــدة ثمانيــة أيــام ، كــل الاسرى

المسيحيين الموجودين بتلمسان ، وهم على أحسن حال من الصحة والسلامة .

٧ ــ لا أقبل فى بلادى لا بربروس ولا أى أحد من قراصنة الاتراك ... واذا حل بربروس أو جماعته ببلادى فأنا أبذل جهدى لاسرهم وتسليمهم لحاكم وهران .

٨ ــ أمنع كل العرب وزناتة فى مملكتى من الحاق أى ضرر بمدينتى وهران والمرسى الكبير أو سكانهما من العرب واليهود وكذلك عرب الجبال (الخاضعين لاسبانيا .)

٩ ــ أعطى أوامرى لكى تمر كل تجارة تلمسان بمدينة وهران ، دون غيرها من المراسى الا اذا سمح الامبراطور بذلك .

١٠ ــ يسمح لى جلالة الامبراطور بأن أضع فى وهران عددا من المتصرفين لكى يتولوا قبض المكوس الراجعة لى من هذه التجارة، يستثنى من ذلك ما يرد لتموين مدينة وهران ، ما عدا التمور التى هى بضاعة .

١١ ــ العرب واليهود سكان مدينة تلمسان ومملكتها ، يستطيعون القدوم الى وهران وغيرها من ممتلكات جلالة الامبراطور ، ويستطيعون سكناها بصفة مسالمة دون أى اعتراض ، على شريطة احرازهم على الاذن بذلك من حاكم وهران . ولسكان وهران والمرسى الكبير مثل هذا الحق فى سكنى تلمسان ومدن مملكتها ، على شريطة احراز الاذن منى .

١٢ ــ لا يمكن اجبار أحد رعايا مملكتى ، عربا أو يهودا ، على اعتناق الدين المسيحى ، ويسمح لهم بأن يعيشوا أحرارا حسب قوانينهم ، وأن تحترم ديارهم وممتلكاتهم ، وأن يباشروا أعمالهم التجارية مع كل ممالك ورعايا جلالة الامبراطور .

١٣ ــ مدة هذه المعاهدة خمسة أعوام ، ابتداء من يوم اعلانها .

١٤ ــ التزم بأن أدفع لجلالة الامبراطور ، الذى أعترف بتبعيتى له ، مقدار أربعة آلاف دوبلة كل سنــة ــ من الذهــب الصافى ، معيار ١٧ قيراطا ، وموزونة وزنا دقيقا .

١٥ ــ يضع الامبراطور تحت تصرفى ، عند الحاجة ــ كما فعل مع والدي ــ خمسمائة رجل لمشاركتى فى الدفاع : وأتعهد بأن أدفع مرتباتهم منذ اليوم الذى يغادرون فيه مملكة قشتالة .

١٦ ــ يحدث كثيرا أن عربا ويهودا من سكان تلمسان يقدمون الى وهــران لشراء بضاعــة ، ويعطون بدلها رقاعا تدفــع عند رجوعهم لوهــران لكنهم لا يعودون ولا يدفعون ، فانا التزم بدفع قيمة تلك الرقاع . ويجب ارغام كل عربى أو يهودى من سكان وهران على تسديد دينه لتجــار تلمسان

١٧ ــ اذا حل ابن رضوان أو حفيده مولاى عبد الله بوهران ، فان حاكم وهران يبقيهم بها لا يخرجون منها طوال مدة الصلح .

١٨ ــ سأعلن عن هذه المعاهدة فى كل مملكتى للجميع . ولأعــدائى الذين ثاروا ضدى لفائدة أخى مولاى عبد الله ولجــده (للام) ابــن رضوان . فمن قبلها واطاعها فهو منى ويدخل فى خدمتى . ومن عصاها وخالفها فهو عدو لا يجب أن يقبل فى مدينة وهران .

١٩ ــ هذه المعاهدة أمضيتها بنفسى وختمتها بختمى ووضعت عليها طابع الدولة . » اه

رسالة الكوديت لابن رضوان ، بعد توقيع المعاهدة :

اضطر الملك محمد وهو تحت تهديد الاسبان الذين يقودون حركــة ابن

رضوان وحفيده ، ضد مملكة تلمسان ، أن يمضى تلك المعاهدة ، وقد يئس من تلقى اى نجدة .

وهكذا نفض الاسبان يدهم من يد ابن رضوان وحفيده (مؤقتا) وكتب د الكوديت الى ابن رضوان الرسالة التالية :

وهران أكتوبر ١٥٣٥

« الى الكلى الاحترام الفارس المغوار السيد عبد الرحمان بن رضوان . لقد وصلتنى رسالتكم لكننى أنتظركم شخصيا . وأنا آسف جدا لعدم تمكنكم من الحضور حسب وعدكم . « ان مولاى محمد قد عرض علينا عروضا كبيرة لخدمتنا لم نكن نستطيع الا قبولها ، ولم يكن جلالة الملك يستطيع أن يرفضه كحليف . لهذا أرجوك أن تتقدم الى هنا وان تأتى معك بمولاى عبد الله ، فلا يمكن أن تجدا ملجأ أكثر منا ، وأضمن لكما . انكما تستطيعان البقاء هنا دون أن يلحق الضرر أحدكما أو أحد الذين يقدمون معكما .

أن سلامتكما مرهونة بسرعة القدوم وكل تأخير يكون فيه الخطر ، وبادر بايقاف القتال ، وأنا أعرف أن العرب الذين هم معك يخونونك ، وانك تجتاز خطرا عظيما بوجودك فيهم .

الكونت د الكوديت يستحث الامبراطور على احتلال تلمسان

تلكأ ملك تلمسان فى تنفيذ المعاهدة ، ولا ريب أن الشعب قد هاج وماج عندما علم بتفاصيلها ، وكان خير الدين قد رجع للجزائر سالما ، وقام بعمليته الانتقامية الباهرة ضد الاسبان فى جزائر البابيا ، كما أسلفنا . وتقدم الى الملك محمد يستحثه على عدم تمكين الاسبان من رقاب

المسلمين ، أمام كل ذلك راجع الكونت د الكوديت موقفـــه ، وكتب الى الامبراطور الرسالة التالية :   وهران ١٥٣٦

« أرجوكم ياسيادة أنطونيو فيلاليا نطو ، أن تبلغوا جلالة الامبراطور عنى ما يلى :

« لقد بذلت قصارى جهدى لاستدراج الملك مولاى عبد الله لوهران ، (أخ وعدو الملك محمد الذى تعاقد مع الاسبان)

« والذى أرى الآن وجوب عمله هو المبادرة بتنصيب مولاى عبد الله (حفيد ابن رضوان) على عرش تلمسان ، وهذا أمر ذو أهمية كبرى فى خدمة جلالتكم ، اننا بهذه الصفة نكون على يقين من أننا سنستعيـــد المصاريف التى تكبدناها فى حملتنا الاولى ؛ ونأمن كذلـــك شر امتـــلاك بربروس لملكة تلمسان ،

« اننى أطلب من جلالتكم امدادى بخمسة عشر ألف رجل ، وثلاثمائة من الحرس الخاص لكى أبدأ حالا بالزحف على تلمسان ، وأعتقـــد أن مدة أربعة أشهر كافية من أجل احتلال المملكة كلها ، اما مولاى عبد الله فهو مستعد لقبول كل الشروط التى سنفرضها عليه ،

« واذا أراد جلالة الامبراطور الاحتفاظ بمدينة تلمسان لنفسه ؛ فاننى مستعد للدفاع عنها مدة سنة كاملة بواسطة أربعة آلاف رجل و ٤٠٠ رمح على أن يدفع جلالة الامبراطور جرايات الرجال كما يفعل فى وهران ، ويعطينا المدفعية والذخيرة الكافية ، أما بقية الامور فانا الكفيل بها ،

....

« اما اذا كانت جلالتكم غير مستعدة الآن لعمل شىء لفائدة مولاى

عبد الله فأنا أرجو أن تمنحوه شيئا يكفيه للقيام بأوده ، مثلما فعلتم من قبل مع غيره من أمراء وملوك العرب

« ومن اللائق أن تراسل جلالتكم الملك عبد الله والملكة أمه ، وجده ، للتعبير عن سروركم من أجل حضورهم واستقرارهم بوهـران ، وأن جلالتكم تعتبرهم من أخلص خدامها •

••••••••

« واذا كنت الح الحاحا شديدا من أجل الاسراع بالحملة ضد تلمسان فذلك لانني أعتقد الوقت مناسبا جدا •

« فبربروس غائب اليوم عن الجزائر ، ولا يدرى أحد متى هو راجع• وفى المغرب الاقصى ، عادت الحرب بين ملك فاس (من بنى وطاس) وبين الشريف (راس دولة السعديين) وكلاهما لا يستطيع من جراء ذلك القيـام لنجـدة تلمسـان •

« الشروط والتعهدات التى يلتزم بها مولاى عبد اللـه اذا أعانتـه جلالتكم على استرجاع المملكة لمجرد احتلال مدينة تلمسان : يتعهد الملك عبد الله بأن يسدد خلال عشرة أيام كامل مصاريف الحملة •

« ويدفع لنا حالا جزية عشرة آلاف دوبلة ، ويتعهد بدفعها سلفا كل سنة

••••••••

« واذا ما عزمنا مهاجمة مدينة الجزائر ، فانه يضع تحت تصرفنـا ثلاثة آلاف رجل ينضمون للجيش المسيحى ، يقودهم جده ابن رضوان ، واعانة لنا على هذه الحملة ، فانه يسلم لنا فى وهران ١٥٠٠٠ (١) فنيق من

(١) الفنيـق الاسبـانى يـزن ٤٦،٥٠ كيلو •

القمح و ٥٠٠٠ فنيق من الشعير ، و ١٥٠٠ رأس من البقر .

كذلك . هو يسلم لنا رهائن تشمل خمسين من أكبر شيوخ العرب ومن أقاربه وأحبابه .

واذا ما أرادت جلالتكم بناء معاقل وحصون فى مدينتى أرزيو وأرشقوم ، وذلك ما يجعل مملكة تلمسان دوما تحت رحمتكم ، فالملك عبد الله يلتزم بأن يقدم لنا مواد البناء اللازمة .

....

واذا أرادت جلالتكم ، ضمانا وتعهدات الملك عبد الله ؛ أن يحتل الجيش الاسبانى « المشور » الذى هواهم حصون تلمسان ، فان الملك عبد الله يسمح لحاكم وهران بأن يضع فى المشور اى عدد شاء من الجند الاسبانى . ولا يسمح لاى عربى أن يدخل المشور مع الملك ، الا اذا سمح له القائد الاسبانى بذلك . ثم ان الملك وابن رضوان يتعهدان بامداد هذه الحامية بالمشور ، بكل ما هى محتاجة اليه من دقيق ، وقمح وشعير ، كامل المدة التى تريد جلالتكم ابقاء الحامية بالمشور . »

وهكذا أسلم عبد الله تحت تأثير جده للام ابن رضوان ، كل شىء للاسبان مقابل العرش !

لكن الامبراطور الذى كان منغمسا الى الذقن فى حروبه الاروبية التى سنأتى بكلمة عن تطوراتها ، لم يأذن بمهاجمة تلمسان ، ولا باعلان ملكية عبد الله ، وبقى متعاملا مع الملك محمد بصفة مرنة ، الى سنة ١٥٤٢ ، حيث خلعه أخوه أبو زيان أحمد الثالث ، وانتصب مكانه ملكا بتلمسان ، وعزم عزما صادقا على جمع كلمة المسلمين ومحاربة الاسبان — كما سيمر

عبد الله فأنا أرجو أن تمنحوه شيئا يكفيه للقيام بأوده ، مثلما فعلتم من قبل مع غيره من أمراء وملوك العرب

« ومن اللائق أن تراسل جلالتكم الملك عبد الله والملكة أمه ، وجده ، للتعبير عن سروركم من أجل حضورهم واستقرارهم بوهـــران ، وأن جلالتكم تعتبرهم من أخلص خدامها .

....

« واذا كنت الح الحاحا شديدا من أجل الاسراع بالحملة ضد تلمسان فذلك لانني أعتقد الوقت مناسبا جدا .

« فبربروس غائب اليوم عن الجزائر ، ولا يدرى أحد متى هو راجع.

وفى المغرب الاقصى ، عادت الحرب بين ملك فاس (من بنى وطاس) وبين الشريف (راس دولة السعديين) وكلاهما لا يستطيع من جراء ذلك القيـــام لنجـــدة تلمســـان .

« الشروط والتعهدات التي يلتزم بها مولاى عبد اللـــه اذا أعانتـــه جلالتكم على استرجاع المملكة لمجرد احتلال مدينة تلمسان : يتعهد الملك عبد الله بأن يسدد خلال عشرة أيام كامل مصاريف الحملة .

« ويدفع لنا حالا جزية عشرة آلاف دوبلة ، ويتعهد بدفعها سلفا كل سنة

....

« واذا ما عزمنا مهاجمة مدينة الجزائر ، فانه يضع تحت تصرفنـــا ثلاثة آلاف رجل ينضمون للجيش المسيحى ، يقودهم جده ابن رضوان ، واعانة لنا على هذه الحملة ، فانه يسلم لنا فى وهران ١٥٠٠٠ (١) فنيق من

---

(١) الفنيــق الاسبــاني يــزن ٤٦،٥٠ كيلو .

القمح و ٥٠٠٠ فنيق من الشعير ، و ١٥٠٠ رأس من البقر .

كذلك . هو يسلم لنا رهائن تشمل خمسين من أكبر شيوخ العرب ومن أقاربه وأحبابه .

واذا ما أرادت جلالتكم بناء معاقل وحصون فى مدينتى أرزيــو وأرشقوم ، وذلك ما يجعل مملكة تلمسان دوما تحت رحمتكم ، فالملك عبد الله يلتزم بأن يقدم لنا مواد البناء اللازمة .

....

واذا أرادت جلالتكم ، ضمانا وتعهدات الملك عبد الله ، أن يحتل الجيش الاسبانى « المشور » الذى هواهم حصون تلمسان ، فان الملك عبد الله يسمح لحاكم وهران بان يضع في المشور اى عدد شاء من الجند الاسبانى . ولا يسمح لاى عربى أن يدخل المشور مع الملك ، الا اذا سمح له القائد الاسبانى بذلك . ثم ان الملك وابن رضوان يتعهدان بامداد هذه الحامية بالمشور ، بكل ما هى محتاجة اليه من دقيق ، وقمح وشعير ، كامل المدة التى تريد جلالتكم ابقاء الحامية بالمشور . »

وهكذا أسلم عبد الله تحت تأثير جده للام ابن رضوان ، كل شىء للاسبان مقابل العرش !

لكن الامبراطور الذي كان منضما الى الذتن فى حروبه الاوروبية التى سنأتى بكلمة عن تطوراتها ، لم يأذن بمهاجمة تلمسان ، ولا باعلان ملكية عبد الله ، وبقى متعاملا مع الملك محمد بصفة مرنة ، الى سنة ١٥٤٢ ، حيث خلعه أخوه أبو زيان أحمد الثالث ، وانتصب مكانه ملكا بتلمسان ، وعزم عزما صادقا على جمع كلمة المسلمين ومحاربة الاسبان ــ كما سيمر

بنا مفصلا — وانسحب الملك محمد الى وهران مستعديا الاسبان على أخيه .

هذا نموذج فقط ، من الوثائق الاسبانية عن هذه الفترة الحرجة من تاريخ الجزائر ، وتاريخ آخر دولة بنى زيان . وانها لتعطينا أصدق صورة عن دسائس ذلك العصر وفتنه واضطرابه .

المسلمون المتعاونون مع العدو

نرى لزاما علينا قبل أن نختم صفحة الوثائق الاسبانية المتعلقة بهذه الفترة الكدرة من تاريخنا ، أن نذكر شيئا عن المسلمين الذين وضعوا أنفسهم تحت سلطة الاسبان ، سواءا كانوا من قبيلة بنى عامر أو من غيرها ، وعن النفسية التى دخلوا بها فى خدمة الاسبان .

هؤلاء قوم يوجد مثلهم فى كل زمان ، وفى كل مكان ، من أصحاب الغايات ، وطلاب المال السحت ، والمتصيدين فى كل ماء عكر ، ولقد رأينا أمثالهم فى أروبا عندما دوختها جزمة المحتل النازى ، كما رأينا أمثالهم ببلادنا الجزائرية ، وهى تخوض معركة الحياة أو الموت ، أثناء الثورة العظمى ، وانضموا « الحركية » من حثلات الرجال وأشباههم ، فى عدد عظيم ، تحت لواء المستعمر ، يقاتلون اخوتهم وبنى عمومتهم وبنى خؤولتهم ، مقابل المطامع المادية ، والمال الحرام .

فهذه رسالة كتبها خونة الرعيل الاول ، أجداد الحركية الاقدمون ، للامبراطور شرلكان ، يطلبون فيها المكافأة عن أعمالهم ، وخياناتهم لله ورسوله ولصالح المؤمنين ، وهى تمثل أقذر ما يمكن أن تنطوى عليه النفس البشرية من سقوط وانحطاط ورذيلة ، وتصور حالة « المتعاونين » النفسية فى كل زمان وفى كل مكان :

الحمد لله وحده   ولا غالب الا الله

السلطان العلى القوى المرفع الكمل الحفل الاجل المشكور الاشنـــع (الاشهر) الارفع ، طبعنا ومولانا السنيـــور السلطـــان النبـــرادور (الامبراطور) نصره الله وعلى قدره وشنو على جميع سلاطن الدنيا . من خدمك المقبلين الارض تحت أقدمكم السعدة . وصفنكم (عبيدكم) الشيخ محمد بن يوسف السوذى وعبيد الجزائر السودى ، بعد السلام على مقمك العلى ، مولانا نصركم الله نحن جينا لهذا البلد متع وهـــران لعند خدمكم القيذ بدرن دغودوى وخدمكم الفرنجدر ، مرسلين من عند خوتنا الشيخ حميد العبد وكافة ولاد محمد وكافة ولد بوبكر ونحن فى خيل وقوم كثير قد الالفين خيل صححه ونحنا خدمكم وجندكم للغـــرب ولشرق .

ونحب بالله أن نحنا جند برسم الجزائر وغيرها بالله تعل وكذلك على خدمتكم الله ينصرك المربطين أولاد سى أبوعبد الله سيدى محمد أفغول وسيدى عمار ونحن كولنا على خدمتك نموت ونحن صبقتنـــا (سبقتنا) للناس الكول لخدمتك ونحب من الله ومنك الله ينصرك تأمر عـــلى أن نوكافاو وقت ان نحنا خدمك نوصاح كما يعرفك القيد والقاظى متـــع وهران والشيخ ماردهم ماكتب لمقامكم العلى الا نحنا العرب ما عندنا من يستور وجهنا فى الكتبة ولا زايد الا نرغبو لله سبحنه أن يكبل تحت طعتك واقدمك بقية الدنيا والسلام على مقمك العلى من وهران أول يوم من شهر العيد المبرك . » اهـ

ولعنة الله ، الى الابد ، على الخونة الانذال الساقطين ،

« تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ، ولكم ماكسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون . »

« ولا تزر وازرة وزر أخرى »

الفصل السابع

غزوة شرلكان الكبرى ضد عاصمة الجزائر

وانكساره الشنيع

ملابسات الغزوة :

هذه الغزوة الكبرى التي أرادها شرلكان حاسمة عارمة ، قاصمة لقهر الدولة الجزائرية الفتية ترتبط باسباب عدة :

منها : ارادة شرلكان ورجال اسبانيا ، الانتقام للشرف الاسباني الذي نال منه انكسارهم امام الجزائر سنة ١٥١٩ أي منال .

ومنها الفوز السياسي العظيم الذي نالوه بتلمسان والغرب الجزائري ، وتمكنهم من اخضاع بقايا الدولة الحفصية لسلطانهم المباشر .

ومنها الفوز السياسي العظيم الذي نالوه بتلسان والغرب الجزائري ، عندما أخضعوا سلطان بني زيان وربطوه بمعاهدة خضوع وتبعية واستسلام .

فاخضاعهم واذلالهم لسلطنتي تونس وتلمسان ، جعلهم يستطيعون التفرغ لمحاربة مملكة الجزائر ، ويطمعون في تحطيمها وشيكا ، وربما أملوا أن يكون الجانبان الخاضعان في الشرق وفي الغرب عونا لهما على بلوغ تلك الغاية الصليبية التي لاشك في صليبيتها .

ومنها : وجود خير الدين بربروس بالشرق ، وتفرغه لقيادة الاسطول الاسلامي العثماني وما أحدثه ذلك — حسب ظنهم — من فراغ عظيم في الدولة الجزائرية ، واعتقادهم أن غياب خير الدين قد صدع الوحدة ، وحطم القوة المعنوية التي كانت مستمدة من شخصيته القوية وسمعته العالمية .

ومنها : أن الجزائر لم يكن بها يومئذ من الجيش التركي العثماني الا النزر القليل اليسير ــ حسبما يأتيك بيانه بعد هذا ، على لسان جواسيس الاسبان ــ غير قارئين للشعب الجزائري حسابا ، وهو خصمهم ، وهــو قاهرهم .

ومنها : أن الدولة العثمانية كانت هاتيك الآونية ، منهمكة في حروب أروبا ، وفي النمسا والمجر بالذات ، حيث قاوم المسيحيون مقاومة عنيفة ، دفاعا عن دينهم وعن شرفهم وعن أوطانهم ، رغما عــن الانتصــارات العظيمة التي أحرزها العثمانيون برا وبحرا ، حيث كان أسطولهم المؤلف من ألف سفينة حربية ، كما يؤكد المؤرخون العثمانيون والاجانب تحت قيادة خير الدين الماهرة يهاجم ويقاوم الاساطيل المسيحية المتضامنة .

ومنها : الاخفاق الذي باء به ميثاق التعاون العثماني الفرنسي وتخاذل ملك فرنسا عن القيام بتعهداته ، ولذ لك حدث طريف يجب أن نخصه بشيء من الاطناب :

فرنسو الاول ملك فرنسا يستغيث :

يرجع هذا الحديث الى سنة ١٥١٩ ، حيث كان الملك الاسباني شارل ، الذي ورث عرش جده فردنياند الكاتوليكي ، محطم دولــة الاندلــس ، يتطلع الى عرش الامبراطورية الالمانية الذي خــلا بمــوت حفيــــده الامبراطور مكسيمليان النمساوي . وكان فرنسو ملك فرنسا ، عميــد عائلة فالو ، يتطلع هو أيضا لذلك العرش الذي ينضوي تحت لوائه سبعة

ملوك وأمراء ، ومن هنا ابتدأت – رسميا – العداوة والمنافسة بين فرنسا ، وبقية الدول الاروبية .

اجتمع الامراء الناخبون ، فى مدينة فرانكفورت ، وطالت بينهم المداولات ، والمساومات الى ان اتفقوا يوم ٥ جويلية ١٥١٩ ، على انتخاب ملك اسبانيا ، الذى أصبح يحكم معظم ايطاليا ، وبلجيكا ، وهولاندا ، والنمسا ، وبعض الشمال الفرنسى زيادة عن الممتلكات الشاسعة فى أميركا ، أمبراطورا ، ووجدت فرنسا نفسها محاطة بالاعداء تكاد تفقد استقلالها ، سيما بعد خيانة مارشال فرنسا الاميردى بربون ، اثناء الحرب ، واتفاق الامراء على اقتسام ترابها . وبعد معارك طويلة قاسية ، وقع ملك فرنسا أسيرا بين يدى اعدائه ، فى ايطاليا ، يوم ٢٤ فيفرى ١٥٢٥ ، وسيق الى مدريد ، حيث أمضى معاهدة سلم فيها لاعدائه بما طلبوا ، وكتب لامه يقول : سيدتى ، لقد خسرت كل شىء ، ماعدا الشرف والحياة ، ثم أطلق الاسبان سراحه ، بعد أن ترك ولديه رهينة عندهم .

وأرسلت أمه أو أرسل هو على طريق أمه التى كانت تقوم مقامه وصية على الملك ، رسالة يستغيث فيها بالسلطان سليمان العثمانى العظيم ، وخصم المسيحية ، وخصم شرلكان فى آن واحد ، يستغيث به ، ويعرض عليه التعاون ضد الخصم المشترك .

جواب الخليفة العثمانى :

ولقد حفظ لنا التاريخ وثيقة اسلامية من الطراز الاول ، هى الجواب الذى رد به السلطان سليمان ، خليفة المسلمين على استغاثة فرنسو الاول وزعده بالاعانة ضد العدو المشترك ، وهى نموذج من « شعور العظمة »

الذى كان يتسم به سلاطين وخلفاء آل عثمان الاولون . وهـذا نـص الرسالة ، كما جاء تعريبها فى كتاب « تاريخ الدولة العلية العثمانيـة » للاستاذ محمد فريد :

الله العلى المعطى المعين

بعناية حضرة عزة الله جلت قدرته ، وعلت كلمته ، وبمعجزات سيد زمرة الانبياء وقدوة فرقة الاصفياء ، محمد المصطفى صلى الله تعـالى عليه وسلم الكثيرة البركات .

وبمؤازرة قدس أرواح حماية الاربعة ، أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وجميع أولياء الله .

أنا سلطان السلاطين ، وبرهان الخواقين ، متوج الملوك ، ظل الله فى الارضين ، سلطان البحر الابيض ، والبحر الاسـود ، والاناضـول ، والرميلى ، وقرمان الروم ، وولاية ذمى القدرية ، وديار بكر ، وكردستان واذربيجان ، العجم ، والشام ، وحلب ، ومصر ، ومكة والمدينة والقدس ، وجميع ديار العرب ، واليمن ، وممالك كثيرة أيضا ، التى فتحها آبـائى الكرام ، وأجدادى العظام ، بقوتهم القاهرة ، أنار الله براهينهم ، وبلاد أخرى كثيرة أفتحتها يد جلالتى بسيف الظفر ، أنا السلطان سليمان خان ، ابن السلطان سليم خان ، ابن السلطان بايزيد خان

الى فرنسيس ملك ولاية فرنسا :

وصل الى اعتاب ملجأ السلاطين المكتوب الذى أرسلتموه مع تابعكم فرانقيان النشيط ، مع بعض الاخبار التى أوصيتموه بهـا شفاهيـا ، وأعلمتنا أن عدوكم استولى على بلادكم ، وانكـم الآن محبوسـون ، وتستدعون من هذا الجانب مدد العناية بخصوص خلاصكم . وكل ما

قلتموه وعرض على اعتاب سرير سدتنا الملوكانية ، وأحاط بـه علمـي الشريف على وجه التفصيل فصار معلوما .

فلاعجب من حبس الملوك وضيقهم .

فكن منشرح الصدر ، ولا تكن مشغول الخاطر ، فان آبائى الكرام واجدادي العظام نور الله مراقدهم ، لم يكونوا خالين من الحرب لاجل فتح البلاد ، ورد العدو ، ونحن أيضا سالكون على طريقتهم وفى كل وقت نفتح البلاد الصعبة ، والقلاع الحصينة ، وخيولنا ليلا ونهارا مسروجة ، وسيوفنا مسلولة ، فالحق سبحانه وتعالى ييسر الخير بارادته ومشيئته .

وأما باقى الاحوال والاخبار ، فستفهمونها من تابعكـم المذكـور ، فليكن معلومكم هذا .

تحريرا فى أوائل شهر آخر الربيعين ، سنة اثنين وثلاثين وتسعمائة

بمقام دار السلطنة العلية

القسطنطينية المحروسة المحمية .

الهيجان المسيحى ، واخفاق المخطط الهجومى :

وما كاد يذاع نبأ هذا الحلف بين سلطان المسلمين ، وملـك فرنسـا المسيحى ، حتى سادت أوربا كلها موجـة من الاستيـاء والاشمئزاز ، ورفعت عقيرتها بالتنديد بملك فرنسا الذى يستنجد (بالكفار) اعـداء المسيحية ، ضد ملك مسيحى ، واستغل شرلكان هـذه الدعايـة ، وزاد بواسطتها فى التضييق على ملك فرنسا ، بعد أن أعلن الغاء المعاهـدة السالفة بينهما

وكان البرنامج الذى وقع الاتفاق عليه بين مندوبى السلطان العثمانى، والملك الفرنسى يقتضى مهاجمة مشتركة لبلاد ايطاليا . يقول محمد فريد

فى كتابه : تاريخ الدولة العثمانية ، الآنف الذكر :

« وفى مايو سنة ١٥٣٨ ، جمع السلطان سليمان ببـــلاد الارناوود (البانيا) جيشا عظيما مؤلفا من مائة ألف مقاتل ، لشن الغارة على بلاد ايطاليا ، وكان معه ولداه : محمد وسليم ، وسفـــير فرنســـا مسيـــو دولافوى : وفى الوقت نفسه نزل خير الدين باشا بميناء أوترنتة بجنوب ايطاليا ، استعدادا لمهاجمتها من جهة الجنوب ، بينما يهاجمها السلطان سليمان من جهة الشرق ، وملك فرنسا من جهة الغرب ٠ لكن احجام ملك ـا عن التقدم ، اطاعة للرأى العام (المسيحى) كما ذكرنـــا ، كـــان السبب فى عدم نجاح المشروع ٠٠٠٠ وانتهى الامر بان تهادن ملك فرنسا مع الامبراطور شرلكان ، وأمضيا المهادنة فى نيس سنة ١٥٣٨ » ٠

انما الامر الذى لم يذكره ، الاستاذ محمد فريد ، هو أن مهادنة مدينة نيس ، قد وقعت تحت تأثير وضغط البابا بولس الثالث ، صونا للوحدة المسيحية ، وصدا للتقدم الاسلامى فى بلاد ايطاليا ٠

لم تكن هذه الحادثة هى آخر عملية فى الحلف العثمانى الفرنسى ، فكلا الجانبين كان مضطرا لمد يده نحو الآخر ضد العدو المشترك ، فى مستقبل الايام ، الا أن الذى يهمنا فى بحثنا هذا ، هو التأكيد بأن هدنة نيس قد تركت المجال واسعا أمام شرلكان ، لتهيئة الحملة الحاسمة ضد الجزائر ، وخاصة أن ملك فرنسا ، قد تعهد لشارلكان ، تعهدا شرفيا ، بأنه لن يحاربه ولن يقوم بأى عمل ضده ، اثناء محاربته وتحطيمه لسلطان المسلمين فى مدينة الجزائر ففرنسا ، والبابا ، وكل البلاد المسيحية ، كانت مشتركة فى الحملة العظمى على مدينة الجزائر ٠

تقرير سرى اسبانى عن قوة الجزائر :

من وثائق « سيمانكاس » الاسبانية : سنة ١٥٣٣

يحكم الجزائر الآن حسن آغا ، وينوب عنه فى حالة غيابه حاج باشا والقائد الصوردو .

ويوجد بمدينة الجزائر ١٨٠٠ تركى .

أما ببقية البلاد فيوجد من الاتــراك :

فى تنـس	٢٥	
فى برسـك	١٠	
شـرشـال	٣٠	
المـديـة	١٥٠	
مليـانـة	١٠٠	٧٣٥
تادلـس	٦٠	
بنـورة	٢٠	(لعلها زمورة او بنورة ميزاب؟)
جيجـل	٢٠	
القـل	٢٠	
قسنطـينـة	٣٠٠	

وهكذا يوجد نحو ٢٦٠٠ تركى — وتوجد بمدينة الجزائر نحو ٣٠٠٠ عائلة عربية و ٣٠٠ عائلة يهودية .

أما القوة التى بين يدى حسن آغا ، وهو مخيم الآن خارج المدينة ، فهى تشمل ٧٠٠ تركى ، وألف فارس وألفين راجـل مـن العـــرب ،

وأما تسليح الجزائر ، فعلى النمط التالى :

فى البرج الفوقانى : ثلاثة مدافع لرمى الحجارة . و ٥ مدافع صغيرة وفى البرج الكبير بباب الواد : مدفعان كبيران ومدفعان صغيران ، وفى زاوية باب الواد ، قرب البحر : أربعة مدافع ومن هذا المكان الى الباب

المقابل للجزيرة : ١٧ مدفعا،ومن هذا الباب الى المسجد الكبير ١٧ مدفعا من البرونز و ٤ مدافع من الحديد ، من بينها ثعبانية CAULEUV,RINE مدفع طويل ورقيق • وبين المسجد الكبير ودار الصناعة ٢١ مدفعا من بينها ٦ مدافع صغيرة من الحديد •

وبين دار الصناعة وباب عزون ٨ مدافع — وفوق نفس الباب ٢ مدافع صغيرة تدعى البازية FAUCONNEAUX (ترمي قنابل من الرصاص تزن نحو كيلو)

وفي المرسى ٨ سفن يحتوي أكبرها على ١٧ صفا للجذافين •

ويشتغلون الآن في المدينة بصنع الخبز المجفف BISCUIT بكل نشاط • وكذلك المدية ومليانة ، وذلك ما لم نشاهده ابدا من قبل •

ويسود الانزعاج في المدينة لانهم سمعوا أن الامبراطور سيعقد الصلح مع ملك فرنسا • لكن هدأت خواطرهم عندما سمعوا أن السلطان يجهز الآن عمارة قوية • »

تقرير سري اسباني آخر عن حالة الجزائر :

الى صاحبة الجلالة الملكة •

من فرانسيسكو بيريزدي ايديا كاييز حاكم بجاية •

بجاية ٢٩ مارس ١٥٣٦

••••••

وهذه أنباء وردت علينا من مدينة الجزائر ، نقلها لنا ستة من العبيد المسيحيين الذين تمكنوا من الفرار يوم ٢٧ فيفري وغادروا الجزائر فوق فلك ووصلوا الى مدينة بجاية •

يوجد الآن في مدينة الجزائر ألفان من الاتراك ، وسبعة أو ثمانية آلاف من مهاجري الاندلس في مدن الجزائر ومليانة وبقاع أخرى وضع

بها بربروس حاميات • اما حاكم الجزائر اليوم فهو مرتد سارد (من دينيا) اسمه حسن آغا • وسكان المدينة فى تلق شديد ، لانهم اتصلوا بأنباء موثوق بها ، تفيد تحرك أسطول جلالتكم •

وأخبرنا الاسرى المذكورون ان الامطار الغزيرة التى انهمرت فى فصل الشتاء قد هدمت سور المدينة فى ثلاث جهات وعلى مسافات شاسعة وقد أقدم السكان علي ترميم ما تحطم ، بكل سرعة ، لكن العمل لم يتم الى الآن نظرا لعدم وجود البنائين العارفين • ويقولون هنا أنهم سيستعينون بألف وخمسمائة من العرب المحيطين بالجزائر من أجل انجاز العمل •

أما مدينة قسنطينة ففيها ١٥٠٠ من الانكشارية ، يقودهم تركى اسمه القائد كولج على • وبربروس هو الذى أرسل هؤلاء الانكشارية • وبما أن كولج على هذا تابع لحكومة الجزائر ، فلا ريب أنه سيتقدم الى مدينة الجزائر بمجرد علمه بتحرك أسطول جلالتكم • »

احتلال الجزائريين لبلدة « جبل طارق » والمعركة البحرية الكبرى :

اذا كان محمد حسن آغا ، نائب خير الدين على ملك الجزائر ، منهمكا فى توطيد الامن ، ووضع أسس الادارة المستقرة ، ومحاولة جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية الجزائرية ، فانه الى جانب ذلك ، لم يهمل أمر الغزو والجهاد ، ولم يترك الاسبانيين فى راحة على متن الحوض الغربى من البحر المتوسط ، بل كانت الوقائع والمغامرات البحرية متوالية خلال هذه المدة التى تلت خروج خير الدين من الجزائر ، والتى سبقت معركة شرلكان الكبرى •

أهم هذه الوقائع البحرية بلا جدال ، هى معركة جبل طارق ، ببلاد الاندلس ، والمعركة البحرية الهائلة التى تلتها ، والتى دلت على قوة

الجانبين وعلى استعدادها ويقظتها .

فى شهر سبتامبر سنة ١٥٣٩ ، ركب الجيش الاسلامى الجزائرى ، وكان يشمل ١٣٠٠ رجل ، متن ١٣ سفينة حربية ، واندفع فى حركة سريعة وفى جرأة نادرة ، نحو بلدة « جبل طارق » .

وعلى حين غفلة من أهلها والمدافعين عنها من الاسبان ، نزل الى البر ، فاحتل البلدة وتمكن منها، واستحوذ على ما فيها من خيرات وأرزاق مختلفة غنائم للمسلمين وتوغل فى جهات الساحل الاسبانى الجنوبى يغنم ما وقع تحت يده من أموال ومتاع الاسبان ، ويختار من بينهم جماعات من الاسرى ، والسبايا ، يسوقهم للبيع فى المدن المغربية الشمالية ، وخاصة تيطوان ، ثم يعود للميدان .

وعندما تمت العملية ، وقفل راجعا الى مدينة الجزائر ، اعترضت طريقه عمارة بحرية اسبانية ، وافرة العدد ، تحت قيادة الاميرال برنارد دى موندوزا ، فاستعرت نيران المعركة بين القوتين ، وكانت عنيفة قاسية ، أسفرت عن غرق عدد من سفن الجانبين ، ولقد تمكن الاسبان من تحرير سبعمائة من الجذافين النصارى الذين يعملون أسرى فوق السفن الجزائرية ، لكن خسائر الاسبان كانت خلال هذه المعركة عظيمة جدا ، اذ كلفتهم حسبما يروى تاريخهم ثمانمائة قتيل .

غزوة شرلكان الصليبية الكبرى :

أتم الامبراطور شرلكان تجهيزاته الحربية البحرية ، من أجل تحطيم مدينة الجزائر ، وأمده البابا يوحنا الثالث بعون أدبى عظيم ، علاوة عن العون المادى ، اذا نشر فى البلاد الاروبية كلها أمرا باباويا ، يعلن فيه أن هذه الحملة انما هى حملة صليبية ، وأن واجب كل مؤمن بالمسيح

مخلص للنصرانية، أن ينضم اليها، وأن يشارك فى محاربة « الكافرين » .

وكان رسل شرلكان السريون فى استامبول : قد دخلوا فى مساومات مع خير الدين ، على أن يكون مواليا له ، وأن يقلع على خدمة السلطان العثمانى ، وأن يكون مقابل ذلك ملكا على كامل الشمال الافريقى ، تعترف له اسبانيا بالملك ، ويعترف لها هو بالتبعية ، ويدفع لها جزية سنوية .

وكان خير الدين يطلع السلطان اثناء ذلك على سير هذه المحادثات وعلى تطوراتها أولا بأول ، وكانت تقع تحت اشراف أندريادوريا ، بواسطة وفد من ثلاثة رجال ، تحت رئاسة الدكتور أومبرو ، وأطال خير الدين أمد المفاوضات الى أن بلغت السنتين ، حسب الخطة المقررة بينه وبين السلطان سليمان ، فلما فرغت جعبة الرسل ، بادر السلطان بالقاء القبض عليهم ، وأودع الدكتور أومبرو سجينا بقلعة الحصون السبعة ، بتهمة حث أحد الرعايا العثمانيين على العصيان ، وأسقط فى يد أندريادوريا ، الذى ظن — على بطولته وعلى عبقريته — ان رجال البحر المسلمين يستطيعون مثله أن يستبدلوا بكل سهولة ، راية براية ، وقضية بقضية ، وملكا بملك .

جيش شرلكان وأسطوله :

كان جيش شرلكان مؤلفا من خيرة المقاتلين البواسل ، وقد شارك فيه كل نبلاء أسبانيا ، وألمانيا ، وايطاليا ، بارسال متطوعين ، والبابا يوحنا الثالث أرسل مع الجيش حفيده كولونا . ورهبنة مالطة القوية العنيفة ، أرسلت مائة وأربعين فارسا وأربعمائة راجل من خير ما عندها من المقاتلين الاشداء . فكان الجيش الشرلكانى يبلغ ٢٤٠٠٠ رجل ، وألفى فرس ، أما الاسطول فكان يشتمل على أربعمائة وخمسين سفينة نقل ،

وخمس وستين سفينة حربية كبرى ، فكان عدد البحارة في مجموعها يبلغ ١٢٠٠٠ رجل ، تحت قيادة أندريادوريا نفسه .

أما الجيش كله ، فقد كان تحت قيادة الامبراطور شرلكان الفعلية ، الذى أراد أن يكون له نفسه شرف تحطيم مدينة الجزائر ، وفتح أرضها باسم النصرانية المنتصرة .

تحرك الاسطول الضخم من مرسى ماهون يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٥٤١، وحل بجون الجزائر على الساعة السابعة صباحا من يوم ٢٠ أكتوبر . وأخذ يتجول أمام مدينة الجزائر ، متباهيا بقوته وعظمته .

ذهب الاسطول حسب المنهاج الذى قرره الامبراطور ورجال حربه ، الى طرف الخليج المقابل لمدينة الجزائر (رأس تاما نتفوس) وهنالك خيم مؤقتا ثم عاد رأسا نحو ضفة وادى الحراش اليسرى ، وهنالك أخذ ينزل جنده الى البر يوم الاحد ٢٣ أكتوبر ، عند مطلع الفجر . وعلى الساعة التاسعة ، نزل الامبراطور الى الارض اليابسة، محاطا بالاشراف والنبلاء ورجال الحاشية ، واستقر به المقام ، فجعل المركز العام لاركان حربه الامبراطورى عند « الحامة » شرقى مدينة الجزائر ، حيث حديقة التجارب الآن . وذلك على مقربة من مركز التجمع العام ، الواقع بين ضفة الحراش وبين الحامة (الحمة)

المناوشات الاولى :

جمع محمد حسن آغا كل مالديه من القوى، واستعد للدفاع، وقرر مع أركان حربه ، أن يسلك نفس الطريقة التى سلكها الجزائريون من قبل فى محاربة الاسبان والتى مكنتهم من النصر مرتين متواليتين، فتحصنوا فى المدينة ينتظرون تطور الوقائع ويراقبون بدقة حركات العدو وسكناته.

بينما تكون قوى الشعب قد قامت حوله بحركات التفاف متوالية، لاتترك للاسبان وقتا للراحة، ولاتمكنهم من النوم .

فما كاد الاسبان ينزلون الارض حتى ابتدأ المجاهدون تنفيذ الخطة، وانطلقت كتائبهم الخفيفة الحركة، القليلة العدد، تهاجم الاسبانيين من كل مكان، تحت قيادة القائد البطل « الحاج البشير »

احتلال كدية الصابون

في اليوم الرابع والعشرين من أكتوبر، قرر الامبراطور ابتداء المعركة، والتقدم الى الامام، حسب خطته المرسومة، وكان الامبراطور يقود الحركة على رأس الفيلق الالماني الشديد البأس، وحوله الامراء، والنبلاء ، اما الفريق الطلياني وفرسان مالطة ، فقد كانوا في المؤخرة ، وكان يقودهم كاميل كالونا ، حفيد البابا .

استمر قدوم الامبراطور والجيش الشعبي الجزائري يهاجمه ويشاغبه من كل جهة، حتى اضطره للتوقف حينا عند احدى الربوات، مقاتلا، الى أن وصل الى كدية الصابون ، (على مرتفع خلف مدينة الجزائر) وهنالك بعد معركة عنيفة مع المجاهدين ، تمكن الامبراطور من احتلال الكدية الاستراتيجية، فوضع بها اثقاله واتخذ منها مركزا عاما للهجوم ، ثم وسع خط عملياته حالا، فاحتل عدة تلال وصلت بين مركزه العام والمكان المعروف بقنطرة العفرون، قرب البحر، غربي الجزائر، وهكذا أصبحت مدينة الجزائر مطوقة فعلا من كل جهاتها برا وبحرا ،

ولقد صدقت التقارير التي أرسل بها جواسيس الاسبان، والتي سبق لنا أن قدمنا لك بعضها فيما سلف، فلم يكن بالمدينة أكثر من ٨٠٠ رجل من الاتراك وخمسة الاف من الاندلسيين، أما المجاهدون العرب

فكانوا مكلفين بالأحداق بالعدو خارج الاسوار ومناوأته على طريق « حرب الكمين »

ولقد غر الامبراطور ورجال النصرانية الذين التفوا حوله في هذه الصليبية الضخمة، قلة عدد المدافعين عن الجزائر، وظنوا أن هؤلاء المدافعين، سيستسلمون لامحالة أمام هذه الكثرة الكاثرة من الجيش المسيحي ومن اسطوله .

لكن الامبراطور ورجاله قد غفلوا عن وجود قوة رهيبة لاتقاومها على وجه الارض قوة: قوة الايمان والعزيمة والجهاد الشريف في سبيل الله والوطن .

تقدم الى المدينة رسول من قبل الامبراطور، هو الفارس لورنزو مانويل ، يطلب الى محمد حسن آغا ، ورجاله تسليم المدينة وخضوعها للامبراطور، حقنا لدماء أهلها .

لكن محمد حسن آغا، ورجال المدينة، رفضوا ذلك بكل اباء وشمم، واعلنوا له أنهم سيتولون الدفاع عن مدينتهم ،الى آخر رجل منهم، فرجع الى امبراطوره يخبره بجواب الحامية . (١)

وفي نفس تلك الليلة، خرج من مدينة الجزائر رسول، أم ساحة الامبراطور، طلب اليه باسم الحامية، أن يسمح بحرية الطريق المواجه

---

(١) يزعم بعض مؤرخي الفرنج والاسبان ، أن محمد حسن آغا اراد الاستسلام ، لكن رجال الحرب وسكان المدينة منعوه من ذلك . وهذه فرية لا تعتمد على أي أساس ، وهي مناقضة لما عرف عن محمد حسن اغا من قوة الايمان وشدة الشكيمة واصالة الرأي ، وذلك ما جعل خير الدين يعتمده ويستخلفه ويعتبره ساعده الايمن .

لمغل « باب الواد » حتى يتمكن كل من أراد من أهل الجزائر وخاصة نساءها واطفالها، من غير المقاتلين، مغادرة المدينة والالتحاق بداخل البلاد.

ومن هنا علم الامبراطور وأركان حربه، ان الجزائريين قد قرروا الدفاع المستميت وأن الجزائر لاتخضع الا اذا ماحطمت فيها آخر حجرة يمكن لمقاتل أن يحتمي وراءها . واستعد الجانبان للمعركة الحاسمة .

لم يكن الامبراطور ساعتئذ قد انزل مدفعية الحصار، فلم يبتدئ قصف مدينة الجزائر بالقنابل، بينما كان المجاهدون الذين خفوا الى ساحة الوغى من كل مكان، يتبارون فىمهاجمة الجيش الاسباني ومناوأته من كل مكان. حتى قال أحد فرسان مالطة فى تقريره عن المعركة « ان هذه الطريقة فى الحرب قد اذهلتنا، لاننا لم نكن نعرفها من قبل » وكان المجاهدون الجزائريون يحسنون استعمال كل مرتفع وكل منخفض من الارض .

وكان المخطط الاسلامي الجزائري، يقتضي أن يخرج المجاهدون من أبواب مدينة الجزائر، عندما يكون المجاهدون خارج الاسوار قد انهكوا القوى المهاجمة فينقضون عليها بشدة وصرامة، ويقطعون بين الجيش الذى تحت قيادة الامبراطور فىكدية الصابون، وبين البحر، ثم يحيط كل فريق منهم بفرقة من جيش الصليبيين وتلتحم نيران المعركة العامة ، وما النصر الامن عند الله العزيز الحكيم .

واذا كان القوم يستعدون لهذه المعمعة الرهيبة، التى لاتتكافوء فيها القوى المادية، انما تتفوق فيها قوة الايمان بالله والجهاد فى سبيله ، تدخلت يد القدر القاهرة، فجاءت بعامل جديد، كان له الاثر الفعال فى

تمكين المسلمين من تنفيذ خطتهم على الوجه الاكمل، وكان من نتائجـه تدمير معظم الاسطول الاسباني، والامعان في فداحة الكارثة النصرانية.

ذلك انه في نفس تلك الليلة ، ٢٤ اكتوبر ، بعد نهـار ملىء بالحوادث والمشاق، انزل الله السماء مدرارا على أرض المعركة وحواليها، وكانت تزداد شدة وتهاطلا كلما تقدم الليل. بينما هبت ريح عاتية مـن الشمال الغربي، فتعالت الامواج وتشابكت، وأصبح الاسطول الذى يحمـل السلاح والمدفعية والعتاد، في موقف جـد حرج .

ولم يكن للاسبانيين في تلك الليلة خيام يحتمون فيها من وابل المطر ، اذ لم يكونوا قد جاءوا بالعتاد اللازم من السفن، فقضوا بين الماء والاوحال شر ليلة، بعد أن قضوا بين المسيرة ونيران المجاهدين شر نهار . .

المعركـة الحاسمـة .

عند مطلع الفجر تصاعدت اصوات المؤذنين، ينادون الناس لبيوت الله، من عشرات المنارات، ولم يكن القوم قد ناموا ليلتهم تلك، وهم يعلمون ان يوم الغد انما هو المصير، فاما الى عز وحرية وتمكين، وأما الى فناء ودمار، ومذبحة كمذبحة تونس، وسقوط بلاد المغرب العربي كافة تحت أقدام الغزوة الصليبية الاروبية .

وما كادت تنقضى الصلاة ، حتى فتحت أبواب المدينـة فجأة ، وتدفقت منها جمـوع المجاهدين ، تتصاعد اصـوات تكبيرهم وتهليلهم حتى لتبلغ عنان السماء ، وانقضوا تحت قيادة البطل الحاج البشير ، على ميمنة الخـط الاسباني ، وكانت مستقرة أمام رأس تافورة (فيما بين ادارة البـريد المركزى اليوم ، والبحر) .

وكانت طليعة الفرقة الطليانية هى التى تلقت الصدمة الاولى ففوجئت

بها ، واستولى عليها الرعب والفـــزع كمـــا يقول المؤرخون الاوروبيون ، فانتهرت دون نظام، فى حركة هى أقرب الى الفرار ، حتى التحقت بالمعسكر الكامل للفرقة الطليانية .

وازداد المجاهدون بسالة واقداما أمام هذا النصر الاول ، فواصلوا هجومهم ، يقتفون خطى الفارين ، الى ان اصطدموا بالفرقة الطليانيـــة كاملة ، وكانت هى الحلقة الوسطى من جهاز الجيـــش الصليبى . ومـــا راعتهم كثرة العدو ، بل اندفعوا فى تصميم من باع نفسه للـــه ، وترك وراءه الحياة الدنيا ومباهجها ، فلم تستطع الفرقة الطليانية صمودا أمام هذا الزحف الجارف ، واضطرب أمرها فولت أمامه منهزمـــة ، وانقلب انهزامها حسب التعبير الفرنجى الى فرار بلا نظام «debondade(1)» وأعمل الجزائريون السيف فى رقابها فاحدثوا بين صفوفها مقتلة عظيمة ، ولم تزل تولى الادبار ، والجزائريون من خلفها ، الى أن تدخلت فرقة مالطة فى المعركة .

الدور الثانى من المعركـــة :

كانت فرقة فرسان مالطة ورجالها ، مستترة بعيدا عن الموقع الطليانى، فما كادت ترى ضراوة المعركة ، وفرار الطليان ، وما يوشك أن يلحق بالجيش الإمبراطورى كله من دمار ، نتيجة انهيار ميمنتـــه ، حتـــى اندفعت ، ملبية صوت الواجب والشرف ، وحـــالت بـــين المجاهديـــن الجزائريين وبين ظهور الفرار من الطليان ، وتمركزت بثبات وقوة وعزم ـــ شأن فرسان مالطة فى كل مكان ، وفى كل معركة ـــ فى الفج الصغير

---

(1)دور قراصون ـ تاريخ الجزائر تحت حكم الاتراك .

الذى يقع وراء الجسر ، والذى تمر منه الطريق المؤدية الى كدية الصابون ، فتوقف عندئذ الهجوم الجزائرى ، حتى لا ينقطع وراءه خط الرجعة • بينما اندفع القائدان الصليبيان ، كولونا ، والامير صالمون مع فرقة من الفرسان ، وراء الفارين من بقايا الفرقة الطليانية التى كانت ممعنة فى الفرار لا تلوى على شىء ، فتمكنا بعد لأى من ادراكها ، بعيدا عن أرض المعركة ، فتوقفت عن الفرار •

أما الجزائريون ، فقد ألقى اليهم القائد الحاج البشير أمرا بأن يرجعوا حالا ، فى نظام عسكرى تام ، وراء أسوار وحصون مدينة الجزائر ، دون أن يتركوا الاشتباك مع العدو ، الى أن يصبح تحت مرمى أسلحة ومدافع الحصون •

وهكذا كان الامر • ولم يقرأ فرسان مالطة فى حميتهم الحربية ومن تبعهم من رجال الفرق الاخرى ، حسابا للمخطط الجزائرى ، فأخذوا يتقدمون ، والجزائريون يستدرجونهم ، الى أن أصبحوا على مقربة من حصن « باب عزون » ففتح رجال الدفاع الجزائريون الابواب ودخل المجاهدون ، ثم اقفلت بسرعة ، وبقيت فرقة العدو تجاه السور ، مكشوفة ، تحت وابل المطر الذى كان يزداد شدة • فلم يستطيع الفرسان والرجال الذين تقدموا دون تـرو ولا امعان ، التقدم الى الاسوار واقتحامها ، لمناعتها وشدة المدافعين عنها ، ولا التقهقر لان سلاح الجزائريين يحصدهم جميعا من وراء ظهورهم •

امتطى الامبراطور صهوة جواده ، حين بلغته أنباء المصيبة التى ألحقها الجزائريون بالفرقة الطليانية ، وتقدم مع النبلاء ورجال الخاصة ، والمهرة من الفرسان ، لنجدة فريق مالطة الذى أصبح فى خطر عظيم ،

واقتحم أولئك الفرسان منطقة الخطر ، تحت نيران الحصون الجزائرية ، ففقدوا نصف عددهم في الملحمة ، وكان المجاهدون الجزائريون من عرب الداخل ، يلهبون ظهورهم من الخلف • والذي زاد في هول المعركة وفداحة الخطب بالنسبة للصليبيين ، هو أنهم لم يكونوا يستطيعون استعمال أسلحتهم النارية تحت وابل المطر ، فالبارود الذي لديهم قد اصبح عجينة لا تصلح لشيء ، بينما كان على الاسوار رجال من مهاجري الاندلس يحسنون الرمي بالسهام البعيدة المدى ، من القسي الحديدية (arbalettes) فكانوا يصيبون أهدافهم بدقة ، الى جانب اخوانهم من المجاهدين الذين كانوا يستعملون الاسلحة النارية ، فحصدت صفوف المهاجمين ، واضطروا بعد قليل للانسحاب ، تاركين بين الاوحال عددا عظيما من قتلاهم •

وهكذا أسفرت المعركة يوم ٢٥ أكتوبر ، عن نصر جزائري عظيم ، حققه ثبات وايمان وتضحية المجاهدين الجزائريين •

حالة الاسطول الصليبي :

أما العاصفة البحرية فقد ازدادت خلال هذه المعركة شدة وعنفا ، ودفعت حركة الامواج بقطع الاسطول الى الساحل ، وخاصة سفن النقل الكبيرة ، فكان يرتطم بعضها ببعض ، وكانت تتكسر وتتلف على الساحل ، وانقلب الامر بعد حين الى كارثة حقيقية ، حيث جاوز عدد سفن النقل التي تحطمت على ساحل البحر ١٥٠ سفينة كان المجاهدون المسلمون من عرب البلاد الداخلية يغنمون ما فيها ، ويأسرون رجالها •

أما السفن الحربية التي كانت أمتن صنعا وأحسن قيادة،فقد انسحبت

من موقعها الخطر ، مستعملة المجاذيف ، واستمرت عمليتها هذه نحــوا من ٢٤ ساعة .

انقاذ الاسرى المسلمين :

لكن هذه السفن الحربية التى ناورت ، وابتعـدت عن مركـز الخطـر ، كان لها خطر آخر ، يكمن فى أحشائها ، ألا وهو أن أغلبية أصحاب المجاذيف كانوا من الاسرى المسلمين المستعبدين ، وكانوا يتتبعون سير المعركة باهتمام ، فرأوا أثناء هذا الانسحـــاب أن هذه هى فرصتهم السانحة للتحرر ، وانقاذ أنفسهم من عذاب الهــون ، بواسطـــة بلـــوغ ساحل السلامة . فتركوا التجذيف واندفعــوا وهم فى السلاسل والاغلال ، يفتحون لانفسهم طريق النجاة ، بأى صفة من الصفات . وكانت نتيجة هذه العمليــة ، أن ١٦ سفينة حربيــة ارتطمت بالساحــل وتحطمت لفقــد الجذافين ، بينما تمكن المجاهدون الجزائريون من انقاذ ألف وأربعمائة رجل منهم ، أنزلوهم بالجزائر على الرحب والسعة .

مدى الكارثـــة البحـــرية :

أراد الامبراطور وأركان حربه أن ينقذوا شيئا مما القى به الاسطول الى ساحل البحر ، من سلاح ، وعتاد ، وأن ينقذوا كذلك من الموت أو الاسر ، أولئك البحارة الذين كانوا يئنون تحت انقاض السفن ، فبعثوا بفرقة الى ساحل الفاجعة ، لكن هذه الفرقة لم تستطع عمل أى شىء ، فما وصل من العتاد الى البر أخذه المجـــاهدون وما بقى منه فى السفن الغارقة ابتلعه اليم وهو الأكثر ، اذ كان يشمل كامل المدفعية ، والالات والادوات ، والمؤن والذخيرة .

ويقول التاريخ الافرنجى ، أن ساحل البحر الجزائرى ، على مـــدى

نحو مائتى كيلو متر ، من شرق دلس الى غـــرب شرشال كان مغمورا ببقايا السفن الاسبانية المهشمة ، وجثث من قضى نحبه بها غرقا ، أما الذى كانت السفن تحمله من متاع مختلف فكانت الامواج تلقى به على مختلف السواحل الجزائرية ، غنيمة باردة للمسلمين •

الانسحـــاب

كان أندريادوريا ، وهو يشرف على العمليات البحرية من فوق ظهر سفينته الكبرى « طومبيرانس » يحاول الدفاع عن رجاله وعن متاعه وعن كل ما تذفت الزوبعة به على الساحل ، ليمنع وصول المجاهدين اليه، والاستيلاء عليه ، فكان يتقدم من الساحل بين الامواج ، ويوالى رمى القنابل والقذائف المدفعية ، لكن المحاولة ما زادت الكارثة الصليبية الا اتساعا وفداحة • اذ أنها لم تغن عنه شيئا ، ولم تمنـــع المجاهدين من الاستيلاء على كل ما وصل الى الساحل من جهة ، بينما هى ، من جهة أخرى ، قد كانت السبب فى تحطيم سفينة حربية أخرى •

هذا بينما كان الامبراطور يحـــاول تنظيم بقايا جيشه من جديد ، ويفكر فى أحسن الطرق للخلاص من هذه المصيبة ، لكنه وجد نفسه أمام ثلاثة أعداء ، لا يمكن التغلب بسهولة على واحد منهم : الجزائريون من وراء أسوارهم يرقبون الحوادث باهتمام ويستعدون لاعادة المعركة • والجوع الذى أصاب الجيش فى صميم احشائه ، والرعب والفزع الذين رانا على القلوب فأفقدها الحمية والرشد •

وسط هذه النكبة التى لم تخطر له على بال ، والتى اشتركت فيهـــا أسلحة الارض وعناصر السماء ، بقى الامبـــراطور محافظا على رباطة جأشه مستسلما لقضاء الله ، يردد دومـــا بين شفتيــــه « لتنفذ ارادتك

يا رب !» وأخذ يشاور كبار معاونيه ، ممن أبقت عليهم المعركة ، هل ينسحب من الأرض الجزائرية فوق بقايا الاسطول ، أم يجمع بقية الرجال ، ويتحصن في جهة ما من الارض ، وينتظر تحسن حالة الجو ، وورود مدد من أروبا ؟

أما الاميرال أندريادوريا ، فقد كان مصمما وكان صريحا للغاية : أرسل من فوق ظهر سفينته فدائيا اسبانيا ، قام بعملية بطولية يجب أن تسجل في صفحات الفخار ، ألا وهي أنه اخترق برسالته عوما أمواج البحر الزاخرة ، وتسرب خلال جموع المجاهدين الجزائريين ، حتى وصل خيمة الامبراطور ، وأبلغ الرسالة .

يقول اندرياداوريا في رسالته تلك :

أما من جهة البحر فمن المستحيل بقاء الاسطول في مركز الخطر داخل الخليج ، وانه ان لم ينسحب حالا الى جهة تامانتفوس ، المواجهة لمدينة الجزائر، على الطرف المقابل من الخليج، فان بقية السفن سوف تتحطم لامحالة .

وأما من جهة البر، فهو يرى استحالة البقاء والانتظار، وأن الواجب هو الانسحاب حالا، ببقية الرجال، وامتطاء صهوة بقايا الاسطول في جهة تاما نتفوس .

وكانت آراء قادة الجيش — في أغلبيتهم — تؤيد رأى أندريا دوريا . الا القائد الاسباني فرناند وكورتيز جلاد سكان اميركا الذى رأى وجوب البقاء والمقاومة، ويقول مؤرخو الافرنج انه لم يبق لديه شيء يدافع عنه اذ أنه قد رأى بعيني رأسه غرق سفينته التى كانت تحمل ، كل الكنوز من الذهب والفضة والحجارة الكريمة، التى اغتصبها من

أصحابها، سكان القارة الاميركية المساكين. كما كان مـــن أنصار البقاء والثبات، الكونت دالكوديت الشهير، حاكم وهران العام .

أخذ الجيش الاسباني عندئذ في الانسحاب، بعيدا عن الاسوار ، لكي يخترق ضفة البحر الى أن يبلغ رأس « تامانتفوس »

وانتقاء لغائلة الجوع، أمر الامبراطور بقتل الخيول التي كانت لدى الجيش وتوزيع لحمها طعاما للرجال ، مبتدئا بقتل تلك الخيول العـــربية البديعة الفارهة التي جاء بها لنفسه ؛ وبات الجيش المنهزم ليلتئذ ، وراء وادي خنيس .

ومن الغد ٢٧ أكتوبر، وصلت فلول الجـــيش الى وادي الحـــراش ، الذي كانت مياهه قد ارتفعت كثيرا، من جراء المطـــر الغزيـــر، فـــلم يستطع الجيش اختراقه، وبات دونه تلك الليلة .

صبيحة يوم الجمعة، ٢٨ أكتوبر، أخذ بقايا الرجـــال القـــادرون على العمل ينشؤون من أخشاب السفن جسرا، عبروا عليه الى الضفـــــة الاخرى، واستمروا على سيرهم ببطء، حتى وصلوا وادي الـــحميض (الحميز) فباتوا عنده .

واستأنفوا سيرهم المنهك ، يوم السبت ٢٩ أكتوبر ، فوصـــلوا الى تامانتفوس، حيث كان ينتظرهم الاسطول، وهم على أسوأ ما يكـــون تعبا وانهيارا، ذلك ان المجاهدين المسلمين، من حماة الجزائر ومن عرب الداخل ، كانوا لا يفتأون يهاجمون أطراف الجيش ، ليلا ونهارا ، وقد اضطر الامبراطور، للدفاع عن بقية الجيش المنهزم، أن يجعل بقايـــا الفرقة الطليانية في الميمنة (ابعد ما تكون عن اسلحة الجزائريين) وان يضع في الميسرة وخاصة المؤخرة ، ، فرسان مالطة ورجال اسبانيا ، وكان

يقود المؤخرة بنفسه لرد هجومات المجاهدين المتوالية، ولانقـاذ مـن يسقط من الرجال •

وهكذا استمر سير الفلول، الى أن بلغت انقاض مدينة رسغوليـا ، الرومانية العتيقة المحطمة Resgunia

قضوا بتلك الاطلال يومي الاحد والاثنين ، حيث استرجعوا شيـئا من الراحة ، وابتدأت عملية ركوب البحر يوم الثلاثاء ، أول نفـامبر وأخذوا يغادرون الارض الجزائرية بعد أن دفنوا فيها جندهم ، وواروا تحت أمواج بحرها اسطولهم، وانهارت فوق سطحها قواهم المعنوية •

أما الامبراطور، فلم يركب البحر الايوم ٣ نفامبر، بعد تم انسحاب كل الاحياء من بقايا الجيش، وركبوا بقايا الاسطول المعطب •

وهكذا ، لم تدم هذه الصليبية التي جهزت لكي تحطم دولة الجزائر ، ولم يمكث الاستعمار تحت ستار الصليبية في بلاد افريقيا، الا ١٢ يوما من الاحد ٢٣ أكتوبر، الى الخميس ٣ نفامبر ١٥٤١

الامبراطور في بجـاية

ابحر الجيش المنهزم بفلوله الى مدينة بجاية، وكان البحـر لايزال متهيجا مضطربا فابتلع عددا من بقايا الاسطول، وكانت أعمال الاصلاح والترميم تجري فوق متن السفن دون انقطاع ،الى أن وصلت السفن تترى الى مرفأ مدينة بجاية •

لكن ماذا وجدوا ببجاية ؟

وجدوا بها البؤس والجوع، والفاقة، حيث أن الحصار الـذي كان المجاهدون المسلمون يطوقون به المدينة الاسيرة، كان ضيقا، منع كـل توسع في الزاد والميرة، رغما عن وجود بعض الخونة المتعاونين الذيـن

كانوا يوسعون احيانا على حامية المدينة، مقابل ذهب غزير، وهذه كما أسلفنا طائفة من حثالة البشر ، لا يخلو منها زمان ولا مكان ، لا فى القديم ولا فى الحديث انها نادر، والنادر لاحكم له •

أخذ الامبراطور الكئيب المحطم ، يتسلى فى بجاية بالاقبال على العبادة، وحضور القداسات فى الكنائس (المساجد الاسلامية الكبيرة) التى أصبحت مفتوحة ليلا ونهارا، والاسبانيون يقومون بالصلوات العامة ، وأعلنوا الصيام تذللا الى الله وخشوعا •

وكان ببجاية عدد من اليهود النازحين من اسبانيا، فرأى الامبراطور أن يزداد بالنكبة بهم تقربيا الى الله ؛ فصب جام نقمته عليهم ، لا لشىء الا أنهم من اليهود، فامتهنوا، وعذبوا، ثم استرتوا، وبيعوا عبيدا الى البلاد الاروبية •

وبعد أن بقى الامبراطور ١٤ يوما ببجاية، تفقد خلالها حالتها، ورمم حصونها واسوارها، ووعدها بالعون والمدد السريع، غادرها يوم ١٦ نفامبر ١٥٤١ • وعاد الى أروبا جريح النفس، منكسر القلب •

الخطر الذى نجى منه الامبراطور وجيشه

لقائل أن يقول، بل يجب على القائل أن يقول اين كان خير الدين اثناء هذه المعمعة، وقد ترك محمد حسن آغا بالعاصمة الجزائرية، فى قلة من الرجال والسلاح ،وماذا كان يفعل من أجل حماية ملكه وعاصمته ؟

ان التاريخ الحق قد توقع هذا السؤال ، وسجل لنا بين دفتى كتبه الجواب عنه •

ان خير الدين فى استانبول، وقد كان فى رتبة « قبودان باشا » أى القائد الاعلى للاسطول الاسلامى العثمانى، لم يكن مطلق الحرية فى

عمله، مثلما كان على رأس مملكته بمدينة الجزائر • بل كان عليه ، قبل الاقدام على أية عملية، اخذ رأى الديوان السلطانى، بعد المداولة •

وقد كان خير الدين يعلم ،وهو رجل البحر الخبير، أن شرلكان يتجهز جديا لغزو الجزائر واقتحامها • فاقترح منذ شهر جوان سنة ١٥٤١ ، تجهيز اسطول حربى قوامه مائة سفينة، يرسل خمسين منها الى الساحل الجزائرى انتظارا لاسطول العدو، ويعترض بالخمسين الباقية طريق الاسطول الاسبانى وهو سائر نحو الجزائر •

لكن رجال الديوان لم يصادقوا على هذا المخطط، وقر قرارهم على أنه لايمكن الاستغناء عن هذه الكمية من سفن الاسطول، والدولة فى حرب مستعرة الوطيس، وانه تجب مراقبة سير الامور عن كثب فمتى تحقق مسير الامبراطور الى الجزائر، يذهب المدد مسرعا، بينما تكون مدينة الجزائر قد أوقفت العدو تحت اسوارها المنيعة فيصل المدد، ويقع الاسبان بين نارين، بحرا وبرا •

وماكادت أنباء الحملة الاسبانية تصل مسامع رجال الديوان منذ يومها الاول، حتى جهز خير الدين اسطولا قويا، يحمل الرجال والمعدات، واندفع نحو الجزائر كى ينفذ المخطط المذكور •

انما سبقته الحوادث وكفى الله المؤمنين القتال، ففعلت الزوبعة باسطول الصليبية مافعلت، وقام المجاهدون خير القيام بالدور المخصص لهم، وماوصلت عمارة خير الدين، حتى كانت آخر سفن الاسطول النصرانى قد غادرت تامانتفوس•

علم الامبراطور بهذا النبأ، فادرك انه قد نجى من خطر عظيم، وانه لو لم يسرع بالانسحاب، او لو انه اتبع رأى القائلين بالبقاء، لاصبح

هو وبقايا جنده أسرى بين يدى خير الدين والجزائريين

ثمن المعركـــــــة

فاقت نكبة الجيش الصليبى فى مداها واتساعها، كل نكبة حلت بجيش مهاجم قبل ذلك فوق أديم الارض الافريقية •

كانت الخسارة تشمل ٢٠٠ سفينة ؛ من بينها نحو ٣٠ سفينة حربية •

و٢٠٠ مدفع، وكل العدد والاسلحة والذخيرة والادوات •

و ١٢٠٠٠ رجل ، بين قتيل فى المعركة ، وغريق ، وأسير ؛

أما الغنائم التى غنمها المسلمون الجزائريون ، من جراء ذلك ، فلا يكاد يحصيها عـــــد •

يقول الشيخ حسين بن رجب شاوش، ابن المفتى، فىتاريخه المختصر عن باشوات وعلماء الجزائـــــر

« وبقيت الجزائر كالعروس، تختال فىحليها وحللها، مـــن رخـــاء الاسعار، وامن الاقطار ،ولم يبق لهم عدو يخافون منه، وشاعـــت هذه القضية ، فى مشارق الارض ومغاربها ؛ وبقى رعب المسلمين فى اعـــداء الدين، مدة من الزمن، بامن الملك العلام •

••• وخلف اللعين لاهل الجزائر ما ملأ أيديهم غناء • وكسبت مـــن ذلك أموالا طائلة، وفرج الله على أوليائه المسلمين »

أما البطل الزعيم محمد حسن آغا، فقد تلقى مـــن السلطان سليمان اثر هذا النصر العظيم، الذى كان لحسن تدبيره ولحســـن مناورتـــه ورباطة جأشه، حظ وافر منه ، لقب « باشا » وهى أول مرة يمنح فيها أحد العاملين فى الجزائر هذا اللقب الذى كان يومئذ حقا رفيعا وممتازا •

تقرير الكونت د الكوديت بعد النكبـــة

وفي يوم ٢٥ دسامبر من تلك السنة ، بعث الكونت الونزودي قرطبة من وهران ، الى والده الكونت د الكوديت حاكم وهران ، وقد كان ينوب عنه أثناء غيابه ، التقرير التالي :

« ان الانباء الجديدة الموثوق بها التي وردت علي من الجزائر ، قـــد أعلمتني بأن الاتراك قد انقذوا خمسا من السفن (الاسبانيـــة) التي شحطت على الساحل أربع منها سالمة • وواحدة بها عطب قليل •

« كذلك قد أخرجوا من الماء ستين مدفعا بين كبير وصغير ، منها ٢٠ مدفعا ضخما •

ولقد أرسل حســـن آغا مندوبا من قبلـه الى ملك تلمسان (الملك محمد) يسأله الاعانة استعدادا لتلقي صدمة الارمادا الجديدة (باعتبار أن شرلكان سيعيد الكرة قريبا على رأس قوة أخرى) •

« كما أرسل مندوبين عنه الى فليز (١) باديس على الساحل الشمالي المغربي) من أجل صناعة سفن وابتياع أشياء تحتاجها مدينة الجزائر •

« كذلك ارسل حسن آغـا مندوبين اختارهم من بين الفضـــلاء ، وجهزهم تجهيزا حسنا ، الى حامد ابن سليمـــان ، وهو الان شيخ محلة ملــك

---

(١) يقول مارمول ان اهل باديس « فاليز » كانوا يكسبـون عيشهـم من امـرين : بيـع سمـك السـردين لسكـان الجبـال المحيطـة بهم - وصنـاعة السفـن التـي كانوا يغـزون بهـا سـواحل المسيحية . ذلك لان الجبـال المشرفة عـلى مدينتهـم كـانت مكسـبـة بغـابـات الارز والـرو (Chene) - وكـانت لهـم دار صنـاعـة تبنـى السفن لحســاب الحكـومـة •

تلمسان ، يسأله القدوم لنجدته فى الوقت الذى يعينه له . فأجابه الشيخ حامد بأنه سيتقدم حالا للنجدة اذا كان باقيا على رأس المحلة .

» كذلك استصرخ حسان آغا لنجدته القائد المنصور وكبار المرابطين (شيوخ الطرق) بالمملكة (التلمسانية) اه

وهكذا أخذ محمد حسن باشا، يستعد منذ الساعة الاولى، فى حذر ويقظة للجولة الثانية التى علم أن الاسبان لابد مقدمون عليها ،

توسيع حدود المملكة

اغتنم محمد حسن باشا فرصة هذا النصر العظيم، وماأحدثه من دوى هائل فى كل أطراف البلاد، فتقدم على رأس جماعة قليلة من الجيش، الى بسكرة، وغيرها من بلاد الزيبان وما يحيط بها، الى تخوم الصحراء الكبرى، داعيا الى الوحدة وجمع الشمل ضمن الدولة الجزائرية العثمانية، فاسفرت رحلته هذه عن انضمام كل هاتيك الجهات الى النظام الجديد الذى استقر بالعاصمة الجزائرية .

الاقطاع المتعاون مع العدو :

لكن الاقطاع لم يلق مع ذلك سلاحه ، وبقىبعض أمراء الاقطاع يوالون جهودهم الاجرامية متصلين بالعدو اتصالا وثيقا ، سعيا منهم فى محاولة نسف هذه الوحدة الوطنية الاسلامية التى تجعل من الدولة الجزائرية الحديثة كلا لا يتجزأ ، تحت راية واحدة ، وتحت قيادة واحدة ، وضمن ادارة واحدة .

فاذا كان الابرار الاحرار من أهل زواوة ، قد اصبحوا دعامة متينة لهذه الوحدة الصالحة ، وكنا نجد مجاهديهم فى مقدمات كل زحف ، فان زعيم عائلة ابن القاضى فى (كوكو) وهو محمد بن محمد ، الذى آلت اليه

الامارة الجبلية ، بعد أحمد والحسن ، كان يصـــل أسبابـــه بأسبـــاب الامبراطور شرلكان ، حتى بعد هزيمته وانهياره أمام الجزائر ، مستفزا اياه على اعادة الحملة ، وتحطيم العاصمة واذلالها ، فيتمكن ابن القاضي يومئذ من توطيد سلطانه على قبائل زواوة ، ويتخلص نهائيا — على يد الاسبان — من خصمه أمير قلعة بنى عباس •

وكان حاكم بجاية الاسبانى ، هو الواسطة بين هذا الاقطاعى المأفون، وبين الحكومة الاسبانية • ولقد وجدنا فى محفوظات خزائن سيمانكاس الآنفة الذكر ، عددا من الوثائق التى تفضح أعمال ومســـاعى هـــــذا الاقطاعى ، وبعض خواصه ، واخترنا للنشر منها ثلاث وثائق فيها أكثر من دلالة ، ويستطيع القارىء أن يفهم منها كل شىء ، دون حاجة الى شروح وبيانات •

أما الرسالة الاولى ، الجميلة الخط ، المتينة العبارة فهيى من محمد بن محمد القاضى (1) الى الامبراطور شرلكان ، وفيها معنى الاعتراف لـــه بالخلافة ؛ وانه صاحب السلطة الالهية المطلقة على العالم • واما الرسالة الثانية ، الرديئة الخط ، السوقية العبارة ، فمن ابن أخيـــه وممثلـــه و « ضوء حدقته » عمر بن أحمد ، حاكم مدينة بجاية الاسبانى • وأنى ما أثبت نص الرسالتين ، ونشرت صورتهما ، الا لنعلم الى أى هـــوة سحيقة تتردى الاقطاعية الفاجرة ، من أجل الاحتفاظ على امتيازاتهـــا والتمكن من قهر اعدائها •

(1) هى من انشاء ويخط كاتبه طبعـا •

رسالة محمد بن محمد القاضى ، للامبراطور شرلكان :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله

« الحمد لله الذى جعل الخلافة عصمة للانام . وحفظا لبقاء النظام . وركنا وثيقا على الدوام . وملجأ منيعا لنفوذ حكم الحكام . قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير .

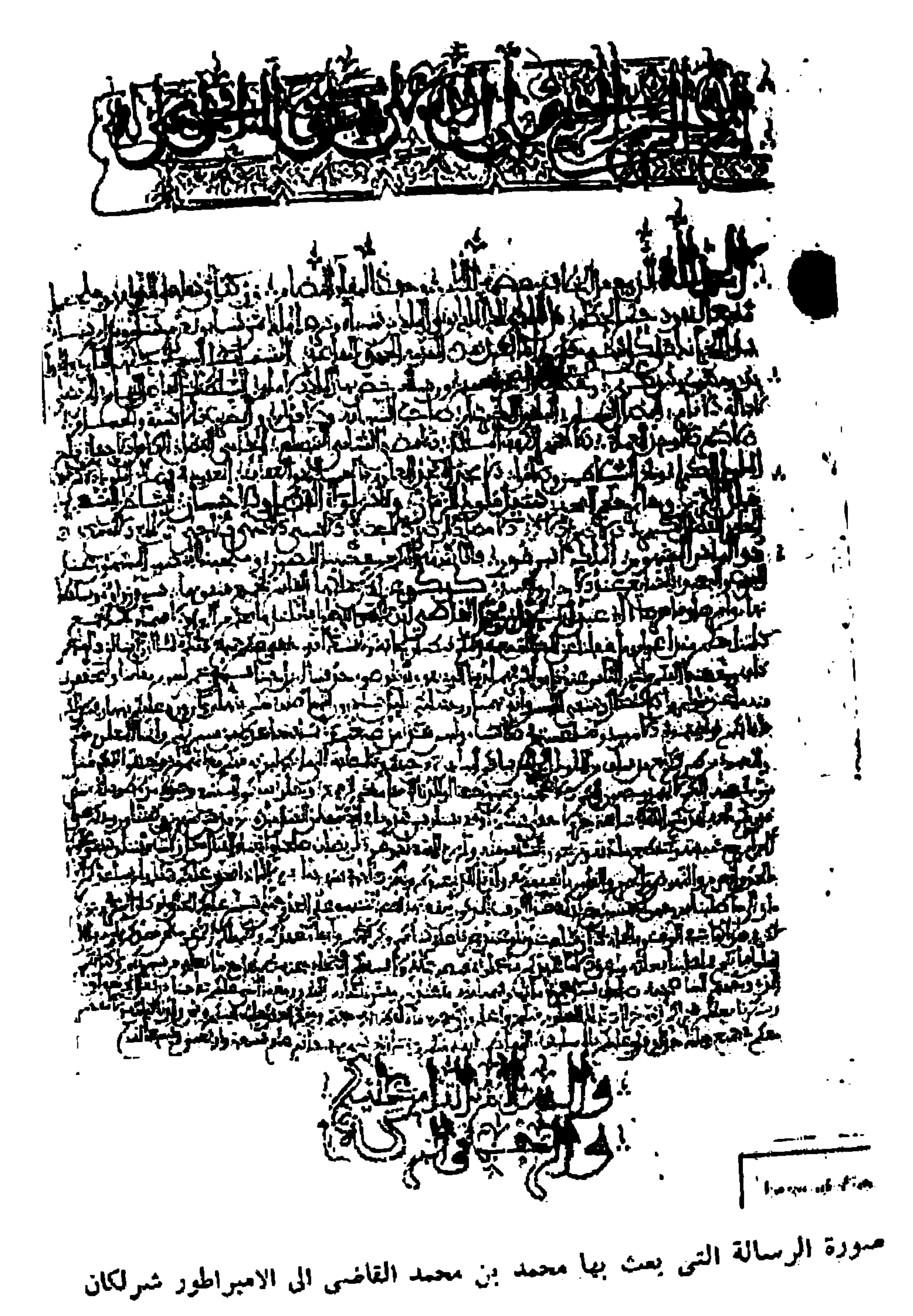
أما بعد هذه المقدمة الحميدة المقاصد . المشتملة على السر فى حكمة البارىء والفوائد . ومكتوب وثيق كريم . وخطاب واضح جسيم . ورسالة خص بها الملك الامام . والسلطان الفاضل الهمام . والمرتضى لأيالة الأنام . البطل الشمام . الباسل الضرغام . صاحب الشهامة والاقدام . والضرب بالاسنة والحسام . الاظهر الاجود العماد . الاشهر الكهف الملاذ . الامضى السامى الشجاع . الحامى البطل . الكافل الاحفل . تاج الملوك الكبراء . وفخر السلاطين الامراء . الامجد الانجد المعلوم بالجلالة والعفاف . المعدود فى فضلاء الملوك الاشراف . ملك البرين . وحائز حكم البحرين . سيد ملوك الزمان . وناشر لواء الفضل والاحسان . السلطان الشهير . الحائز للفضل الكبير . الاظهر الاكبر . الامضاء الارضا الاحضا الاسنى الاسمى الاحمى . الالمع الامنع . ذو البأس المشهور . الملك أنبرضور . فاننا كتبناه اليكم من حصننا المصون . وملجئنا المنصور المشهور عند القريب والبعيد . الشائع ذكره عند الاحرار والعبيد . كوكو . عن اذن ملكها القائم بجميع شؤنها . سيد زواوة وسلطانها . وأميرها وقاهرها . أبى عبد الله محمد بن محمد القاضى أيده الله . والى هذا . فأنا على ماتعلم من الجد والاهتمام .

فيما يجمع كلمتنا معكم منذ أعوام . وما غفلنا من المكالمة مع خديمكم قبطان بجاية . ولا نشك في أنه خفى عنكم جميع ذلك . فلما رأينا أن ذلك غير كاف وجهنا اليكم باعز الناس عندنا . وأشرفهم لدينا . الذى هو ولدنا وضوء حدقتنا ابن أخينا سيدى عمر . ليقوم مقامنا . وتتحققون منه ما عندنا . وليزول الاشكال وينتهى اللبس . وانه مهما ورد عليكم بليل تبادرون الى ما طلب منكم بنهار . وان ورد عليكم بنهار فكذلك . فاذا بكم توانيتم فى الامور . وتقاعستم فى الاشياء . وليس هذا من طبعكم . ولا مما نتعاهده من سيرتكم . وانما المعلوم منكم . والمعهود من طرقكم مع من سلف من الملوك الحالين ببابكم المبادرة من حينكم بالاجابة الى ما يطلبونه منكم . مع أنهم لم يوجهوا اليكم مثل من وجهناه اليكم . لأنهم يوجهون أليكم الاصحاب . ونحن وجهنا أولادنا الى مقامكم الرفيع وحلوا ببابكم المنيع. وهذه مدة طويلة ننتظر قدومكم معه أقدمكم الله فى ساعة خير . ولا خفى عنكم ما وقع بيننا وبين عدونا فى الصيف من القتال مدة تزيد عن شهرين . وظننا وروكم على الجزائر مع غيبته (١) . وتنقطع مادته . وتريحون الناس منه . ولم يرد الله ذلك . هو الآن يطلب صلحنا . وأبينا . والقتال كل وقت بيننا وبينه . وعليكم بالجد والعزم . والنهوض والحزم . والقدوم بنفسكم مع ولدنا الذى عندكم . وليكن ذلك فى شهر يناير . الا اذا تعذر عليكم ذلك . ولم يساعدكم الزمان الى ما طلبنا فوجهوا خمسين غرابا (٢) فى هذا الوقت

---

(١) يشير الى خير الدين الذى كان غائبا عن الجزائر .

(٢) نوع من السفن الحربية الخفيفة .



صورة الرسالة التى بعث بها محمد بن محمد القاضى الى الامبراطور شرلكان

المذكور(١) ليقع بها بعض التضييق على العدو . حتى يتيسر عليكم الحال ، ولوكان السر فى وجودكم . لكن فى هذا الكفايــة فى الوقت .
وبالجملة لما أن شاع عندنا وعند غيرنا علو شأنكم، وكبر همتكم، وايفاء عهدكم . وتكميلكم المرغوب من قصدكم . بادرنا الى الحلول ببابكم .
فما علينا فعلناه . ولم يبق الا ما عندكم . فاعملوا بمقتضى ذلك . ولا يسعكم التخلف عنه طبعا . مع ما نعلمه من سيرتكم . وكتابكم الــذى وجهتم الينا صحبة صاحب سيدى عمر تأملناه . وفهمنا منه ما عندكم .
وسرنا غاية السرور . مع ما أثنى عليكم صاحبنا من فعل الخير مع ولدنا .
وشكرنا فعلكم . فجزاكم الله خيرا . ان ذلك المعلوم عنكم . واعلم ان جميع ما تلفظ به معكم . ووقع العقد عليه بينكم وبين ولدنا قبلناه . ولا نقصر معكم فى جميع ذلك جل أو قل وعليكم بالمسارعة الى ما طلبنــاه منكم . وبتاريخ شهر دجامبر عام تسعة وأربعين وتسعمائة . والسلام التام عليكم والرحمة والبركة . » اه

رسالة عمر بن احمد لحاكم بجاية :

« الحمد لله والصلاة على رسول الله .

من عمر بن أحمد اصلحه الله .

الى القايد المكرم الوجيه المعظم قبطان بجاية شنيور دون الويس ، سلم عليكم . واليه . اعلم وان نحن على العهد الاول، وعلى المحبــة وتجديد السلطان . ولا يطل مشورتن الاولى . الا الناس يضحك فينا .
اولا اعلش نعمل آلان . ان كان انتما (أنتم) على العهد الاول أرسل

(١) يعنى يناير سنة ١٥٤٤.

الحمد لله والصلاة على رسول الله

من عمر بن احمد لطف الله به الى الرفاقة المكرمة

الوجيه المعظم قبطان جماعة نسوازي ووالو

بن سلام عليكم واليه فان خبر عن العهد

ول وعلى المحبة وجند في السلطنة وفي بلاد مسور

من الاعوان في ... الناس تحكي عنا او لا من الكلتر

نعمل لك ول ان كان انما على العهد الاول والاول

للسلطان يجعل علينا العمارة او يعمل ...

غفلة من حيلكم ونصرتم والذي حسبت في جاكم

كم نعمله اعجل بالعمارة قبل ان يجبون الحال

فينا وفيه واذا تحب تكتبوا عن وسيلة سلام

للسلطان تكتبوا هو ... واعلم لنا بالسلطان ...

هو وبالذي في باله واعلم لنا بالعمارة الذي عمل

عام اول ابن ... خرجت واعلم لنا ان لبس

سبب ابن هو ... والمرسبي ... وبالقبائل كلهم

ابن كانوا في ... ولو ما نقدر عليه الجزائر لا زموا انفهم

في نصركم وايضا بلغنا ان خبر الخير وصاحب ابو

... صدرو ... و ان ... و ...

النكار واعلموا لنا بالجواب وبما كان من الاخبار ... فلو

بكم والسلام

(رسالة عمر بن أحمد ٢٠)

(أرسلوا) للسلطان يعجل علينا بالعمارة، أو نعمل (ونعمل) معكم عقدة ترضيكم وتصركم (وتسركم) والذى حبيت فى خاطركم تعمله اعجل بالعمارة قبل أن يفوت الحال فينا وفيكم، واذا بغيت كتوب عم (عمى) ... ترسلهم للسلطان نكتبوهم، واعلم لنا (اعلمنا) بالسلطان اين هو، وبالدوك دالبة، واعلم لنا بالبرنسب أين هو وبالبرنسب ذويه وبالقباطن كلهم أين كانوا ونحن قلن (قلنا) ما يغفلتش على الجزائر لان هي تضرنا وتضركم، وايضا بلغنا ان خير الدين وصاحب فرانسية حاصروا مينة وانكسروا وهل شتى فى تلك البلد . واعجلوا لنا بالجواب وبما كان لنا بالاخبار وبما فى قلوبكم والسلام، » اه .

رسالة اخرى من عمر فيها حقيقة رائعة

وهناك رسالة ثالثة، أرى وجوب اثباتها، لان الاقطاعى يؤكد فيها بالنص، ان « بلاد المسلمين » كارهة لهم ولاعمالهم ومساعيهم . واليك بنصها وبرسمها :

« الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد

عمر بن احمد اصلحه الله .

الى سنيور دون الويس تبطان بجاية أكرمه الله . سلام عليكم والسؤال عن جميع أحوالكم، من صاحبك وخديم السلطان لنبر ادور (الامبراطور) وخديمكم عمر بن أحمد بعد السلام عليكم . واليه . نعلمكم بان العمارة الذى جاءت للجزائر على ذمة بجاية وهم ستة الاف ترك، وهم قاصدين الى بجاية، ماينتضر الا العيد وصلحنا أحنا واياهم،

PR . 11 203

الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد

[redacted] الى سنيور دون الويس قبطان بجاية

اكرمه الله سلام عليكم والسؤال عن جميع احوالكم من حاجتكم وخدم

بهم السلطان سيدي دون وخديمكم عمر بن احمد بعد السلام عليكم

والبه نعلمكم بان العمارة الذي جات للجزائر على من بجاية

وهم ستة الف ترك وهم قاصدين الجباية ما يتبقوا الا الصبح وقلنا

غزوا بهم وهم ترك جيبنا اذا اصلحوا تحركوا؟ فصلح اليكم

الا ان كان فيكم نزقوة او جيتم على الذي نعملوا وما زال الدفو

نتكلم اتلقا وخيل لا يجوز الصلح لا نخبركم هنا ابلاد المسلمين

خربوا زواوة لا عليكم ولا جبنا من الديكم واذا ما كان نتم

منكم انتم اعملوا على ارقاحكم وارسلوا لسلطانكم تخبروه

ولا نقطع الرسل بيننا وبينكم والا الخوف مكان منه

ابن جوز البكم الرفاصر والدرانكنجي انا الجيكم كل يوم

وسلم لي على فنتشل وصلكم وجوان بابيس وعلى

كافة اصحابكم والسلام تحايه عليكم

(رسالة عمر بن احمد «٢»)

وهم شرط (وا) فينا اذا اصتلحن (اصطلحنا) نحركوا معهم اليكم .
الان اذا كان فيكم ش قوة، أو فيكم على اش نعمل، أوما زالت قوتكم.
اتكافاو قبل لايعقد الصلح .

لان نحن كرهتن بلاد المسلمين نحن وازواوة الاعليكم . ولا يعارنا الا بكم . (١)

واذا ماكانش منكم، انتم اعمل (أعملوا) على أرواحكم، وارسل (وارسلوا) لسلطنكم يغيثكم ولاتقطع الرسل بيننا وبينكم والا الخوف مكان من اين يجوز اليكم الرقاص (الساعي) والانظر حتى انا انجيكم كل يوم، وسلم لي على قشتل ومكلص وجوان بايس وعلى كافة اصحبكم والسلام عائد عليكم . »

ولم يرسل الامبراطور الاسطول استجابة لهذه الدعوة، ولم يعر الامر أدنى أهمية، وانهارت الاقطاعية شيئا فشيئا في مهاوى الاضمحلال وكان رجال زواوة الاحرار يقفون في الصفوف الاولى يوم تحرير بجاية؛ وفي كل معارك الجزائر المجاهدة، كما سيمر بك بعد حين .

عودة الى تلمسان

بقيت الحالة في تلمسان مضطربة متأزمة ، وبقي ملكها محمد السابع تابعا تحت السيطرة الاسبانية، متلكئا مع ذلك في تنفيذ المعاهدة المشؤومة التي عقدها معهم ،والتي أعلن شعب تلمسان الابي الشريف سخطه عليها وعدم اعترافه بها، الى ان جاءت البشرى للمسلمين ؛

---

(١)معناه : لاننا نحن ما كرهتنا بلاد المسلمين نحن وزوارة الا من اجلكم . ولا يعيرونا الا بكم .

بانكسار شرلكان وجيشه الصليبي تحت جدران مدينة الجزائر، واخذ الله لهم اخذ عزيز مقتدر، فقويت عزائم التلمسانيين، ورأوا اقتراب ساعة الفرج والخلاص .

فتحت تأثير الرأى العام وحبا فى مسايرته، من أجل ضمان البقاء، اراد الملك محمد السابع أن يتقرب الى الجزائر المنتصرة . وأرسل لمحمد حسن آغا (باشا) يسلمه قلعة المشور، اشعارا له بدخوله تحت حمايته.

لكن، هل هنالك من يأمن من جانب هذا الملك بعد ماأظهرته الايام من تلاعبه ومن انتهازيته، ومن سوء طويته ؟

ولم يقتنع بذلك احد، وكان أخوه ابوزيان احمد، اقل الناس اقتناعا بذلك، فرأى — وشاركه أهل العقد والحل فى رأيه هذا — ان الحالة الجديدة التى اسفر عنها انتصار دولة الجزائر العظيم، وانهزام الاسبان ومجموعتهم، تقتضى أن تقوم بتلمسان حكومة جديدة، طاهرة، لم تشترك مع الاسبان ، ولم تنغمس فى حمأة التعاقد معهم فشمر عن ساعد الجد، واعانه قومه، وارسل الى محمد حسن باشا يستمد منه العون والتأييد، فلم يتثاقل الباشا اليقظ النشيط، واسرع الخطى نحو تلمسان، على رأس جماعة من جنده، وهناك اجتمع الحليفان على محمد السابع، فخسر المعركة، وانهزم عن تلمسان، واعتلى ابوزيان أحمد الثانى عرش بنى زيان، متضامنا مع الجزائريين،وا صلا لما أمر به الله أو يوصل، واستبشر الناس .

لكن مصيبة تلمسان بعرشها المهلهل كانت عظيمة، ومأساتها لم تنته بعد، فالملك المخلوع محمد السابع، ذهب مع بقايا انصاره والمنتفعين بحكمه الى وهران يستدعى الاسبان على قومه واهل مدينته ويزين لهم

القيام لاحتلال المدينة وابعاد الجزائريين عنها، حيث أن محمد حسن باشا قد رجع لمدينة الجزائر تاركا لابى زيان اربعمائة من رجال الجيش التركى، عونا وسندا .

معركة شعبة اللحم

خف الكونت الباسل الجرئى دالكوديت حاكم وهران، لاعانة الملك المخلوع، وامده بجيش من الاسبان، وبعتاد حربى كبير، وتقدم على راس جموعه ، ومرتزقته ومن معه من الاسبان ، نحو تلمسان سالكا طريقا خلفيا .

وعلم ابوزيان ورجال المملكة بهذا الخطر، فقاموا خفافا وثقالا لدرئه، وخرجوا ومعهم رجال المدد العثمانى، فالتقوا بالملك المخلوع ومن معه من أسبان فى مكان يعرف « بشعبة اللحم » على نحو ٦كيلوميترات من الشمال الشرقى لمدينة عين تموشنت وتصادم الجمعان، واستبسلا فى القتال، لكن حمية الايمان، وعزة الشرف جعلت جماعة المسلمين تتغلب على الاسبان الذين كان يقودهم الجزال الفونس دى مرتينز، ومن معهم من اشياع ومرتزقة محمد، فاحاطوا بهم من كل جانب واذا قوهم مرارة الحتوف، فافنوهم عن آخرهم، لم ينجح منهم احد، الاذلك الملك الخسيس، الذى فر اثناء المعركة مسابقا الريح، ودخل وهران، فاخبر حاكمها بالهزيمة المنكرة التى حلت بالاسبان، واخذ ينفخ فيهم روح العزم على الاخذ بالثار ،وكان ذلك فى شهر جانفى ١٥٤٣ (شوال ٩٥٠)

انتهاك حرمة تلمسان

علم شرلكان هذه الانباء المحزنة، فزادت فى غمه وكربه، لكنه علم انه

اذا ما ترك الحبل على الغارب، فان آمال اسبانيا وآمال المسيحية كلها : سوف تنهار ولن تقوم بعدها قائمة للدولة الاسبانية فى البلاد، وان آمال وهران وبجاية وغيرها من مراكز الانطلاق الاسبانية هو السقوط والاندثار، اذا ماتمكن الجزائريون من الاستقرار نهائيا بتلمسان .

لهذا عزم على أن يلعب ورقته الاخيرة، وان يستخلص تلمسان من النفوذ الجزائرى، ويعيد اليها السلطان الاسبانى، وينتقم بذلك، فى نفس الوقت للفاجعة التى حلت به وبجيشه واسطوله أمام العاصمة الجزائرية، فبعث المدد الكبير من الرجال والعتاد الى وهران، تلبية لطلب الكونت دالكوديت، وماجاءت سنة ١٥٤٤ (ذى الحجة ٩٥٠) حتى تقدم الكونت العجوز، على رأس جيش اسبانى قوامه ١٥٠٠٠ مقاتل مسيحى، يعينهم مثل عددهم، أى ١٥٠٠٠ من اعراب الناحية سواء اكانوا من انصار محمد السابع ،او من الذين يتبعون كل ناعق من أجل النهب والسلب، فهاجموا تلمسان التى قاتلت قتالا شديدا من أجل عزتها وشرف استقلالها، لكن الجيش الذى كان يقوده ملكها ابوزيان أحمد، قد انهزم رغم قوته المعنوية وصلابة رجاله فى معركتين متواليتين كانت الاولى فى سهل انكاد، والثانية تحت جدران المدينة وبين حصونها، أمام الكثرة الكاثرة من اعدائه، فدخلت جموع الاسبان ومن معهم مدينة تلمسان البائسة، وامعنوا فى نهبها وانتهاك حرماتها، وارتكاب كل الموبقات فيها، وبعد أن نكلوا بأهلها تنكيلا ذريعا، وضعوا على العرش صنيعتهم محمد السابع، وايقنوا انهم بذلك قد امنوا الى أمد طويل جانب هذه المملكة التى أصبحت — فى نظرهم — جزءا من امبراطوريتهم، ثم عاد الكونت دالكوديت الى وهران، بعد أن وصم شرفه العسكرى بوصمة عاروشنار،

بارتكابه، هذه الدنايا الخسيسة الفاجرة في مدينة طالما رفعت منار العلم والمعرفة والحضارة الحقة، أعلى عليين، وفي قوم ما كان ذنبهم الا الدفاع عن دينهم، وعن شرفهم، وعن مملكتهم التي اقامتها سواعدهم وسواعد آبائهم واجدادهم من قبلهـــم •

لكن الشعب لاينسى، والشعب يعرف كيف ينتقم ولو بعد حين •

الشــرف يرفـــع رأســـه مـــن جديـــد •

فشعب كشعب تلمسان، وملك كابي زيان احمد ،وزعيم دولة ناشئة جامعة منتصرة ، كمحمد حسن باشا ، لا يمكن ، أبدا أن يصبروا على اذى ولاان يناموا على قذى، فصمموا، والشعب اذا صمم فعل، على اخـــذ الغادر وانصاره، اخذ عزيز مقتدر • وماهو الا امد وجيز حتى جمـــع ابوزيان احمد الثاني حوله رجال الشعب الاباة الاشاوش، وامده محمد حسن باشا، ممثل خير الدين، برجال وعتاد، فاعاد الكرة على خصمـــه (أخيه) وصادمه حوالي تلمسان فخرج محمد السابع بنفسه على رأس مرتزقة من أسبان واعراب، لملاقات اخيه، فدارت الدائـــرة عليـــه في معركة « الزيتـــون » ورجع الى تلمســـان ، يريد الاستمـــرار على المقاومـــة ،

لكن الضمير الشعبي، قد ثار في مدينة تلمسان ثورة جامحة، طاغية ، وتقدم احرار الشعب وفتيته الابرار، نحو أبواب المدينة فاوصدوها في وجه الملك الخسيس، ووقفوا على الاسوار يصدونه ويصدون جموعـــه عن دخولها، ونادوا بارجاع الملك الى ملكهم الذين ارتضوه، ابـــي زيان احمد الثاني، فتربع من جديد على عرش كانت الايام قد حكمت عليه بالزوال والاضمحلال بعد قليـــــل •

أما الملك المخلوع الخسيس،الذى كان مع خسته وانتهازيته ، للاجنبى، لايخلو من شجاعة ولامن عزيمة، فانه اراد الاستمرار على المعركة، واراد جمع جموع أخرى من أسبان وهران، ومن اعراب الداخل، واراد الدخول من جديد الى تلمسان للانتقام من أهلها، فذهب الى بلاد انكاد، حيث تسكن قبيلة ذات حول وقوة وهى تقع فى الجنوب الغربى من مدينة وجدة، على نحو الثلاثين كيلومترا، يستصرخها ، ويحاول الانتصار بها ، لكن المؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين ، فكيف بتلك القبائل المحيطة بتلمسان ،وقد لدغت من جحر واحد المرار العديدة، فأحاط رجال الشعب بذلك الملك وجماعته، واعدموهم عن آخرهم، وطووا صفحة عار ومذلة، لطخت حكم بنى زيان، وقضت على نجمهم، بعد حين، الى الافول • وامنت تلمسان يومئذ متضامنة مع الدولة الجزائرية، شر غائلة الاسبان، تحت امرة ملكها الشعبى• ابى زيان احمد الثانى •

جهاد خير الدين فى البحر ضد اسبانيا

لم يبق خير الدين طويلا بمدينة الجزائر، عند ماجاء للاسهام فى الدفاع عنها على رأس أسطوله، فوجد أن قوة الله القاهرة، وسواعد الجزائريين القوية، قد قضت على اسطول الاسبان وعلى جيشهم • فاكتفى بتفقد امور المملكة، والاطلاع على سيرها، ثم انطلق باسطوله ، نحو البلاد الاسبانية ، يذيقها العذاب الاليم ، وقد اثبت فوق كرسى النيابة عنه ، على رأس الحكومة ، ابنه الروحى وخلفه الوفى، محمد حسن آغا، الذى أنعم عليه السلطان برتبة الباشوية اثر نصر سنة ٥٤١ العظيم •

وكان البحر المتوسط قد خلا يومئذ تقريبا من أسطول أسبانيا الذى

كان يضمد جراحاته ويحاول استرجاع قوته ، فانطلقت السفن الجزائرية نحو السواحل الاسبانية ، ونحو السواحل الطليانية التى تحتلها اسبانيا، وتوالت هنالك الغزوات ، وساد الرعب والفزع هاتيك البلاد التى بقيت مفتوحة فى وجه الجزائريين، يجوسون خلالها، ويتوغلون داخل أرضها، يغنمون ما فيها ، ويأسرون ويسبون من يختارونه من رجالها ونسائها وصبيانها ، ينتقمون بذلك لما حل بمسلمى تونس ، ووهران ، ، وتلمسان وبجاية ، وغيرها على يد الغزاة الاسبان، وكانت غنائم المسلمين لا تحصى ولا تكاد تعد .

خير الدين ، يحتل طولون ونيس

فى هاتيك الاثناء كانت الحالة قد ساءت من جديد بين أسبانيا وفرنسا . وكان الاسبانيون قد قتلوا فى لومبارديا ، بايطاليا ، رسولين فرنسيين . كانا يخترقان البلاد الطليانية المحتلة ، وهما تحت لواء السلام المنعقد بمدينة نيس ، وكان أولهما يحمل رسالة لدولة البندقية ، والثانى يحمل رسالة للسلطان سليمان . فعادت الحرب بين الدولتين سيرتها الاولى . ومد السلطان سليمان يده من جديد الى فرنسوا الاول ملك فرنسا ، ضد العدو المشترك ، شرلكان . وتولى قيادة الحركة العثمانية القبودان باشا ، خير الدين ، واتخذ من مدينة مرسيليا مقرا عاما للاسطول العثمانى وللجيش العثمانى .

هناك ، فى مرسيليا، باع خير الدين ورجال أسطوله الغنائم التى جاؤا بها من أسبانيا ، وباعوا الرقيق الاسبان ، من رجال ونساء ، فتداولتهم أيدى القوم واشتراهم الفرنسيون بضاعة رابحة ، فكانوا

يبيعونهم بعد ذلك ، مقابل أرباح لتجار من يهود ليفورنو الطليانيـــة وهؤلاء ، كانوا يحققون لانفسهم مكاسب عظيمة ببيع هؤلاء الاسرى والسبايا ، الى الامبراطور شرلكان ، الذى كان يرجعهم بعد ذلـك الى بلادهم •

وجاء الاسطول الفرنسى ، بأمر الملك فرنسوا الاول الى مرسيليا ، تحت قيادة الامير فرنسـوا دى بربون ، فوضع نفسه تحت تصرف خير الدين الذى أصبح من جراء ذلك القائد العام للقوى المتحالفة الفرنسية العثمانية •

ولقد كان أول عمل قام به خير الدين ، باى لرباى الجزائر ، على رأس القوى المجتمعة ، هو مهاجمة مدينة نيس ، وتخليصها من بين أيدى دوق سافوا ، تحت التاج الاسبانى ، وارجاعها لفرنسا •

ثم استقر خير الدين بأسطوله فى مدينة طولون البحرية الشهيرة ، واخذها قاعدة عامة للجيش العثمانى والاسطول الاسلامى ، بعد أن غادرتها الاغلبية الكبرى من سكانها وتركوها ، بأمر ملك فرنسا ، بين أيدى المسلمين •

ثارت ثائرة المسيحية جمعاء ضد هذا التصرف الفرنسى ، وأخـذت الدعاية المسمومة تجوب ارجاء أوروبا ، يحملها الاسبان، وغلاة المسيحية، ويستثمرونها الى أقصى حدود الاستثمار • من ذلك قولهم ان خير الدين قد اقتلع أجراس الكنائس ، فلم تعد تسمـــع فى طولـــون الى أصـــوات المؤذنين • وبقى خير الدين والجند الاسلامى بمدينة طولون الى سنة ١٥٤٤

ولقد كان شرلكان ، خلال هذه الآونة ، هاجم شمال فرنسا الشرقى ،

وانهزم تحت جدران مدينة شاطوتيارى ، ثم اضطر للذهاب الى المانيا ، حيث كانت حركة التمرد البروتستانى ضد الكاثوليكية ، وضده بصفة خاصة ، قائمة على قدم وساق ، واضطر ، وقد هوى نجمه وذبل عوده ، بعد نكبته السالفة الذكر أمام الجزائر ، الى عقد معاهدة مع ملك فرنسا ، يوم ١٨ سبتامبر ١٥٤٤ فى مدينة كرسبى دى فالوا وماكان الا صلحا مؤقتا .

آخر غزوات خير الدين

غادر خير الدين ورجاله وأسطوله مرسى طولون من جراء هذا الصلح فى شهر أفريل ، راجعا الى استامبول . وبما أن السلطان كان لا يزال على حالة حرب مع أسبانيا ، فقد استمر خير الدين مباشرا لاعماله الحربية اثناء رجوعه ، فوقف كما يقول مؤرخو الافرنج أمام مدينة جنوة ، وارتاع مجلس شيوخها مما يمكن أن تسفر عنه هذه الوقفة ، فأرسل له مجموعة من الهدايا الثمينة ، مقابل أن يستمر على طريقه ، ثم أناخ على جزيرة ألبا — التى أصبحت فيما بعد معتقلا مؤقتا لنابليون بونابارت — وكانت من ممتلكات اسبانيا ، فاحتلها ، وغنم ما بها ، كما احتل عددا من المدن الساحلية ، من بينها مدينة ليبارى ، ورجع الى استامبول مثقلا بالغنائم والاسلاب ، وقوبل فيها كما يقتبل الابطال الفاتحون .

موت خير الدين ومحمد حسن باشا

ثم جاء الموت يضع حدا لجهاد البطلين العظيمين الذين أسسا بالفعل

مملكة الجزائر العثمانية ، وكللا هامتها بتاج النصر والفخار : خير الدين وابنه الروحي وممثله محمد حسن آغا (باشا)

فمحمد حسن رحمه الله قد فارق الدنيا ، معززا مكرما مجاهدا في سبيل الله والوطن خلال سنة ١٥٤٤ . ووضع الجند على رأس المملكـــة الجزائرية ، مكانه ـ بصفة مؤقتة ـ القائد الحاج بكير ، ريثما يعين لهم ملكهم خير الدين الباى لرباى ، من يقوم مقامه على رأس المملكة .

أما خير الدين ، فقد وافاه الاجل المحتوم ، في مدينة استامبول ، وقد بلغ عنفوان مجده وفخاره ، وهو في سن الثمانين ، قضى منها زهاء الثلاثين سنة وهو على رأس مملكة الجزائر الجديدة ، وقضى أواخرها ، جامعا بين مملكة الجزائر ، وبين امارة البحر العامة للاسطـــول الاســـــلامى العثماني ، وكانت وفاته في شهر ماى سنة ١٥٤٧ .

يقول المؤرخ الفرنسي الكبير دىقرامون ، الآنف الذكر ، في كتابـــه « تاريخ الجزائر تحت سلطة الاتراك » ما يلي :

« يعتبر خير الدين المؤسس الحقيقي لمملكة الجزائر .

«فأخوه عروج قد ادرك منذ الوهلة الاولى ، انه لا يمكن لاى فاتح أن يستقر على البلاد الساحلية ما لم يكن له السلطان المطلق على البلاد الداخلية . وخير الدين عمل بهذا المبدأ وسعى سعيه الحثيث طوال حياته من أجل وحدة السلطة . لقد بذل في ذلك السبيل أقصى ما لديه من طاقات عظيمة : شجاعته وشطارته ، وخاصة شدة عزمه وتصميمه ، مما جعله يتغلب على العديد من الاعداء في ظروف جد حرجة

« وكان حلم حياته كلها ، هو أن يؤلف من كامل بلاد الشمال الافريقى دولة واحدة مترامية الاطراف . ولو أنه تمكن منتحقيق أمانيه ، لاصبحت

هذه الدولة قوة بحرية من الطراز الاول ، تبوءى الاسلام المكانة الاولى فوق عباب البحر المتوسط .

« ولقد تمكن من اقتناع السلطان سليمان بهذه الخطة ، وكان سليمان يكن له حبا عميقا راسخا ، لكن حسد رجال الديوان ، ومساعي سفرائنا ، قد عاقت سير أعماله مرارا عديدة، ولقد ترك تحقيق هذا الهدف العظيم ميراثا لخلفائه الذين تولوا الامر بعده ، والذين لقوا فى سبيل تحقيق هذا الهدف نفس العوامل التى عاقت خير الدين عن التنفيذ .

« كذلك ترك لخلفائه فكرة الحذر من جيش الانكشارية ، وقد أدرك بثاقب فكره ان هذا الجيش سيكون بماله من الخيلاء والعجب والفوضى سببا فى انحطاط ثم خراب الدولة .

....

« ولم يترك من الولد بعده الا ابنه حسان ، وكانت أمه عربية من مدينة الجزائر . »

وهكذا انتهى عصر « خير الدين » العظيم . رحمه الله . وجازاه ، عن الجزائر وعن الاسلام خيرا .

الفصل الثامن

حسان باشا بن خير الدين

آعترافا بفضل خير الدين وتلبية لرغبته ولرغبة الجزائريين ، أسند الخليفة السلطان سليمان العظيم ، رتبة باي‌لرباي ، الى ابن خير الدين الوحيد ، حسان ، الذى ولد بمدينة الجزائر ، وتربى بين أهلها ، وتثقف على يد علمائها وكانت أمه سليلة احدى بيوتاتها الكبيرة .

ولقد قضى حسان شبابه الاول عاملا فى صفوف الجيش الاسلامى ، مجاهدا برا وبحرا ، الى أن توفى الباشا محمد حسن آغا ، وكان الهرم قد أدرك الباي لرباي الكبير خير الدين ، وأدرك دنو أجله ؛ فبادر السلطان بتعيينه مكان والده ،ومكان محمد حسن آغا .

تلمسان مرة اخرى

تركنا أبا زيان أحمد الثانى ، ملكا على تلمسان معترفا بالوحدة مع الجزائر ورجالها ، بعد مصرع أخيه محمد السابع .

لكن الصفو لم يدم طويلا ، ولعبت السياسة ولعبت الدسائس العابها ، فأخذ الملك يتقرب من الاسبان ، وأخذ يبتعد عن الجزائريين . وأخذت سيرته مع قومه تسير فى طريق الفساد والاضطراب ، فأعلن خلعه عن العرش ، وبويع الحسن أحدا اخوته بالملك . وذهب أبو زيان أحمد

الثاني ، الى وهران يطلب من الاسبانيين العون والمدد ، ويتعهد لهم بأنه سيكون لهم المخلص الأمين .

رأى الكونت د الكوديت وجوب اغتنام هذه الفرصة الذهبية ، فجهز جيشه ، وجمع الى جانبه جموع الخاضعين من بني عامر ، وفليته ، وبنى راشد وعلى رأسهم قائدهم المنصور بن بوغانم ، وتقدموا الى تلمسان لابعاد الملك الحسن واعادة العرش لاحمد الثاني .

وما كاد جيش الاسبان وحلفاؤه يتحرك من وهران ، حتى خرج حسان باشا على رأس القوة الاسلامية من مدينة الجزائر لكي يسد الطريق في وجه الاسبان ، وينصر حليفه الملك الحسن في تلمسان ، وذلك في أوت سنة ١٥٤٧ فالتقى الجمعان ، الاسلامي والاسباني ، قرب بلدة عربال ، التي تقع أسفل البحيرة المالحة ، على بعد ٢٥ كيلومترا جنوب وهران .

وقبل التحام المعركة ، فوجئ حسان بنبأ موت أبيه خيرالدين باشا ،وبلغه ما أحدثه ذلك النبأ من هلع واضطراب في نفوس الخاصة والعامة بالجزائر ، وخشى أن يقع خلفه من جراء ذلك مالا تحمد عقباه ، فقرر العودة حالا الى الجزائر ، ورجع طريقه القهقرى حتى وصل مدينة مستغانم ، تاركا أمر تلمسان لساعة أخرى ، والا هم مقدم على المهم .

أما الكونت د الكديت القائد الماهر ، فلم تخف عليه هذه الحركة ، ولم تخف عنه انباء موت خير الدين ، وما تبع ذلك من جزع واضطراب ، فقرر فورا اقتفاء اثر حسان خير الدين ، على أن يقلب انسحابه الاختياري الى هزيمة ، وعلى أن يحتل من ورائه مدينة مستغانم .

وحل حسان خير الدين بمستغانم ، والاسبان يقتفون خطاه ، وقد

إحتلوا دون قتال مدينة مازغران ، فاتفق أهل مستغانم المجاهدون مع حسان خير الدين على الدفاع عن المدينة دفاع المستميت ، وصد العدو عنها مهما كان الثمن ، وأرسلوا يستنفرون العرب الذين يلبون داعي الجهاد والشرف ، ويستقدمون رجال الحامية العثمانية من تلمسان .

واحتدم القتال ثلاثة أيام متوالية تحت أسوار مستغانم ، ولم يكن الاسبان يتوقعون ذلك أصلا ، وأصيبوا بخيبة أمل مريرة ، لكنهم صمموا على احتلال المدينة مهما كلفهم الامر ، واستبسل الجانبان فى القتال .

وجاء المدد للمسلمين : حامية تلمسان العثمانية ، وقد التف حولها آلاف من المجاهدين العرب وكان ذلك يوم ٢١ أوت ١٥٤٧ . فتكافأت القوى وهاجم الاسبان المدينة بعد ذلك بقوة وبعنف شديدين ، واستطاعوا خمس مرات رفع راياتهم فوق بعض أسوار المدينة ، انما كانت الكرة الاسلامية خاطفة ساحقة كل مرة ، تبعد العدو حالا ، وتسد الثلمة .

استمرت الملحمة على هذه الصفة أسبوعا كاملا ، وعلم الكونت د الكوديت انه قد اخطأ التقدير ، وانه قد خسر المعركة ، فقرر رفع الحصار ، والرجوع بجنده الى وهران ، وابتدأت عملية الانسحاب فعلا يوم ٢٨ أوت بعد غروب الشمس .

لكن حمية المسلمين من مجاهدى مستغانم ، ومن العثمانيين والعرب الذين تركوا الدنيا وما فيها وراء ظهورهم من أجل الدفاع عن حرمة الوطن وعن بيضة الاسلام ، ما كانت لتترك الاعداء ينسحبون بحرية ، دون أن يثخنوا فيهم ، وأن يحاولوا قلب انسحابهم الى هزيمة وفرار .

ودون اضاعة وقت سدى ، خرج حسان خير الدين على رأس ١٥٠٠٠ من الرجال و ٣٠٠٠ من الفرسان المجاهدين يقتفون اثر الاسبان خطوة

بخطوة ، ويضيقون عليهم الخناق ، يقول المؤرخ الفرنسى دى قرامون السالف الذكر :

« تملك الرعب والفزع — من جراء ذلك التتبع العنيف — قلوب الجيش الاسبانى فأصبح رجاله لا يفكرون فى المعركة ، انما يفكرون فى الفرار من أجل النجاة . وما استطاع القادة الاسبان جمع الفارين من جيشهم ، والقيام بحركة مضادة للهجوم الاسلامى ، الا بشق الانفس ، وما تمكن الاسبان من الوصول الى مدينة وهران ، والاختفاء وراء أسوارها، الا بجهد جهيد » اه

« وفى هذه الاثناء ، وقد بقيت تلمسان دون دفاع ، تمكن أبو زيان أحمد وجموعه من دخول المدينة ، واسترجاع ذلك العرش الواهى ، معترفا بالتبعية الاسبانية ، التى طالما كافح ضدها ، والتى كان كفاحه ضدها سببا لوصوله الى العرش أول مرة وخلعه شقيقه المحتمى باسبانيا. لكن هذا البرق الخلب ، الذى كان نتيجة ظروف خاصة ، ومفاجئة ، لم يدم طويلا .

استقرار الدولة الجزائرية

لم يكد حسان خير الدين يستقر من جديد بمدينة الجزائر ، ولم تكد أنباء هذا الاستقرار تصل اطراف المملكة مصحوبة بأنباء النصر العظيم الذى سجله المسلمون بمستغانم ، حتى هدأت الأفكار، وزال الاضطراب، وعادت الى الانفس ثقتها واطمئنانها وأيقن الناس أجمعون أن حسان بن خير الدين خير خلف لخير سلف، واستعدوا تحت هذه القيادة الحكيمة لاستئناف أعمال التوحيد واستئناف عمليات الجهاد .

ف.

تدخل دولة الاشراف السعديين المغربية
ونهايـــة دولـــة بني زيـــان ٠

يقول الشيخ أبو العباس أحمد الناصري ، فى كتابه الشهير:الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى

« أعلم أن هؤلاء السعديين كانوا يقولون : ان أصل سلفهم من ينبع النخل من أرض الحجاز ، وانهم أشراف ، من ولد محمد النفس الزكية ، رضى الله عنه ، واليه يرفعون نسبهم ٠

الى أن يقول : « وممن طعن فى نسبـــهم المـــولى محمد بن الشريف السجلمـــاسى أول ملـــوك العلويـــين ، صـــرح بذلك فى بعض الرســـائـــل التى كانت بينه وبين الشيخ بن زيدان منهم، قـــال فيـــها : « وقـــد اعتمدنا فى ذلك (يعنى فى عدم شرفهم) على ما نقله الثقات المؤرخون لأخبار الناس من علماء مراكش وتلمسان وفاس ، ولقد أمعن الكل التأمل بالذكر والفكر ، فما وجدوكم الا من بنى سعد بن بكر »

أى من بنى سعد الذين منهم حليمة السعدية مرضعة رسول اللـــــه صلى الله عليه وسلم ٠

وسواء أكانوا من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من بنى سعد فان هؤلاء الاشراف السعديـــين قد انقذوا المغـــرب الاقصى من خطرين عظيمين ، كلاهما شر وكلاهما بلاء مستطـــير : خطـــر الانهيار الداخلى الذى أصاب بنى وطاس المرينيين ، حتى انحلت الدولة وأصابها الخراب والدمار ، وتمزقت أوصالها ، بما ليس هذا مقام ذكره ، وخطر العدوان البرتغالى ، الذى تفاقم أمره ، حتى ملك كما رأينا فى التمهيد

كل المدن الساحلية ، ومقاطعة الدوكالة برمتها ، وأصبح مهددا لحياة ولكيان المغرب الاقصى كدولة مستقلة ، ذات عزة وشرف وسلطان عظيم.

أبلى السعديون الذين قدمتهم الامة لتولى قيادتها فى الجهاد ، البلاء الحسن فى انقاذ السواحل المغربية من أيدى البرتغال ، واستخلاص مقاطعة الدوكالة برمتها من بين براثنهم (١٥٤٠) وما كانت هذه الاعمال تتم ، دون أن تنقلب قيادتهم للجهاد ، توطئة لتأسيس ملك جديد ، على انقاض ملك منحل ، ففعلوا الافاعيل ببنى وطاس المرينيين ، فى وقائع طويلة كثيرة ، واستقروا بمدينة مراكش .

ثم ان الشريف محمد المهدى ، مؤسس دولة السعديين ، جهز جيشا قويا من أشاوش المغرب ، وضعه تحت قيادة ابنه الشريف محمد الحران، وبعث به لكى يتولى فتح تلمسان ، وبلاد المغرب الاوسط (سنة ١٥٥٠). يقول الشيخ الناصرى ، المذكور آنفا :

« فلما فتح أبو عبد الله الشيخ ، حضرة فاس فى التاريخ المتقدم ؛ تاقت نفسه الى الاستيلاء على المغرب الاوسط ، وكان يعز عليه استيلاء الترك عليه ، مع أنهم أجانب من هذا الاقليم ودخلاء فيه ، فيقبح بأهله وملوكه أن يتركوهم يغلبون على بلادهم ، لا سيما وقد فر اليهم عدو من أعدائه ، وعيص من أعياص أقتاله ، وهو أبو حسون الوطاسى (١) فرأى الشيخ من الرأى، واظهار القوة فى الحرب أن يبدأ هم قبل أن يبدأوه ، فنهض من فاس قاصدا تلمسان فى جموعه الى أن نزل عليها

(١) لم يكن ابو حسون عند الجزائريين ، بل كان يبذل المساعى لدى اسبانيا والبرتغال كما سنأتيك انباؤه مفصلة بعد حين .

وحاصرها تسعة أشهر ، وقتل في حصارها ولده الحران ، وكان نابا من أنيابه وسيفا من سيوفه ، ثم استولى الشيخ على تلمسان ودخلها يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الاولى ، سنة سبع وخمسين وتسعمائة (١٥٥٠) ونفى الترك عنها وانتشر حكمه فى أعمالها الى وادى شلف • ثم كر عليه الاتراك وأخرجوه من تلمسان، فعاد الى مقره بفاس – ثم عاود غزو تلمسان حين بلغه قيام رعاياها على الترك ، وانحصار الترك بقصبتها ، فأقام مرابطا عليها أياما فامتنعت عليه ، وأقلع عنها ، ولم يعد لغزوها بعد ذلك • » اهـ

كيفية الوقائع والانتصار الجزائرى العظيم

لقد تعمدت نقل الفقرات السالفة عن المؤرخ المغربى الكبير ، لانها تبين لنا – على اختصارها – حقيقتين : أولاهما أن الملك السعدى العظيم ، هو الذى تولى كبر هذا القتال ، وملك زمام المبادأة ، من أجل غايتين ، هما ابعاد العثمانيين عن أرض الجزائر من جهة ، وضمها الى المملكة المغربية الجديدة من جهة أخرى ثم مبادأة الجزائريين الحرب قبل أن يبدأوه ،

وثانيا – أن تلمسان ، المدينة الابية الفحلة ، لم تكن راضية أولا ولم تكن راضية أخيرا ، وليست الحامية العثمانية القليلة العدد هى التى تثبت وحدها بل الشعب أحراره وشبابه ومقاتلوه ، ثم الذين ثبتوا هذا الثبات العجيب ، طيلة تسعة أشهر ، كما ثبت أجدادهم من قبل ، سنوات عدة ، أمام الحصار المرينى الشهير الذى أبقى أثره الفنى الكبير « منارة المنصورة »

وتلمسان التي لم يستطع أبو عبد اللـه الشيخ فتحها أخيرا وتولى عنها ، بعد ما بلغه نبأ انحصار الاتراك فيها داخل القلعة ، لم تدافع عنها الحامية المحصورة بالقلعة فحسب ، بل دافع عنها الشعب ، كل الشعب الى جانب تلك الحامية . وكانت نتيجة هذا الدفاع ، الذى أنجده الجزائريون العثمانيون بقاء المدينة الخالدة تلمسان ضمن هذه الوحدة الجزائرية الشاملة ، درة فى تاج الدولة الجديدة .

ولنذكر الآن بعد هذا البيان ، كيفية وقوع الحوادث :

فى سنة ١٥٥٠ جهز حسان خير الدين جيشا عرمرما ، قوامه خمسة آلاف رجل من الجزائريين رماة البنادق ، وألف فارس منهم ، وثمانية آلاف رجل من مجاهدى جبال زواوة تحت امرة سلطان قلعة بنى عباس السيد عبد العزيز . وخرج الجيش من مدينة الجزائر ، جاعلا وجهته مدينة وهران ، لاستخلاصها من يد العدو ، استثمارا للهزيمة التى حلت بالاسبان تحت جدران مستغانم .

وان الجيش لفى طريقه نحو مستغانم ، حين بلغته أنباء أقضت مضاجع القيادة وجعلتها تغير وجهتها وتغير هدفها، وتصوب حرابها ونيران بنادقها، لصدور المسلمين بدل صدور الصليبيين :

بلغها أن الملك السعدى قد احتل تلمسان ، وتقدم منها الى مستغانم فاحتلها أيضا ، وانه متقدم نحو مدينة الجزائر وقد وصل الى مجرى نهر شلف .

هنالك شكل الجزائريون فرقة مقاومة صلبة ، وضعوا على رأسها القائد حسان قورصو . فسارت توا الى مجرى نهر الشلف، والتقى الجمعان ، والتحمت نيران المعركة ، وانهزمت جموع الشريف السعدى راجعة الى

الخلف ، واستثمر حسان قورصو هذا الانهزام، فأرسل بفرقة استرجعت منهم مدينة مستغانم ٠

هذا هو الدور الاول من هذه المعركة المؤلمة ٠

أما الدور الثانى ، فقد تم على الصفة التالية :

أرسل الشريف مددا لجيشه ، يبلغ عدده عشرين ألف رجـــل ، تحت قيادة ابنه الشريف عبد القادر ، وربما لم يكن مقصده يومئذ اعادة احتلال الغرب الجزائرى ، بل كان مقصده صد الجزائريين عن دخول بـــلاد المغرب ٠

فعند حدود المغرب ، وحوالى قبة سيدى موسى ، التى كانت دمـــاء الشهيد البطل عروج لا تزال طرية فوق أرضها ، التقى الجمعان مـــرة أخرى، وكان المجاهدون من زواوة هم الذين تصدوا للصدمة الاولى ، وتبعهم بقية الجيش فكانت المعركة حارة عنيفة ، أسفرت عن مقتـــل الشريف عبد القادر قائد الجيش المغربى ، ورجوع هذا الجيش الى ما وراء الملوية ٠ وعندئذ عاد الجزائريون الى تلمسان ، فلم يكن بها يومئذ لا ملك ولا شبه ملك ، بعد كل الذى حدث ، فنصبوا على العرش الامير الحسن بن عبد الله الثانى ، ولم يكن بيده شىء من الامر ، اذ أن الحكم الفعلى كان للقائد العثمانى سفطة ، الذى بقى بين أيديـــه مـــن جيـــش العثمانى بالمشور ١٥٠٠ رجل ٠ وبقى الملك رهين قصره ، قاصر النظر ، فاسد السيرة ، ظالما متعسفا ، ضمن منطقة نفوذه الضيقة ، فضاق الشعب ذرعا بهذا الخيال المزيف ، واجتمع مجلس العلماء وأعلن خلعه ، سنـــة ١٥٥٤ (٩٦٢ هـ) وأعلن صالح رايس يومئذ نهاية دولـــة بنى زيـــان ، وانضمام تلمسان نهائيا الى الدولة الجزائرية والى الابد ٠

أما الملك السابق أحمد الثالث الذى أبعده الاشراف السعديون عند احتلالهم تلمسان ، والذى طابت سيرته أولا ، وساءت سيرته أخيرا ، والذى حكم باسم اسبانيا مدينة تلمسان ، فقد مات فى وهران بعد ذلك ، بائسا حزينا ، فاقد الامل •

محاولة تحديد الحدود والافراج عن بنى واطاس

كان السلطان السعدى ، عندما احتل مدينة فاس ، سنة ٩٥٦ هـ ، ألقى القبض على جميع الوطاسيين المرينيين بها، وأرسل بهم مصفدين بالاغلال الى مدينة مراكش • وكان لهم أنصار ومحبون ، هالهم الامر وساءهم ، كما كان آخر ملوكهم أبو حسون قد نجا بنفسه ، داعيا لشخصه ولبنى وطاس المرينيين •

فلما وقعت الواقعة ، واصطدم الجانبان المغربى والجزائرى تلك الصدمة المؤلمة القاسية ، ورجع المغاربة الى ما وراء وادى الملوية ، أقدم السلطان العثمانى على خطوة طيبة من أجل توطيد السلام ، وجمع الشمل ، فأرسل وفدا ، من كبار العلماء ، يرأسهم الفقيه العلامة الشيخ أبى عبد الله محمد بن على الخروبى ، الطرابلسى الاصل الجزائرى المستقر ، فأم ساحة السلطان السعدى بمدينة مراكش ، وفاوضه باسم السلطان سليمان حول هذه النقط

أولا = اعتراف السلطان العثمانى = بالاستقلال التام المطلق لدولة المغرب مقابل اعتراف هذه الدولة بالخلافة العثمانية ، جمعا لوحدة المسلمين ، وذلك بالدعاء للخليفة العثمانى على المنابر

ثانيا = اطلاق سراح المقيدين المنكوبين من بنى وطاس المرينيين ،

والتخفيف عن ضيقهم، اذ لايجوز شرعا أن يغل جماعة من المسلمين •

ثالثا = تحديد الحدود، بين مملكتي الجزائر والمغرب الاقصى •

وطال النقاش حول هذه النقط ،وطالت المداولة ، ولم يقبل سلطان مراكش السعدى ، الاعتراف بخلافة آل عثمان، كما لم يقبل تدخلهم فى أمر بنى وطاس ، انما أسفرت سفارة العلماء عن أمر ايجابى ، وهو رسم حدود فاصلة بين دولتى المغرب والجزائر من ساحل البحر الى بداية الصحراء، مما لايزال قائما الى يوم الناس هذا• وكان ذلك سنة ٩٦١ هـ (١٥٥٣ م) •

سياسة حسان بن خير الدين

كانت سياسة حسان باشا ، والولد نسخة من أبيه ، ترمى الى تحقيق ثلاثة أمور :

١ = جمع وحدة البلاد : وارساء أركان الدولة على أسس متينة وتحصين الثغور استعدادا لرد كل غائلة عدوان •

٢ = استرجاع المدن الجزائرية التى يحتلها الاسبان ، وخاصة بجاية ووهران •

٣ = بعد تطهير وهران ، السير على رأس جماعات المجاهدين المسلمين جزائريين ومغاربة ، مددا لبقايا مسلمي الاندلس ، وقهر اسبانيا فى بلادها ، واقامة دولة اسلامية جديدة ، حيث كانت تقوم دولة غرناطة •

أسرع فى العمل ، وأحسن السياسة ، من أجل تحقيق الغاية الاولى ، واطمأن اليه الناس ، وقسم المملكة الى مقاطعة غربية ، ومقاطعة جنوبية ومنطقة عامة ، وأطلق على كل مقاطعة اسم « بايليك » ووضع على رأسها

عاملا يدعى « الباى ». أما المنطقة العامة فهى « دار السلطان » تشمل الجزائر وما حواليها ، وتحكمها الادارة المركزية مباشرة . وباى الشرق مركزه قسنطينة ، وباى الغرب مركزه وهران (بعد فتحها) وقد استقر مؤقتا بمازونة ، وبمعسكر . اما باى الجنوب ، فمركزه مدينة المدية .

ويحكم الشعب شيوخ منه ، تحت امرة ونظر البايات ويدعى هؤلاء الشيوخ « شيوخ الوطن » وهم :

شيخ وطن بنى خليل
= = بنى موسى
= = يسر
= = سباو
= = بنى جعد
= = بنى خليفة
= = حمزة
= = السبت
= = عريب
= = بنى مناصر
= = الفحص (متيجة)

وقد نقلنا هذا عن مذكرات الشيخ حسين بن رجب شاوش ابن المفتى الذى ترجمه للفرنسية G. Delphin ونشره بالمجلد التاسع من المجلة الاسوية .

واذ رأى حسان باشا، أن الغزو الاسبانى كان يهدف كل مرة لاحتلال كدية الصابون ، المشرفة على مدينة الجزائر من خلفها ، وان

العدو يستطيع تقويض مدينة الجزائر بما ينصبه فوقها من مدفعية ، أمر ببناء معقل منيع وحصن شامخ فوق تلك الربوة التى ترتفع زهاء مائتى متر عن البحر ، ولا تزال تلك القلعة موجودة الى يومنا (بعد أن نسفها الجزائريون عند الغزو الفرنسى فى جويلية ١٨٣٠ ، وأعاد الفرنسيون بناءها) وتدعى القلعة رسميا : « سلطان قلعة سى » أى قلعة السلطان، أما الشعب ، فانه كان ولا يزال الى يومنا هذا ينسبها لبانيها العظـيم، ويدعوها برج مولاى حسان

ثم أخذ يستعد للعمل الكبير ألا وهو احتلال وهران ، والاجتياز منها الى تلمسان

دسائس سفير فرنسا ، ورجوع حسان لاستانبول

كان حسان باشا معاديا لفرنسا ، وكان يعلن عن عدائه هذا ، غير مكترث بالعلاقات الرسمية الطيبة التى كانت تربط بين حكومة استانبول وحكومة باريس ، وغير معترف بالمعاهدة المشؤومة التى مكنت فرنسا من حريات اقتصادية واسعة ببلاد السلطنة العثمانية .

وبينما كان حسان يعد العدة لانجاز مشروعه ، ويهىء الاسطول ، جاء الجزائر سفير الدولة الفرنسية ، الممثل لبلاده لدى بلاط السلطان سليمان مستطلعا جلية الخبر ، وكأنه يريد أن يعرف الى أى مدى يريد حسان أن يصل بعدائه المعلن نحو فرنسا .

والتقى الرجلان ، وتحادثا ، وعرض سفير فرنسا على حسان باشا — مكرا ودهاء — اعانة فرنسا له ، بأسطولها وبرجالها ، من أجل غزو اسبانيا ، ونجدة مسلمى الاندلس بها . لكن حسان باشا رفض هذا

العرض ، باباء وشمم قائلا انها قضية جهاد اسلامى لا يدخل فيها غير المسلمين • ورجع السفير الفرنسى الى استانبول ، وكان واسع النفوذ مسموع الكلمة، فكلم رجال الديوان السلطانى فى الامر، وهول الواقعة ، وقال ان هذه السلطة الواسعة المطلقة التى أعطتها الدولة العثمانية للباى لرباى، وما يحاوله حسان باشا من توسيع ملكه وسلطتــه يوشــك أن يحطم وحدة الدولة العثمانية ، ويهدد كيانها بالانقسام •

وهنا قرر الديوان السلطانى دعوة حسان باشا لاستانبــول ، حيث يجابه بالامر ، ويعلم منه القوم شفويا حقيقة سياسته ، ومدى اطماعه ، وهكذا غادر حسان مدينة الجزائر ، مؤقتا ، وخلفه على كرسى الدولــة صالح رايس ، شهر أفريل سنة ١٥٥٢ •

الفصل التاسع

صالح رايس بطل الوحدة والجهاد

سياسة صالح رايس واهدافه

لم يكن صالح رايس، مجهولا عند الشعب الجزائرى، ولاعند رجال الادارة والحكم، فهو أحد هؤلاء الافذاذ الذين صحبــوا عــروج وخير الدين، وجاهدوا فى كل الميادين، وامتاز بقيادته الحكيمــة فى البحــر ، وبمواقفه البطولية فى البر، وبدقة نظره وصواب رأيه فيما يتعلق بنظام الادارة وترتيب شؤون الملك •

لهذا، فقد قوبلت توليته منصب الباى لرباى، بابتهاج عام، وتفاءل الشعب بهذه التسمية خيرا، ولقد صدقت الحوادث هــذا التفاؤل فكانت السنوات الاربعة التى قضاها على رأس الدولــة الجزائريــة، سنوات جهاد، وفتح، ووحــدة ونظام • (١٥٥٢ ـ ١٥٥٦)

كانت التخوم الجزائرية قد وصلت الى حيث هى الآن بصفة تقريبية، فيما يلى الشرق، وكانت تلك التخوم قد تركزت، حوالى نهر الملوية من جهة الغرب حيث هى الان تقريبا، فكانت سياسة صالح رايــس تهدف داخليا الى تحقيق أمرين

أولهما ـ تحقيق الوحدة بصفة تامة مطلقة بين كل أجزاء هذه الدولة الجزائريــة

وثانيهما ـ ادخال بقية أجزاء الصحراء الجزائرية فيما يلى الزيبان ضمن هذه الوحدة •

أما سياسته الحربية الخارجية فقد كانت ترمى الى ثلاثة أهداف

أولهما ابعاد الاسبان نهائيا عن أرض الجزائر ،

ثانيهما وضع حد فاصل للمشاغبات والمفاجآت التى تأتى من قبل الدولة المغربية السعدية، والتى لم تنفك، بعد الحوادث التى أسلفنا ذكرها متواصلة •

ثالثهما اعلان نفير الجهاد العام، والسير برا وبحرا على رأس الجيوش الاسلامية الى بلاد الاندلس •

فالى أى مدى ياترى وصلت هذه السياسة، وما الذى حققته الايام منها ؟

التوحيد الداخلى

ابتدأ صالح رايس قبل كل شىء بتحقيق التوحيد الداخلى، وكانت فى الجنوب الجزائرى امارتان مستقلتان امارة توقرت التى كان يتولى أمرها ملوك بنى جلاب يتوارثونها أبا عن جد وامارة بنى وارجلان ، (ورقلة) يتولى أمرها الشيوخ الاباضيون ورثة دولة بنى رستم، ويمتد سلطانها الى قرى وادى ميزاب غربا والى المنيعة جنوبا •

كانت الامارتان قد دخلتا أيام خير الدين باشا، ضمن الوحدة الجزائرية، وتعهدتا بدفع مقدار معين لخزينة الدولة الجامعة بمدينة الجزائر• لكن ابتعاد خير الدين عن ادارة المملكة فعليا اواخر أيام حياته، واشتغال دولة الجزائر بحوادث تلمسان، وحوادث المغرب، ثم

موت خير الدين، قد جعل الامارتين تتلعان عن دفع ذلك المقدار، وتعلنان استقلالهما ــ كالسابق ــ عن ادارة الجزائر •

فبعد مراسلات وسفارات لم تغن شيئا، قرر صالــح رايس ورجال ديوانه التحرك لهذه الناحية، وادخالها طوعا، أو كرها، ضمن الوحــدة الجزائرية، وبصفة نهائية، حتى يتفرغ للحروب مع العدو •

تحرك الجيش الجزائرى من مدينة الجزائر تحت قيادة صالح رايس نفسه، وذلك فى شهر أكتوبر من سنة ١٥٥٢، قاصدا ناحيــة الجنوب ، وانضم له فى مجانة، عبد العزيز، سلطان قلعة بنى عباس، ومعه نحــو الثمانية آلاف من رجال الجبال القبائلية، وسار الجميع نحو توقرت •

ولست أدرى على أى قوة كان يعتمد ملك توقرت ،وتحت أى تاثــير قرر المقاومة المسلحة، وعدم قبول الرجوع الى حضيرة الوحدة، فكانت النتيجة ان الجيش الجزائرى هاجم واحات توقرت، وصدم الملك وجماعته بها صدمة عنيفة، أدت الى انتهاء المقاومة، بعد خسائر ودماء كان احرى بها أن تبذل فى سبيل الله وضد العدو الذى كان لايزال جاثما على المدن الساحلية من أرض الوطن يترقب الفرص للتقدم والانتشار •

وبعد احتلال توقرت، ونهاية أمر بنى جلاب بها، وضمها نهائيا الى السلطة المركزية، تحرك الجيش نحو بنى وارجلان، فكان الشيوخ هناك أرسخ عقلا وامعن ادراكا، من أن يقعوا فى الورطة التى وقع فيها اهل توقرت، فبادروا بالاذعان، ولبوا نهائيا داعى الوحدة الوطنية الاسلامية واصبحوا منذ تلك الساعة جزءا لايتجزأ، والى الابد، من هذه الدولــة الجزائرية، كما تعهدت الدولة لهم، باحترام المذهــب الاباضى، وحرية تطبيقه، والتحاكم على مقتضاه، بالنسبة لكل الذين يعتنقونــه •

بين صالح ، وعبـــد العزيز

وما لبث الخـــلاف ان نشب بـين صالـح رايس ، كـراس للـــدولــــة الجزائرية ،وبين عبد العزيز، كسلطان لقلعة بنى عباس ومجانة، فالاول كان يرى التوحيد المطلق للبلاد• والثاني كان يرى أنه ملك مستقل، وانه يمد يده لحكومة الجزائر كحليف، يعينها عندما يرى ذلك، انما لايخضع لهــــا •

فكان الصدام بين الفكرتين وبين الوضعيتين، ضربة لازب •

وحصل الصدام ،وكانت وقائع مؤلمة عنيفة، قتل اثناءها الفاضل اخو عبد العزيز، واندحر اثناءها جيش الجزائر فى شهــر دسامبـــر ١٥٥٢ (٩٥٩هـ) فى بوغنى، واندحر مرة أخرى بعد ذلك رغم انضمام بـــــلاد كوكو (اعداء قلعة بنى عباس التقليدين) الى الجزائريين •

أبو حسون يظهر مـــن جـــديـــد

ترك صالح رايس عبد العزيز لفرصة أخرى، وسكت على مضض عن هزيمة جيش الجزائر أمامه• وعاد من جديد الى غزو الاسبان فى البحر تمهيدا للامر العظيم الذى كان هدفه الاسمى• فالقى باسطوله الضخم على جزائر الباليار، مقتديا بما كان يفعله فيها خير الدين وابنه حسان •

وكان الجهاد الاسلامي يشمل يومئذ، من الناحية الجزائرية، بـــلاد أسبانيا وبلاد البرتغال •ولقد علم بخروج سفن برتغالية، تحمل رجالا وعتـــادا ، وانها تجتـــاز مضيق جبل طارق ، فخف لها بأسطــوله ، وداهمها واستولى عليها، وكانت هناك مفاجأة تنتظره، وانتظرها المغرب العربى معـــه •

وجد ذلك الاسطول الذى يشمل ستا من سفن النقل، يحمل سلطان فاس السابق، ابا الحسن على بن محمد الوطاسى، المعروف بابى حسون، والذى نجا من قبضة الشريف السعدى عندما بطش بالوطاسيين فى فاس، وكان الاسطول متوجها الى فرضة باديس، على ساحل الريف المغربى ؛ والتى يدعوها الاسبان فاليس •

وقص على صالح رايس قصته : قال انه ذهب أول الامر الى شرلكان، يطلب منه أن يعينه على استرجاع عرشه• لكن شرلكان لم يستجب لدعوته ،ولم تكن حالته تسمح له بالتورط ــ تلك الساعة على الاقل ــ فى حرب مع المغاربة، وان الامر يهم البرتغاليين أكثر منه •

يومئذ سار ابوحسون الذى لم يكن يهمه شخص وهوية من يعينه على الرجوع الى العرش، انما يهمه الرجوع الى عرش فاس على أى حال ــ الى ملك البرتغال سنة ١٥٥٣ وكان هذا الملك موتورا من الاشراف السعديين الذين اخذوا يسترجعون من البرتغاليين ما يحتلونه من أرض المغرب الاقصى ومن سواحله، فقرر اعانته، وامده بالسفن والمال والرجال ، وكانت تلك هى العمارة التى اسرها صالح رايس • وهنا اخطا التوفيق ــ فى نظرى ــ صالح رايس الذى كان عليه أن يكتفى باخذ العمارة، واسر رجالها وابقاء ابى حسون عنده، وان ينتخذ بذلك يدا عند السعديين، ويستميلهم اليه، أو يضغط عليهم بواسطته• لكنه اتفق بسرعة مع أبى حسون، وتعهد له هذا بأنه يعترف بمجرد جلوسه على عرش فاس ، بالتبعية للسلطان سليمان ، والخطبة باسمه على المنابر ، والاستعداد لتجهيز الجيوش لمباشرة غزو اسبانيا مع صالح رايس •

وهكذا جهز صالح رايس فى شهر سبتامبر من تلك السنة عمارة

بحرية تشمل ٢٢ سفينة، تحمل الرجال والاثقال، وسيرها بحرا نحو مليلة، بينما خرج هو بنفسه على رأس جيش جزائرى يزيد عن ثمانية الاف رجل، فمر بتلمسان، وعزز جنده بالحامية التى كانت فيها، ودخل حدود المغرب الاقصى، بينما كان ابوحسون يجمع حوله انصار بنى مرين، واعداء الاشراف، ثم اجتمع الجيشان، ودخل صالح رايس مدينة فاس يوم ٨ جانفى ١٥٥٤ (٣ صفر ٩٦١هـ) ونصب بها السلطان أبا حسون، تحت حماية ورعاية الدولة العثمانية، وذلك بعد مصادمات عدة ومعارك دارت بين انصار الدولتين، المرينية والسعدية، سالت فيها الدماء غزيرة.

مكث صالح رايس بمدينة فاس أربعة اشهر، ضمن خلالها استقرار الامر لابى حسون، واخلاص الدولة المرينية الجديدة للخلافة العثمانية. انما هو لم يترك خلال تلك الفترة جهاده ضد الاسبان، فأرسل فريقا من جنده الى بلاد الريف فاسترجع من الاسبان معقلهم الكبير باديس ، أو صخرة فاليس كما يدعونها ثم قفل راجعا الى الجزائر، تاركا لابى حسون حامية تركية تؤيده ، وتضمن اخلاصه لتعهداته .

لكن الامر لم يدم طويلا. فما كاد صالح رايس يرجع الى الجزائر، حتى جمع الشريف السعدى جيشا كثيفا، وهاجم فاس، والتحم فى معركة قاسية مع أبى حسون، الذى قتل اثناء المعركة، ودخل الشريف فاس من جديد، لكنه وجد هواها مع بنى مرين، ولم يستطع الاعتماد عليها كعاصمة لملكه، فانتقل الى مراكش، وجعل بها مقر دولته الجديدة .

آخر بنى زيــان

اغتنم صالح رايس فرصة وجوده بتلمسان، واستماعه الى شذوذ أهل المدينة وعلمائها من « الملك » الحسن، غامر بجمع مجلس من العلماء، قد أول فى الامر وقرر خلع الملك الخليع، واعلن يومئذ، ــ كما رأينــــا سالفا ــ ضم تلمسان الى مملكة الجزائر، نهائياء سنة ١٥٥٤ .

فتح بجـــايـــة وانقاذ بقاياهـــا

لم يكن صالح رايس يهتم قبل كل شيء الابمحاربة الاسبان، ولايهدف من وراء أى عمل، الاجمع القوة وتكتيل الشعب من أجل دحر الاسبان .

وقد كان يرى قبل كل شيء، وجوب احتلال وهران ،والنزول بالبلاد الاسبانية. لكن انى يتسنى له ذلك، وسلطان السعديين بالمغرب يترقب به الفرص، وسلطان قلعة بنى عباس ببلاد مجانة يعلن انفصاله واستقلاله؟

ترامت اليه يومئـذ الانبـاء عن وهن القوى الاسبانيـة بمدينة بجـايـة وعن الضيق العظيم الذى تعانيه حاميتها، فرأى أن يغتنم الفرصـة، وأن يبدأ بتطهير الشرق من الاسبان، قبل أن يطهر الغرب، ثم من يدرى ؟ لعل انقاذ بجاية سيكون له من الاثر مايجعل ملك مجانة يعود الى حضيرة الوحدة تحت ضغط الشعب وتنفيذا لمشيئته .

ففى شهر جوان، من سنة ١٥٥٥، سار الى مدينة بجاية، على رأس جيش عرمرم يقدر بنحو الثلاثين الف رجل، عززهم أثناء طريقهم رجال زواوة المجاهدون من أهل امارة كوكو، ووصلت الجيوش الجزائريـــة فاناخت على المدينة بينما جاء الاسطول الجزائرى، يحمل الاثقال والمدافع

نارسي الى جانبها، ونصب المسلمون الحصار على القلعة، وصوبوا نحوها قـذائف مدافعهـم الضخمـة ، وابتدأت معركة الانقـاذ الكبـرى •

ولقد كان الوالى الاسبانى «دون الونزو كاريلو» قد سمع من بعض صائدى الاسماك الايطاليين، انهم شاهدوا أسطولا جزائريا ضخمـا قادما الى جهة الشرق، فلم يصدق أن الجزائريين سيهاجمونه، لكنه أخذ يستعد، وينتظر الحوادث ويوالى طلب النجدة والاعانة من أسبانيا •

ومما يسر به الله على الجزائريين انقاذ مدينة بجاية وتطهير الساحل الشرقى الجزائرى من الدنس الاستعمارى، أن أمطار الخريف كانـت تتهاطل باستمرار على تلك الناحيـة ، فارتفعت بها مياه وادى الصمـام ، الى أن أصبح فى حالة تمكن السفن من اجتياز مصبه، الى ما خلف المدينة • على مسافة خمسة كيلومترات تقريبا• فاغتنم صالح رايس هذه الفرصة التى جـادت بها السماء وأدخـل السفـن مـن مجـرى الـوادى ، الـى ان أستقرت خلف القلاع، فانزل مدفعيته وآلات حربـه، ونصبـها عـلى المدينة بغاية الاحكام •

أما الجيش الاسبانى، فقد استعد لحصار طويل، وخرج من أسوار المدينة قبل الحصار الاسلامى فاغار على الدواوير والقرى القريبة مـن المدينة، ونهب مابها من دواجن وحيوان وحبـوب، ورجـع الى ماوراء الاسوار

ثم أخذت الحامية، وجيش الانقاذ، تتبادلان اطلاق المدافع، واستبسل الاسبانيون، كعادتهم من وراء الحصون، فى الدفاع، استبسالا يسجـل لهم بالفخر

هاجم الجزائريون أول الامر حصن القصر الامبراطورى، بـعد أن

قصفوه بالمدافع وقوضوه، ثم استولوا عليه عنوة واقتداراء وما خرج منه الاسبان، الابعد ا نلم تبق بين أيديهم ادنى وسيلة للدفاع •

وماكاد المسلمون يتسلمون انقاض الحصن، حتى بادروا باقامة جدرانه واصبحوا يستعملونه فى قصف المدينة، ويرقبون منه كل تحركات الاسبان، الذين أخذوا يعززون وسائل الدفاع، فى قلب المعقل المحصور •

رسالة بائسة الى اسبانيا

رأى القائد الاسبانى بعينيه بوادر الانهيار، فبعث بالرسالة الاتى نصها، الى الوصية على عرش اسبانيا، الاميرة خوانة، بنت الامبراطور شرلكان

بجاية ١٧ سبتامبر ١٥٥٥

لقد أرسلت سموكم قبل هذا، ابلغكم الحالة التعسة التى أصبحت عليها مدينة بجاية، ان هذا المعقل فى حاجة ملحة الى النجدة السريعة •

لاتوجد ابدا اية جدران حصينة تستطيع أن تثبت أمام هذه المدفعية المرعبة التى نصبها الكلب ملك الجزائر أمام بجاية، فخلال يومين اثنين ، حطم الاتراك بصفة تامة الحصن الامبراطورى، وسدوا الخنادق ، ولقد أصبح من المستحيل استمرار المقاومة، وصرت اتلقى من رجال الحامية رسائل تسألنا ـ أنا والمراقب ـ باسم الله أن نعمل على انقاذهم •

(وبعد أن يقول انه جمع مجلسا حربيا مؤلفا من كبار الضباط الذين ذكر أسماءهم يستأنف قائلا)

ولقد اتفق هؤلاء الضباط والقادة على أنه لاتمكن المقاومة أكثر من هذا الحد، فكل شيء قد تحطم حتى الاساس، وتهدمت الجدران عوما

بقى منها قائما فهو على وشك الانقضاض •ومن أجل هذا قد اجمعت كلمتنا على تسليم الحصن، ونسف الاقواس، والركائز التى لاتزال قائمة، وقد نفذنا كل هذا بالفعل •ونحن الآن ننتظر ماذا سيكون مآلنا ، فالاتراك قد صوبوا مدافعهم الان نحو نفس المدينة، وهم عديدون ومسلحون بالبنادق النارية •

نرجوكم رجاء حارا أن تفكروا فى أهمية بجاية وفى حصونها، فاذا ما تمكن هؤلاء الاتراك الاشقياء دمرهم الله من احتلالها، فان كل قوى جلالة الامبراطور لن تستطيع مجتمعة اخراجهم منها •

التمس من سموكم اصدار الاوامر لكى نتلقى من أسبانيا بكامل السرعة المدد اللازم، ولتعتقد سموكم اننى مستعد للموت — كوالدى — فى سبيل الله وفى سبيل صاحب الجلالة » اه

تحطيم حصن باب البحر

وجه الجزائريون نيران مدافعهم بعد ذلك، نحو معقل باب البحر الذى يحمى أسفل المدينة ، وكانت جدرانه سميكة فاستمر قصفها مدى خمسة أيام والاسبانيون يدافعون دفاع المستميت، الى أن تمكن المجاهدون من اكتشاف مكان خزينة البارود، فصوبوا نحوها رصاص البنادق، بصفة محكمة، فانفجرت، وكان لانفجارها دوى هائل، ورجة عظمى، تهاوت معها الكثرة من جدران الحصن، فهاجمه المجاهدون بعنف وشدة، واشتبك الجانبان فى معركة بالسلاح الابيض، الى أن انتهت المقاومة فوق تلك الاطلال، وقتل اغلب المدافعين، واسرت بقيتهم •

بقيت هنالك عقبة كبرى، دون فتح المدينة، هى عقبة « القصر الكبير »

وهو معقل هائل، رفيع الجدار، سميك الحصون وكان هو مركز المقاومة الاساسي •

وقد كان رجال الاسبان ونساؤهم وأطفالهم، وما عندهم من عبيد ، يشتغلون اثناء الحصار ليلا ونهارا فى اقامة جدار دفاعي جديد، يحمى القصر الكبير، ويبلغ ارتفاعه ١٥ قدما، وكانوا يرممـــون بالليل كل ثلمة تحدثها مدافع الجزائريين فى النهار •

طلب الاستسلام من قائد المعقل

تقدم نحو الاسوار الاسبانية، احد رجال الجيش الجزائرى يحمل راية بيضاء، فسمح له بالدخول ،وسلم للقائد الاسبانى، رسالة مـــن صالح رايس، مكتوبة باللغة البرتغالية، هذا تعريبها

« أنا ملك الجزائر، أكتب اليك ياحاكم مدينة بجاية •

لقد رأيت كيف أ نرجالى قد استطاعوا احتلال معقلين من معاقـــل دفاعكم، ثم انك ولاريب تعلم اننى عقدت العزم بصفة حاسمة، على أخذ هذه القلعة التى تدافعون عنها، أيضا، ولتعلم انك لن تتلقى ابدا ادنى اعانة من اسبانيا، لاننى قد أخذت السفينة التى بعثت على متنها مـــن يطلب النجدة •

« وبما أنه قد اقتربت ساعة سقوط المدينة، وانك لن تستطيع أصلا النجاة والافلات من قبضة يدى ، فانا اطلب اليك ان تستسلم ، وان تسلم المدينة لى، وأنا أتعهد لك مقابل ذلك بأننى لن أمسك أنت ولا أى رجل من الرجال الملتفين حولك بسوء، أما اذا استمر بك العناد، فلـــن يكون مآلكم الا الموت جميعا •

« عليك برد الجواب حالا، مع حامله حسن • »

لكن الحاكم رفض الرضوخ لهذا الانذار، فى غمرة من غمرات العزة والشرف الجريح • واستمرت المقاومة خمسة ايام اخرى •

اخذ الجزائريون يتسلقون اثر ذلك، جدران الحصن، بعد أن ردموا الخنادق التى حفرت حوله• ويحاولون اقتحامه ،مهما كلفهم الامر، بينما كانت المدافع الجزائرية تسدد ضرباتها نحو الاهداف •

ساعتئذ جمع الحاكم بقية الرجال ،وتشاور معهم، فأشاروا كلهم — وكان عددهم لايبلغ الا ١٢٠ رجلا • بوجوب الاستسلام، اذ لم يبق أدنى امل فى الدفاع فأرسلوا لصالح رايس يعلمونه بقرارهم، فقبل استسلامهم ، وبر لهم بوعده السالف رغم أنهم استمروا على الدفاع ورفضوا الانذار ، وذلك تقديرا منه لبطولتهم واعترافا بما بذلوه من همة فى الدفاع • وسمح لهم جميعا — خلافا لما يزعمه بعض مؤرخى الغرب — بالرجوع الى اسبانيا •

ثم دخل الجزائريون ا لمدينة ، بين هتاف التهليل والتكبير ، واحتلوها ؛ وبادروا قبل كل شيء بتحرير ما كان باقيا بها من مساجد ، فأزالوا فورا ما كان عليها من صلبان ، وأعادوها معابد اسلامية ، وأخذ الناس يعودون لسكنى بجاية ، سواء أكانوا من سكانها الاقدمين الذين خرجوا منها عندما أعلنت سياسة التنصير الاجبارى ، أو من جاء معهم من جموع أخرى ، وأخذوا كلهم فى ترميم المدينة ، وتضميد جراحاتها ، حتى عادت لها فى مدة وجيزة صبغة المدينة الحية العامرة • لكنها كانت — ولسؤ الحظ — قد فقدت تحت المعاول الصليبية الاسبانية، كل تراثها القديم ، كما قدمت لك فى بسطة سالفة ، خلال استعباد فظيع دام نصف قرن •

الانتقام من البرىء

لم يكن الحاكم المسكين ريبيرا ، أو أى رجل مكانه ، ليستطيع أن أن يدافع أكثر مما دافع ، أو يعمل أكثر مما عمل .

لكن ثائرة الشعب الاسبانى كانت عظيمة جدا، وكانت ثائرة الامم المسيحية الاوربية ، ودوائر البابا فى رومة ، أعظم من ذلك . فكانت السياسة التى لا ضمير لها توجب أن يقع الانتقام من أى أحد، من أجل تهدئة الثائرة .

واختير الحاكم العام ريبيرا ، ليكون كبش الفداء كما يقولون . فقبض عليه ووجهت اليه تهمة الخيانة العظمى، لانه سلم بنذالة للمسلمين قلعة كان يستطيع أن يدافع عنها أكثر مما دافع ، فأفقد اسبانيا بذلك ثانى مراكزها فى افريقيا ، بعد وهران ، وحكمت المحكمة العسكرية عليه بالاعدام ، رغم اعتراف الرجال الذين كانوا حوله بأنهم ترروا معه الاستسلام ، بل أجبروه تقريبا عليه . وبعد ان عذب ، وأهين ، وذاق كل أنواع المذلة ، أعدموه بقطع رأسه فى ساحة عمومية ، ورفع الجلاد رأس الحاكم أمام الشعب قائلا الجملة التى أمر بقولها :

« أيها الشعب ، هذا رأس رجل نذل فقده صاحبه ، بعد ما فقد الشرف » .

أما الجزائر المجاهدة ، فانها ترد له اعتباره ، وتذكره كخصم عنيد ناضل حتى النهاية عن عقيدته ودولته .

وأسدل نهائيا الستار عن مأساة بجاية تحت الحكم الاسبانى .

تطهير القل والسواحل

انتهى بسقوط حصون بجاية بين أيدى الجزائريين ، كل اثر لاحتلال اسبانيا للساحل الشرقى الجزائرى ، والقرى الساحلية ، ومنها مدينة القل ، التى لم يكن لاحتلالها تاريخ ، انما يذكرنا تطهيرها بتاريخ لا نجد مندوحة عن ذكره وهو تاريخ جد غريب .

اسبانيا فى القل ، خلال القرن الثالث عشر

لا يعلم الكثير من الناس ، ان الدولة الاسبانية ، كانت قد احتلت مرسى القل فعلا ، سنة ١٢٨٢ ميلادية ، والدولة الاسلامية الاندلسية كانت لا تزال قائمة الذات يانعة زاهرة ، وان كانت خلافاتها الداخلية تكاد تقضى عليها ، والدولة الحفصية فى تونس وفى الشرق الجزائرى ، قوية متينة .

يقول ابن خلدون عن هذه العملية الغريبة ، حديثا مقتضبا لا يعطى صورة حقيقية عنها (ج ٦ — طبع بيروت — صفحة ٦٨٥)

لكننى أرى فى هذا التاريخ ما يستوجب التسجيل ، فهذه صفحة تكاد تندثر ولا يعرف عنها قراء العربية ، الا تلك الاشارة العابرة السالفة الذكر، وانها الضريع الذى لايسمن ولا يغنى منوجوع . وفىهذه القصة التى تكاد تشبه الاساطير عبرة وذكرى لقوم يعقلون، ترينا الى أى مدى تستطيع النفس البشرية أن تنحدر فى هوة الخيانة، اذا ما اتخذت الاهها هواها ، فصدها عن سواء السبيل ، وترينا أن التدخل الاجنبى فى بلادنا ، وفتح ثغرة للعدو فيها ، انما تكون دوما نتيجة التفرق والخلاف ،

وتغليب مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة ، كما ترينا من جهة أخرى ، مدى قوة ومدى ثروة هذه الناحية من وطننا خلال القرن ، ومدى استماتة رجال شعبنا ، وذلك ديدنهم دائما، فى الدفاع عن دينهم ، وعن شرفهم وعن أوطانهم •

واننا ، اعترافا بالفضل لذويه ، نشير الى أننا عثرنا على تفاصيل هذه الصفحة الغريبة من تاريخ المغرب الاوسط ، فى المجلة الافريقية ، سنة ١٨٧٢ • واعتمدنا على تلك التفاصيل لكتابة هذه القصة

كان الملك بطرس الثالث ، يحكم بلاد الأراغون الشديدة المراس فى اسبانيا • وكانت الحروب القاسية مستعرة الاوار بين هذه المملكة الاسبانية الوطيدة الاركان ، وبين المسلمين فى بلاد الاندلس ، وقد أخذ نجمهم فى الافول ، تحت ضربات خلافاتهم الدامية ، وحروبهم الداخلية الاجرامية •

وجاءت سنة ١٢٨٢ الميلادية (٦٨١ هـ) تحمل الى الملك الاسبانى الكبير امكانية غزو اعدائه المسلمين فى عقر دارهم ، واحتلال جزء كبير من أرض المغرب الاوسط ، يجعله قاعدة لاحتلال بقية اجزائه ، فيمكنه ذلك من ضرب مسلمى الاندلس من الخلف، ويقطع عنهم كل طريق للمدد أو للانسحاب •

ولم يكن الملك الاسبانى هو الذى فكر جديا فى هذا الامر ، ولم تكن بطانته هى التى هيأت له الاسباب ومهدت له الامور ، بل ان العرض جاءه من نفس البلاد ، تحمله نفس شريرة ، أوردها طمعها الخبيث موارد النذالة ، فانغمست فى الخيانة ، وتنكرت لله ولرسوله وللوطن ، طمعا

فى ملك مزيف، وسعيا وراء جاه يقام فوق جماجم المسلمين ، ويسقى بوابل من دمائهم الطاهرة .

كان الخائن النذل أبو بكر ابن الوزير ، (١) واليا على مدينة قسنطينة الزاهرة ، من قبل السلطان أبى اسحاق الحفصى ، بتونس .

ولقد سولت له النفس الامارة بالسوء أن يعلن استقلاله ، ويخلع طاعة سلطانه ، ويخضع لحكمه تلك الولاية الغنية الآهلة التى كانت حسبما يرويه كل المؤرخين والرحالين ، درة لا معة فى تاج المغرب العربى .

ولو أن هذا الوالى قد صبا الى الاستقلال وشق عصا الطاعة، معتمدا على قوة عصبية ، أو جند اصطنعه من بين أولئك الذين يتبعون كل ناعق ، لقلنا انه قد أصيب بمرض ذلك العصر ، وأن شأنه فى ذلك شأن القواد والولاة الذين امتلا بهم تاريخ العدوتين ، بل امتلا بهم لسوء الحظ تاريخ الامة العربية جمعاء ، حين انفرط العقد وغشيتها الفتن .

لكنه علم أن ليست له عصبية مرهوبة ، وانه لا يستطيع امتطاء هذا المركب الوعر ، الا محتميا بحراب الاجنبى ، مستعملا سيوف العدو فى رقاب بنى عمه ، فاتحا للغزاة الاجانب ثغرة فى بلاد المسلمين لم يطأوها من قبل . وبذلك يتحقق له الخيال ، وينال الامارة والاموال ، وهيهات .

من أجل ذلك راسل الملك بطرس الاراغونى، يطمعه فى ملك قسنطينة، وما اليها وحواليها ، ويعده بأنه سيضع تحت تصرفه رجاله وفرسانه ، وأنه سيكون ذراعه الايمن ، وخادمه الامين .

---

(١) يقول ابن خلدون : هو ابوبكر بن موسى بن عيسى ونسبته فى كومية من بيوت الموحدين .

والملك بطرس الثالث أعقل من أن يترك هذه الفرصة النادرة تفلت من بين يديه . فأخذ يقلب الامر على كل وجوهه ، وعزم على أن يستجيب للطلب ، وأن يضرب فى بلاد المغرب العربى ضربته ، ثم أعلم أبا بكر بأنه يجهز أسطوله من أجل ذلك ، وانه يجمع رجاله ، وانه سيكون عما قريب فوق أرض المعركة .

وقد كانت رسالة الوالى أبى بكر تحدد للملك الاسبانى مكان النزول ، وتؤكد له أنه اذا ما نزل بمرسى القل مع ثمانمائة من الفرسان، وألفين من الرجال ، فان طريق قسنطنة سيكون مفتوحا أمامه .

كان يوجد فى ذلك الحين ، لدى كل ملوك المغرب العربى ، جند من المرتزقة المسيحيين ، أغلبهم من الاسبان ، وكانت الكنيسة وكان ملوك أروبا يسمحون للرجال بالعمل لدى من يطلب ذلك من ملوك وأمراء المسلمين .

وكان أبو بكر فى قسنطينة من ضمن أولئك الذين يحيطون أنفسهم بحرس غفير من الجند الاروبى المسيحى ، ولعل رجال البطانة من ذلك الجند هم الذين زينوا لذلك العامل الخائن الاستنجاد بالملك الأراغونى ، وكان يوجد بالمغرب العربى يومئذ نحو مائة ألف من هؤلاء الاروبيين المسيحيين ، يحمون تلك الامارات الهزيلة وتلك العروش الواهية ، فكان المظنون ان هذه الجموع كلها ستقف وقفة الرجل الواحد حول الملك بطرس الثالث المسيحى ، حينما تطأ أقدامه أرض افريقيا .

هكذا يقول الكاتب الاسبانى برنارد دسكلوت الكاتالانى فى تاريخه عن هذه المغامرة الجريئة التى كان له وحده فضل تسجيلها ، وفضل حفظ تفاصيلها، وكان المستشرق الصقلى العظيم « امارى » هو الذى

اكتشف هذا المخطوط وأشار اليه فى ترجمته لتاريخ ابن خلدون ، عند ذكر هذه الحادثة التى ذكرها مؤرخنا العظيم مقتضبة وكل ما قاله عنها « وجاء أسطول النصارى الى مرسى القل فى مواعدة ابن وزير،فأخفق مسعاهم » .

فالملك بطرس أرسل يجمع جيشا من الرجال الاقوياء المخلصين داخل ـ ممالكه ، والتف حوله ثمانمائة فـارس ، وثلاثة آلاف من الرجال ، أغلبهم من الاسبان الذين كانوا قد أسلموا بعد الفتح العربى ثم عادوا الى النصرانية بعد الاسترجاع الاسبانى اما رغبة فيها ، أو فرارا من الاضطهاد . ويدعونهم فى اسبانيا « الموكارس » وأخذ ينشىء أسطولا لحمل ذلك الجيش الى افريقيا .

يقول الكاتب الكاتالانى : ان هؤلاء الموكارس ، كانوا قوما لا يعرفون الحياة الا بواسطة السلاح ، ولا يعيشون فى المدن ولا فى القرى ، انما يسكنون الجبال الشاهقة بين الصخور ، ويحترفون الحـرب ضـد السارازان ، أى المسلمين .

جمع الملك بطرس جيشه فى مرسى طرطوشة Tol taza وجمع له من المؤن والاقوات والاسلحة ما يكفيه ، ثم عبر البحر الى جزيرة ميورقة التى كان يحكمها أمير مسلم ، وحوله جند مؤلف من ألفى رجل ، انما كانوا خاضعين لملكة أراغون ، ثم أبحر الاسطول الى مدينة القل .

لكن أمير ميورقة المسلم ، الخاضع لملكة أراغون ، المطيع لها ، ما كاد يعلم وجهة الاسطول ، حتى أرسل سفينة خفيفة تسابق الريح ، وأوصى رسله الذين امتطوا صهوتها أن يصلوا مرسى القل قبل وصول الاسطول الأرغونى ، متحاشين محاذاته أو الاتصال به .

وصلت السفينة الى القل . ونزل رسل حاكم ميورقة يقولون لاهل المدينة ان الملك أراغون قد جاءهم بقوة عظيمة وانه واصل اليهم بعد حين ، وطلبوا اليهم أن يخبروا بذلك كل أهل الناحية حتى مدينة بجاية .

بادر سكان القل حينئذ بالخروج من المدينة ، حاملين معهم أموالهم وذخائرهم واعتصموا بالجبال . فكانت المدينة خالية تماما من السكان عندما خيم عليها الاسطول الارغوانى الاسبانى يوم ٢٨ جوان ١٢٨٢

وقد كان والى قسنطينة أبو بكر « الذى ساء اثره فى أهلها كما يقول ابن خلدون ، فرفعوا أمرهم الى السلطان أبى اسحاق » قد استعجل الامر ، عندما علم بمسير الاسطول ، فأعلن العصيان ، ونادى بنفسه أميرا مستقلاً . فأرسل السلطان الحفصى ولده أبا فارس من مدينة بجاية ، على رأس قوة لردع هذا الخائن ووصلت قوة المسلمين الى قسنطينة يوم غرة ربيع الاول سنة ٦٨١هـ (٩ جوان ١٢٨٢م) وحاصرتها يوما ، ثم اقتحمتها ، وقاتلت العامل المارق ومن معه من المرتزقة ، الى أن قتلته وأخاه ورجال خاصته، بعد أن دافعوا عن أنفسهم دفاعا شديدا، وعلقت رؤوسهم على أسوار البلدة ، وذلك جزاء الخائنين .

فمصرع هذا الخائن قد تم قبل ١٩ يوما من نزول جيش أراغون بالقل . ويقول المؤرخ الاسبانى ، ان مدينة قسنطينة هى التى فتحت أبوابها طوعا عندما جاءها جيش السلطان الحفصى ، رغبة منها فى التخلص من ذلك الرجس الذى أراد الوغد أن يوقعها فيه .

ثم نعود الى ملخص رواية المؤرخ الكاتلانى :

ما كاد الملك بطرس يعلم نبأ ما وقع فى قسنطينة ، حتى أسقط فى يده ، وذهب به الغضب والالم كل مذهب ، وعلم أن المعركة قد اصبحت بدون

هدف ، لكنه لم يجد بدا من النزول فاحتل مدينة القل وكانت خاوية على عروشها ، وأحكم التحصن فيها ، وأسكن جيشه فى منازلها .

وكان العرب يحيطون بالمدينة من فوق المرتفعات ، فأرسل لهم الملك بطرس يقول انه قادم للحرب والنزال ، فأعلموه أنهم يعقدون مجالس الشورى ، ثم أخبروه أنهم مستعدون لعقد الصلح معه على أن يرحل بجنده عن المدينة ، وان يدفعوا له مقابل ذلك ما يقع الاتفاق عليه من مال ، وأعلموه أنهم قد أحاطوا بهذا علما سلطان تونس الذى هو صاحب المدينة . لكن الملك لم يجب على هذا العرض .

ثم أرسل الاسبان طلائع من جيشهم ترتاد ما وراء خطوط التحصين ، لتعلم مدى قوة ومدى استعداد الجند الاسلامى .

ورأى المسلمون هذه الطلائع ، فخالوها مقدمة الجيش الاسبانى الزاحف ، فتصدوا لمقاومتها وأرسلوا فرسانهم لمقارعتها ، وبلغ دوى المعركة مسامع الملك ، فأصدر أمره لجيشه بالتقدم نحو الجبال ، من طرق جانبية ، ولم يشعر المسلمون الا والجند الاسبانى قد أحدق بهم ، فاستشهدوا فى ميدان المعركة ، ولم ينج منهم الا القليل .

وسار الملك وراء أرض المعركة نحو ثلاث ساعات ، فاذا به يجد مدينة جميلة بديعة ، خالية من السكان قصور مرتفعة ، ومخازن قد امتلأت بالقمح والكتان فأصدر الملك أمره باحراق كل ذلك ، ماعدا الالبسة الحريرية ، التى أخذ الرجال منها كل ما استطاعوا حمله . ثم رجع الملك الى القل، وجيشه يجر وراءه غنيمة ألفين من البقر وعشرين ألفا من الغنم والمعز ، وعددا من الاسرى .

واستمر المسلمون على التجمع فى الجبال المحيطة بالمدينة ، وهم

يستعدون لخوض غمار المعركة ،لكنهم لم يحاولوا يومئذ النزول للنزال .
واستمرت عمليات الغارة على مثل هذه الحفة أياما .

ثم عزم الجيش الاسلامى على قتال الاسبان ، وأقبل فى جموع غفيرة امتلأت بها السهول والجبال ، كما يقول مؤلف تاريخ المعركة ، لكن هذا الجيش لم يستطع الثبات أمام حملة فرسان الاسبان القوية العنيفة ، فارتد الى مراكزه الجبلية .

ثم جمع الملك مجلس شوراه ، وقال لهم أنه يعتزم ، معتمدا على الله ، وعلى القوة التى سوف تمده بها ممالكه ، أن يفتتح مدينة قسنطينة ، ومنها ينطلق الى فتح كامل افريقيا ، ولا يعبا بكثرة من فى سهولها وفى جبالها من المسلمين وان هذا الفتح سيكون خيرا وبركة وفخرا لأمتــه وللمسيحية جمعاء ، وانه سيرسل الرسل الى قداسة البابا ليمده مــن عنده بجيش قوى ، يفتح به افريقيا فى وجه المسيحية ، حتى يكون فيها اسم الرب ممجدا مشرفا .

فأكد له مجلس الشورى ان هذا هو الرأى، وانهم سيقاتلون وراءه فى سبيل الله والمسيح حتى الموت .

أرسل الرسل كما قال نحو البلاد المسيحية ونحو البابا فى مدينة رومة. فبسط الوفد للبابا رغبة الملك الارغوني فى العون بالمال والرجال لافتتاح افريقيا من أجل المسيحية .

لكن البابا فكر فى الامر مليا ثم أجــاب : اننى لست مؤمنا بأن ملكا صغيرا كملك أرغون ، قد استطاع احتلال شىء من افريقيا ، ولا أن يستطيع عمل ما لا يستطيع عمله ملوك الانكليز والالمان وغيرهم فانا لا أعد هذا الملك بأى اعانة . »

وهكذا رجع الوفد خائبا .

واستمرت المعارك الصغيرة ناشبة بين النصارى والمسلمين، والكل يرقب المعركة الحاسمة ويستعد لها .

وفى مرسى القل كانت تربض ١٤٠ سفينة جاءت بالجند والعتاد تنتظر الحوادث .

فى هاتيك الايام، جاء وفد من نصارى صقلية الى مدينة القل، يعرض عرش الجزيرة على الملك بطرس الارغونى، ويعده بالرجال والاموال ، ضد الفرنسيين الذين أرهقوا الجزيرة وطغوا فيها طغيانا مبيناء (١)

ولما كانت المقاومة العربية تشتد يوما بعد يوم، وايقن انه لن يستطيع تحقيق احلامه بالاستيلاء على قسنطينة أو الثبات فى مركزه بمدينة القل، جمع رجاله واشعرهم بقبوله تاج صقلية، وانه مقلع اليها على رأس جنده وعمارته فقضى الرجال ثلاثة أيام يهيئون الانسحاب ويعمرون السفن بالجند والسلاح والزاد .وعندما انتهى كل شىء، أمر باحراق مدينة القل، فاشعلوا فيها النار من مائة مكان، وعندما جاء فرسان العرب الى خرائب المدينة ،وجدوها قاعا صفصفا . وهكذا خابت آمال الاسبان فى امتلاك شىء من الارض الافريقية ،مرة أولى، بعد ما أشاعوا فيها الموت والخراب والدمار . ومارجعوا اليها الاسنة ١٥٠٩ ، وكان أمرهم فيها، وفى غيرها هو ما نقصه عليك فى كتابنا هذا .

مذاكرات الشريف السعدى والاسبان، ضد الجزائريين

بعد انقاذ بجاية ، وتطهير الشرق الجزائرى من أدران الاحتلال ، وجه

(١) انظر كتابنا : المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا .

صالح رايس ومن معه من الجزائريين كل همهم وكل اهتمامهم الى ناحية وهران، وما حواليها، لانقاذها من يد الاسبان، ولتطهير أرض الوطن الجزائري من كل احتلال ، ثم الاستعداد للوثبة الكبرى ، نحو بلاد الاندلس •

لكن شوكة الشريف السعدي الذي اشتد امره وقوى ساعده بمراكش، كانت تؤلم جنوب الجزائريين وتتخس مضاجعهم، وخاصة بعد أن نصبوا ابا حسون بفاس تحت حمايتهم، وبطش به الشريف بطشة جبارة عاتية، فكيف يتصرفون ،وهم لايعرفون ماذا سيكون موقف الشريف منهم ؟

ولقد جاءتهم الانباء تترى، تناقلتها افواه المسافرين من اليهود، عن وجود مفاوضات حازمة بين حكومة اسبانيا، والشريف المراكشي، قصد الوصول الى اتفاق حربي سياسي، ضد دولة الجزائر، يقضي عليها ، ويقسم اسلابها بين الطرفين •

ولقد كان اليهود هم التراجمة فيمراكش بين الوفدين، وتسرب الخبر منهم الى بني جلدتهم، فسادهم الرعب والفزع، وهم يعرفون — ما نسيه منسوء الحظ بعض المسلمين اذاك — ماذا يخفي الاحتلال الاسابني البلاد من شرور وبلايا لبني قومهم بصفة أخص، فوصلت تلك الانباء الى مسامع رجال حكومة الجزائر المرهفة، فبادرت باعلام الخليفة السلطان سليما نالعظيم، في استانبول •

التقرير الاسباني عن هذه المفاوضات

ولقد حفظ لنا التاريخ، في خزائن سيمانكاس السالفة الذكر، النص

الرسمي للتقرير الاسباني عن هذه المفاوضات، وفيه علاوة على تفاصيل المذاكرات وموقف الجانبين منها صور ذات الوان زاهية، واضحة عن البلاط المغربي، ومواقف السلطان السعدي أمام هذه القضية، وتفاصيل مقابلاته، مما يعتبر وثيقة ذات أهمية ممتازة، لابالنسبة لتاريخ المعامع الاسبانية الجزائرية وحدها بل بالنسبة أيضا لمجموع تاريخ مغربنا العربي الكبير، الواحد ،

وهذه ترجمة ذلك التقرير المرفوع للكونتدالكوديت، حاكم وهران الاسباني، الذي أشرف على سير المحادثات

مالقة ٢٢ جويلية ١٥٥٥

ابحرت سفينتنا من مرسى مالقة يوم ٢٦ افريل، ويوم ٢٩ افريل دخلنا مرسى سبتة، وتلقانا حاكم البلدة لقاء حسناء وعلمت أن ابن الشريف يجمع جيشه للاشتباك في معركة فاسرعت اليه دون اضاعة وقت ، ووصلنا الى تيطوان يوم أول ماي ،

وعندما وصلنا مدينة فاس،، بادرت بالسؤال عما اذا كان الشريف مولاي عبد الله والقائد المنصور لايزالان بها، فعلمت أن الشريف مستقر وسط زمالته على مقربة من فاس، وان القائد المنصور يستعد للتوجه اليه ،

ويوم الاربعاء ١٥ ماي ، طلب منا أن نذهب الى القصر لمقابلة الملك (الشريف السعدي) وكان الى جانب الملك القائد المنصور، وكاتب الملك بوشميدة، (١) ومترجم الملك ليفي اليهودي، واقتبلنا الملك في قاعدة البرتقال ،

---

(١) لعله : بو حميدة ،

وبعد أن سلمناه الرسائل التى ترجمها المترجم ليفى طلب الينا الملك ان نقول له شفويا ما هى المهمة التى جئنا بها لفاس .

فأجبته بأن مهمتنا قد شرحت فى الرسائل، واننا جئنا استجابة لطلب مولاى عبد الله والقائد المنصور حيث طلبا من سيادتكم (حكم وهران) ارسال بعض الرجال للتفاوض فى قضية الجزائر . وسيادته أرسلتنا بغاية السرعة الى هنا .

أجابنا الشريف بأنه لايزال عند فكره . وانه يريد أن يطرد الترك من كامل افريقيا، ومن اجل ذلك فهو يطلب من جلالة الامبراطور امداده بعشرة الاف مقاتل يحملون السلاح النارى . وانه (الشريف) يرى بأنه من المناسب أن يقوم جلالة الامبراطور بكل مايلزم لهؤلاء الرجال من نفقات ،وذلك لان طرد الاتراك انما هو عمل تستفيد منه ممالك جلالة الامبراطور وتستفيد منه المسيحية جمعاء .

ويقول الملك ان احتلال مدينة الجزائر لا يكلف جلالة الامبراطور كبير عناء حيث أن جلالته عازمة على اقتحام الجزائر على رأس ثلاثين الف فارس . الخ .

واجبته بأن هذه القضية تهم الملك وابناءه أكثر مما تهم جلالة الامبراطور وان الشريف لاينسى الخطر العظيم الذى كان محيطا به منذ عهد قريب (1) وانه لايستطيع أن يثق كثيرا باهل فاس .

وطالت المذاكرات كثيرا . وأخيرا اعلمنى القائد بوشميدة بأن الشريف قد ادخر كثيرا من المال لمحاربة الاتراك، وانه يسعده أن يعينه الامبراطور على ذلك، وان الامر مستعجل جدا .

---

(1) نصب الاتراك لابن حسون بفاس .

ثم جاء ذكر مدينة الجزائر وماذا نصنع بها بعد احتلالها بمشيئة الله فكان من رأى الملك (الشريف السعدى) تحطيم هذه المدينة وازالتها تماما • اما اهلها ، فلنا ان ناخذ اموالهم ـ وان نقتلهم فى حالة ما اذا دافعوا عن انفسهم ـ لكنه يرفض ان يؤخذوا عبيدا للمسيحيين

قلت له أن الاتراك أجانب عن البلاد ، وانهم اعداء له ، واننى أرى أن لا يعارض فى معاملتهم معاملة الاعداء • أما العرب ، يمكن أن نترك لهم حريتهم فى حالة ما اذا استسلموا اختيارا دون مقاومة •

قال الملك انه لن يسمح أبدا بأن يصبح أى عربى عبدا ، لأن هذا مخالف لشريعته •

•••••••••••

وفى يوم ٢٩ ماى قمنا بزيارة جديدة للملك • وما كاد يرانا حتى أشار الى بوشميدة أن يتقدم لاستقبالنا • فقادنا الى قاعة أخرى غير التى يجلس فيها الملك • وقال لنا ان الملك يريد أن يعرف ماذا تريدون من هذه الزيارة • فقلت له : اننا نرى ان الملك هو الذى يدفع نفقات الحملة (الاسبانية)

فذهب بوشميدة ليبلغ الملك ذلك • ثم رجع الى القاعة التى كنت بها صحبة بولوقريلو ، وكاسنينو • وقال لنا : ان الشريف قد رضى بأن يدفع لكل من العشرة آلاف رجل من حملة السلاح النارى ، (الاسبانيين) مقدار ثلاثة مثاقيل من الذهب فى الشهر • وانه لا يستطيع أن يدفع أكثر من ذلك • وانه يبدأ الدفع منذ اليوم الذى ينزل به هذا الجيش أرض افريقيا •

•••••• قلنا له اننا لا نستطيع قبول تحديد الجراية بثلاثة مثاقيل ذهب شهريا ، لأن هذا خارج عن نطاق مهمتنا •••••••

وذهب بوشميدة وأعلم الملك ،ثم عاد يقول لنا : ان الملك مصمم على ذلك المقدار لا يتجاوزه • وانه يرى الاكتفاء بالرجال ولا يرى ضرورة لقدوم الفرسان لانه سوف يصحب الجيش المسيحى مع كل الفرسان الذين معه وكذلك هو يجهز المدفعية التى تصحب الجيش •

قلت له اننا نرى من المناسب ، أن يبادر الملك قبل كل شيء ، بأن يضع بواسطة أحد رجاله ، فى مدينة من المدن التى يحتلها جلالة الامبراطور ، مائة ألف مثقال من الذهب ، لكى يبدأ تجهيز الحملة حالا •

ورجع الينا الرسول يقول ان الملك يرفض وضع هذا المقدار من المال • وانه يدفع شهريا جراية الجند منذ نزولهم بافريقيا

وكان يطلب منا دوما خلال المفاوضات أن نسلمه أوراق التفويض التى لدينا والتى تسمح لنا بالتعاقد معه ، قال لنا فى الجلسة الختامية ، ان المفاوضات تعتبر مقطوعة اذا لم نقدم اليه هذا التفويض •

وطلبنا الى الملك أن يسلمنا رسالة لسموكم • فرفض ذلك قائلا انه لم يتصل برسالة منكم •

ويوم ٣ جوان ذهبنا لتوديع الملك فقيل لنا بأن نرجع يوم الغد ، فرجعنا كما طلب منا • ووقع استقبالنا هذه المرة داخل القصر ، وأطلعونا على كل ما به من كنوز وأشياء ثمينة • ثم قدموا لنا مائدة طعام فاخرة •

وقال لنا رجال القصر ان الشريف لم يحتفل أبدا بمسيحيين آخرين مثل احتفاله بكم •

لكن الملك لم يسمح لنا بمقابلة ابنه الامير عبد الله • انما طلب منا القائد المنصور بواسطة ممثله ، لأنه كان فى جيش الامير ، ان ننتظر أياما، ولهذا قررنا تأجيل السفر •

ويوم ١١ جوان قابلنا الملك من جديد • وبينما كنا نسأله أن يعطينا حرسا كي نذهب لمقابلة الامير عبد الله ، جاء القائد المنصور وأتى معه برسالة من الامير لوالده ، جاء فيها :

كتبت لسموكم مرتين دون أن أتصل برد ولا أدرى ما هو السبب • اما فيما يتعلق بالمذاكرات مع ممثلي كونت وهران ، فلا أرى من اللائق أن نردهم دون أن نعمل ما يمكن عمله للاخذ بالثار من اعدائنا • وقد سمحت للقائد المنصور أن يقدم اليكم من أجل هذا ومن أجل تمكينه من المفاوضة قصد تحرير ابنه من الاسر

ومن رايى أن يرسل لكم الكونت حاكم وهران ، كرهينة ولدا أو عدة من أولاده ، ومقابل ذلك تستطيعون أن تقدموا له تسبقة ما يكفي لجرايات الجند مدة شهر أو شهرين • فان طالت الحرب أكثر من ذلك ، فسموكم يدفع الجرايات كل شهر • الى نهاية المعركة •

وهذا كل ما لدى أن أقوله لكم •

خلاصة : جاءنا القائد يوم ١٢ جوان بعد مقابلة الملك ، يقول : ان جلالته لا يضع المال المطلوب ، الا بعد ضمان أكيد ، ويرغب أن ترسل سيادتكم (كونت وهران) أحد ابنائها رهينة • وعندئذ يدفع مائة ألف مثقال •

وغادرنا فاس يوم ١٨ جوان ، بعد بقائنا بها ٣٨ يوما » اه

تعليق الكونت د الكوديت على هذا التقرير

وأرسل الكونت د الكوديت حاكم وهران ، وقائد الصليبية الاسبانية بأرض الجزائر ، هذا التقرير الى الامير فيلب ، ابن الامبراطور شرلكان

ومثله ، صحبة رسالة خاصة ، هذا نصها :

المرسى الكبير ٩ أوت ١٥٥٥

«فى اليوم الثانى من هذا الشهر ، جاءنى رسول كنت بعثت به الى مدينة فاس ..... ويسألنى أن أطلب من جلالتكم الاذن لى بالتفاوض مع الشريف .

ويخيل لى أن الله هو الذى أدار بنفسه هذه المذاكرات ذات الاهمية الكبرى بالنسبة لجلالة الامبراطور وبالنسبة لسموكم (ابن الامبراطور الانفنت فليب)

ويجب علينا أن نعتبر أنفسنا سعداء جدا ، فى الوقت الذى يبذل فيه ملك فرنسا ، عدونا الالد ، كل جهوده ، دون أن يخاف الله ، للحصول على أسطول السلطان (العثمانى) كى يهاجم ممتلكات جلالة الامبراطور، أن يعرض علينا ملك عربى ذو نفوذ كبير ، كالشريف ، مهاجمة اتراك الجزائر ومحاربتهم وابعادهم عن الارض التى يحتلونها فى افريقيا ، وذلك فيما اذا قدمنا له ١٢ ألفا من المقاتلين الاسبانيين على حسابه الخاص . كذلك هو يتعهد ، فى حالة ما اذا رضيت أن أبعث بأحد أولادى رهينة لديه ، أن يضع المال اللازم لتجهيز هذه الحملة بكل سرعة .

وبما ان هذه العملية ستجر خيرا عظيما على جلالته وعلى المسيحية جمعاء ، فأنا لا أتردد فى قبول طلب الشريف ، وأرسل اليه ولدى رهينة ، حتى ولو كنت على يقين أنه يريد أن يذبحه . بل اننى أنا نفسى وكل الذين حولى من أهلى ، نستعد أن نقدم أنفسنا كرهائن ، حتى ولو كان الشريف يريد بيعنا عبيدا .

والرجاء من سموكم أن توجهوا الى بالتفويض الذى يمكننى من تتبع هذه المفاوضات » .

الاستعداد لفتح وهران ، وموت بطل عظيم

كان جواب السلطان سليمان سريعا وحاسما : وجوب مهاجمة وهران حالا . واحتلالها ، قبل أن تسفر المذاكرات بين الجانبين الاسبانى والسعدى عن نتيجة عملية .

وأرسل السلطان مع جوابه هذا ، مددا بحريا مؤلفا من أربعين سفينة حربية (GALÈRE) وستة آلاف من الجند العثمانى ، اعانة على هذا الزحف التطهيرى الكبير ، فأضاف صالح رايس هذه القوة الجديدة الى القوة الجزائرية التى بين يديه ، وتتألف من ثلاثين سفينة حربية وأربعة آلاف من الجند الجزائرى يمتطون صهوة السفن المذكورة .

أما جيش المجاهدين من داخل البلاد الجزائرية ، ومعظمه اشاوس جبال الجرجرة، فكان يناهز العشرة آلاف رجل ، ساروا فعلا على طريق البر نحو الناحية الغربية ، بينما كان صالح رايس يتأهب للاقلاع على رأس العمارة البحرية ذات السبعين سفينة نحو وهران .

فى نفس تلك الساعة ضربت يد القدر ضربتها ، وما تشاؤن الا أن يشاء الله ، فصالح رايس ، ذلك البطل المغوار ، والمجاهد المسلم الصميم ، الذى كان يتحمل فى حماس الشباب وقوة الرجولة الكاملة ، وقر السبعين عاما من عمره الحافل بالبطولات ، قد أصيب بالطاعون ، فالتحقت روحه ببارئها خلال شهر جوان ١٥٥٦ (رجب ٩٦٣ هـ)

وحمل الراية حالا ، بعد موت البطل الشهيد صالح رايس القائد يحى

مؤقتا ، فأقدم على انجاز الامر ؛ وابحر نحو وهران ؛ وجاء اثناء الطريق أمر السلطان العثمانى برفع الرئيس الشهير حسان قورصو ، الى منصب باى لرباى الرفيع ، ووصل جيش البر وجيش البحر الى وهران ، وحوصرت حصارا شديدا •

ولكل أجل كتاب • فوهران لم تفتح تلك السنة ؛ ولم تفتح ذلك القرن • خلافا لما قاله بعض المؤرخين • بل لم تفتح الا بعد مائتى سنة من ذلك التاريخ حسبما سيمر بك من أحاديث هذا الكتاب •

اما سبب عدم فتح وهران ، رغم ذلك الاستعداد الكبير ، فهو أن أعداء الخلافة الاسلامية قد تألبوا عليها برا وبحرا • فاضطر السلطان لجمع كل القوى الاسلامية وخاصة البحرية منها ؛ لمقابلة الاعداء الذين تجمعوا فى قوة رهيبة تحت قيادة أندريادوريا ، وجاء البطل حاج على ، الذى سنعرفه عما قريب ، فوق ميدان الجهاد الجزائرى باسمه الجديد : تلش على ، يحمل أمر السلطان بسفر العمارة حالا • ووضعها تحت قيادته •

وهكذا ، بعد أن احتل المجاهدون الجزائريون حصن صانطوس ، من حصون وهران ، وكادوا يتمكنون من ناصيتها ، رغم الدفاع الاسبانى العنيف ، اضطروا لرفع الحصار ، فسار الاسطول الاسلامى حيث يدعوه واجب الجهاد ، دفاعا عن دار الخلافة • ورجع حسان قورصو بالجيش البرى نحو الجزائر ، وقد أخذ الاسبان يقتفون أثره ؛ ويتبعون خطاه •

السعديون بتلمسان

وما كان الشريف السعدى ليترك هذه الفرصة الذهبية تمر دون أن

يهتبلها ، فأسرع بارسال جموعه صوب تلمسان ، وكان جيشها ورجالها قد انضموا للمجاهدين فى محاولة استرجاع وهران ، فدخلها على حين غفلة ، ووضع على رأسها القائد ابن غانم السالف الذكر ، زعيم قبائل بنى راشد ، ووزير أواخر ملوك الزيانيين المحتمين باسبانيا • اما الحامية الجزائرية ، القليلة العدد ، فلم تستسلم ، ولم تهن والتجأت الى حصن المشور ، فاعتصمت به مقاومة ، الى أن جاءها الانقاذ فيما بعد كما سترى •

هل كان الهجوم السعدى فى هذا الوقت بالذات ، تنفيذا لاتفاق انعقد بين الشريف وبين الاسبان ، اثر المذاكرات السالفة الذكر ؟ أم كان عملا قام به من عند نفسه ، وبمحض استقلاله ؟ ذلك ما لا يذكر التاريخ عنه ادنى تفصيل ، وثائق سيمانكاس الآنفة الذكر ، لم تحفظ لنا على ما أعلم ما يثبت أو ينفى انعقاد اتفاق اثر تلك المذاكرات •

الفصل العاشر

حسان باشا خير الدين يعود الى الميدان

مرت بمدينة الجزائر حوادث خاطفة اثر ذلك خلال سنة ١٥٥٧ ، ليس لنا أن نتعرض لها، فهى لا تتعلق بالجهاد ضد الاسبان • فبعد مصرع حسان قورصو ، واستشهاد الباى لرباى تكارلى ، أرجع السلطان العثمانى لكرسى الجزائر حسان بن خير الدين، بعد غيبة ناهزت أربعة أعوام، قضاها فى الجهاد فى ميادين أخرى •

واستبشر الناس — عامة وخاصة وجيشا — أيما استبشار بعودة البطل بن البطل ، لما خبروه من سيرته ، وما علموه من خفايا سريرته وكان قدومه فى شهر شعبان من سنة ٩٦٤ هـ (جوان ١٥٥٧ م) • وماكاد يستقر به المقام ، حتى أرجع الى الادارة نظامها ، والى الجيش انقياده، والى الشعب امنه وطمأنينته ، ثم عزم على استئناف الجهاد ، وانجاز مشروعيه العظيمين ، تطهير البلاد الجزائرية من الاستعمار الصليبى الاسبانى ، والنزول الى الارض الاندلسية •

تخليص تلمسان

سار بجيشه حالا نحو الغرب الجزائرى، لارجاع جماعة الشريف ، وراء حدود بلادهم ، ولانقاذ الحامية الجزائرية التى بقيت فى قلعة المشور ، تحت قيادة الامير صفطة ، مقاومة لاحتلال السعديين •

وصل الجيش الجزائرى تلمسان ، فلم تقع معركة بين الجانبين سوى بعض مناوشات وانسحب رجال الشريف الى ما وراء الملوية ٠

لكن حسان رأى وجوب تتبعهم ، والقضاء على دولة السعديين ، اثر مقتل الشريف وقيام ابنه عبد الله الغالب بالله مقامه ، فوصل الى مقربة مدينة فاس ، والتقى الجمعان على وادي اللبن ، ودارت رحى معـــركة لم تسفر عن شيء ٠

جاءته يومئذ الانباء عن تحرك الاسبان من مدينة وهران ، بما يوشك أن يقطع عنه خط رجعته ، فذهب بجيشه الجزائرى الى مرفأ قصـاصة فى الشمال ، حيث امتطى صهوة سفنه ، وحمل معه مدفعيته وعتاده ، أما القائد صفطة ، القائم باسمه على مدينة تلمسان ، فقد رجع بحاميته اليها ، استعدادا للحوادث المقبلة ٠

الانتصار الاكبر بمستغانم :

جمع حسان خير الدين ، بمجرد رجوعه لمدينة الجزائر قوة عظيمة يصادم بها الاسبان فى وهران ، ويقارع بها السعديين ، اذا ما عادوا الى الميدان الجزائرى مرة أخرى ٠ وأمر جموع المجاهدين أن يوافوه عند مجرى نهر الشلف ٠

وتحرك فى نفس الوقت الكونت د الكـــوديت ، حاكم وهران ، على رأس القوى التى تمكن من جمعها بين يديه ، نحو الشرق قاصدا مدينة مستغانم ٠ ولقد كان الاتفاق بينه وبين السلطان السعدى ــ كما تقول كتب التاريخ الافرنجية ــ على أن يتحـــرك الجيش المغربى فى نفس الوقت ، سالكا الطرق الخلفية ، لكى يهاجم مدينة مليانة ، بينمـــا يكون

الجزائريون ملتحمين في المعركة مع الاسبان ، فيقعوا بين نارين ، وينتهي أمرهم ، ويحتل الحليفان الاسباني والمغربي بلادهم .

فيوم ٢٢ أوت ١٥٥٨ ، ابتدأ الهجوم الاسباني ضد مدينة مستغانم، وجاء الكونت د الكوديت على رأس جيش ضخم ، مؤلف من اثنى عشر ألف اسباني ، أمدته بهم دولة اسبانيا ، اذ رأت الفرصة سانحة للقضاء نهائيا على دولة الجزائر ، ويصحب الاسبان جماعة كبيرة من الاعراب المرتزقة (القائد المنصور بن بوغانم ، ومن معه من بني عامر وبني راشد ، وغيرهم) صحبة مدفعية ضخمة ، وذخيرة وافرة ، وعدة سفن تسير محاذية للجيش ، تحمل المؤن والاثقال .

لكن عين حسان خير الدين كانت مفتوحة ، ويقظة الجزائريين كانت مرهفة . والاسطول الجزائري كان مستعدا الاستعداد كله لمجابهة الخطر ، فما كادت السفن الاسبانية النقالة ، تغادر مياه أرزيو ، حتى تصدى لها الاسطول الجزائري ، فاستولى عليها جميعا وانتقل كل ما كانت تحمله الى صفوف المسلمين .

كان الكونت د الكوديت وكان جيشه يرون رأى العين هذه الواقعة التي حلت بسفنهم ، دون أن يستطيعوا عمل أى شيء من أجل انقاذها فأصابتهم خيبة مريرة ، وأصبحوا يتوقعون الجوع والفاقة ، الى جانب توقع شدة الصلابة الجهادية الجزائرية .

وكان المخطط العربي الجزائري على أبدع ما يمكن من حيث الاحكام والدقة . اذ بينما كان جيش المجاهدين يحث السير نحو مستغانم ، خرج من مدينة تلمسان على رأس جماعة بها ، القائد البطل الحاج على (قلش على) يسير — سيرا معاكسا ، على الطرق الداخلية ، متجها من

الغرب الى الشرق ، لكى يمنع الاسبان من أى محاولة تسرب نحو الداخل ، ومهاجمة الدواوير والقرى من أجل الاستيلاء على ما فيها من أقوات ومؤن •

دخل الاسبان مدينة مازغران ، دون مقاومة ، وحطموا بوابتها الضخمة البديعة، لكى ينحتوا من حجارتها مقذوفات لمدافعهم ، ثم أسرعوا السير بجيشهم الكثيف ، يريدون الاستيلاء على مستغانم ، قبل وصول الجيش الجزائرى • ووصلوا فعلا ، بكامل قواهم ، على مشارف المدينة ، فالتحموا فى معركة حامية مع جموع المجاهدين المتطوعين من عرب الناحية ، الذين جاءوا مددا للمدينة ، قبل وصول الجيش الجزائرى ، وتمكنوا من دخول منطقة الدفاع ، رغما عن الحصار الاسبانى

وعند مطلع الفجر من يوم ٢٣ أوت ، أعلن الكونت د الكوديت النفير العام، فتقدمت كل جيوشه والجموع الموالية له تهاجم الاسور، وتحطم الابواب، واستبسل الجانبان فى الحرب الكثرة الاسبانية تهاجم ، والقلة الاسلامية من رجال الحامية الجزائرية واهل المدينة والمتطوعون، تقاوم مقاومة الذى باع روحه لله، ولم يبق له من أمل الا الموت شهيدا، دفاعا عن الدين والوطن والحرمات •

اكتسح الاسبانيون الاسوار، فانقلبت المدينة كلها ميدانا للحرب ، وأصبحت كل حارة وكل منزل وكل طريق فيها معقلا للدفاع ، تجلت فيه أروع صور البطولة والفداء، كانت المعركة تدور حول كل شبر وكل ذراع من أرض المدينة، ولم يتمكن الاسبانيون من ناصيتها •

جاءت البشرى الى المجاهدين بأن جيش حسان خير الدين قد أشرف

على المدينة من ناحيتها الشرقية والجنوبية، وانه جاء فى جيش ضخم يشمل خمسة الآف من رماة البنادق، والف فارس، وقد انضم اليه من رجال الشعب اثناء الطريق زهاء الخمسة عشرة الفا، يحملون أسلحتهم المختلفة، فازدادت المقاومة عنفا واطمأنت القلوب •

وصل الجيش الجزائرى الضخم، ودخل المدينة حالا، واشترك فور وصوله فى المعركة، وكان الصدام عنيفا هائلا، فما انحدرت شمس ذلك اليوم نحو الغروب• حتى كان الاسبان قد ابعدوا الى خارج المدينة، تاركين بين جدرانها عددا ضخما من القتلى والجرحى •

وقضى الجانبان تلك الليلة فى راحة نسبية، انتظارا للمعركة التى ستكون فصل الخطاب •

واشرقت شمس الغد ٢٤ أوت، فاذا بالاسبانيين، واتباعهم من بائعى الذمة والشرف والايمان، يجدون أنفسهم فى مركز جد حرج ، والمسلمون يحيطون بهم من كل أطرافهم :

أمامهم من جهة الشرق، رجال وفرسان الجيش الجزائرى ومن معه من المجاهدين العرب ومقاتلى مستغانم الاشاوس •

وعلى يمينهم وقفت كتائب الحاج على التلمسانية •

وعلى يسارهم، نزل بحارة الاسطول الجزائرى الى الارض، واخذوا يضيقون عليهم الخناق، بينما كانت سفن ذلك الاسطول تمطرهم وابلا من قذائفها المختلفة واشتعلت نيران المعركة من جديد، فكانت حامية رهيبة حاسمة •

وبين أصوات التهليل والتكبير، استيقظت ضمائر الاعراب اللذين جاءوا مع الاسبان، فانقلبوا عليهم، وانضموا فى اغلبيتهم الى جماعة

المجاهدين، وآوى الى خيامه من لم يلب دعوة الجهاد منهم، فاشتد الضيق بالاسبان، وعظم الكرب، واخذوا يفتحون أمام أنفسهم، بكل مشقة، لاطريق التقدم، بل طريق الانسحاب والهزيمة .

لكن المسالك كانت مسدودة، والضغط الاسلامى كان شديدا قاهرا ، فانقلب الانسحاب الاسبانى الى هزيمة، ثم ماعتم أن انقلب الى فرار ، واصبح كل اسبانى لايفكر الا فى النجاة بنفسه لايلوى على شىء ، والمسلمون يتتبعونهم خطوة خطوة، لايتركون له مفرصة لاستعادة النفس . الى أن وصلوا بلدة مازغران، فتدافع الاسبان نحو ابوابها ومساربها، فى فوضى واضطراب، وتهالكوا على دخولها يدوس بعضهم بعضا، ويقتل بعضهم بعضا، وما دروا، وهم فى حالة رعب أصبحت جنونا جماعيا، انهم كانوا فى تلك الساعة الرهيبة، يدوسون تحت أقدامهم، نفس قائدهم، البطل الجسور العجوز، الكونت د الكوديت . وهكذا كتب الله لهذا القائد الصليبى، المؤمن المقتنع، بأن يموت منهزما ، منكسرا، فاقدا لكل أمل، تحت أرجل جنده الفار الرعديد. أما ابنه فقد كان من بين الاسرى. واحتل المسلمون مازغران، واسروا كل من تمكن من الالتجاء اليها، فكان عدد القتلى والاسرى من الاسبان يتجاوز الاثنى عشر الفا . ولقد تم هذا النصر العظيم، الذى كان من أكبر ايام الجزائر الجديدة الماجدة، عند غروب شمس الجمعة ٢٦ أوت ١٥٥٨ . (١٢ ذى القعدة ٩٦٥ هـ .)

أما جثة الكونت د الكوديت، فقد سلمها الجزائريون بكل احترام الى ابنه الاسير، فرجع بها الى وهران . وذلك تقديرا منهم لبطولته ، وحميته، واستبساله فى الدفاع عن معتقداته .

موت شرلكان ، غما وهما

لم تقم للامبراطور الكبير شرلكان قائمة، تقريبا، بعد انكساره الشنيع وخيبة آماله، أمام مدينة الجزائر، سنة ١٥٤١ •

فبعد حرب دامت أربعين سنة مع فرنسا، تخللتها بعض فترات السلام ، اضطر الامبراطور لعقد هدنة بوسيل سنة ١٥٥٥ •

وبعد أن حارب حركة الاصلاح الدينى، البروتستانية، دون رحمة ولا هوادة، بصفته حامى حمى الكاثوليكية • اضطر لعقد الصلح مع البروتستانيين فى أوكسبورغ سنة ١٥٥٥ أيضا •

وشاهد انهيار آماله بافريقيا • من جراء استرجاع الجزائريين لبجاية، وانضمام مملكة تلمسان نهائيا للوحدة الجزائرية •

فامام هذه الخيبات المتوالية وانهيار آماله ، أعلن تنازله عن عرش الامبراطورية وقسم البلاد نصفين ، فسلم ملك المانيا لاخيه فردنياند ، وسلم ملك اسبانيا، وبلجيكا وهولاندا، وايطاليا، وممتلكات أميركا، لابنه فليب ثم اعتكف سنة ١٥٥٦ بديريوست، حيث قضى سنتين فى العبادة والنسك، ومات سنة ١٥٥٨، عندما كان الجيش الاسبانى يصاب بنكبة من أعظم نكباته الافريقية، فيما بين مستغانم ومازغران، وقد كان يعانى تلك الساعة سكرات الموت، فكتموا عنه انباء الكارثة •

وكانت أيام ابنه فليب الثانى، ابشع واحط أيام اسبانيا •

عودة حسان باشا خير الدين، للمرة الثالثة

أراد حسان أن يغتنم فرصة انتصار مستغانم العظيم، لتصفية حساب

مركز وهران الاسبانى ،واخذ يستعد فى مدينة الجزائر لجمـع قوى جديدة، منظمة منقادة الى جانب جيش العثمانيين، فجند حسب مخططه الجديد عشرة الآف من رجال زواوة الاشداء، وقد كان شديد الميـل اليهم، معترفا بصدق ايمانهم وشدة شكيمتهم، وتزوج من ابنة زعيـم كوكو من أكبر بيوتاتهم، فساء كل ذلك جيش الانكشارية، ووقعت بينهم وبينه قلاقل، أدت الى رجوعه لمدينة استانبول، لكـن السلطان سليمان العثمانى اعاده لمقر ولايته، فى شهر أوت سنـة ١٥٦٢ • فأخـذ يوالى استعداده، لتحقيق هدفه العظيم •

الانهيار الاسبانى فى جزيرة جربـة

اخفقت سياسة الاسبان فى تطويق المغرب العربى، وضرب البلاد الجزائرية من الخلف، واستعباد البلاد التونسية •

فبعد أن حرر العثمانيون مدينة طرابلس الغرب، وجهوا انظارهـم لجزيرة جربة، التى جعل منها الاسبانيون معقلا حصينا منيعا، يعتمدون عليه فى حركاتهم الهجومية والدفاعيـة • بعـد أن استولى عليهـا دوق مدينا سيلى نائب مملكة صقلية فى شهر جوان ١٥٦٠، وانزل بها جيشا ضخما قوامه أربعة عشر الف رجل •

جاء الاسطول العثمانى مددا للقائد البحرى طور غود رايس، وكان هذا الاسطول الضخم يشمل ٨٦ سفينـة حربية، تحت قيادة مصطفى بيالى باشا نفسه وهو يومئذ القائد العام للاساطيل الاسلامية، فداهم جزيرة جربة، بصلابة وعنف، ودارت رحى المعركة الضارية، فأسفرت عن انهزام الاسبان شر هزيمة، بعد أن فقدوا من أسطولهـم ٣٥ سفينة ،

معركة المرسى الكبير التاريخية

وبعد أن تركوا فوق أرض جزيرة جربة الزاهرة مايزيد عن الخمسة الاف اسير، والاف من القلتى وانقذت جزيرة جربة بذلك نهائيا .

قضى حسان بن خير الدين خمسة أشهر، بعد عودته للجزائر، يهيئى العدة لمهاجمة وهران والمرسى الكبير، وهما كل ما بقي لاسبانيا ببلاد الجزائر .

ففي الخامس من شهر فيفرى من سنة ١٥٦٣ ، خرج من مدينة الجزائر نحو الغرب ، يسوق بين يديه جيشا عرمرما ، مؤلفا من : ١٥٠٠٠ رجل من رماة البنادق .

و١٠٠٠ فارس من الصباحية يقودهم أحمد أمقران الزواوى (وهو من عائلة المقراني الكبيرة .)

و١٢٠٠٠ راجل من زواوة وبني عباس .

أما المؤن والذخيرة، فقد حملها الاسطول الجزائرى الى مدينة مستغانم، التى اتخذها قاعدة العمليات .

ويوم ٣ من شهر افريل، وصل بكامل جيشه أمام مدينة وهران ومرساها الكبير، فخيم عليها، وجعل مركز قيادته فى « رأس العين » ونصب مدافعه حالا تجاه حصن « القديسين » .

ولقد كان الاسبان فى وهران مستعدين لتلقى الصدمة، وراء حصونهم وقلاعهم ومراكز دفاعهم، المحكمة الوضع، يقودهم فيها دون الونزو دى قرطبة . أما فى المرسى الكبير، فكان استعدادهم مثل ذلك، وكانت قيادتهم بيدى شقيق قائد وهران، المركيز دون مارتان، وهو ابن

الكونت د الكوميته، الذى اطلق حسان سراحه وسلمه جثة أبيه، بعـد كارثة الاسبان بمستغانم •

واستنجد القائدان اسبانيا، فامدتهما بأربعة الاف رجل، تحت قيادة دون خوان دى ماندوزا، لكن زوبعة عاصفة هبت على البحـر، فاتلفت ثلاثة أرباع الاسطول، وغرق بما فيه ، وكان دون خوان من بين الغرقى، فلم يصل وهران أكثر من ألف رجل •

أخذ حسان يرمى الحصون بالقنابل وصمم الاسبان، كما هى عادتهم عندما يكونون وراء الحصون والقلاع، على الدفاع النهائى، والموت فى سبيل المدينة الى آخر رجـــل •

ودارت رحى المعركة الطاحنة على الصفة التالية :

١ ـ هاجم الجيش الاسلامى بقوة وشراســة، حصــن القديسين ، وتمكن من احتلاله بعد تحطيم جدرانه • (يوم ١٥ افريل)

٢ ـ ادار الجيش الاســلامى الجــزائرى مدافعــه ، من ذلك الحصــن ، ومن غيره من المراكز، نحو قلاع المرسى الكبير ،وطلب حسان باشا من قائد حصن القديس ميشال، أن يستسلم، فرفض بشمـــم •

٣ ـ تولى حسان باشا مهاجمة الحصن بنفسه، عــلى رأس صفوة مختارة من رجال جيشه، وتمكن مرتين من وضع السلالم على جدران الحصن من أجل مقاتلة العدو عليه، لكنه اخفق فى احتلاله، ودامـــت المعركة يوما كاملا، كان فيها الهجوم الجزائرى عنيفا، وكان فيها الدفاع الاسبانى مستبسلا، وفقد حسان خلال هذه العملية خيرة ضباطه ونحو خمسمائة من مجاهديه •

٤ ـ العاصفة البحرية التى حطمت اسطول النجدة الاسبانية، عاقت

أيضا وصول الاسطول الجزائرى الذى يحمل المدافع الثقيلة والذخيرة والمؤن الى ارزيو ومستغانم، فلم يتصل حسان باشا خير الدين بالمدد السريع الذى كان ينتظـــره •

٥ ـ ارسل حسان باشا لدون مارتان، ابن الكونــت د الكوديــت ، يطلب اليه تسليم المدينة، فأجابه بما مضمونه، انني افعل من أجلك كــل شيء، وأطيع أوامرك مهما كانت، اعترافا بجميلك على، وتسليمك لى جثة أبى، بعد اداء التحية العسكرية لها، أما أن أسلم اليك المدينة التى هى امانة جلالة ملك اسبانيا فى عنقى، فذلك أمر لاسبيل اليه » •

٦ ـ وصل الاسطول الجزائرى، يحمل المدافع والمؤن، بعــد حين ، ونصب الجزائريون مدافعهم فى المواقع المناسبة، وابتدأوا يقصفون من البر ومن البحر حصون وقلاع المرسى ،وذلك يوم ٤ ماى

٧ ـ تلقى المدافعون عن الحصون بعض المدد من وهران، وهاجــم المسلمون القلاع، خمس مرات، يومى ٥و٦ ماى، دون جدوى

٨ ـ يوم ٨ ماى، هاجم حسان باشا بنفسه، على رأس جماعة مــن رجاله، قلاع المرسى الكبير، هجوما صارما، وتمكن مــن رفــع العلــم الجزائرى فوق ثغرة احدثها فى مراكز الدفاع، واندفع منها الى الداخل، لكنه اصيب بجرح فى رأسه، ولم يتمكن الجيش من اجتياز الثغرة، نظرا لشدة الدفاع •

٩ ـ وجه الهجوم بعد ذلك، الى حصن سان ميشال، بعد دفاع مجيد غادرت بقايا الحامية الاسبانية جدرانه، تحت وابل من نيران الجزائريين، وانضمت بقاياها للمدافعين عن القلعـــة •

١٠ ـ وجه حسان نيران مدافعه نحو جدران القلعة الاساسيـــة،

واستمر قصف المدافع لها ٢٤ ساعة، فحطم الكثير منها، انما كان رجال القلعة يرممون بالليل ما تحدثه مدافع المسلمين بالنهار •

١١ — يوم ٩ ماي، كانت مدافع الجزائريين قد حطمت حصون الناحية الغربية بصفة تامة، فأرسل حسان باشا من جديد، يطلب الى المركيز مارتان تسليم المدينة، فأجابه: بما أن الحصون قد تحطمت، فما الذي يمنعك عن اقتحام المدينة ؟

١٢ —عندئذ أمر حسان بالهجوم العام، واستبسل الاسبان فى الدفاع عن بقايا الحصون والجدران والخرائب بصفة بطولية، وتمكن الجزائريون خلال ذلك من احتلال حصن جنوة، ورفع اعلامهم فوق السور، لكنهم لم يستطيعوا الثبات أمام الدفاع الاسبانى المركز، فرجعوا الى مواقعهم الاولى، بعد أن تركوا فوق أرض المعركة عددا كبيرا من الشهداء •

١٣ — تمكنت في ذلك اليوم، سفينة صغيرة اسبانية من اختراق صفوف الاسطول الجزائرى وبشرت قائد حامية وهران بأن المدد الاسبانى قادم نحوهم على متن ٥٥ سفينة، يقودها الاميرال دوريا، فاشتد ساعد الاسبان بهذا النبأ، وقويت معنوياتهم، وارسل قائد وهران، بواسطة فدائى اسبانى اخترق ما بين البلدتين سباحة، يعلم اخاه قائد المرسى الكبير بالنبأ العظيم، ويطلب اليه المقاومة اليائسة الى أن يصل المدد •

١٤ — استمرت المعارك حامية قاسية ، من الجانبين ، بصفة مستمرة من يوم ١١ ماى، الى يوم ٥ جوان •

١٥ — عزم حسان باشا على اجراء المعركة الحاسمة، وقد بلغه من جواسيسه قرب وصول النجدة الاسبانية العظيمة، فجمع رجاله، وتقدم صفوفهم، صائحا بجنده صيحات البطولة والجهاد، وتهييج، وألقى بعمامته

وسط الخندق، وألقى بنفسه فى عنفوان المعركة، أمام صفوف الاعداء ؛ كأنه يطلب الشهادة فما تمكن جنده من الاحتواء عليه والرجوع به الى الصف، الابشق الانفس •

لكن الجزائريين لم ينالوا من القلعة منالا، رغم انها أصبحت خرابا ؛ ورغم أنه لم يبق من حاميتها الا القليل •

١٦ ــ وطلعت شمس يوم ٧ جوان، فرأى الناس كافة، الاصدقاء منهم والاعداء، شراعات الاسطول الاسباني الضخم، يحمل للمحصورين النجدة المطلوبــة •

١٧ ــ رأى حسان باشا ، وهو يكاد يتميز من الغيظ والانفعال، هذه القوة الاسبانية الجديدة، تصل وهى على أتم استعداد للقتال وكـــان الجيش الجزائرى قد انهكت المعارك قوته، ودوريا يوشك أن يتطع عنهم خط الرجعة فأمر بالانسحاب ، والرجوع للجزائـــر مـــن أجل استعداد جديد •

١٨ ــ تقاتل الاسطول الجزائرى ، وكان قليل العدد ، مع الاسطول الاسبانى الضخم، والتحم معه فى معركة حامية غير متكافئة، فغرقت تسع سفن جزائرية، ورجعت البقية الى الجزائر •

وهكذا انتهت المعركة بفشل الحملة الجزائرية ، وانتصار الاسبانيين ، بواسطة ثباتهم البطولى ، واستماتتهم فى سبيل الدفاع ، الى أن وصلتهم النجدة المنقذة •

حسان خير الدين يحاول احتلال مالطة

عزم السلطان سليمان ، على احتلال جزيرة مالطة ، التى كانت أكبر

معقل للمسيحيين فى وسط البحر المتوسط ، والتى استقر بها ، منذ سنة ١٥٣٠ ، فرسان القديس يوحنا ، المقاتلون الصناديد .

فأرسل لمنازلة الجزيرة الحصينة القوية أسطوله، تحت قيادة، بيالى باشا نفسه وطلب الى الرايس طورغود ، حاكم طرابلس وجربة ، والى حسان باشا ، باى لرباى الجزائر ، أن يتوجها على رأس أسطوليهمـا الاسلاميين للمشاركة فى عملية مالطة ، واخضاعها استعدادا لمنازلة بقية المعاقل الاسبانية بعد ذلك . فسار اليها حسان على رأس عمارة تشمل ٢٥ سفينه ، وثلاثة آلاف رجل من المدربين .

وصل الاسطول الاسلامى برمته امام الجزيرة الباسلة ، يوم ١٨ ماى ١٥٦٥ ، ونصب عليها الحصار ، ثم نزل الجيش الاسلامى ، واحتـل معقل القديس ايلم ، بعد أن أصيب بخسائر عظيمة ، واستشهد على رأس المسلمين، الرايس الشهير طورغود البطل . الذى قال عنه مؤرخو الافرنج « انه كان قائدا ذا قيمة عديمة المثال ، وكان يتحلى بصفات انسانية غير معهودة فى القرصان » وكان ذلك يوم ٢٣ ماى . وتوالت المعارك البطولية بين الجانبين ، ودافع الفرسان المسيحيون عن جزيرتهم دفاعا يسجل حقا فى صحائف المجد ، وردوا هجوما عنيفا قام به حسان باشا وجيشه يوم ١٥ جويلية على حصن القديس ميخائيل ، ثم استمر الحصار ضيقا شديدا ، واستمر الدفاع عنيفا باسلا ، الى أن جهـزت المسيحية رجالها وأساطيلها ، وجاء المدد تحت قيـادة نائب الملـك فى صقلية ، صحبة أسطول مؤلف من ٢٨ سفينة حربية ، تحمل ١٢٠٠٠ من المقاتلين ، والتحمت المعارك تترى بين الجانبين ، الى أن هلـك نصف الجيش الاسلامى وتمكن الباقون من الانسحاب، يوم ٨ سبتامبر ١٥٦٥.

حسان باشا يرتقع لمنصب قبودان باشا

مات السلطان العثمانى العظيم ، سليمان القانونى ، يوم ٥ سبتامبر ١٥٦٦ ، (٢٠ صفر ٩٧٤ هـ) بعد خلافة دامت ٤٨ سنة ، رفع اثناءها لواء الاسلام فى الخافقين ، أعلى عليين •

وخلفه ابنه السلطان سليم الثانى • فاسند منصب القائد العــــام للاسطول العثمانى ، الى حسان باشا خير الدين ، فترك مملكة الجزائر ، متوجها الى استامبول خلال شهر جانفى ١٥٦٧ (٩٧٤ هـ) وعين السلطان مكانه فى منصب الباى لرباى ، الامير محمد بن صالح رايس ، موحد الجزائر ، وفاتح بجاية ، وبقى حسان خير الدين فى منصب القيــادة البحرية العامة للاسطول الاسلامى ، الى أن توفى سنة ١٥٧٠ ، عن ٥٣ عاما ، ودفن الى جانب والده العظيم ، فى مسجد باكداش فى حى بويوك دارة باستانبول ، رحمهما الله رحمة واسعة •

اغرب مغامرة لاحتلال مدينة الجزائر

هى قصة بطولية من أغرب قصص المغامرات ، تكاد تكون الى الخيال ، أقرب منها الى الحقائق •

فى شهر أكتوبر من سنة ١٥٦٧ ، تمكن أحد رجال البحر الماهرين يدعى خوان قاسكون ، من بلنسية ، من اقناع الملك الاسبانى ، بأنه يستطيع ، على رأس سفينتين فقط الاستيــلاء على مدينـــة الجزائـــر ، فجــأة ، وتحطيم الحكم الاسلامى فيها • وكان برنامجه « يقتضى »

١ — أن يدخل مرسى مدينة الجزائر فجأة تحت ستار الليل •

٢ — أن يشعل هو ورجاله النار فى أسطول الرؤساء •

٣ ـ يغتنم حالة الهيجان التى تعقب ذلك ، فيدخل المدينة ، ويطلق سراح الاسرى المسيحيين الموجودين فيها ، ويضمهم الى جماعتـه ، ويعطيهم السلاح الكافى فيستحوذ على المدينـة ويقضى فيـها على كل مقاومة ، ويتحصن بها ريثما يأتى الاسطول الاسبانى حاملا الجيش والامداد •

رأى الملك الاسبانى أن هذه المغامرة ، لن تكلفه كثيرا ، فاذا ما هى نجحت ، كانت قد حققت ما لم يستطـع شرلكان نفسه تحقيقه ، واذا ما اخفقت ، فلا يعتبر اخفاقها أمرا خطيرا •

وهكذا خرج خوان من أسبانيا يوم أول أكتوبر ، وحل بمرسى الجزائر ليلا بعد أربعة أيام • وكان الليل حالك السواد ، فتسللت السفينتان داخل المرسى ، دون أن يشعر بوصولهما أحد •

وكان الاسطول الجزائرى متجمعا فى مرسى الجزائر الضيق ، وقد التصق بعضه ببعض ، بحيث أن أيقاد النار فى سفينتين أو أوثلاث سفن منه تلهب النار بمجموعه • فكلف خوان ستة من رجاله ، أعطاهم المواد الملتهبة ، بايقاد النار ، بينما اقتحم هو على رأس البقية من رجاله « باب البحر » ففاجأ الحارس وقتله ، ثم توجهت كامل الجماعة الى مكـــان الاسرى النصارى ، يحملون معهم الاسلحة ، من أجل تنفيذ الخطة •

لكن هذه العصابة ، وهى تقوم بهذه المخاطرة ، لم تر السنة اللهب متصاعدة من سفن الاسطول الجزائرى ، حسبما كان مقررا • فتعطلت عن مهاجمة دار الاسرى، وعلمت أن المغامرين الستة لم يتمكنوا من ايقاد النار فى السفن الجـزائرية ، فاكتفت بفـك اسـار نحو العشرين من المسيحيين ، وانسحبت ـ رغم ارادة وأنف قائـدها خـوان ـ الى

سفينتيهما، فركب الجميع البحر، وغادروا المرسى مستعملين المجاذيف.

لقد كان رجال المرسى وكان الحرس قد تنبهوا منذ الساعة الاولى لتلك المحاولة ، فقتلوا الستة المكلفين باحـــراق الاسطـــول ، ثم ركـــب الجزائريون بعض السفن ، وتتبعوا رجال العصابة فالتحقوا بهم غير بعيد ، وأعادوهم الى الجزائر ، مع الاسرى المحررين .

أما البحارة، فقد وضعوا فى سجون الاسرى، وأما خوان قاسكون ، فقد ساقه سكان مدينة الجزائر ، الى محكمة الباشا ، واشتد بهم الهيجان فتظاهروا مطالبين باعدامه .

فجماعة الرياس ، ورجـــال البحـــر ، الذين أعجبوا بهذه المغامرة ، تولوا مهمة الدفاع عنه ، قائلين انه كان رجـــلا محاربا ، وانه يجب أن يعامل معاملة المقاتلين الاسرى .

لكن الباشا كان تحت تأثير الجماهير الجزائرية المتهيجة ، فحكم بأن يسلم الرجل للشعب الذى أسره ، ليفعل به ما يشاء .

وانتقم الشعب من المغامر شر انتقام . وبقيت جثته معلقة أيـــاما فوق سور المدينة .

ويقول الاستاذ المؤرخ دو قرامون ، تعليقا على موقف الرياس، من دفاعهم عن هذا المغامر « ان هذا الموقف يؤكد همة رؤساء البحر ، وأنهم كانوا رجال شرف وأمانة عسكريـــة ، ولم يكونوا اوباشا ، أو لصـــوص بحر » .



الفصل الحادي عشر

كلج علي باشا المجاهد العظيم

سبق لنا أن ذكرنا هذا البطل ، أثناء كفاحه الطويل من أجل الاسلام ومن أجل وحدة الجزائر وتحررها ، تحت اسم ــ « الحاج على » ولقد ورد ذكره فى تقرير اسبانى سبق لنا نشره ، كحاكم لمدينة قسنطينة ، كما ورد ذكره مرارا أثناء حوادث تلمسان ، وأثناء محاولات استرجاع وهران ومعركة مستغانم وغزوات البحر العديدة .

ونجده الان ، وهو صاحب السلطة العليا فى مدينة الجزائر ، متمتعا بلقب باى لرباى ، الذى أضفاه عليه السلطان سليم الثانى ، سنة ١٥٦٨

ولابد لنا ، قبل الدخول فى تفاصيل جهاده ، أن نصحح اسمه ، وندرك معناه . فهذا الاسم يحمل بين ثناياه معنى الجهاد ، ومعنى التكريم . فالسلطان العثمانى هو الذى غير اسمه ، من علج على الى كلج على . وكلج كلمة تركية لا نزال نستعملها محرفة بعض التحريف ، فى لهجتنا العامية ، فننطق بها « قلش » ومعناها السيف .

انه قد استحق هذا الاسم ، بجهاده ، وبايمانه ، وبانقطاعه لخدمة الاسلام والدفاع عن أرضه وعن حرماته .

وكان الحاج كلج على ، وهو على رأس الدولة الجزائرية ، يريد أن يندفع بجرأة مغامرا لكى يحقق هدفيه العظيمين : تحرير المغرب العربى من بقايا الاسبان ، والاندفاع نحو بلاد الاندلس ، للمد من أجل بقايا المسلمين فيها ، ريثما يقيض الله من يعيد دولة ومدنية الاسلام اليها .

نجدة الثورة الاسلامية باسبانيا

كانت اسبانيا يومئذ ، تعانى أزمة عظيمة ، فى ادارتها ، وفى ماليتها التى أشرفت على الافلاس ، من جراء الخراب فى الداخل ، ومن جراء الحروب فى الخارج . وقد سادتها موجة من الظلم والارهاب والفظائع، ما لا يكاد التاريخ يأتينا بمثل لها ، فى قطر من الاقطار ، تحت حكم ملك، هو فليب الثانى ، جمع الى الظلم والشراسة وفساد الاخلاق وفساد السريرة ، حتى استوجب هذا الحكم القاسى العنيف من المؤرخ الانكليزى الاكبر موتلى : « وقليل من الرجال الذين عرفهم التاريخ ، قد استطاعوا بجهودهم الخاصة ، أن يأتوا بمثل هذا المقدار الضخم من البشر ، الذى جاء به هذا الملك .

...... واذا كانت هنالك عيوب قد برىء منها ــ كما يمكن أن يكون ذلك ــ فسبب ذلك هو أنه غير مسموح للطبيعة الانسانية بأن تبلغ الكمال ، حتى فى الشر » .

فهذه الحالة المرتبكة، وماصحبها من مظالم، وويلات وآفات، جعلت الباقية من مسلمى اسبانيا فى ناحية الجنوب ، سواء من التى بقيت محافظة على دينها أو التى تنصرت ظاهريا ، تأخذ الاهبة للانتقاض على الحكم الاسبانى ، وراسلت كلج على تطلب العون والمدد . وعينوا موعدا لاعلان الثورة يوم مجمع القديسين : (يوم ١ نوفامبر)

جمع كلج على باشا، بمدينة الجزائر، جيشا عظيما قوامه ١٤٠٠٠ رجل من رماة البنادق، مع ستين الفا من المجاهدين الجزائريين، من

مختلف جهات البلاد ،وأرسل بهم الى مدينتى مستغانم ومازغران ، استعدادا للغارة على وهران ، ثم النزول فى بلاد الاندلس . وأرسل مع الرجال المذكورين، عددا كبيرا من المدافع، و ١٤٠٠ بعير محملة بارودا .

ويوم الاربعاء المتفق عليه، أى يوم عيد مجمع القديسيين كانت أربعون سفينة من الاسطول الجزائرى، تقف أمام مرسى المرية الاسبانى ، لشد أزر الثورة ساعة اندلاعها .

لكن العملية اخفقت يومئذ لسوء تصرف أحد رجال الثورة من الاندلسيين، اذ انكشف امره فداهمه الاسبان، وضبطوا ما كان يخفيه فى بيته من سلاح . واطلعوا على تدبير الثورة، فلم تقع فى اليوم المعين ، وخسرت بذلك فرصة المبادأة .

انما الثورة اعلنت بعيد ذلك . وبعث كلج على باشا، فى شهر يناير من سنة ١٥٦٩، اسطول الجزائر لتأييد الثائرين ،وحاول انزال الجند الجزائرى فى الاماكن المتفق عليها، لكن الاسبانيين كانوا قد عرفوا ذلك من قبل ، فصدوه عن النزول .

وكانت الثورة فى عنفوانها، وزوابع الشتاء قوية فى البحر، فالاسطول الجزائرى أصبح يقاوم الاعاصير من أجل الوصول الى أماكن أخرى على الساحل ينزل بها المدد المطلوب، الا أن الزوابع قد نالت منه كل منال ، فاغرقت ٣٢ سفينة جزائرية كانت تحمل الرجال والسلاح ،ولم تتمكن الا ست فقط من السفن، من انزال شحنتها فوق سواحل الاندلس ، وكان فيها المدافع والبارود والمتطوعون الجزائريون .

لم يأبه كلج على لهذه الكارثة التى ارادها الله لاسطول الجزائر ،

نصمم على ارسال مدد جديد، لمسلمى الأندلس، وتمكن من انزال اربعة آلاف من مجاهدى الجزائر، خلال شهر أكتوبر من تلك السنة من رماة البنادق النارية المركزة AROUEBUSES وذخيرة كثيرة ، وبعض مآت من قدماء المجاهدين العثمانيين ، لكى يعملوا اطارات فى ادارة المعارك .

وفى السنة الموالية، سنة ١٥٧٠ ارسل الجزائريون مددا جديدا، من الرجال والسلاح اغاثة للثورة الاندلسية وكان كلج على باشا يريـــد الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هنالك . لكن مـا شاع وذاع عن تجمع اساطيل المسيحية، واستعدادها لاجراء معركــة حاسمـة مـع المسلمين . وامر السلطان له بالاستعداد للمشاركة فى هذه الملحمـــة العظمى ، جعله مضطرا للبقاء فى الجزائر، منتظرا للحوادث .

اخفاق الثورة بالاندلس :

كانت الجزائر، هى الدولة الاسلامية الوحيدة التى مدت يدها بالاعانة الفعالة لثائرى الاندلس، من رجال وأسلحة وعتاد، ولولا أن قضى الله ولامرد لقضائه بغرق ٣٢ سفينة جزائرية كانت تحمل السلاح والرجال، ولولا انكشاف أمر الثورة، واطلاع الاسبان على مخططها، لربما كانت الحالة تتطور لفائدة بقاء الاسلام هنالك .

لكن المسيحية قد تجمعت يومئذ فى اسبانيا، لقتال ومحق هذه الطائفة التى كانت آخر من يعبد الله فى بلاد الاندلس، وكانت النهاية الاليمة ، هى هذه الرواية المحزنة، التى يلخصها الامير شكيب ارسلان، عن كتاب استانلى « الاسلام فى الاندلس » :

« وبويع لرجل موصوف بالنجـدة والحماسة ، اسمه عبد الله بن أبوه .

« فارسلت دولة اسبانيا لتدويخ الثوار الدون يوحنا الاستيرى، اخا الملك ، وهو شاب فى الثانية والعشرين من العمر (هو ابن غير شرعى للامبراطور شرلكان ولد سفاحا من احدى خليلاته ، وقد تولى فيما بعد قيادة الاسطول النصرانى، كما سترى) فباشر القتال فى اثناء سنة ١٥٦٩ ــ الى ١٥٧٠، وأتى من الفظائع ما بخلت بامثاله كتب الوقائع ، فذبح النساء والاطفال أمام عينيه، واحرق المساكن ودمر البلاد ،وكانت علامته : « لاهوادة ! » وانتهى الامر باذعان « الموريسك » لكنه اذعان لم يطل . واستأنف مولاى عبد الله ابن أبوه الكرة، فاحتال الاسبان حتى قتلوه غيلة ،وبقى رأسه منصوبا فوق أحد أبواب غرناطة ثلاثين سنة .

« افحش الاسبانيول فى قمع الثورة بما اقدموا عليه من الذبح ، والحريق، والخنق بالدخان، حتى اهلكوا من بقية العرب هنالك خلقا كثيرا، وخنع الذين نجوا من الموت فوقعوا فى الرق، وسيقوا مماليك وعبدانا .

«... ولما كان اليوم المشهود المذكور فى التاريخ، وهو عيد جميع القديسيين سنة ١٥٧٠، بلغ عدد من ذهب منهم عشرين الفا، والذين اخذوا منهم فى معمعة الفتنة صاروا الى الاستعباد، والباقون اخرجوا من البلاد مخفورين، فمات كثير منهم على الطريق تعبا .... ولم ينته اخراجهم تماما الا سنة ١٦١٠، اذ وقع الجلاء الاخير ..... ويقال ان عدد من خرج منهم، منذ اليوم الذى سقطت فيه مملكة غرناطة، الى السنة العاشرة بعد الالف والستمائة بلغ الثلاثة ملايين ، وان الذين خرجوا لآخر مرة ، نحو نصف مليون (كما ترى فى فصل آت)

ويختم المؤرخ الانكليزى كلامه عن هذه المأساة، بهذه العبارة :

« وما درى الاسبانيون المساكين ، بأنهم كانــوا لا يعرفــون ما ذا يصنعون ، ولا انهم كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم ، بل كانوا فرحــين بابعاد المسلمين مع أن اسبانيا كانت بهم مركز المدنية، ومبعــث اشعة العلم قرونا، وقلما استفادت بقعة اروبية من حضارة الاسلام، بمقدار ما استفادته هذه البلاد، فلما غادرها الاسلام، انكسفــت شمسها ، وتسلط نحسها . وان فضل مسلمي الاندلس ليظهــر في همجية هؤلاء القوم (الاسبان) وتأخرهم في الحضارة وسقوط هذه الامة في سلــم الاجتماع ، بعد أن خلت ديارها من الاسلام » اه .

وهكذا انهارت آخر الامال في انقاذ البقية الباقية من الاســلام في بلاد الاندلس وكانت الخيبة مريرة، وكان رد الفعل مؤلمــا في اطراف بلاد الدولة الجزائرية التي كانت ، منذ عهد البربر وسنى عروج وخير الدين، الى آخر عهد قلج على (١٥١٦ ـــ ١٥٧٠) تجعل انقاذ بقايـــا الاندلس هدفا من أعظم اهدافها .

الحلف البابوي :

كان البابا بيوس الخامس (١٥٦٦ ـــ ١٥٧٢) قد أدرك الخطـــر الاسلامي العظيم الذي يتهدد البلاد الاروبية ، من جراء تدفق الموجة التركية العثمانية برا وبحرا، فأخذ يسعى من جديد، لجمع شمل البلاد الاروبية المختلفة، وتوحيد قواها برا وبحرا، تحت راية البابوية، من أجل الوقوف في وجه الاسلام .

وهكذا تمكن من جمع اسطولي اسبانيا وجمهورية البندقية وبقيـــة الدويلات الطليانية والمانيا، مع اسطول البابوية واستعدت القـــوى

المجتمعة الموحدة للهجوم . ولقد تم عقد هذا الحلف المقدس الكاثوليكى ؛ فى كاتدرائية سان بيار (القديس بطرس) يوم ٢٥ ماى ١٥٧٠ .

انقـــاذ مدينـــة تونـــــس

رأى كلج على، المبادرة قبل كل شىء باستخلاص تونس من بين يدى الاسبان فجمع الجيش الجزائرى، وبادر بمهاجمة مدينة تونس، فالتقى بجموع الملك أحمد الحفصى بباجة، ودحرها، ثم تقدم الى العاصمـــــة التونسية . يقول ابن أبى الضياف :

« وفتح أهل الحاضرة أبوابها لعلى باشا، فدخلها بمن معه ، وقصـــد القصبة وذلك سنة ٩٧٧هـ (١٥٦٩م) ونادى فى الناس بالامان ، فاجتمع اليه وجوه البلد وأخذ عليهم البيعة للسلطان سليم العثمانى ، وأعلنت الخطباء بالدعاء له على المنابر وضربت السكة باسمه ولما استقرت قدمه جاءه فرسان الزمامرة (من جيش السلطان الحفصى) وقالوا له: نحن خدام سلطاننا، دافعنا عنه بقدر استطاعتنا، ولامرد لحكم الله، فان شئتم ابقيتمونا فى بلادنا، وان شئتم ننصرف، وأرض الله واسعة، فقال لهم على باشا: لقد فعلتم ما وجب عليكم من النصح والمدافعة عن سلطانكم فأنتم الان من جماعتنا »

ثم ترك على باشا جماعة من جيشه لحماية مدينة تونس، ومحاصرة قلعة حلق الوادى التى كانت لاتزال بيـــد الاسبان ،ورجـــع توا الـــى الجزائر، لان واجبا آخر عظيما كان يدعوه بكل الحاح استجابة لامر الخليفة السلطان سليم .

– وهو المشاركة باسطول الجزائر، وعدده يومئذ ٧٠ سفينة ، فى المعركة البحرية الهائلة المنتظرة .

معركة ليبانت الحاسمة فى البحـــر

استعدت النصرانية قاطبة، تحت راية البابوية، للقيام بمعركتهـا الحاسمة وكانت قيادة الاسطول المسيحى، قد اسندت الى الامـــيرال يوحنا الاستيرى (جلاد مسلمى الاندلس، وابن شرلكان سفاحا) فسار الى البحر الادرياتيك ،وهو يشمل ٣٠٠ سفينة حربية، تحمل على متنها ثمانين الف رجل ،ولم يكن مع الاميرال العثمانى الا ٢٥٠ سفينة، والتقت العمارتان الاسلامية والنصرانية، يوم ٧ أكتوبر ١٥٧١ (١٧ جمـادى الاول ٩٧٩ هـ) أمام مدينة ليبانت ببلاد اليونـــان، واحتدمـت نـيران المعركة . وكان الاسطول الجزائرى الذى يقوده كلــج على بنفسه ؛ يحتل ميسرة الاسطول الاسلامى العام ، وعند بداية المعركة كانت رياح النصر تهب على شراعات المسلمين ،واندفع الجزائريون فى حمية وايمان يصادمون ما يليهم من سفن النصرانية، فاستولوا على عدة سفن منها ؛ من بينها السفينة التى تحمل علم البابــا .

لكن المعركة انقلبت ضد المسلمين ،واحيط بهم فكانت خسائرهـــم فادحة: غرق من الاسطول الاسلامى ٩٤ سفينة من بينها ٣٠ سفينـــة جزائرية، وأخذ المسيحيون ١٣٠ سفينة، عليها نحو الثلاثمائة مدفع ، و٣٠ الف اسير وقعوا فى قبضة المسيحيين واستشهد خلال المعركة، على باشا قائد الاسطول العثمانى .

أ ما صاحبنا قلج على، فقد استطاع انقاذ الاربعين سفينة التى بقيت من اسطـوله ، واستطـاع كذلك المحافظـة على بعض السفـن التى غنمهـا الجزائريون ومن بينها السفينة التى تحمل علم البابـــا، ورجـــع بـــها

لاستانبول، التى استقبلته استقبال الرجل العظيم، رغم الشعور بمرارة الخيبة، ونكبة الهزيمة المؤقتة •

بادر السلطان باسناد خطة « قبودان باشا » أى القائد العام للاسطول الاسلامى ، الى قلج على ، مع بقائه على خطته كباى لرباى بمدينة الجزائر فعين ممثلا له ، على رأس الدولة الجزائرية ، السيد أحمد العربى ، الذى يدعوه الاتراك « عرب أحمد »

أقبل كلج على ، ، بهمة ونشاط عديمى المثال ، على تجديد الاسطول الاسلامى، وتعويض ما فقد منه، فما جاءت صائفة سنة ١٥٧٢، حتى كان قد هيأ ٢٥٠ سفينة جديدة • وارتاعت دولة البندقية من هذا الاستعداد، فطلبت الصلح من الدولة العثمانية، وتنازلت لها عن جزيرة قبرص موضوع الصراع الكبير بين الاتراك واليونان اليوم) ودفعت لها غرامة حربية قدرها ثلاثمائة ألف دوكا

انقاذ تونس نهائيا

أراد الامير يوحنا الاستيرى النمساوى ، أن يغتنم فرصة الروع الذى احدثته معركة ليبانت السالفة الذكر، فى صفوف المسلمين، لكى ينفذ خطوة الصليبية الاسبانية الشاملة، التى كانت هدف أبيه شرلكان من قبله، كما كانت ـ وكما بقيت ـ هدف ملوك اسبانيا •

فرأى أن يبتدى بغزو مدينة تونس، واسترجاعها من أيدى العثمانيين ، ريثما يتمكن من اعادة الكرة على مدينة الجزائر •

خرج خلال شهر أكتوبر من سنة ١٥٧٣ ، من جزيرة صقلية ، على رأس اسطول مؤلف من ١٣٨ سفينة ، تحمل ٢٥ ألفا من المقاتلين ، ونزل

بقلعة حلق الوادى التى كانت تحتلها اسبانيا ، وجاء بالملك الحفصى أبى العباس أحمد ، الذى التجأ الى الاسبان ، فقرر مهاجمة تونس وأخذها حالا ، على شريطة أن يكون الحكم مناصفة بين الاسبان ، وبين السلطان أحمد الحفصى .

لكن هذا الملك اللاجىء ، كانت فيه بقايا ايمان وشرف ، فلم يقبل الحكم مناصفة ، فتنازل عن العرش لاخيه محمد بن الحسن ، ودخل الاسبان مدينة تونس ، التى لم يكن بها يومئذ ما يكفى للدفاع عنها ، وخرج أهلها فارين بأنفسهم وبشرفهم ولاذوا بالبوادى كما يقول ابن أبى الضياف : ونالهم من الجوع والعطش وكشف الستر وتشتيت الشمل ، ما هو مبسوط فى كتب التاريخ ، مما تقشعر منه الجلود »

ويقول أيضا :

« وانتهى محمد بن الحسن الى القصبة ، وشاطره قائد جيش الصبنيول فى الحكم . وعاث عسكره فى البلاد ، وربطوا خيولهم بجامع الزيتونة ، واستباحوا مابه وبالمدارس العلمية من الكتب ، وألقوا بها فى الطرقات يدوسها العسكر بخيولهم وهذا هو السبب فى قلة تآليف الفحول من هذا القطر ، فانها ضاعت شذر مذر ، فى هذه الواقعة . »

وان تونس لفى هذا الكرب العظيم ، اذ تراءت لها طلائع الاسطول العثمانى ، يقوده القبودان باشا ، كلج على باى لرباى الجزائر ، فينزل على مقربة من اطلال قرطاجنة جيشا عثمانيا قويا ، تحت قيادة المجاهد البطل سنان باشا ، ويستقدم لاعانته فورا جيش الجزائر يقوده عرب أحمد ، وجيش طرابلس يقوده مصطفى باشا . وجيش القيروان يقوده حيدر باشا .

يقول ابن أبى الضياف أيضا :

« وحاصر قلج على باشا حلق الوادى ، ووالى عليه القتال ، الى أن أخذه عنوة ، وحكم السيف فى أهله (الاسبان) وغنم جميع مابه من العدة والذخائر والآلات ، وذلك لست خلون من جمادى الاولى سنة احدى وثمانين وتسعمائة (١٥٧٣ م) ثم جرد الوزير عسكرا لحصار تونس ، ففر من بها من الصبنيول ، ومعهم محمد بن الحسن الحفصى الى البستيون، وتملك العسكر العثمانى على الحاضرة وقصبتها ، ثم اجتمعوا ، عصابة واحدة ، بقلب واحد ، على حصار البستيون (قلعه بناها الاسبان الى جانب تونس) وضيقوا على أهله من كل جهة ، وباشر الوزير سنان باشا الحرب بنفسه كواحد من الجند ، حتى انه أمر بعمل ترس يشرف منه على قتال من فى البستيون ، فكان ينتل التراب والحجر على ظهره مثل العسكر ، فعرضه أحد من أمراء الجند فقال له : ما هذا أيها الوزير ؟ نحن الى رأيك أحوج منا الى جسمك ! فقال له الوزير : « لا تحرمنى من ثواب » .

« ولم يزل ملحا على حصار البستيون الى أن ملكه عنوة يوم الخميس لخمس بقين من جمادى الاولى ، سنة احدى وثمانين وتسعمائة (١٥٧٣ م) واستأصل أهله بالقتل والاسر ، ومات من الفريقين ما ينيف على العشرين ألفا .

أما محمد بن الحسن الحفصى ، فقد ارسل به سنان باشا ، بعد أن استأصل شأفة الاقطاعيين ، الى استانبول ، حيث قضى نحبه ، وانقرضت بهذه الموقعة دولة بنى حفص ، بعد أن حكمت البلاد التونسية (والكثير من بلاد الجزائر الشرقية) ما يزيد عن الثلاثمائة والسبعين

سنة ، كانت فى أولها وفى وسطها ، بهجة الدنيا ، ومنار علم وحضـارة وسمو ، اضاء اشعاعه الآفاق .

وهكذا اسدل الستار نهائيا ، على المطامع الاسبانية فى مشرق المغرب العربى ولم يبق لهم بالمغرب الاوسط الا مدينة وهران ومرساها الكبير .

أما بالمغرب الاقصى ، فقد كانت الامور تتمخض عن حادث عظيم ، الا وهو معركة الملوك الثلاثة ، أو معركة القصر الكبير ، وانهيار المطـامع البرتغالية الى الابد .

معـركة الملـوك الثلاثـة الحاسمـة :

أرادت اسبانيا أن تتقرب بعد هذه الحـوادث الى الخليفة السلطان مراد الثالث ، وأن تعقد معه صلحا ، لكن باى لرباى الجزائر ، القبودان باشا كلج على ، وقف دون ذلك موقفا صـارما عنيفا ، وجعل السلطان يعتنق فكرته : لا صلح مع اسبانيا ،ما دامت تحتل وهران ، والمرسى الكبير . فأخفـق المسعى ، ولم تنل اسبانيـا من السلطان العثمانى ، الصلح الذى كانت تريده .

وكان الملك السعدى الشريف الغالب ، قد توفى بمراكش سنة ١٥٧٤ (٩٨٢ هـ) تاركا ملك السعديين لابنه محمد المتوكل .

وقد كان هذا الشريف الغالب المتوفى ، قد سلم حجر باديس (أو قلعة فاليس) للاسبان ، كما يروى الناصرى فى كتاب الاستقصاء عن كتاب « النزهة » :

« ذكر بعضهم أن السلطان الغالب بالله ، لما رأى عمارة ترك الجزائر وأساطيلهم ، لا ينقطـع تـرددها عـن حجر باديس ومرسى طنجة ، يعنى

البوغاز ، وتخوف منهم ، اتفق مع الطاغية (الاسبانى) على أن يعطيه حجر باديس ، ويخليها لهم من المسلمين ، فتنقطع بذلك مادة الترك عن المغرب ، ولا يجدوا سبيلا اليه ، فنــزل النصارى على حجر باديس ، وأخرجوا المسلمين منها ، ونبشوا قبور الاموات وحرقوها ، وأهانوا المسلمين كل اهانة ، ولما بلغ خبر نزولهم عليها لولده محمد ، وكان خليفته على فاس ، خرج بجيوشه لاغاثة المسلمين ، فلما كان بوادى اللبن ، بلغه استيلاؤهم عليها ، فرجع وتركها لهم . » اهـ .

لكن الشيخ عبد الملك ابن الشيخ السعدى ، أخا الغالب ، لم يعترف بالملك لابن أخيه محمد ، وطالب بالعــرش نفســه ، وغادر البلاد الى استانبول يستنجد السلطان العثمــانى ، مــراد الثالث ، ويعتــرف له بالخلافة ، ويلتزم بالدعاء له فوق المنابر ، اذا ما هو استقر على عرش السعديين . ولم يكتف الشريف عبد الملك بهذا الــوعد ، بل انضم الى الجيش العثمانى الذى ذهب مجاهدا لانقاذ تونس وشارك فى عمليات الجهاد ، على رأس جماعة من أنصاره .

فالسلطان مراد الثالث ، طلب الى والى الجزائر يومئذ ، القــائد رمضان ، الذى خلف كلج على ، أن يجهز جيش الدولة الجزائرية ، وأن يقتحم به تخوم الدولة المغربية ، لكى يفتح طريق العرش أمام الشريف عبد الملك . وكان هذا قد دخل المغرب قبل ذلك خلسة ، وأخذ فى استثارة انصاره ، واستفزاز القبائل ، من أجل القيام بدعوته .

اتم القائد رمضان تجهيزاتـه ، وسار سنة ١٥٧٥ (٩٨٣ هـ) قاصدا مدينة فاس ، وضم جيشه البالغ عدده خمسة آلاف رجل ، الى قــوى الشريف عبد الملك ، ثم صادموا معا ، جيش السلطان محمد السعدى ،

فى مكان يقال له الركن ببلاد بنى وارثين ، فاندحر امامهم ولحقت بـه هزيمة منكرة ، لأن جماعة الاندلسيين الذين كانوا معه ، قد انقلبوا عليه عندما راوا جماعة الاندلسيين والاتراك مع خصمه ، فانضموا اليهم ، ودخـل الشريف عبد الملك مدينة فاس تلك السنة، وبويع بها سلطانا على المغرب .

ثم دفع للقائد رمضان ، مصاريف الحملة التى كان اقترضها من رجال الحكومة فى الجزائر ، وكان ذلك ٥٠ ألف أوقية من الذهب ، وأكرمهـم بتحف وهدايا ثمينة ، ومدافع كثيرة ، ثم ارجعهم الى الجزائر ، وخرج لوداعهم بنفسه .

أما السلطان محمد المتوكل ، فقد انهزم الى مراكش ، واستقر بها ، وما لبث بها الا قليلا حتى تتبعه خصمه ، وهزمه من جديد ، واستولى على مراكش ، وخلاله الجو فى المغرب ، فنفذ للسلطان العثمانى وعوده ، واعترف بخلافته ، ودعا له فوق منابر المغرب .

فى هذه السنة ، بلغ امتداد الخلافة العثمانية أقصى مداه ، اذ شمل كامل أطراف بلاد العرب ، من دجلة شرقا وعدن واليمن جنوبـا ، الى المحيط الاطلسى ، زيادة عن بلاد الترك ، والبلاد الاروبية المفتوحة .

استنجاد السلطان محمد السعدى بالبرتغال :

أما السلطان محمد المتوكل ، المخلوع المنهزم ، فبعـد أن استقـر بالسوس مدة ، سار الى اسبانيا بحرا ، يطلب الى ملكها والى رجالهـا النجدة والمدد ، لكى يستعيد عرشـه ، ولكى يخرج المغرب من دائـرة النفوذ العثمانى .

لكن اسبانيا لم تكن يومئذ فى حالة تسمح لها بمثل هذه المغامـرة ،

وخاصة أن المغرب الاقصى كان لا يزال حسب المعاهدات السالفة ، منطقة نفوذ ، أو مجالا استعماريا للبرتغال . فلوى السلطان عنانه نحو لشبونة ، عاصمة البرتغال ، حيث اجتمع بالملك سبستيان ، وعقد معه عهدا : انه يتنازل للبرتغاليين عن سواحل المغرب الغربية ، وان يحكم بقية البلاد الداخلية معترفا بسلطانهم وذلك مقابل امدادهم له بقوة عسكرية ، تبعد عمه عن العرش ، وترجعه اليه ، وتم الاتفاق على هذا . وظن البرتغاليون انهم بذلك قد تمكنوا من المغرب الحر الابى وانه لن يفلت من قبضتهم .

ركب سبستيان البحر فى حملة ضخمة لم ير الراؤون قبلها ولم يروا بعدها ؛ فى ضخامة العدد ، ووفرة العدة ، وتنوع السلاح ؛ اذ كان الجيش البرتغالى يشمل نحو مائة ألف رجل حسب الروايات المغربية ، والاصح أن الجيش الغازى كان مؤلفا حسب رواية المؤرخ مانويل كما يلى :

٢٠٠٠٠ من الاسبان
١٢٠٠٠ من البرتغال
٣٠٠٠ من الطليان
٣٠٠٠ من الالمان
٤٠٠٠ من جيش البابا
٤٢٠٠٠ المجموع من غير رجال البحر .

بينما كانت جموع محمد المتوكل التى تناصره الى جانبهم لا تزيد عن ثلاثمائة رجل ، وكان القطر المغربى قد استفاق بعد ذهول لنفسه ، واستعاد بعد الفتن المتوالية ، نفسه ، والتف الشعب ، كما لم يلتف من

قبل في ذلك الزمن ، حول السلطان عبد الملك ، واستصرخ العلماء الشعب من كل جهة فاستجاب لداعي الجهاد ، وتقدمت جموع المسلمين الى نواحي مدينة أصيلا على البحر المحيط ، حيث نزل البرتغاليون خلال شهر جوان ١٥٧٨ ، وتمكنوا من الارض وتحصنوا واستعدوا للقتال ، على مقربة من القصر الكبير .

وجاءت جماعة من المجاهدين من كل صوب ، وعلى رأسها السلطان عبد الملك وكانت تبلغ أربعين ألف رجل ، والتقى الجمعان في معركة حاسمة ، فظيعة ، كان كل فريق من الفريقين يدرك هدفها ، ويدرك مآلها : فالمغاربة ، اما الي عزة وحرية أو الى مذلة وهوان : والبرتغال ، اما الى توسع واستعمار وملك ذريع ، أو الى انهيار وفقد كل أمل في امتلاك المغرب .

وقعت المعركة التي يقودها ثلاثة ملوك ، يوم الرابع من شهر أوت ١٥٧٨ ، على وادي المخازن ، (الاثنين ٣٠ جمادى الاولى ٩٨٦هـ) وهبت رياح النصر على المجاهدين ، فما انتهى اليوم حتى كانت جموع البرتغاليين قد هلكت عن آخرها تقريبا، ولم يأسر المسلمون منها الا القليل.

أما الملوك الثلاثة الذين قادوا المعركة ، فقد لقوا فيها حتفهم جميعا في يوم واحد :

السلطان عبد الملك ، مات في أول المعركة ، وكان مريضا ولم يطلع على وفاته أحد ، الا حاجبه المملوك رضوان العلج ، فكتم الخبر عن كل أحد ، وقاد المعركة فعلا باسم سيده المتوفى ، الى أن تم النصر ، وعندئذ أعلن الحقيقة للناس .

والملك سبستيان ، لقي حتفه غرقا ، وهو منهزم ، في وادي المخازن .

والسلطان المخلوع المطالب بالعرش ، الذى تولى كبر هذه الواقعة ، محمد المتوكل ، فانه حاول الفرار بعد الهزيمة ، فخاض نهر المخازن ، ومات به غريقا أيضا .

وبايع الناس يومئذ ، فى اجماع رائع ، شقيق عبد الملك ، الامير أحمد ، الذى لقب فيما بعد بالمنصور ، وكان أكبر معين لشقيقه الشهيد . فبادر بمراسلة ملوك وعظماء المسلمين وأعلامهم بالنصر العظيم ، كالسلطان مراد العثمانى ، وتلقى منهم التهانى ، يقول الناصرى : « وكان أول من وفد عليه ، رسول صاحب الجزائر » . وأرسل له السلطان مراد هدية فاستقلها ولم يعبأ بها . وقطع الخطبة للخليفة العثمانى ، ثم توالت الرسل بين السلطانين فتصالحا ، وتصافيا ، واستقر الامر للخلافة السعدية ، على أرض المغرب الاقصى .

وهكذا أنقذ الله المغرب الاقصى ؛ بل المغرب العربى كافة ، على يد هؤلاء المجاهدين الابرار ، من كارثة كادت تحل به ، وتغير مجرى التاريخ فيه . وانهارت أحلام ومطامع البرتغال الى الابد فى تملك شىء من أقطارنا . بل البرتغال نفسها ، أصبحت جزءا من بلاد اسبانيا ، بعد سنتين من ذلك التاريخ .

قال المؤرخ البرتغالى لويز ماريــة ، فى كتابه الموضوع عن أخبار الجديدة : تعليقا على هذه المعركة (حسب رواية الاستقصاء) ما نصه :

« ان هذا العصر هو العصر النحس، البالغ فى النحوسة، الذى انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح ، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال ، وانطفا مصباحهم بين الاجناس ، وزال رونقهم ، وذهبت النخوة والقوة منهم ، وخلفها الفشل وانقطع الرجاء ، واضمحل ابان

الغنى والربح، وذلك هو العصر الذى هلك فيه سبستيان فى القصر الكبير من بلاد المغرب » اهـ .

استمرار الجـزائر على الجهـاد فى البحر :

لم يفتأ الجزائريون ، خلال هذه الحوادث ، وبعدها ، يوالون الغزو فى البحر ويحطمون ما وجدوه أمامهم فى طريقهم ، من سفن الاسبان ، تجارية كانت أو حربية . وما زادتهم نكبة الاندلس الاخيرة ، وخيبة الثورة فيها خيبة مريرة ، الاضراوة واستبسالا فى قتال الاعداء الذين كانوا متمسكين بمدينتـى وهران والمرسى الكبيـر ، مضيقين الخنـاق على ما حولهما .

ففى شهر أفريل من سنة ١٥٧٨ ، هاجم الاسطول الجزائرى بقـوة وجرأة ، سواحل اسبانيا الشرقية والجنوبية ، فحطم منشآتها ، وغنم ما بها ، وأسروسبى من أهلها جمعا كبيرا ، انتقاما من الموبقـات التى ارتكبها الاسبان فى المسلمين .

وفى نفس تلك السنة ، وكان حسن باشا فنزيانو ، مملوك طور غود باشا ، يتولى السلطة فى الجزائر ، هاجم الاسطول الجزائرى مرة أخرى جزائر الباليار ، فحطم ما فيها ، وغنم ما بها .

وخلال سنة ١٥٨٢ ، جهز حسن فنزيانو أسطوله من جديد لمحاربة اسبانيا ، فوق ترابها ، وما تحتله من بلاد أروبا ، ونزلوا حوالى مدينة برشلونة الكبرى فى اسبانيا ، فحطموا منشآتها ، وغنموا ما فيها . ولم يكتفوا بذلك بل اجتازوا مضيق جبل طارق ، وهاجموا جزائر الخالدات — الكنارى — التى تحتلها اسبانيا ، فحطموا المراكز الاسبانية وغنموا

ما فيها . ورجع القبطان مراد رايس ، أحد أمراء البحر الجـزائريين المشهـورين ، بغنائـم عظيمة من هذه المغـامرة (وهو صاحب البئر التى لا تزال موجودة الآن ، حفرها صدقة للسـابلة ، على مقربة من الجـزائر ، حيث قرية : بئر مراد رايس ، وتدعى منذ الاحتلال الفرنسى للبـلاد سنة ١٨٣٠ « بير ماندرايس »

انقاذ بقايا البؤساء من مسلمى الاندلس :

ولم يكن الاسطول الجزائرى يذهب لاسبانيا ، لمجرد التنكيـل بالاسبان ، وتحطيم منشـآتهم ، وأخذ الغنائم والاسـلاب والاسرى منهم، بل كان الى جانب ذلك ، يوالى أعماله المشكورة المأجورة ، فينقذ مـن الجحيم الاسبانى ، ما استطاع انقاذه من منكوبى الاندلس . فكـان جملة من جاء بهم الاسطول الجزائرى فى تلك الآونـة ، يجاوز العشرة آلاف من الإنفس ، منحهم الجزائريون الارض ، وفتحوا أمامهم بعد يأس ، أبواب الامل والحياة .

ولم يكن طريق الجزائريين ، اثناء هذه الغزوات البحرية الكبرى ، مفروشا بالورود ، بل كانوا يقتحمون اخطارا عظيمة ، ويتحملون ضربات قاسية عنيفة ، مثال ذلك موقعة سنة ١٥٨٥ حيث التقى الاسطـول الجزائرى بعمارة قوية من أسطول جنوة فأسفرت المعركة عن أسر ١٨ سفينة جزائرية .

موت البطل كلج على باشا :

كل هذه الاعمال ، كانت تقع تحت اشراف ، وبأمر القبودان باشـا

كلج علي ، باى لرباى الجزائر . الذى كان خلفاؤه : قايد رمضان ، وحسن فنزيانو ، وغيرهم ، يتصرفون بأسمه .

وكان كلج علي ، واقفا على استكمال قوة الاسطول العثماني ، وارجاع صولته وروعته اليه ، بعد كارثة ليبانت الشهيرة السابقة الذكر ، فتمكن من ذلك على الوجه الاكمل ، وما رجعت روحه لربها راضية مرضية سنة ١٥٨٧، عن سن ثمانين سنة ، حتى كانت العمارة البحرية الاسلامية، أقوى وأعظم أساطيل العالم .

كلج علي وقنال السويس :

مما يشهد بمهارة وعبقرية هذا الرجل الغريب ، انه ماكاد يرى التجارة الاروبية الكبرى ، تجتاز ببضاعتها الوافرة الغنى ، طرق الجنوب الافريقي ، عادلة عن اجتياز البحر الاحمر ، وخليج السويس ، حتى أقنع السلطان بوجوب فتح قنال بحرى ، يصل بين ميناء السويس والبحر المتوسط ، حتى يختصر طريق القوافل البحرية فتسترجع مصر وبلاد العرب أهميتها التجارية ، ولا تفقد موانى البحر المتوسط مكانتها الاقتصادية .

واقتنع السلطان بذلك ، وابتدأ حفر القنال فعلا ، لكن الاعمال تعطلت، والغيت ، بعد موت القبودان باشا .

وبموت البطل الكبير ، كلج علي انتهى في البلاد الجزائرية نظام « الباى لرباى » الذى جعل من حكام الجزائر ملوكا حقيقيين واسعى السلطة والنفوذ ، واستعيض عنه بنظام « الباشوات الثلاثين » ، أى الذين يحكمون البلاد لمدة ثلاثة أعوام (نظريا)

نهايـة القرن السـادس عشـر وآثـاره

أسفرت هذه الاعمال الكبرى التي رسمنالها صورا واضحة ، خلال القرن السادس عشر ، عن وضعيات محدودة ، مدققة :

١ ــ اخفاق الصليبية الاسبانية ، في دور مدها العظيم ، اخفاقا شنيعا قاسيا ، في تونس وفي الجزائر ، وفي تلمسان ، وخسرت اسبانيا ، تحت ضربات المجاهدين الجزائريين ، كل ما تمكنت من قبل من احتلاله ، فلم يبق لها نهاية القرن السادس عشر ، فوق اديم الارض الجزائرية الا مدينة وهران ، ومرساها الكبير .

٢ ــ توقف « الهلالية » العثمانية ، ان صح التعبير ، فالامتداد التركي العظيم قد توقف في أروبا فعلا ، أواخر هذا القرن . وأخذت حركـــة المقاومة المسيحية الاروبية تشتد وتتكتل ريثمـا خلفتهـا حركـــة الاسترجاع ورد العثمانيين الى مراكز انطلاقهم ، خلف وادى الدانوب .

٣ ــ انتظام سير الجزائر ، التى أصبحت دولة بأتم معنى الكلمة ، رغم تبعيتها لسلطان العثمانيين ، كخليفة للمسلمين ، واستمرارها على اعمال الغزو والجهاد ، ضد الاسبانيين ومن أنضوى تحت لوائهم أولا ثم تعميم الحرب ضد كل دولة لم تتعاقد مع الجزائر رأسا .

٤ ــ تونس ، وطرابلس ، ومصر ، ولايات عثمانية ، كبقية بـــلاد العرب والترك .

٥ ــ استقرار سلطنة الاشراف السعديين ، تحت لواء السلطان أحمد المنصور استقرارا متينا ، معترفا به من الجميع .

٦ ــ فقد المسلمين لآخر أمل في استرجاع بلاد الاندلس ، أو شيء

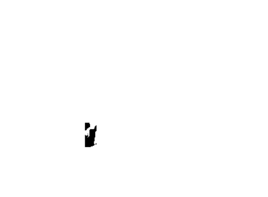
منها ، بعد اخفاق ثورة الموريسكو ، فلم يبق من المسلمين ، لسنوات قليلة الا النزر اليسير ، رغم المحاولة اليائسة الاخيرة ، سنة ١٦١٠ التى قام الجزائريون فيها أيضا بدور مشكور ، كما سترى •

٧ ــ تفككت الامبراطورية الاسبانية الالمانية الضخمة ، حين اغتنم احرار بلاد هولاندا وبلجيكا ، فرصة نكبات الاسبان ، فأخذوا يعلنون الثورات المتوالية ضد الحكم الجائر العنيف ، منذ سنة ١٥٧٦ ، الى أن تم لهم التحرر ورفعوا رايات الاستقلال • وحارب الانكليز اسبانيا فحطموا أسطولها تحطيما سنة ١٥٨٨ فى بحر الشمال •

٨ ــ اخفاق المخطط الاستعمارى الصليبى البرتغالى ، فى المغرب العربى ، الى الابد •

الفصل الثاني عشر

مـا بـين الصليبيتـين



فترة ركود

انتهى الدور الاول من الصليبية الاسبانية ، مع انتهاء القرن السادس عشر ، باخفاق تام كما رأينا فى الفصل السالف . ولم يبق بين يدى الاسبان من الارض الجزائرية ، الا وهران ومرساها الكبير ، وقطعة من الارض محدودة المساحة تحيط بالمدينتين المذكورتين ، سنرى فيما بعد امتدادها وطريقة حكم وسيرة الاسبان فيها .

وسادت فترة ركود طويلة المدى ، على الميدان الحربى ، اقتضتها ظروف داخلية ، وظروف خارجية . انما الاسبان لم ينسوا صليبيتهم ، وكانوا عاقدين العزم دوما واستمرارا على استئنافها ، متى سنحت لهم الفرصة كما لم ينس الجزائريون وهران أصلا ، فكانت قبلة انظارهم ، وكانت هدفهم الاساسى ، وتعهدوها بالغزو مرارا خلال هذه الفترة ، لكن تلك العمليات لم تفسر مطلقا عن شىء ايجابى ...

ولهذا الركود النسبى أسباب عديدة أهمها فى نظرى :

١ — فتور استولى على نفوس الحاكمين والمحكومين ، من جراء خيبة الامل فى انقاذ الاندلس : وذلك اثر اخفاق الثورة المسلحة التى كان الجزائريو نأول وآخر من مد لها يد المساعدة والاعانة .

٢ — اطمئنان سواد الاوساط الجزائرية كلها ، أثر الاخفاق العظيم الذى باءت به الحملات الاسبانية السالفة ، وتطهير كامل البلادالجزائرية والتونسية من بقايا الاحتلال الاسبانى ، وانحصـــار الخطر فى بقعة وهران وحدها وهى محاصرة مضيق عليها ٠

٣ انغماس الجزائريين فى حروب بحرية لا أول لها ولا آخر ، مـــع كامل الدول الاروبية التى لم تتعاقد رأسا مع الجزائر ، ولم تمض معها معاهدة سلام ، ولم تدفع للخزينة الجزائرية الجعل المتفق عليه ٠ فكان الاشتباك مستمرا مع فرنسا ، وأنكلتــرا ، وهولاندا ، والدانمارك ، وايطاليا بمختلف جمهورياتها ، زيادة عن اسبانيا العدو الاساسى ٠

٤ — اضطرابات فى الحكومة المركزية الجزائرية وخلافات مستمرة بين ضباط الجيش العثمانى ، حول الرئاســـة ، وان كان ذلك لا يؤثر على حياة الشعب أدنى تأثير ، لا من قريب ولا من بعيد ، لان قضية كرسى الرئاسة كانت قضية عثمانية بحتة ، هى دولة بين كبار الضباط ورجال الديوان العسكرى ، لا غير ، فكانت السياسة الجزائرية يومئذ تدور حول النقط التـاليـة :

أ — كرسى الرئاسة ومناصب الادارة العليا ٠

ب — تمهيد الراحة فى الداخل ، واخماد الثورات والاضطرابات ٠

ج — توسيع مدى الاستقلال الجزائرى ، ومنع التدخل العثمانى المباشر ٠

د — توسيع نطاق الجهاد فى البحر ، وارغام كل الدول الاروبية على التعاقد رأسا مع الجزائر ٠

هـ — الاستعداد المستمر للدفاع ضد الغارات البرية والبحرية التى

تقوم بها بعض الدول الاروبية كرد فعل على الحرب البحرية التى تقوم بها الجزائر •

أما اسبانيا ، فلم تغتنم هذه الفرص ، لشن غارات جديدة على الدولة الجزائرية ، لان الدولة الاسبانية كانت تنحط شيئا فشيئا فى مهاوى السقوط ، وتعانى أزمات عديدة منها الداخلى • كانفصال البرتغال ، وتفكك الامبراطورية ، ومنها المالى التى قاست منها الامرين •

كل هذا ، جعل نوعا من المهادنة يسود الميدان الجزائرى الاسبانى، وان كانت العمليات البحرية مستمرة ، والعمليات البرية تأخذ دورا حادا الفينة بعد الفينة ، كما سنذكره فيما بعد •

ولقد غيرت الجزائر العثمانية نظامها ، خلال هذه الفترة ثلاث مرات •

بعد نظام الباى لرباى ، الذى انتهى بموت البطل كلج على ، سنت نظام « الباشوات الثلاثيين » الذين يعينهم الخليفة العثمانى لمدة ثلاثة أعوام فقط ، ودام ذلك النظام من سنة ١٥٨٧ الى سنة ١٦٥٩ •

ثم جربت نظام (آغة الهلاليين) وهو نظام يقتضى نوعا من الحكم الجماعى (العسكرى) بأتم معنى الكلمة ، فالديوان هو الذى يحكم البلاد ، ويسند الرئاسة التنفيذية لكبير الضباط الذى يدعى الآغا ، وذلك لمدة شهرين فقط ، ثم يتولاها غيره • ولم يدم هذا النظام طويلا • (١٦٥٩ — ١٦٧١) وذلك تحت نظر ورعاية « الباشا » الذى ترسل به استانبول ممثلا لسلطة الخليفة العثمانى : وليس له مطلقا التدخل فى أمور البلاد •

وأخيرا اتخذت الدولة الجزائرية نظامها النهائى ، وهو وليد التجارب الماضية كلها ، أعنى به نظام الديوان والداى •

فالديوان (العسكرى) هو السلطة العليا : يعلن الحرب ويعقـد السلام ، ويعين كبار وصغار رجال الدولة ، ويحدد العلاقات بين دولة الجزائر والدولة العثمانية وبقية الدول ، والديوان ينتخب رئيس الدولة الذى يدعى « الداى » باللغة التركية وله معنيان : الزعيـم والخال . فالداى هو رئيس الهيئة التنفيذيـة ، والى جانبـه مجلـس وزراء مختصر ، لا يتعدى خمسة رجال ، وينتخب لمـدة العمر . وهو فى نفس الوقت يكون « الباشا » ممثل السلطان الخليفة .

وكانت السلطة القضائية ، مستقلة تمام الاستقلال عن السلطتيـن التشريعية والتنفيذية ، يتولى أمرها القضـاة ، تحت نظـر واشراف « المجلس الشرعى » أما النظام الداخلى ، نظام البايات وشيوخ الوطن . فلم يتغير .

هذا هو الحكم الذى اشتهرت به الجزائر كدولة مستقلة ، من أكبر وأجرأ دول البحر المتوسط ، مدى ١٦٠ عاما (١٦٧٠ — ١٨٣٠)

ولنرجع لدراسة أهم حوادث هذه الفترة ، بين دورى الصليبيـة الاسبانية الكبيرين :

آخر محاولة لانقاذ مسلمى الاندلس :

رغم الخيبة التى منيت بها الثورة الاندلسية الكبرى سنة ١٥٧٠ ، ورغم الفتور الذى هيمن بعد ذلك على نفوس المسلمين ، فـان بقايـا الاندلسيين الذين نجوا من المذابح ومن الفظائع ، والذين آثروا البقاء فى وطنهم ، لم يفقـدوا الامـل فى انقـاذ جزء من وطنهـم يلجـأون اليـه ،

ويستقرون فيه ، ويرجعون اليه من شاء الرجوع من أبناء عمومتهم واخوانهم الذين شردوا وراء البحار .

وكان هؤلاء « الموريسكو » كما يدعوهم الاسبان ، أهل همة ونجدة ونخوة وأهل صناعة ، وفن ومال ، لم ينسوا دولتهم ولم ينسوا دينهم ولم يتخلوا عن آمالهم ، بعد مائة وعشرين سنة من تحطيم الاسبان لدولة غرناطة ، وبعد ما لحقهم من طغيان وظلم وارهاق . وارغام على اعتناق المسيحية ظاهرا ، وهم يكتمون الايمان الشديد .

فتآمروا ، مغتنمين فرصة ضعف اسبانيا ووهنها ، واضطرارها لعقد معاهدة لاهاى سنة ١٦٠٩ مع الثائرين عليها من رجال الفلاندر بشمال أوربا ، وقرروا اعلان الثورة ودخلت فى مؤامرتهم هذه دولة فرنسا ، عدوة اسبانيا التقليدية ، وكان على رأس فرنسا يومئذ الملك هنرى الرابع الشهير . كما أدخلوا فى المؤامرة دولة الجزائر ، وكان على رأسها رضوان باشا .

واحكم نظام هذه المؤامرة ، على الطريقة التالية :

١ - يتحرك الاسطول الافرنسى ، حاملا جيشا فرنسيا قويا ، الى اسبانيا وينزل بمدينة « دانية »

٢ - يتحرك الاسطول الجزائرى فى نفس الوقت ، نحو دانية ، لكى يحمى عملية نزول الفرنسيين الى البر ، ولكى ينزل هو أيضا رجاله بعد ذلك .

٣ - فى نفس تلك الساعة ، يقوم مائة ألف رجل من بقايا مسلمى الاندلس ، بثورة عارمة داخل البلاد ، وراء وخلال صفوف الجيش الاسبانى فيقع بين نيران الفرنسيين والمسلمين .

لكن بينما كانت الاستعدادات تجرى فى كل جانب على قدم وساق ، افتضح أمر المؤامرة الثلاثية ، وانكشف ، فأخذ الاسبانيون حذرهم . وأعلن الملك هنرى الثالث ، يوم ٢٢ سبتامبر ١٦٠٩ ، ابعاد كل « موريسكى » من أرض أسبانيا واعطاهم لذلك أجلا لا يتعدى ثلاثة أيام ، كى يكونوا فى الموانى المعينة لهم من أجل ركوب البحر .

وهكذا خرج من أسبانيا آخر فوج من بقايا مسلميها الذين اعتنقوا المسيحية ظاهرا، واغلبيتهم العظمى كانت من أهل البلاد، الذين اعتنقوا الاسلام منذ أجيال عديدة ، وجاء معظمهم فوق متن السفن الجزائرية ، الى عاصمة الجزائر ، ومنهم من أم تونس وتيطوان . وطويت بذلك صفحة الاسلام فى اسبانيا، الى يومنا هذا . ويقدر عدد النازحين هذه المرة بنحو نصف مليون نسمة .

وعمر الاندلسيون النازحون نواحى متيجة، واقاموا مدينة البليدة وعددا من قرى متيجة والساحل، وادخلوا منذ تلك السنة الى متيجة غراسة النارنج والبرتقال، التى لم تزل فى ازدهار منذ ذلك الحين الى يوم الناس هذا .

الانكليز يحاربون الجزائر :

فى سنة ١٦٢٠ اراد ملك الانكليز جاك الاول ارغام دولة الجزائر على ترك الحرب البحرية ضد السفن الانكليزية، دون أن يعقد معاهدة مع الجزائر يسود بواسطتها السلام .

وجاء الاسطول الانكليزى الى الجزائر ، تحت قيادة الاميرال مانسل، وكان يحمل ألفا وخمسمائة رجل من المقاتلين ، وطالب الجزائريين بتسليمه

ما لديهم من اسرى الانكليز، فرفضوا الاذعان لذلك الانذار، واخـــذ الاسطول يرمى القنابل على المرسى ، وحاول أخذ سفن من أسطــول الجزائر، فلم يقدر على ذلك، وانزل رجاله حوالى المدينة قصد ارهاب الجزائريين، فما استطاعوا أن ينالوا منهم منالا، ورجعوا الى سفنهم، ثم اقلعوا الى بلادهم دون طائل •

وتوالت العمليات العديدة، على هــذا المنوال، بـين الجزائريـــين والاروبيين مما لايدخل حصره ولا وصفه فى نطاق بحثنا هذاء المتعلق خاصة بالحروب الاسبانية الجزائرية •

مدى اتساع الحرب البحرية الجزائرية :

تقول التقارير الاروبية المختلفة ،انه فيما بين سنة ١٦١٣ وسنة ١٦٢١ غنم الجزائريون خلال حروبهم البحرية مع أروبا أكثر من ثمانمائة سفينة محملة (أى بمعدل مائة سفينة كل سنة) هذا تفصيلها :

٤٤٧ سفينة هــولانديــة
١٩٣ سفينة فرنسيـــة
١٢٠ سفينة اسبانيـــة
٦٠ سفينة انكليزيـــة
٥٦ سفينة المانيــة •

ولا تدخل فى هذا الحساب ، السفن الصغيرة التى كان المجاهــدون الجزائريون يمعنون فى أخذها، اثناء غاراتهم المتواصلة على السواحل الاسبانية، كما لاتدخل فى هذا الحساب، السفن الطليانية التى استولى عليها الجزائريون خلال هذه المدة •

وكانت مخازن المدينة والديار التى تخصص لأقامة الاسرى المسيحيين ريثما تتقدم اللجان المختلفة من أجل افتدائهم، تضم تلك المدة ما يزيد عن الثلاثين الفا من هؤلاء الاسرى، من مختلف الجنسيات •

وكان الاسطول الجزائرى المحارب، يشمل يومئذ المائة سفينة وكان عدد رجال البحر من الجزائريين، وغالبيتهم العظمى من أهل البلاد، يبلغ الثلاثين الف رجل •

انكسار الحملة الفرنسية فى جيجل :

كانت فرنسا تريد ارغام الجزائر دوما، على اعتبارها دولة ذات معاملة ممتازة، حسب نظام « الامتيازات القنصلية » الذى منحته الدولة العثمانية لفرنسا • وكانت الجزائر ترفض دوما الاعتراف لفرنسا بهذا الحق، وتعاملها معاملة الدولة الاجنبية المعتادة، تصالحها متى انعقد الصلح، وتحاربها متى تم أجل الصلح، أو متى نقض وهكذا كانت الحالة مرتبكة بين الدولتين، وخاصة فيما يتعلق بالمركز التجارى الفرنسى لصيد المرجان، الذى كان يفتح أيام السلام، ثم يحطم ويحتل أيام الحرب، وهكذا دواليك •

ورأى الملك الفرنسى الشهير ، لويز الرابع عشر فى عنفوان مجده وصولته، ان يضع حدا لهذه الحالة المرتبكة، وأن يرغم الجزائريين نهائيا على احترام المركز التجارى، والكف عن أعمال القرصنة ضد فرنسا ، فجهز حملة بحرية قوية، كى يحتل بها مكانا ممتازا على الساحل الجزائرى، يحقق لفرنسا كل آمالها، ويكون نقطة انطلاق لها فيما بعد •

كان ذلك سنة ١٦٦٤ •

ففى يوم ٢ جويلية من تلك السنة، غادرت مرسى طولون عمارة بحرية

مؤلفة من ٨٣ سفينة يقودها الاميرالان بول ودوكين • اما القوة العسكرية التي كان يحملها الاسطول، وهي مؤلفة من ثمانية آلاف رجل، فكانت تحت قيادة الكونت قاداني، والاشراف الاعلى على العملية كلها، كان للدوق دي بوفور •

وصلت الحملة أمام مدينة جيجل يوم ٢٢ من ذلك الشهر، بعد أن قضت اياما بجزائر الباليار، وانضمت لها سبع سفن من أسطول مالطة • ويوم ٢٣، اشتبكت فيمعركة حامية مع رجال المدينة، وتمكنت من احتلال جيجل ذلك اليوم، بعد أن تكبد الجانبان خسائر، واخذ الفرنسيون يباشرون التحصين والدفاع •

كان يتولى أمر الجزائر يومئذ، السيد شعبان آغا، وكان الديوان الجزائري مستعدا لرد كل عدوان • وكان الشعب ــ كما هي عادته دوما ــ مستعدا لتلبية دعوة الجهاد ، كلما دعي اليها •

فما كاد نبأ سقوط مدينة جيجل بيد الفرنسيين، يصل مدينة الجزائر ، حتى خف شعبان آغا ورجاله، الى ميدان المعركة، مصحوبين بمدفعية قوية ، وقد انضمت اليهم جموع المجاهدين الغفيرة فكان الجيش الاسلامي الجزائري مخيما حول المدينة يوم ٥ أكتوبر • وبعد أن أحكم وضع مدفعيته على المرتفعات، وضيق الحصار على الفرنسيين، بادر بقصف المراكز الفرنسية بقوة، وعنف يوم ٢٥ أكتوبر، والحق بالفرنسيين المحصورين خسائر عظيمة، ادركوا معها بعد طول المعركة، استحالة المقاومة فصمموا على الانسحاب ، انقاذا لارواح من بقي منهم على قيد الحياة • ثم ابتدأت عملية الانسحاب، تحت قنابل الجزائريين وضغطهم المتزايد، يوم ٣١ دسامبر فبادر الفرنسيون بنقل ١٢٠٠ جريح

الى السفن ، ثم سحبوا بقية الجند الذى خسر فوق أرض المعركة أكثر من الفى رجل، ولم يسمح لهم الجزائريون الذين والوا ضغطهم وقذف مدفعيتهم بنقل أى شىء من سلاحهم ومن امتعتهم، فتركوا كل ذلـــك غنيمة حرب للجزائريين وكان من بين هذه الغنائم ، مائة مدفع وكل الآلات والمعدات •

ومما زاد فى فداحة النكبة الفرنسية ،ان السفينة الكبرى لالـــون (القمر) وكانت تحمل الفا ومأتين من الجيش المنهزم ، قد غرقت أثناء الانسحاب وأصبحت قبرا جماعيا، لكل من فيهـــا •

محاولة دوكين البحرية، ضد الجزائـــر :

وأعادت فرنسا الكرة، بعد ذلك على الجزائر، فأرسلـــت الاميرال دوكين على رأس أسطول مؤلف من ٣٦ سفينة حربية ، يوم ١٢ جويلية ١٦٨٢، لارغام الجزائريين على الرضوخ لمطالب فرنسا، فالقى ذلـــك الاسطول قنابل مدافعه على مدينة شرشال، يوم ٢٥ من الشهـــر، دون أن يلحق بها اضرارا، ماعدا احراق سفينتين بمرساها • وكان أمـــام مرسى الجزائر يوم ٢٩ جويلية • فأخذ يناور ويتظاهر بالقوة عله يرعب الجزائريين، ويضطرهم للرضوخ •

لكنهم لم يفعلوا • ورفضوا ما تقدم به من مطالب ، فأخذ بالقاء قنابله على المدينة يوم ٢٦ أوت، حيث رماها بست وثمانين قذيفة، وجدد الرمي ليلة ٣١ أوت ، حيث القى على المدينة ١١٤ قذيفة جديدة ، لم تحدث كلها الاخسائر قليلة، نظرا لانه كان يرمى من بعيد خشية أن تصيبه مدافع القلاع ولم يحصل أى تفاهم بين الجانبين فاستمرت اعمال الرمى ،ودفاع

الحصون والبطاريات الجزائرية ،الى يوم ١٢ سبتامبر، حيث رأى الاسطول الفرنسى انه لاطائل من وراء هذه العملية فرجع الى فرنسا خائبا .

مثال لا حصر :

اننا لم نذكر هذه الحوادث ، الا على سبيل المثال فقط ، فلسنا بصدد التاريخ للجزائر العثمانية ، ولا حصر معاركها مع الدول المختلفة ، لكننا أردنا أن نظهر تطور الحرب الاروبية ضد الجزائر ، وكيف امضى الجزائريون أيامهم ، خلال فترة الهدوء النسبية التى فصلت بين الصليبية الاسبانية فى دورها الاول ، والصليبية الاسبانية فى دورها الثانى .

محاولات مغربية جديدة :

توفى السلطان السعدى العظيم ، أحمد المنصور ، سنة ١٠١٢ هـ (١٦٠٣) وأخذ الخلل يتسرب من بعده الى ذلك الملك الشامخ ، وخلفه ابنه السلطان زيدان ، ثم أخذ الارتباك يسود البلاد ، الى أن خرج الملك من عائلة الاشراف السعديين الى عائلة الاشراف العلويين وكان ذلك سنة ١٠٥٠ (١٦٤٠) فاستتب الامر للسلطان محمد بن الشريف بسجلماسة أصل العائلة العلوية ، ثم صار يجمع اليه أطراف المملكة المغربية ، وتعاظمت قوته . واستعصت عليه مدينة فاس ، فأدار قواه وجهوده نحو ما يليه من البلاد الجزائرية ، محاولا احتلالها ، بصفة مؤقتة ، ولعل هذه الحركة كانت من أجل أسباب اقتصادية بحتة ، اذ أن سيرة الشريف اثناء هذه الغارة لم تكن

سيرة من يريد البقاء فى الارض المفتوحة ، ولا من يريد استمالة أهلها لعرشه ولدعوته . ونترك الكلمة للشيخ الناصرى فى كتاب الاستقصاء ، عن وصف هذه الغارات :

« ..... فسار بهم الى بنى يزناسن وكانوا يومئذ فى ولاية الترك ، فأغار عليهم وانتهب أموالهم . وامتلأت أيدى العرب الذين جاءوا معه من مواشيهم)

« ثم انثنى الى وجدة وكان أهلها يومئذ حزبين بعضهم قائم بدعوة الترك ، وبعضهم خارج عنها ، فانحاز الخارجون الى المولى محمد فاغراهم بشيعة الترك فانتهبوهم ، وشردوهم عن البلد ....

« ثم دلته العرب على أولاد زكرى ، وأولاد على ، وبنى سنوس ، المجاورين لهم . فشن عليهم الغارات وانتهبهم .....

« ثم توجه الى تلمسان فأغار على سرحها ، وسرح القرى المجاورة لها ، واكتسح بسائطها ، فبرز اليه أهلها ومعهم عسكر الترك الذى كان بالقصبة ، فأوقع بهم ، وقتل منهم عددا كبيرا .....

« ولما انصرم فصل الشتاء خرج على طريق الصحراء ، فأغار على الجعافرة وانتهب أموالهم .....

« وقدمت عليه أيضا دخيلة ، ففرح بهم ، وأكرمهم ، ودلف على الاغواط وعين ماضى والغاسول ، فنهب تلك القرى واستولى على أموالها وفرت أمامه عرب الحارث وسويد وحصين من بنى مالك بن زغبة ، فنزلوا بجبل راشد ، متحصنين به ، فرجع عنهم »

أمام هذه الحوادث المؤلمة الدامية وهى صفحة قاسية من تاريخنا المشترك ، جهزت الجزائر جيشها ، وقصدت الناحية الغربية

فاذا بالشريف كان قد رجع بجموعه . وبغنائمه الى ما وراء وادى الملوية .

وفد سلام ، ورسالة بليغة :

جمع عثمان باشا صاحب الجزائر ديوانه ، بعد رجوع الشريف الى موطنه وقرروا أن يوجهوا اليه وفدا، يدعوه باسم الله والاسلام أن لا يعود لمثلها ، وبعثوا اليه مع الوفد المذكور برسالة أملاها العالم الجزائرى الشيخ المحبوب الحضرى، وأمضاها باسم الديوان، الداى عثمان باشا ، وكان مؤلفا من اثنين من علماء الجزائر ، واثنين من كبار رجال الدولة، ستأتى اسماؤهم ضمن الرسالة الطويلة، التى اقدم لك — نقلا من الاستقصاء — بعض ما جاء فيها :

« الحمد لله الذى أوصى وارخص فى مدافعة اللص والصائل شريفا أو مشروفا ، ونص ، وهو الصادق سبحانه ، على قمع عرى أصله المتاصل مجهولا أو معروفا . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد بن عبد المطلب بن هاشم ،وعلى آله تيجان العز وبراقع الجبين والخياشم ، وصحابته صوارم الصولة الحاسمة من النكر الطلى والغلاسم، بالرماح العاملة والسيوف القواصم .

« ولازائد بعد حمد الله الا مقصد خطاب الشريف الجليل القدر ، الصادق اللهجة والصدر، من رتق الله به فتوق وطنه، وحمى به من احزاب الاباطيل انجاد أرضه واغوار عطنه، حافد مولانا على وسيدتنا البتول».

« سلام عليكم ما رصعت الجفان سموت البحور ولمعت الجواهر الحسان على بياض النحور، ورحمة الله تعالى وبركاته، ما أساغت محض الحلال ذكاته،

« وبعد، فقد كاتبناكم من مغنى غنيمة المقيم والظاعن والزاير، رباط الحرب مدينة ثغر الجزائر • صان الله من البر والبحر عرضــها، وأمن زعازع العواصف والقواصف أرضها ، ••••••• ان الوهاب سبحانــه منحكم هيبة وهمة فى الجود والحلم والحماسة، واختــار لكــم عنــوان عنايتها فى غاب الصون سجلماسة، لكن فاتكم سر رأى التدبير، واركبتم حزمكم جموع الجهل والتبذير، مع أن ذلك فى الحقيقة دأب كل مؤسس لدولة، لايجمعها الا بجنايات الجولة والصولــة، فخرقــت على الايالــة العثمانية جلباب صونها الجديد، من وجدة الابلق الى حــدود الجريد ، فشوشت علينا اخلاق اخلاط الاعراب، الى أن تعوقوا علينا فى أرفــق الاراب ، وشننت الغارة الشعواء على بنى يعقوب ، فجسمت رسمهم على العقيب والعرقوب، وغادرت جماهرهم تســعى على عيالهــم الــزيانى والموزونة، فى اسواق مستغانم وديار مازونة، وجررت ذيل الذلــة، على أطراف الغاسول والاغواط، فالتقطتهم بطانتك التقــاط سباع الطـــير للوطواط، وتادك الجاهل الجهم محمود حميان ،لعين ماضى، والصوامع ، وبنى يطفيان • فراحت رياح ، وسويد، ينفض كل بطل منهم غباره وطينه، على طود راشد وبلد قسنطينة،

« ولاكادنا، الا ما هتكتم من ستر السر،، على موسى أبى الربيع السيد سليمان ، مع أنكم أولى من يراعى حرمته وتوقيره ، ويدافع عنه وعمن سواه ويرفد فقيره، وتنسبون العجم للجهل وانهم جفاة واحلاف، ثم صرتم بدلا واخلاف •••

« كان أولاد طلحة، وهداج وخراج، يؤدون لهذه المثابة ماثقل وخف من الخراج، ولايفوتنا من ملازمها وبرولا شعر ولاصــوف، ولاسقــب ولا

جدي ولاخروف، الى أن طلعت علينا غرة شمسك السعيدة، فعادت كـل شيعة قريبة منا بعيـــدة ••••••

« مع علمنا اليقينى أن شجرتنا لا تتخـعضع بزعازع حيان، ولاتندس، ولو انهارت عليها جبال جيان، وان الحجر لايدق بالطلوب، والخاطـــف لايطأ أو طية الخطوب، كذلك فى المثال جندك خـلال الصـد والورود ، لايصبرون لصاعق البارود، ولاتتجح حجة الدروع والذوابل، الاف سوق شن الغارات على خلل القبائل، وأما أسوار الجحافل، وادوار الكتائب ، فلايصدمها، فيهدمها الاسيول الخيول والرماة الرواتب • وزنت صولتك لبني عامر، لذاذة النفار لكنف الكافـــر •

« ••••• واياك اياك والغرور ؛ لمـا عثرت عليه فى كتاب البونى ، وأوراق السيوطى، وعلى بادى وابن الحاج، ورسالة أهل سبتة لعبـــد الحق بن أبى سعيد المرينى بانك المخصوص بصعود تلك الادراج، ذلك منك بعيد الوصول، لاتدركه بالسمرة ولابقبائع النصول ،وان اوتاد الروم والترك تتقوض منأرض الغرب، ولايبقى من ينازعكم فيها بحـــرب ولا ضرب، ليس لك فى غنيمة ادراكه طمع، ولاسبيل لتبديد ما نظمه حازمنـــا وجمع، وقد غرتك أضغاث الاحلام، واغواك ضباب الغيب، فأصبح ظنك منه فى غياهب الظلام، فان حرمت به فانك لاشك حانث، وان كان منكـــم يقينا، فرابع أو ثالث، أولكم ثائر، والثانى مقتف له سائر، والثالث لكمـــا أمير نائر، اما عادل أو جائر • ولا تمدن باع المخاطرة لاوطاننا، نتخشى مخالب صولة سلطاننا • أما الشجاعة الغزيرة ، فقد علمنا أن لك منهــــا بالمهيمن أوفر نصيب، وممن ضرب فيها فأصاب الغرض بسهم مصيب • لكن غاية كفاية الشجاع، اذا حمى الوطيس : الدفاع، سيما فى هذا الحين

التى ابخستها عند الخلاص، صناعة البارود والرصاص .....

« ..... وما مرادنا الا امان العرب فى المواضع، ليطيب لها جولان الانتقال فى المشاتى والمرابع » .....

« فان تعلقت همتك بالامارة، فعليك بالمدن التى حجرها عليك همج البرابر، فصار يدعى بها لها على المنابر، فشد لها حيا زيمك لتذوق حلاوة الملك، المعجونة بمرهم النجاة أو الهلك .

« .... ليبقى بيننا وبينكم الستر المديد على الدوام، ونلغى كلام الوشاة من الاقوام .

« وقد شيعنا نحوكم أربعة صحاب ، تسر بمجا لستهم الخواطر والرحاب، الفقيه الوجيه السيد عبد الله النفزى والفقيه الابر السيد الحاج محمد بن على الحضرى المزغنائى، واثنين من اركان ديواننا ، وقواعد ايواننا، أتراك سيوط، وغاية غرضنا جميل الجواب، بما هو أصفى وأصدق خطاب ، والله تعالى يوفقنا لاحمد طريق، ويحشرنا مع جدك فى خير فريق آمين والسلام .

وكتب فى منتصف رجب الفرد الحرام، عام أربعة وستين والف » اهـ (١٦٥٤ م)

ولما وصلت هذه الرسالة الغريبة، بما جمعت من صنوف التعظيم ، والتبجيل، والاستعطاف، والوعيد والانذار، وتحميل المسؤليات، مع شىء من التهكم اللاذع، الى الشريف، وقرأها اغتاظ، وعاتب الرسل ، ولم تحصل نتيجة من هذه الوفادة الاولى .

فأعاد الديوان الجزائرى الوفد من جديد، وكلف رجاله بمخاطبة

الشريف، بالطريقة التي يراها مؤثرة . فمثل الوفد بين يدى الشريف ، وخاطبه قائلا ، كما رواه الناصرى :

« نحن جئناك، لتعمل معنا شريعة جدك، وتقف عند حدك، فما كان جدك يحارب المسلمين، ولايأمر بنهب المستضعفين، فان كان غرضك فى الجهاد، فرابط على الكفار الذين هم معك فى وسط البلاد .....

« واما ايقاد نار الفتنة بين العباد، فليس من شيم أهل البيت الامجاد ، ولايخفى عليك أن ما تفعله حرام، لايجوز فى مذهب من مذاهب المسلمين ، ولاقانون من قوانين الاعجام، وهذان فقيهان ـ منعلماء الجزائر قد جاءا اليك، حتى يسمعا منك ما تقوله، ويحكم الله بيننا وبينك ورسوله، فقد تعطلت تجارتنا، وأجفلت عن وطننا رعيتنا، فما جوابك عند الله فى هذا الذى تفعله فى بلادنا وأنت ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم . مع انه لم يعجزنا أن نفعله نحن فى بلادكم، ورعيتكم . على اننا محمولون على الظلم والجور عندكم . لكن تأبى ذلك همة سلطاننا » اهـ

ولو أن المسلمين استعملوا دائما فيما بينهم هذه اللغة ،ورجعوا فى كل خلافاتهم الى حكم الله ورسوله ، ازالت احن ، وصينت اعراض وحقنت دماء .

فهذه الكلمات البليغة، الصادرة عن قلوب مؤمنة صادقة، احدثت الاثر المطلوب ، بل فوق الاثر المطلوب، يقول الناصرى :

« فلما سمع المولى محمد كلامهم، أثر فيه وعظمهم، وداخلته القشعريرة، وعلاه سلطان الحق، فاذعن وقال: والله ما أوقعنا فى هذا المحذور الا شياطين العرب ، انتصروا بنا على أعدائهم ، واوقعونا فى معصية الله ، وأبلغناهم غرضهم، فلاحول ولاقوة الا بالله . وانى أعاهد الله تعالى لا

أعرض بعد هذا اليوم لبلادكم ولا لرعيتكم بسوء، وانى اعطيكم ذمة الله وذمة رسوله، لاقطعت وادى تافنا الى ناحيتكم الافيمـا يرضى اللـــه ورسوله . وكتب لهم بذلك عهدا الى صاحب الجزائر »

وهكذا تم أمر هذه الفتنة الهوجاء بسلام، حينما حكمت تعاليم ومفاهيم الاسلام .

محاولة استرجاع وهران :

لم تكن وهران دار سلام واطمئنان، أصلا، بل كانت خلال تلك المدة وما بعدها، مجال قتال ومناوشات ،ومضى الشهر، ومضت السنة، ومضى القرن، والمسلمون يحاولون استرجاع المدينة، ولايتركـون لاهلهـا ولا لحاميتها راحة، والاسبان يتحصنون، ويدافعون، ويستبسلون فى الدفاع، دون أن يجسروا على مصادمة المسلمين خارج منطقة الاحتلال الاقليلا .

من ذلك أن حاكم وهران، دون انيقودى طوليدو، خرج خلال شهــر جوان من سنة ١٦٧٥، يريد مهاجمة تلمسان، واخذها على غرة . لكـن الجيش والشعب كانا على حالة انتباه، فانقلب أمره وبالا عليه، وتشتت شمل جنده، ورجع منهزما الى وهران وتحصن بها، ثم نصب المسلمون على المدينة حصارا ضيقا، وأمدتهم الجزائر، وعلى رأسها يومئذ الداى الحاج محمد باشا، بمدفعيته فضيقوا الخناق على المدينة، دون طائل .

ولقد كانت محاولة شعبا نبلى، أقوى تلك المحـاولات، واخـطرها ، وكادت تصفى حساب هذا الاسفين الاستعمارى الصليبى المغروس فى جسم الدولة الجزائرية ، لكن مرحلة الجهاد كانت لاتزال طويلة الامد ، ولكل أجل كتاب .

نشعبان باى الزناكى، الذى يصفه الشيخ أبوراس فى كتابه : عجائب الاسفار ولطائف الاخبار بقوله :

« النقيه الهمام، البطل الضرغام ، الملك العلام، حاصد شوكة أهل الكفر والطغيان ، الكفرة بثغر وهران، وضايقهم بالالة والجنود، وارهبهم بكثرة العساكر والحشود . فهو الحامل للواء الاسلام وبنده .... الخ » قد زحف على وهران زحفة صادقة، ساق فيها ثلاثة آلاف فارس، وألف راجل، وكان ذلك سنة ١٠٩٨ هجرية (١٦٨٦) وخرج اليه الاسبان من وهران فى ثمانية الاف رجل، من بينهم — ولسوء الحظ — جماعة من اعراب بنى عامر، وجيزة، والتقى الجمعان فى المكان بكدية الخيار، واشتد القتال ، الى أن دارت الدائرة على الاسبان وجماعتهم، فولوا الادبار، تاركين فوق أرض المعرض أكثر من ١١٠٠ قتيل . وتتبعهم المسلمون الى أن وصلوا أسوار مدينة وهران، فاقتتلوا عندها قتالا شديدا ،وكان شعبان باى رحمه الله يتقدم الصفوف، يحرض المؤمنين على القتال، فاصابته قذيفة اسبانية، أوردته مورد الشهادة . واحكم الاسبان التحصن وراء أسوار المدينة ، فرجع عنها المسلمون، دون أن يتركوا محاصرتها، ودون أن يسمحوا للمحاصرين بأدنى حركة خارجها .

وعاد اليها مهاجما، فى السنة الموالية (١٦٨٧) القائد الباى ابراهيم خوجة، وضيق عليها الحصار، ونصب المدافع المختلفة فى مواجهة حصونها، لكن التهديد الفرنسى للجزائر، وتضييق المارشال ديسترى عليها، حول الى العاصمة الجزائرية نقطة الخطر، فاسترجع الديوان قوى وآلات حرب ابراهيم خوجة، استعدادا لمنازلة فرنسا اذا ماأنزلت الى البر جندها

(١٦٨٨) لكن المارشال الفرنسي لم ينل من الجزائر منالا، ولاحصل منها على ترضية ،ورجع الى بلاده •

وفي سنة ١٧٠٤ خرج الاسبانيون من أسوارهم، وهاجموا ما يلي وهران من المداشر والقرى العربية، ورجعوا الى أسوارهم يسوقون أمامهم ٢٥٠ عربيا، اسروهم واستعبدوهم • ويومئذ نفخ الشعب الجزائري في صور الجهاد، وتولى العملية الباي مصطفى المسراتي الملقب ببوشلاغم ، وسياتيك تفصيل جهاده الموفق بعد حين •

الفصل الثالث عشر

شعراء الجزائر يستثيرون الحكومة والشعب

من أجل انقاذ وهران

قضية قومية وإسـلامـيـة :

انتظمت الدولة الجزائرية وقوى ساعدها ، والتأمت وحدتها ، بعد جهاد طويل وكفاح مرير . وأصبحت قضية وهران ، هى القضية الاولى التى يهتم بها الرأى العام ويريد أن يصفى حسابها مهما غلا الثمن ومهما كانت التكاليف فهى فى نظره قضية وطنية قومية من جهة ، وهى فى نظره قضية جهاد اسلامى عام ، يمحو آخر آثار الصليبية الاسبانية بأرض الجزائر ، من جهة أخرى .

فالعلماء بدروسهم وكتبهم ورجال الدين بخطبهم ومواعظهم ، والشعراء بقصائدهم العديدة ، كانوا يلهبون الحماس ، ويشحذون العزائم ، ويستفزون الشعب والحاكمين من أجل الحملة النهائية .

ولقد حفظ لنا التاريخ ، البعض من هاتيك القصائد المؤثرة ، التى تعتبر مرآة للرأى العام ، وصورة صادقة للاحساس الشعبى المتبلور المرهف .

ولاريب أننا قد فقدنا مع ذلك ، من جملة ما فقدناه من كتبنا وآثار علمائنا ، اثناء وقائع الاحتلال الفرنسى الرهيبة ، وخاصة فيما بين سنتى ١٨٣٠ ــ ١٨٥٠ ، الشىء الكثير من هذه الآثار ، ومن هذه الاشعار .

واننا لنرى ــ امعانا فى تصوير الحالة النفسية التى كان عليها الشعب ــ أن نورد على سبيل المثال ، شيئا من ذلك الشعر الذى ابقته لنا الايام فله زيادة عن قيمته التاريخية الكبيرة ، دلالات أخرى كثيرة .

استصراخ لانقاذ وهران

من نظم العلامة سيدى محمد التوجى الجزائرى يخاطب الداى أحمد باش خوجة .

ثم التفت نحو الجهاد بقـــوة والكفر فاقطع أصله بذكـــور
جهز جيوشنا كالاسود وسرحـــن تلك الجوارى فى عباب بحـــور
اضرم على الكفار نار الحرب لا تقلع ولا تمهلهـم بفتـــور
(...) عن وهران ضرس مؤلم سهل اقتلاع فى اعتناء يسـير
كم قد أذت منمسلمين وكمسبت منهم (بقرب ؟) أسيرة وأسير
حلت بأرض المسلمين فهل لهـا من عسكر عند الصباح مغـير
يلقى كلا كله عليها بغتـــة ياتيهـم فى غـرة المغـــرور
فانهض بعزمك نحوها مستنصرا بالله فى جــد وفى تشمـــير
بعساكر مثل السيول تزاحمت للسبق تحت لوائك المنصــور
أو كالسحاب بروقه ورعـوده نار المكاحل أوقـدت بزفـــير
وسوابق كمت وشهب ضمرت عند اللقاء تنقض مثل صقــور
بادر بنا نغزو العدو وسار عن فى حسم شوكتهم وفى التدبـير
وأمر جيوشك بالتهاب العـــدا والحزم حرض عزمهم بنفـــير
أقصد بلاد الكفر شتت شملهـا خرب بها ما كان من معمـــور
أقتلهم قتلا ذريعا واتركـــن اشلاءهم صرعى لطعم نســور

فاذا فتحت وقد ظفرت ببغيـــة وقبلت بعد سعيك المشكـــور
وقسمت ثم مغانما جلي وقـــد سهم القراع بما لها الموفـــور
نارع الرعية خير رعي وسـهموا بسياسة من عدلك المنشـــور

استصراخ لانقاذ وهران

للعلامة المحقق سيدى محمد ابن عبد المؤمن يـحرض الامـير الداى حسن الشريف باشا .

نادتك وهران فلب نداهـــا وانزل بها لا تقصدن سواهـا
واحلل بهاتيك البطائح والربى واستصرخن دفينها الاواهــا
واستدع طائفة العساكر نحوها يغزونها ولينزلوا بفناهـــا
مستصحبين لواءك المنصور اذ يلقاهم الفتح المبين وجاهـا
صرخت بدعوتك العلية فاستجب لندائـها ولتكلمـن مناهـــا
حاشاك أن تنفى حشاشتها وقد قصرت عليك رجاءها ونداهـا
قد طالما عبثت بها أيدى العدا حتى استباحوا أرضها وحماها
وتصرفوا فى المسلمين فأصبحت اعجوبة لمن اغتدى يرعاها
اضحى الصليب مؤيدا ، والدين قد درست معالمه فلست تراهـا
جعلوا بها الناقوس فى أوقاتهم بدل الاذان وغيروا معناهـــا
كم من أسير حولها لا يفتـدي كم من فقير حل فى مثواهـــا
ياأيها الملك الـذى أيامـــه غرر غدت بكماله تتباهــــى
ومن الذى أحيا معالم سنـــة (وشيد ؟) أركانها وبناهـــا
ذاك الامير أبو محمد الرضـــي حسن به قطر الجزائر تاهـــا
أنت الامير المرتجى لكريهـــة يوم النزال فأنت قطب رحاهـا

جرد (ضباطك) لمحق آثار العدا حتى ترى الاسلام فى مغناهـا
وادع الغزاة لفتحها مستنجـدا وانهض اليها وانزلن مرساهـا
من بعد توهين لناصر دينهـم ابناء عامر ساءهم مرآهـا
وانظر برأيك فيهموا مسترشدا أهل النهى فبرأيهم تعطاهـا
واستأصل الآثار حتى لا يرى من عامر من ترتجى جذواهـا
اذذاك نظفر بالمنى وتنال مـا تهوى وتصبح نازلا بزواهـا
قوموا اليها معشر الاسلام قـد آن القيام لها وحان لقاهـا
خوضوا اليها بحرها يصبح لكم (وهو أوبرها تحوا بيداها ؟)
الآن آن الفتح اذ ظهرت بـه آثار تنبى انه وافاهـا
فاسلم سلمت من الزمان ودمت فى برج المعالى راقيا اعلاهـا
وعليك يافخر الزمان تحيـة أذكى من المسك العبيق شذاها
وعلى رفيقك صهرنا شعبان من يهواك طبعا ليس يطلب جاهـا
وعلى ابى زيان (الذى ؟) حكى نظم الاوائل فى القريض وضاهى
لا زلت منصور اللواء مؤيـدا تحيى بعون الله سنـة طـه
صلى عليه وسلـم اللـه الذى أحيا القلوب ببعثه وشفاهـا

ابتهـال واستصراخ ...

للعالم الشاعر الاديب أبى عبد الله سيدى محمد حفيد العالم العلامة سيدى المهدى

نظمها سنة ١١١٤ (١٧٠٢) (حسب رواية الشيخ أبى زيان)

بعد توسل بالرسول والانبياء والخلفاء وآل البيت ، متوجهـا الى صالح وهران وعالمها دفينها الشيخ سيدى محمد الهوارى ، الذى ذاع

فى البلاد الجزائرية ان احتلال الاسبان لوهران كانت نتيجة غضبه على أمراء بنى زيان اذ دعا عليهم بقوله « الله يشتــت شملهم من البــر والبحر » وهكذا جاءهم الاسبان من البحر والاتراك من البر فقضوا عليهم ...

نرجو رضاك فربنا سبحانـــه   مهما رضيت بفتحه يتفضـــل
انا توسلنا اليك بســـادة   اقدامهم فوق الحياة تبجـــل
فبحقهم الا قضيت حقوقنــا   وفتحت من باب العدا ما يقفل
أرجعت للاسلام رجعة مشفــق   والدين ينصر والكوافر تخــذل
حتى نرى وهران دار اقامـــة   الصلوات يسبقها الاذان المكمل
ونرى بها القرآن يفشو درسه   والعلم حل بها فنعم المنـــزل
ويبوء عباد الصليب بحســرة   لديار كفرهم الشنيع تزلـــزل
والخيل تمرح فى جوانب أرضهم   سورا ودورا بالاسارى تثقــل
حتى اذا طال البــلاء عليــهم   اذ نابهم بالحصر داء معضـــل
وتهيأت فرساننا لقتـــالهم   والخيل ترفل فى السروج وتصهل
ثم امتطوا لظهورها وتقلـدوا   بكواكب الاسياف مما يحمـــل
من كل هندى كأن وقوعـــه   نجم أغار على الابالس مشعل
وباسم للخط ينسب وصفـــه   عن نحرهم فى الطعن لا يتحول
باعوا النفوس لربهم بجنانــه   أكرم بها بيعا وربحا يحصـــل
فتصادفت حملاتهم فكأنهـــم   عقبان جو فى الطرائد تقبـــل
من بين ذى قتل يشحط فى الدماء   بطشا وذى أسربه يتعجـــل
وتعلقت أبطالنـــا بحماتهم   تبدى لهم حربا أمر وأهـــول
والمشرفيــة للرقاب قواطــع   أما البنادق فى الصدور فتوغل

ولاهل حزب الله تمت صولـة   وبنصرهم رب السمـاء مكفل
حتى اذا حل المقدر للعـدا   فى الحرب ثم على الهزيمة عولوا
ولوا على الادبار يحطم بعضهم   بعضا كأنهم القطيع المهمـل
والسيف يأخذهم ويعمل فيهموا   عملا لاعناق الاخابث يشكـل
وتهافتت أبطالنا بعزيمـة   نحو المدينة واستبا ن المدخـل
ولجوا عليهم كالصقور نجابـة   والكافرون بكفرهم قـد أسبلوا
فتملكوها عنوة ، وزهت بهـم   فرحا ، وعاد لها الزمان الاول
هذا بفضل الله نرجو عاجـلا   والله يقضي ما يشاء ويفعـل

* * *

تدمت يا شيخ العلا لك عذرة   حاءتك فى ثوب المحاسن ترفـل
فاقت شقيقتها ومطلع حسنهـا   « الحق يعلو والاباطل تسفل »

استصراخ للجهاد لانقاذ وهران

لابى العباس أحمد أبى على صاحب

« فمن مبلغ عنى قبائل عامر » السالفة الذكر .

فمن مبلغ عنى ملوك الاقـالم   وكل رئيس من رؤوس العمائم
وكل همام مائل فى حمائـل   على متن جار سابق فى العزائم
وكل زعيم مولـع بجـدوده   يصيد الضوارى من فحول الضراغم
وسلطانها التركى فى دار ملكـه   وبين علاه فى دهاة العظـائم
وجيش بنى عثمان من كل قائد   جيوشا كموج البحر عند التلاطم
يريدون «وهرانا» فماسبق القضا   بتنفيذه للوقت فى جفن عـالم

يخوضون لجا فى سفائن رائس حراضا لدين الله عز العزائم
وحرز بنات العرب من كل فاتك بابكارها الحرات فى قصر ظالم
فيا آل عثمان ويا سادة الوغى وكلكم أعماله بالخواتم . الخ .
ويا معشر الاتراك ما بال سعيكم ووهران تزهو نخوة بالمــراغم

الفصل الرابع عشر

النظام الاستعماري الاسباني في وهران

الارض وسكانها :

كانت اسبانيا تحتل حول وهران والمرسى الكبير ، مساحة من الارض، تبلغ دائرتها نحو ٢٠ مرحلة ٠ أى نحو ٨٩ كيلو مترا ٠

فى هذه البقعة من الارض ، كان يوجد عدد كبير من الدواوير العربية تقطنها آلاف من العائلات ، وعلى كل دوار رئيس مسؤول يدعى « الشيخ »

يقول الدكتور دون بدرو دولا كوبيا ، فى تقرير رسمى اسبانى ترجمته المجلة الافريقية ، عن ادارة المدينة ونظامها ما ملخصه :

ان هؤلاء الاعراب الخاضعين للسلطة الاسبانية ، ينقسمون الى ثلاثة أقسام :

قسم الدواوير النبيلة ، ويطلقون فى وهران على رجال هذا القسم من الدواوير « فرسان المملكة » ٠

وقسم الدواوير المنحطة والمستضعفة ٠

وأخيرا قسم الدواوير المختلطة ، التى تجمع بين جماعة من هؤلاء ، وجماعة من أولئك ، وهم يختلطون ، انما لا يندمج بعضهم فى بعض ٠

والعرب من الدواوير النبيلة ، يمتازون عن عرب الدواوير الحقيرة ، بشجاعتهم واقدامهم ، وحسن سلوكهم (بالنسبة للاسبان طبعا) ٠

المداخيل المالية ٠

هؤلاء الاعراب الخاضعون حوالى وهران للسلطة الاسبانية، ويطلقون عليهم اسم « عرب السلام » MARO DE PAZ ، يدفعون للسلطة

الاسبانية كل سنة جزية يدعونها : الرومية ، وهى عبارة عن كمية من القمح يبلغ مقدارها اثنين من الدوبلات عن كل دوار، ومقابل هذه الجزية ينال الدوار الامان لمدة سنة .

ويختلف حجم هذه « الدوبلة » حسب أهمية الدواوير ، فعدد الامداد (جمع مد) التى تشملها كل دوبلة ، يحدد بواسطة اتفاقات خاصة بين رجال السلطة ، ورجال الدوار .

فالدوبلة فى سنة ١٧٠٨ ، وهى السنة التى استرجعت الجزائر فيها مدينة وهران ، كانت تشمل ١١٢ مدا عربيا ، أى ٢٨ برشالا اسبانيا ، أو ٤٣ فنيق قشتالى . أو ما يعادل الفين من الكيلوات .

طريق التعامل

وعندما يدفع شيخ الدوار هذه الجزية ، ويأخذ لنفسه ولدواره الامان ، يقدم للاسبان الرهائن المتفق عليها ، وهى تشمل عادة ، بعض أولاد الشيخ أو بعض ذوى قرابته ، حيث يستقرون بمدينة وهران ، على حساب الخزينة الاسبانية .

والشيخ يجمع تلك الجزية من سكان الدوار ، حسب أهميتهم ، ويدفعها للحاكم الاسبانى كل سنة، ويتقاضى مقابل ذلك، ومقابل مايقوم به من أعمال لخدمة المآرب الاسبانية مقادير مالية تتراوح ما بين ٦٠ و ١٠٠ دورو . (الدورو يبلغ بقيمة الذهب نحو ١٠ دنانير جزائرية .)

مجلس تحديد الجزية

فى شهر يونيو من كل سنة ، يجمع الحاكم العام لمدينة وهران

وضواحيها مجلسا يضم كل الشيوخ ورؤساء العشائر ، وعددا مـن الفرسان ، وذلك من أجل تحديد حجم « الرومية »

ويقدم الحاكم العام لهذا المجلس طعام الغداء ، المؤلف من السمك ، والفواكه المجففة ، ثم تقدم لهم كميات من تبغ البرازيل الذى يحبونه كثيرا . وفى هذا الاجتماع يقرر حجم الدوبلة ، ويتناول الشيـوخ ، منحتهم السنوية السالفة الذكر .

القبائل العربية وتقسيمها

أما القبائل والدواوير التى لا تحضر هذا الاجتماع ،ولا تدفع الجزية، فانهـا تعتبـر قبائل عاصية ، لا أمـان لها ، ومن أجـل ذلك تكون عرضـة كل آن ، للغارة عليها ، وأخذ أموالها ومواشيها ، واستعبـاد رجالهـا ونسائها هكذا يقول الدكتور دولا كوبية فى تقريره الرسمى .

ثم يقول : ان القبائل العربية التى تسكن المنطقة الاسبانية ، كانت معروفة ، محددة الميول والسلوك . فمنها الطيب ومنها الخبيث . فمـن القسم الطيب (بالنسبة للاسبانيا) : أولاد عبد الله ، وأولاد قلطة ، والعزى ، والغروزى، وأولاد جسلى . وقد اشتهر عنهم أنهم من الرجال المسالمين .

أما : الشنقرانية ، والسقراطة ، وبنى عزراوية والعـربى ، وابـن صران ، فقد اشتهر عنهم انهم من رجال حسن السلوك ، ومعرفة آداب المجالس .

وأما القسم الخبيث من هذه القبائل (فى نظر الاسبان) فهـم :

الطرارة ، وأولاد زعير ، وحميان ، فقد كانوا محسوبين من جماعـــة الخونة .

وجماعة سويد كانت تعتبر دوما من انصار اسبانيا .

وجماعة زنينة الهبرة ، والجفرة ، كانت من الموثوق بها .

وجماعة بنى راشد ، لم تكن أبدا جماعة مسالمة ، كانت تشمل لصوصا مقلقين (فى نظر الاسبان طبعا) يحبون القتال ، ويستجيبون دائما لكل من ينادى بالجهاد ضد النصارى . اه

الفصل الخامس عشر

الفتــح الاكبــر وانقــاذ وهــران

الداى محمد بكداش باشا

فى سنة ١٧٠٧ (١١١٩ هـ) آل حكم الجزائر الى أحد أفذاذ الرجال هو الباشا محمد بكداش ، العربى الاصل التركى المولد والمنشأ العالم العامل ، والمجاهد الجسور .

يقول الشيخ أبو زيد عبد الرحمان ، فى شرحه للقصيدة الحلفاوية، التى وضعها مفتى تلمسان العلامة الشيخ محمد بـ نأحمد الحلفاوى ، عن الباشا محمد بكداش :

« عالم فقيه ، مشارك فى عدة فنون ، من المعارف والعلوم . ماهر فى علم اللسان ، له ممارسة بعلم القوم وطريقتهم ، تصدر للاقراء مرارا . وتولى خطابة بعض جوامع الجزائر سنة ١١٠٤ هـ (١٦٩٢ م) فأدار فيها على الناس كؤوس المواعظ فتركهم سكارى . وقد استوفى حق تحليته بالعلوم ، وتحصيل المنطوق والمفهوم ، الاديب الاريب ..... أبو عبد الله سيدى محمد بن ميمون ، حفيد الشيخ الفقيه .... علم الاعلام سيدى أبى العباس أحمد بن عبد الله الجزائرى .

« .... ومازالت الشعراء تصفه بهذه الصفة العلمية ، وما يناسبها من الصفات السنيه . من ذلك قول كاتبه الذى سخر انشاؤه بانشاء عبد الحميد ...... سيدى ابراهيم الحسنى المفتى :

حبيبي بكداش الذى عم فضله (..................)

عليم باسرار القلوب منـــبىء	عن الغيب فيما قاله فيصــيب
رحيم رءوف فاضل متواضـــع	سخى ، شجاع، للقلوب طبيب
اذا جاءه الملهوف عاد بسؤلــه	وكم فى حماه طالب ورغيـــب
وفى وجهه الاسنى الكريم الى الورى	سرور ونور ما عراه تغلــوب
سبيل نداه كل آن براحـــة	سحاب حكاه فى الوجود سكوب
تعطرت الارجاء من عرف نشره	وعمت على الآفاق منه هبوب
ترى الناس سرعى يسألون بجاهه	اذا نالهم ضيم وعم خطــوب

ويقول عن أصله :

محمد بكداش هو اسم هذا السلطان نصره الله، وهو مركب من اسمين ....وذلك لان والده الارضى ، السيد المرتضى ، المرابط الناسك الصوفى السالك ، نور الدين أبو الحسن على بن محمد ، رحمه الله تعالى ورضى عنه ، سماه « بكداش » بلسان بلده التركى ، وتفسيره باللغة العـــربية « الحجر القاسى » ثم استمر على هذا الاسم المبارك لا يعرف الا به ، الى أن خرج بجزيرة الغرب البربرية ، قاصـــدا محروســـة الجزائـــر ، فدخل فى طريقه مدينة بونة (عنابة) فلقى بهـــا ...... الشيخ سيدى قاسم بن شاشى رحمه الله ، ...... فسماه محمدا ، وقال فيه عـــلى طريقة الموال :

قلبى اليكـم صبا والحب فى جاشى	والسر منى سـرى فى سـر بكداش
يا لائمى فى هوى هذا الفتى الناشى	اقصـر مـلامـك ان خيـره فـاش

وقد أحاطت بمحمد بكداش باشا ، فى مدينـــة الجز ائر ، هالـــة من

العلماء ، والشعراء ، والادباء ، لم تجتمع من قلبه ولم تجتمع من بعده حول أى حاكم من حكام الجزائر العثمانيين ، وألف المؤلفون فيه كتبا كثيرة ، منها المطبوع ، ومنها المخطوط .

فكان هذا الامير أكثر تجاوبا مع الشعب ونخبته من كل أمير آخر ، اذا استثنينا خير الدين وابنه ، وكان حريا به أن ينهض لمحاربة الاسبان فى وهران ، وان يطهر الجزائر نهائيا من ادران الوجود الاستعمارى فوق أرضها .

وكان باى الغرب ، الجريئى المقدام مصطفى بوشلاغم ممعنا فى مناوشة الاسبان ، عاقدا العزم على استخلاص وهران منهم ، فوجد من محمد بكداش اذنا صاغية ، ووجد من الخزناجى ، وزيره وصهره ، السيد أوزن حسن (أى حسن الطويل) نعم المعين على تنفيذ ما اعتزم القيام به . وأخذ القوم يستعدون لليوم العظيم استعدادا لم يسبق مثلـــه ، وأرسلوا الى كل الجهات الجزائرية ، يستحثون القوم على الجهاد .

دعوة الشعب للجهاد

يقول أبو زيد المذكور آنفا « فان الناس جاءوا اليه من كل فج عميق وانسلوا اليه من كل قبيل وفريق ، زيادة على من عينه السلطان لذلك من عساكره المنصورة بالله تعالى ، حتى ان الناس وفدوا اليه بخيامهم ، وعيالهم واعتكفوا عليه الليالى والايام ، ورفضوا كل شىء سواه فى ذلك المقام وأنفقوا عليه الطارف والتالد ، واستطابوا لأجله الحر والبارد .

..... ان طلبة العلم وحملة القرآن ، كانوا أشد الناس مسارعــة لاجابة دعوة السلطان الى هذا الجهاد المبارك ..... وكانوا بمحلــة

مستقلة عن غيرها ، وكانت شوكتهم على الكفار اقطع من الرماح ، ومرماهم انفذ من الصفاح ، وسور جندهم يشد بعضه بعضا ، وكل واحد منهم يرى موته قبل أخيه فرضا ... وكان عددهم يزيد تارة على الالف ، وينخفض عنه الى السبعمائة ..... وكانت لهم منهم رؤساء يرجع أمرهم اليهم ، ومنهم الفقيه والعالم ..... أبو عبد الله محمد الموفق التلمساني نسبا . المالكي مذهبا ، رحمه الله ورضى عنه ، وكان أكثر الناس حرصا على الظفر بالشهادة ، والفوز بالسعادة ، يبحث عنها فى كمائن العدو ، ويرصدها فى الحركة والهدو ، ويحرض الناس على طلبها، ويحذرهم فوات زمنها ، حتى أدرك منها المنى فى وقت سعيد ، بين البرج الاحمر والبرج الجديد . »

الاستعداد :

وبينما كانت جموع المجاهدين من رجال الشعب الابى تتهاطل على موطن الجهاد المنتظر ، أرسل الباشا محمد بكداش جيشا جزائريا مؤلفا من ثمانية آلاف وخمسمائة رجل ، مع سلاح كثير ، ومدفعية ضخمة ، وكميات هائلة من البارود ، لنسف الاسوار ، يقول أبوزيد : ورأيت فى بعض دفاتر الباى (مصطفى بوشلاغم) انه خرج على يد خليفته القائد مصطفى المسراتي نحو الثلاثة آلاف وثلاثمائة قنطار »

وعندما التأم شمل المجاهدين من رجال الجزائر ومن جماعات المتطوعين أوائل شهر سبتامبر ١٧٠٧ ، ابتدأوا منازلة وهران، والتضييق عليها ، فكانت القيادة العليا للسيد أوزون حسن ، وكانت ادارة العمليات للسيد الباى مصطفى بوشلاغم ، وقد عقد الجميع العزم والتصميم ،

على أخذ المدينة ، وتحطيم أسوارها ، ودك حصونها ، مهما كلفهم ذلك من ثمن ، والباشا من ورائهم من مدينة الجزائر يمد ويستحث ، والشعب يوالي ارسال المجاهدين ، ورجال الدين والأيمة في المساجد يذكون نيران الايمان في القلوب ، ويدفعون بالناس الى ساحات الشرف .

أما رجال الحامية الاسبانية ، فقد استبسلوا في الدفاع ، فما كان المسلمون يجدون أمامهم الا رجالا عقدوا العزم على الموت دون الانقاض ، وتحت الانقاض ، فما كانوا يخسرون شبرا من الارض ، أو جدارا من حصن ، الا بعد أ نيكون قد سقى وابلا من دم المجاهدين المسلمين ، ومن دم المقاتلين الاسبانيين ، وكأن هذه المعركة التي دامت من ٨ سبتامبر الى ١١ نفامبر ، كانت مباراة لاحراز كأس البطولة ، وقد فاز بها الجانبان والحق يقال ، الغالب والمغلوب

مدد مالطـــة

وما كادت المعركة تحمى ويشتد وطيسها ، حتى حركت الحمية رجال المسيحية ، فحلت بمرسى وهران سبع سفن تحمل على متنها مددا مؤلفا من أشد مقاتلي مالطة ، وبعض ميآت من المتطوعين الفرنسيين ، فاشتد بذلك عزم الاسبان ، وقويت معنوياتهم .

الهجوم الاول :

ابتدأ الجزائريون الهجوم أوائل سبتامبر ١٧٠٧ (١١١٩ هـ) وأول أمر قاموا به ، هو محاولة هدم مجاز الماء الذى يرد من الخارج الى وهران ، وعليه « برج العيون » الحصن الحصين ، فدخلوا الى ساحته

من خندق حفروه، والتحمت النيران أول معركة من معارك هذا الفتح المبين ، فكانت حامية الوطيس، زحزح فيها الجزائريون الاسبان عن « رأس الماء » وحفروا حوله الخنادق، حتى لايعود اليه العدو، وكان ذلك أول نصر فى هذه المعركة .

ثم هاجموا برج العيون ، وصدقوا فى هجومهم ؛ وحفروا تحته الالغام لتفجيره ، فلم يستطيعوا دكه ، واضطروا لمهاجمته بالسيوف ، تحت وابل من رصاص العدو ، وقنابله ، التى أربى عددها عن الاربعة آلاف ، الى أن تمكنوا من صعود جدران الاسوار ، واقتحموها وغلبوا أهلها عليها ، وتمكنوا من احتلالها بعد معركة عنيفة .

ولقد اسر المسلمون من بقايا المدافعين عن البرج ٣٢٢ رجلا ، ومن انصارهم من عرب جيذرة ٦٠ رجلا ، ووجدوا به من الجرحى ٢٧ رجلا أمر الامير بارجاعهم الى أهلهم ، تكريما لبطولتهم فى الدفاع ، كما غنم المسلمون به سلاحا كثيرا ، وكميات عظيمة من الاطعمة والذخيرة ، وتم هذا النصر يوم ٨ سبتامبر ١٧٠٧ (الثلاثاء ١٠ جمادى الاخرى ١١١٩ هـ) وكان عدد القتلى من الاسبان ٤٠ رجلا .

أما عدد شهداء المسلمين فكان يتجاوز المائتين .

النصر الثانى ، برج مرجاج

ثم أخذ المجاهدون فى مهاجمة برج مرجاج الكبير ، وهو من أضخم الحصون ، ويدعوه الاسبان القديس فليب ، والصليب المقدس (سانطاكروز) وتمكنوا من حفر لغم طويل ، وصل تحت البرج ، وملأوه بارودا . وعرف الاسبان المدافعون عن البرج ذلك، وعلموا أن المقاومة

لا تجديهم نفعا ، اذ أنهم يوشكون أن تطير اشلاؤهم من شظايا البرج ، فبعد مقاتلات وقصف متبادل بالقنابل ، أعلن الاسبان تسليم الحصن ، فدخله المجاهدون المسلمون ، وأسروا من بقايا المدافعين عنه ١٠٧ رجال، و ٣ نسوة ، وكميات هائلة من الاسلحة ، والدخيرة والمواد المختلفة وكان ذلك يوم ٢٧ من جمادى الاخيرة (٢٥ سبتامبر) .

النصر الثالث : برج بن زهو

وكان هذا البرج الضخم، الحصين، من أمنع حصون وهران، وأكثرها قوة، ولقد تقدم نحوه المسلمون، وهم يحسون بهبوب ريح النصر ، فهاجموه بقوة وعنف ،وتركوا تحت جدرانه جثث مآت من الشهداء . لكن الدفاع كان صلبا ،وكان يائسا، وقد ارتاع الاسبان من خسارة البرجين الاخرين، فازدادوا شدة وضراوة في الدفاع عن هذا البرج . وصدوا هجمات الجزائريين المتواصلة، وكبدوهم خسائر عظيمة، مدة ثمانية أيام كاملة . كلما تقدمت موجة من مجاهدينا الى الاسوار، ردها الأسبان بعد تكبيدها الخسائر العظيمة .

ثم حاول الاسبا نالخروج من وهران لمهاجمة المجاهدين، آثر ما لحق بهم من خسائر، ومانالهم م نجهد ونصب، فخرجوا في حمية وعنف ، واقتتلوا مع المجاهدين قتالا عنيفا حول متارز البحر . لكن المجاهدين تغلبوا على هذا الهجوم، وتمكنوا من رد العدو الى ماوراء جدرانه . بعدئذ أخذ المسلمون في حفر اللغم تحت الحصن، وكانت الارض تحته صلدا، فبعد عمل متواصل وجهود مضنية، تمكنوا من الحفر، ومن وضع اللغم، وتفجيره، لكنهم رأوا بعد ذلك أن الحصن لم يصب بسوء، فأعادوا

ذلك العمل مرة ثانية، ثم مرة ثالثة، وكان النجاح حليفهم هذه المرة فانفجر البرج، وانقلب بصخوره، فاقتحمه المسلمون، لكن الاسبان الذين بقوا على قيد الحياة، لم يستسلموا، واستمروا يدافعون وراء الانقاض، الى أن أتى السيف على آخرهم، وكانوا ١٢٠، فلم يقع منهم تحت الاسر الا ثمانية رجال •

وتم هذا النصر المبين يوم خامس شعبان • (١٤ نفامبر)

وكان عدد شهداء المسلمون نحو المائتين أيضا •

النصر الرابع ــ البرج الجديد ــ

بقى على المسلمين يومئذ اقتحام آخر القلاع، وأكثرها منعة وأضخمها بناء، واعلاها جدارا، الا وهى قلعة، البرج الجديد، الذى تبرعت ببنائه سيدة اسبانية، ابتغاء وجه المسيح، وكلفها ذلك مقدارا عظيما من المال•

وكان على المسلمين أن يعملوا الحيلة من أجل الاحاطة به، ومحاولة تحطيمه، فأخذوا يحيطونه بالمراكز الصغيرة التى يدعونها « المتارز » من عين جندرة الى ناحية شعبة الدجاج، وراء البرج الجديد، ومدوا هذه المتاريزات الى ارباض المدينة التى أصبحت كلها معقل دفاع • وصارت بعض جهاتها عورة، فكان رصاص بنادق المجاهدين يدخل على المدافعين وهم فى البيوت، وكان لايستطيع أحد منهم ــ فى مدينة وهران ــ أن يخرج من بيته الى بيت مجاورة، فصاروا يثقبون الجدران لكى يتصل بعضهم ببعض ،واخذ المجاهدون يدخلون المدينة من أطرافها، ويتوغلون فيها، بعد مقاتلة المدافعين عنها الى أن وصلوا الى كنيسة سانطاماريا، فاحتلوها، وحطموا اصنامها ،وصار قسم المدينة الموجودة

مابين البرج الجديد والبرج الاحمر، بين يدى الجزائريين وصار الاسبان من أهل وهران، ينقلون امتعتهم الى المرسى الكبير •

كل هذا والبرج الجديد ، ثابت فى دفاعه لم يستطع المجاهدون تحطيم شىء منه • لكن البرج أصبح مع ذلك عديم الجدوى من ناحية الدفاع، اذ أن الحرب أصبحت تدور بين جدران المدينة، فخرج قائد الحصن يحمل راية بيضاء، واتفق مع القائد العام الجزائرى على أن تقف أعمال الحرب حول البرج، فان تمكن المجاهدون من احتلال مدينة وهران، فالبــــرج يستسلم لهم، تبعا للمدينة •

النصر الخامس « البحر الاحمر » (لامونا)

عندئذ وجه المجاهدون كل عنفهم وجهودهم، نحو البرج الاحمـــر الاخير، الذى بقى مدافعا عن المدينة. عائقا للجزائريين عن جمع كـــل قواهم، لمداهمتها، فهاجموه بصلابة، واشتد أهله فى الــدفاع، وصمموا على الموت دونه، وتقاتل الفريقان قتالا قاسيا رهيبــا، الى أن غــير الجزائريون خطتهم، فعدلوا عن المتاريز والبنادق، واستلوا السيــوف وهاجموا اعداءهم فى موجة عارمة بينما المدافع تدك الجدران دكا، الى أن اضطرت بقيتهم الى الاستسلام • وكان ذلك يوم ١٤ نفامبر •

فرار الحاكم ، واحتلال المدينة

رأى دون ملشوردى افيلانيدا، حاكم وهران العام، ان الواقعة قــد وقعت وانه لم يبق للمحافظة على وهران أو محاولة الدفاع عن بقاياها من سبيل، فترك الميدان، وترك المعركة، ونجى بنفسه فركــب البحــر الى المرسى الكبير أولا ، ثم الى اسبانيا أخيرا •

هاجم الجزائريون المدينة، وقد سكتت كل حصونها، فدخلوها، بعد أن وضعوا الالغام تحت قصبتها، قطعا لامل آخر المدافعين عنها ووجدوا أن بقايا الاسبان من أهلها قد فروا عنها الى المرسى الكبير • ولم يخلفوا فيها الابقية رجال وعجزة، وبعض « المغطسين » أي الاعراب الذيـــن باعوا دينهم وذمتهم للاسبان، فاخذ السيف عنهم، واصبحوا خبرا بعد عين • وتمكن المجاهدون من كل بقايا المدينة، بين أصوات التهليل والتكبير •

استسلام البرج الجديـــــد

وتنفيذا للعهد الذى انعقد بين قائد البرج الجديد الاسبانى ، وبـــين القيادة العامة الجزائرية، فقد استسلم حماة البرج الجديد للمجاهدين ، بعد تمكنهم من مدينة وهران ،وكان عدد من فيه من بقايا حماتـــه وممن التجأ اليهم، نحو الاربعمائة رجل، أما السلاح والمؤن والامتعة المختلفة، فقد كانت كما يقول المؤرخون المسلمون تفوق الحصر • وكـــان مجموع الاسرى يفوق الالفين من بينهم نحو المائتين من كبار الضباط، والموظفين، وجماعة من متطوعى مالطة والفرنسيين ، سيقوا الى مجمعات الاسرى بمدينة الجزائــــر •

الفرحة العامــــة

يقول الشيخ ابو زيد في وصف الافراح التى تلت هذا الفتح المبـين :

« ولما اقبلت رسل البشائر وتليت صحف فتحها على الامير، وعـــم الخطاب بالفرح جميع المؤمنين بلسان التبشير، أمر الامير نصر اللــــه (الداى محمد بكداش باشا) بصنع وليمة الفرح وعيده، وتسريح مـــن

كان فى هم وعيده (أى جماعة المسجونين) وتزيين سوق البلاد وتجديده، وتعطيل البيع والشراء وقطع الجدال والمراء، ورفع الاحكـام، وتنويع اللباس، والطعام، ففتحت الناس صناديق ذخائرها، ••••• وتأرجت الارجاء بنفحات الند والعود، وسجعت حمائم الاوتار على افنان الرباب والعود ،وبرزت مخدرات الخدور، وطلعت فى أبراج دكاكينها الشموس والبدور، وظللت ازقتها بالستور، وتقلدت جدرانها بقلائد النحور، ولم يزالوا فىنعيم منضود، وظل ممدود، وسرور وافراح، وضحك وانشراح، ليلهم ونهارهم سواء، حتى توهموا أنهم فى الخلود، وان كواكبهم لاتسقط من بيوت السعود •

« وقد شاهدنا مايقرب من هذا الصنيع بمحروسة تلمسان ، وقـــد تحلت وجوهها الحسان •••• وبالجملة فقد عم السرور جميع المؤمنين ، وارغم جميع الكافرين، والحمد لله رب العالمين »

هذا، ومما يذكره المؤرخو نالاروبيون، فى الم وفى كـدر، هـو أن تنصل دولة انكلترا قد شارك أهل الجزائر افراحهـم، وأضـاء انـوار القنصلية ثلاثة أيام، اقتداء بهـم •

انقاذ المرسى الكبـــير :

أما جيش المجاهدين، فان مجال الكفاح لم يزل أمامه فسيحا • فاذا كانت وهران قد أنقذت بعد كفاح مضن وجهد طويل، فان مدينة المرسى الكبير لاتزال حصينة منيعة، وقد التجأ اليها كل من تمكن مـن الانهزام من وهران ولن يكون نصر وهران تاما، بل لن يكون أدنـى محتوى، اذا لم يعزز بانقاذ المرسى الكبير، وتطهيره بصفة تـامـة •

وجه المجاهدون كل جهودهم، نحو المرسى الكبير، ولم يصيبوا شيئا من الراحة بعد تحطيم الدفاع الاسبانى فى وهران • وخيموا على تلك المدينة محاصرين، مصممين على الفتح والانتقاذ •

ولم تكن معركة المرسى الكبير هينة، ولم تكن عملية انقاذها بالامر اليسير، لقد ركز بها الاسبان قدمهم أكثر من مائتى سنة، دون انقطاع (١٥٠٥ ــ ١٧٠٨) فكانت أول نقطة احتلوها، وجعلوها نواة لاعمالهم المقبلة، وكانت آخر نقطة خسروها، بعد ماابلوا فى الدفاع عنها البلاء الحسن •

كانت الحرب بين الجانبين سجالا ،وكان الجزائريون يحتلون برجا بعد قتال مرير، ودفاع عنيف، ثم يغادرونه غدا تحت ضغط من العدو عظيم • وقد شمل الدفاع كل أهل المدينة، لافرق بين عسكرى ومدنى ، ولابين رجل وامرأة •

وضع الجزائريون اللغم تحت حصن المدينة الاكبر، وفجروه، فلم يأت بنتيجة مطلوبة ،ثم أعادوا حفر اللغم مرة أخرى، ثم أخرى، ففجروه ، وتوضوا به البناء ،وكان ذلك يوم الرابع والعشرين من المحرم الحرام ١١٢٠هـ (١٦ افريل ١٧٠٨،) واقتحموا المدينة، والتحموا فى معركة كان كل من الجانبين يدرك هدفها، ويعلم مغزاها، واضطر الجزائريون لوضع لغم رابع تحت بقايا الحصون، واشتدت المعركة عنفا وضراوة ، والمسلمون يهللون ويكبرون ،الى أن تمكنوا من القضاء على آخر مقاومة، فاستسلمت لهم المدينة استسلاما، وغنموا كل مافيها، وساقوا من الاسرى ١٤٦١ اسبانيا، سير بهم الى عاصمة الدولة •

أما جماعة المغطسين (من الكلمة الاسبانيــة موقاتاز) أى الاعراب

الذين باعوا دينهم وذمتهم للاسبان، فان الداى محمد بكداش، أبـــاح للعسكر نهبهم وسبيهم، فوقع فيهم البيع والشراء، اهانة لهم، وانتقاما منهم، وان كان ذلك مخالفا لرأى الفقهاء •

بناء وتجديد مدينة وهران

رجع القائد الخزناجى أوزون حسن الى مدينة الجزائر، مكللا بتاج النصر بينما بقى الباى مصطفى بوشلاغم فى مدينة وهران، يقيم خرائبها، ويعيد بناءها • ثم نقل اليها عاصمة كرسى البايليك ، وأخذ الناس مـن أطراف الولاية يتوافدون على المدينة ، ويبنون بها دورهـم وينشؤون حولها حدائقهم، حتى غدت بعد أمد وجيز مدينة عامرة، عاملة ومرسى زاخرا بالحركة والعمران •

وأرسل الداى بكداش، هدية الى الخليفة العثمانى السلطان أحمـد باستامبول، مفاتيح وهران الذهبية الثلاثـة، بشارة بالفتـح، وتأكيدا للاعتراف بمقام الخلافة •

وهكذا تطهرت على أيدى الباشا العالـم الخطيب، الورع، والداى محمد بكداش ، وعلى أيـدى المجاهـدين الابـرار من رجـال الشعب ومـن الابطال من العثمانيين أرض الجزائـر المطهرة، من كل احتلال أجنبى ، وخلصت باجمعها لاهلها خاصة ،الى أن قام الاسبان بصليبيتهم الثانية، كما سترى •

الشعر الجزائرى، يسجل نصر وهران

بما أننا قد اسلفنا ذكر الدور الذى قام به الشعر الجزائرى من واجب

الاستفزاز والتحريض على فتح وهران وانقاذها، فاننا نرى من الواجب أن نذكر شيئا مما قابل به الشعر الجزائرى فتح وهران، وما صاغه الشعراء من مدائح لمنقذها، على اننا لانأتى الا بالشىء القليل من ذلك.

فمن قصيد للشيخ ابو زيد عبد الرحمن التلمسانى طالعه :

تلت رسل البشائر يوم عيد عليـنا سورة الفتح السعيد
فاحييت من رسوم البشر رسما عفا بالشرك من زمن بعيد
....

وقل « وهران » يهنيك امتكاك وانقاذ من الاسر الشديد
لك البشرى وللاسلام أخرى بمنعك من يد الكفر العنيد
اتذكر حيث كنت مناخ شرك نصرت مقام شكر للحميد
وكنت مقام تثليث فاضحى يقرر فيك توحيد المجيد
جزى جيش الجزائر كل خير الاه الخلق ذو الملك العتيد
هم المستنقذوك وقد أحاطت بك الاعداء تطمع فى المزيد
....

وقد ظنوا بأن لهم نجاة بمرسى الثغر من بعد الشرود
ولو أغنى التحصن عن قتيل وحال السور من قدر المريد
لما فتحت بروجهمو وهدت معاقلهم بصاعقة الرعود
ولو عقلوا لما لجأوا لشىء سوى دين التحية والسجود
وا نلم يسجدوا لله طوعا لقد سجدوا بمنصلت الهنود
وان فروا ستدركهم قريبا باندلس جنود من أسود
......

ومن قصيد للاديب أبى عبد الله محمد المعروف بابـــن يوســـف الجزائرى احــد عسكرهـــــا

مطلعهـــــا

مولا ىفضلك للكروب مفـــــرج وبتاج عز الله أنـــت متـــوج

••••••

وعرجت معراج الكمال فنقت من فيه الى يوم القيامة يعـــــرج
سبقت لك الحسنى بما قدمت من فعل جميل نوره يتوهــــــج
جهزت حقا للجهاد عساكـــــرا كرب الورى بقدومهـــم يتفرج
من كـــل ضرغـــام بصير بالوغى نار الحـــروب بعـــزمهم تتـــأجـــج

••••••

كم قاتلوا الابطال يوم الملتقـــى حتى محو داجى الضلال وفرجوا
وحباهم المولى بنصر عندمـــــا ركبوا المطايا للجهـــاد واسرجوا
« حسن » خليفتك الهمام يقودهم والعيس ما بين الكرام تعجعـــج
حتى قضوا حقا لوهران التـــى أمواج بحر ضلالهم تتمـــوج

••••••

فرت خيول المشركين أمامهم لما رأوا برق الهدى يتـــــورج

•••••••

دارت على أهل الضلال دوائـــر شتى وهـــــم قـــط لا يتفـــرج
ضربت ببارقة السيوف رقابهـــم والرمح فيهم والاسنه تولـــــج

•••••••

عادت الى الاسلام دارا مثلمـــا كانت ، وصارت ريحهـــا يتأرج

اضحى مؤذنها يحيط تـــارة وبها يهلل تــارة ويهـــــزج
وقراءة القرآن فى أرجائهـــــا منها نتائج الاستقامة تنتـــج
والدين أصبح قيما وكفى بهــا من نعمة عنا الكروب تفـــرج

ومن قصيد لاحد أدباء تلمسان :

سلام على الجند المؤيد بالنصر ضراغم خلق الله فى البر والبحر
جيوش بها الاسلام عز منالــه فأصبح دين الله مبتسم الثغـــر
هموا منعوا الاسلام منكلصائل وهم قصموا الاعداءبالبيض والسمر

......

رعى الله أيام البشائـــر انهـــا مواسم للاسلام بالفتح والنصر
فياسعد شخص كانللفتح حاضرا لقد حاز حظا للسعادة ذا وفـــر
ولله مـ نكانت مزيته علــــــى يديه فنال الاجر من مجزل الاجر
ونعم الفتى مازال فيه مرابطــا ينزه عن زيد هناك وعن عمـــرو

ومن قصيد للعــلامة الكبيـر الشيخ محمد بن محمد بن علي بن سيــدى المهــدى الجزائرى . . وهو من بديع شعر ذلك العصــر

مطلعــه :

عيون دهتنى أم سيوف صوارم وسمر رمتنى أم قدود نواعــم
وتلك بروق فىالحنادس أو مضت نعم سناها أم ثغور بواســـم
فكم ليلة وافت فمزقت الدجــى شموس اكنتها الخدور العواصم

....

ولى نزعة قيسيــة عربيـــــة فها أنا منها الدهر نشوان هائم
دعانى لها داعى الصبا فتكلفــت اجابته منى القوى والعزائـــم

ليفخر على الحسن ما كان قاضيـا سـواه على ما جره الطرف نائم
وحبى على هضب اللوا متنظـم اناف على الشطرنج منه التلاؤم
اذا هبت الارياح منه تنظمت لها الروح أومرت عليها النواسم
كأن بها الخلجان شكل سجنجل ترصعها زهر اذا الليل عاتـم
وراق بها ورد الغزالة اذ حكى سبائك تبر موجها المتلاطـم
تذكرته والليل مد رواقــه فاصلى فـؤادى حين ذكره حاجم
فأيقظت عين الحزم من سنة الكرى وشدت على نحرى اليه الحيازم
ولبيت أمر الشوق بالسمع راضيا كما حكمت تلك الشجايا اللوازم
لتعلم كيف الجود والفضل للذى تكلفه فى سالف الدهر حاتـم
تعود بسط البذل كهلا ويافعـا يواليه مذ شدت عليه التمائـم
سطا سيفه بالكفر أفظع سطوة لقد احجمت عنها الاسود الضراغم
غدا ذلك الجمع الخبيث مكسرا وجمع الهدى فى حومة الحرب سالم
وهل طاوعت «وهران» قبل مملكا سـواه فاضحى انفها وهو راغم
فكم سامهـا من لا يناهضها وكـم حوالى حماها حام بالزور حالم
تملكها حزب الشقاء ولم يكـن زمانا لحزب الحق عنها مخاصم
بها يسمع الناقوس من نحو فرسخ ومن لغة الكفار عنه تراجـم
وفى كل يوم صيحة من خيولهـا ينوح لها الاسلام، والشرك باسم
زهى واعتلى التثليث فيها ونكست لما دهم التوحيد منه الغمائـم
وكل رئيس يرتجى لخطوبـها تشاغل فى لذاته وهو نائـم
ورد «أميرأوزان» فى السير نحوها فيرجع لما كاثرته الدراهـم
رضوا بالرشا فى الدين لما تخلفوا وتدرسخت فى الارض تلك الاراقم
تنادى الرعايا لم يجبوا ملوكهـا وتصرخ لو لبى على الصوت راجم

وما أمهل الرحمن الا لحكمـــــة لها قلم التصريف فى اللوح راقم
فتيض للفتح المبين مهندا رقيق الشبا ، صلب الصفيحة ، صارم
امـام سقى الكفـار كـأس منيـة لهم شبـه بالنمل والسيف حاطم
لقد صال فيهم صـولة هاشميـة فأمرهم في الحـرب حيران واجم
ومزقهم فى الارض كل ممـزق فربعهم بعد العمارة طاســـم
وعاد « لوهران » السنية ربهـا وحن اليها عهدها المتقـــادم
ليهن « أمير المؤمنين » افتتاحها فقد سجعت تثنى عليه الحمائم

....

فدم للعلى والباس ترجى وتتقى وسيف المعانى فى يمينك صـارم
يمثلك تاج الملك راق جمالـــه وقامت الى رفع السرير القوائم
فلا زلت محفوظ الجناب مؤيدا ولا برحت تثنى عليك العوالـم
و«أحمد» (١) منولاك أمر عباده له الحمد اذ ولاك والشكر دائم
وأزكى صلاة بعده وتحيـــة على المصطفى من هو للرسل خاتم

ولاديب آخر ، فى وصف الباشا « محمد بكداش » وذكر فتح وهران

خليلى يمم روضه فهو يانـــع نضير بهى نوره للنواظـــر
ورد حوضه فهو الفرات ولذ به تجده حمى من كل طاغ وجائر
وكيف يخاف الدهر من حط رحله بسلطان جند من أسود كواسر
أمام حوى علما وفضلا وسؤددا فحق له تقديمه فى المفـــاخر
سرى سرى سير البدور حديثه فحدث عن العلم الصحيح التواتر
شريف زكى أصلا وفرعا ومحتدا الى هاشم ينمي كبير الاكابر

(١) الخليفة العثماني السلطان أحمد .

أتم له فتحا جديدا تطـــاولت له همم الاملاك ماض وغابـر
فلم يحصلوا من نيله أى طائل وما رجعوا الا بصفقة خاسر
الى أن أراد الله نصرة دينــه فنبهه فى شبه يقضان جاســر
وجرد منه الحزم سيف قراعه يفت صميم الصخر يوم التشاجر
فجاش على وهران جيشين من ندى وآخر من رأى سديد مـؤازر
وجر له الاسلام جندا مؤيــدا بتأييد منصور من الله ناصــر
فطهرها من رجسها وأعادهــا عروسا تجلت فى مراقى المنابر
فلله ما قد كان منه وأجـــره عليه وخير الاجر نعمة شاكـر

ارجـوزة مختصـرة فى تاريـخ وهـران

واننا لنختم هذا الفصل ، بهذه الارجوزة الجزائرية المختصرة ، التى لخص فيها ناظمها ، وهو الشيخ العلامة أبى عبد الله محمد التغــــيرلى، من مدينة الجزائر ، فتح وهران ، ورجوعها لحضيرة الوطن والاســـلام ، قال فيها رحمه اللـــه :

الحمد لله الذى قد فتحــــا وهران من أيدى الرجال الصلحا
وقهر القوم اللئـــام الفجـــرة ورفع الاسلام فـــوق الكفـــرة
فى مدة السلطان فخر النــــاس «أحمد» خاقان أبى العبــاس
من ملك البـــرين والبحـــرين ومصر والشام بدون مــــين
للحرمين خادم طول المــــدى دام انتصاره على جمـــع العدا

يا سائلا عما بوهران ظهـــــر من أخذها وفتحها كما اشتهر

أخذها الكفـار بالثبـــات مما رويناه عـن الثقــات
سنة أربع وعشرة مضـــت من بعد تسعمائة قد كملـت
فمئتان مع خمســة سنـين عدد مكثها بأيـدى المشركـين
ثم بعد العزم من الالـــه قد جاءنا الفتح بنصر اللـــه
ففتحت سنة تسعة عشـــر ومائة من بعد ألف تعتبـــر
فى سادس العشرين من شـوال صبيحة الجمعة خذ مقــالى
عن يد من قد صير الجـزائر جنة كل قاطـــن وزائـــر
محمد بكداش فخـر الدولــة وحسن صهره عالى الصولـــة
زاد الاله لهما فى النصـــر والظفر وافتتاح أرض الكفــر
ما زال من عاداهما فى الانتقام بالقهر والنهب على طول الدوام
ثم الصلاة عن محمد الامـــين وآله وصحبـه والتابعـــين
ما جاهد الاسلام فى الكفــار بالقتل والاسر وأخذ الثـــار

الفصل السادس عشر

الصليبية الاسبانية الثانية



الاستعداد لاحتلال وهران من جديد

كان وقع هزيمة الاسبان فى وهران والمرسى الكبير ، واستيلاء الجزائريين على المدينتين ، عظيما ، قاسيا ، مؤلما ، لا فى اسبانيا وحدها ، بل فى البلاد المسيحية جمعاء ، واذا كان المسلمون قد اعتبروا ذلك الفتح نصرا اسلاميا عاما ، فأحرى بالنصارى أن يعتبروه نكبة مسيحية عامة ، فى وقت كانت الحروب فيه تكتسى صبغة دينية سافرة لاغبار عليها .

أخذ الاسبانيون ، منذ تلك الساعة ، يفكرون فى الجولة الثانية ، ويستعدون لها ، ويستفزون شعور الاسبان والمسيحيين من أجل بذل النفس والمال، للاخذ بالثار من المسلمين، وارجاع وهران والمرسى الكبير، كنقطة انطلاق لاسبانيا ، وللمسيحية جمعاء

استعدت اسبانيا استعدادا هائلا لهذه المعركة الكبرى .

وقد ابقت لنا الوثائق التاريخية احصاء مدققا عن مدى هذا الاستعداد، ننقل منه الارقام التالية .

عدد الجيش المهاجم	٣٠٠٠٠ رجل
عدد سفن الاسطول والنقل	٥٢٥ سفينة
= المدافع	٧٢٠ مدفعا
= قنابل من أحجام مختلفة	١٦٤٢٠

عدد قنابل يدويـة	٥٦٠٠٠
قذائف مختلفــــــة	٨٠٦٩٣
قناطـــير البـــارود	١٢٤٢٧
صناديق رصاص البنـــــادق	٨٠٠٠
بنـــادق	١٢٠٠٠
وجبـات الطعـام للجيـــش	٢٠٠٠ ٠٠٠

واستعد الاسطول للاقلاع .

المنشور الملكى الصليبى

يوم ٦ جوان ١٧٣٢ ـ (١١٤٥ هـ) أذاع ملك اسبانيا، فليب الخامس، وحفيد ملك فرنسا لويز الرابع عشر، على البلاد الاسبانية، وعلى كامـل البلاد النصرانية ، هذا المنشور التى شاركت كل وسائــل الاعــلام فى اذاعته :

ان ارادتنا الملكية قد اقتضت أن لا نترك خارج دائرة كنيستنا المقدسة وديانتنا الكاتوليكية ، أى جزء من أجزاء الارض التى كانت العنايـــة الالهية قد وضعتها تحت سلطاننا ، عندما اقتضت وضعنا على عــرش هذه المملكة ، والتى تغلب عليها الاعداء بكثرة عددهم ، وأخذوها منـا وأخرجوها عن طاعتنا بواسطتى العنف والاحتيال . اننا لم نترك قــط التفكير فى استرجاع تلك الاجزاء المقتطعة ، انما حالت الاحداث المؤلمـة بيننا وبين تحقيق أملنا فى ذلك الاسترجاع . فلم نتمكن قبل اليوم مــن تجهيز القوى العظيمة التى وضعتها العناية الالهية تحت تصرفنا .

واليوم ، ورغم أننا لم نتخلص بصفة تامة من تلك الاحداث المؤلمة ،

فقد صممت على أن أبادر باسترجاع مركز وهران ذى الاهمية العظيمة، والذى كان فيما مضى محط آمال ومظهر قيمة التقوى المسيحية والامة الاسبانية .

ولقد رأيت أن بقاء وهران تحت سلطان المتوحشين الافارقة . انما هو عائق عظيم يحول بيننا وبين نشر ديانتنا المقدسة ، كما انه بـــاب مفتوح يواجه اسبانيا ويهدد سكانها الساحليين بالغزو والاسترقاق .

....

من أجل ادراك هذه الغاية السامية قد قررت بأن أجمع فى مدينـــة الليكانت جيشا يشمل ثلاثين ألفا من الرجال والفرسان ، مع كل ما يلزمهم من الاسلحة والمؤن والمدفعية وكل الآلات والمعدات اللازمة لمثل هـــذه المعركة الحامية .

ولقد عينت على رأس هذا الجند قائدا الكونت دى موتيمار ، بمعية قادة وضباط آخرين ، لهم من الخبرة ومن الهمة والشجاعة ، مـــا يجعلنا نرجو من وراء هذه العملية فوزا مجيدا .

ان عددا عظيما من السفن المختلفة الانواع والاشكال ، قـــد جمعت بأمرى فى نفس المكان ، تحرسها سفن الاسطول الكبيرة والصغيرة ، ستحمل هذا الجيش العظيم حالا ، من أجل استرجاع مدينة وهران .

وبما أن مثل هذه الحملة لا يمكن . أن تنجح ما لم تكن مؤيدة بعناية الله ، فقد اصدرت أوامرى ، لجميع ممالكى ، بأن تقام فى كل مكـــان صلوات عامة ابتهالا الى الله من أجل تحقيق النصر لجيشنا فى هـــذه المهمة العظيمة .

....

أشبيلة ٦ جوان ١٧٣٢

النزول الى البر والمعارك الاولى

أقلع الاسطول الاسبانى يوم ١٥ جوان ١٧٣٢ ، قاصدا الناحيــــة الوهرانية ، فوصلها بعد عشرة أيام ، لكن رياحا معاكسة لم تمكنه من الاقتراب من الساحل ، فبقى يناور ، الى يوم ٢٩ ، والجزائريـــون لا يعرفون النقطة التى اختارها لنزوله ، فحشدوا قوتهم فى وهران والمرسى الكبير .

وكانت الحملة الاسبانية كلها تحت قيادة الدوق مونتيمار ، ولعله من أصل عربى ، اذ كان يحمل لقب « البرنوس » عائليا .

وكان الباى الشيخ مصطفى بوشلاغم ، فاتح وهران وأميرها منـــذ سنة ١٧٠٧ ، يستعد للدفاع بما بين يديه من قوى ، وتجمع حوله ما يزيد عن العشرين ألفا من المجاهدين من رجال الشعب ، مع نحو ٢٥٠٠ رجل من الجيش ، وكانت وهران مسلحة بما يزيد عن ١٣٨ مدفعا ، منها ٨٧ مدفعا ، من البرونز .

اختار الاسبان لنزولهم ساحة عين الترك (١٥ كيلو مترا غربى وهران) ويوم ٢٨ جوان ، أخذت القوارب الاسبانية وعددها نحو الخمسمائة ، تنقل الجند من السفن الى الارض ، وكانت القوة العربية القليلة العدد هنالك لا تستطيع شيئا ضد هذا العدد الضخم ، فأنزل الاسبان جيشهم وعتادهم . بينما كانت النيران متواصلة بين رجال الدفاع الاسلامى — على قلة عددهم — وبين المغيرين ، وجاءت بعض الامداد من وهران ، مع شىء من المدفعية ، فصارت تصلى الاسبان بنيران مقذوفاتها ، فتصيب منهم خلقا كثيرا .

أرسل الاسبان فرقة تتصدى لهذه الكتائب الجزائرية فاشتبكت معها في القتال ، وتقدمت شيئا فشيئا ، الى أن تمكنت من مشاهـدة مركـز التجمع الاسلامي، القليل العدد ، الذي كان يمتد على طول الجبل المشرف على ميدان المعركة •

انقضت حينئذ على الميمنة الاسبانية كتيبة من المجاهدين تشمل نحو الالفي رجل ، بين مشاة وفرسان ، فتمكنت من احتلال مرتفع تقع تحته عين يستقي منها جند العدو ، فحالت بينه وبين الماء •

لكن القائد الاسباني أصدر أمره على الساعة الرابعة من عشية ذلك اليوم ، الى فرقة كبيرة من المشاة ، ومعها أربعمائة فارس ، بأن تتصدى لهذه الكتيبة العربية ، وأن تقوم حولها بحركة التفاف تقطع عنها خـط الرجعة • لكن الكتيبة العربية لم تقع في الكمين ، وانسحبت الى المرتفعات التي كانت مقرا لمجموع القوى الاسلامية •

المعركة الكبرى

وما كادت تشرق شمس يوم ٣٠ جوان ، حتى كانت ميسرة الجيش الاسباني قد التحمت في معركة هائلة مع المجاهدين ، قتل اثناءها القائد الاسباني الذي كان يقود هذه المعركة •

وعندما رأت قيادة الاسبانيين أن الضغط الجزائري قد اشتد ضـد الميسرة ، أمرت بأن يتحرك الجيش كله ضد المراكز الاسلامية ، وانطلق الاسبانيون في شدة وفي حماسة ، وشملت المعركة كامـل الواجهـة ، فدحروا الجيش الجزائري ، الذي احتل مراكز أخرى ، على جانبي فج عميق ينحدر من الجبل ، وهو ممر الجيش الاسباني ، وأخذوا يصلون هذا الجيش نيرانا حامية ، أوقعت بهم خسائر كبيرة ، لكنهم تمكنوا بعد

لأى من التغلب نظرا لوفرة عددهم ، على المقاومة الجزائرية ، فاعتصم المجاهدون بجبال أخرى من وراء مراكزهم الاولى ، وأشرف الاسبان من فوق الجبل على مدينة المرسى الكبير .

تسليم المدينتين

قرر الباى مصطفى بوشلاغم ، ورجال الحرب الذين معه الانسحاب من المدينة ، وأخلاءها من سكانها ومن المدافعين عنها ، اذ رأى أن وسائل الدفاع التى بين يديه ، لا تمكنه مطلقا من مجابهة هذا العدد الاسبانى الضخم ، وما لديه من معدات هائلة ، ورأى ، أن يستمر على المقاومة من وراء المدينة ، ريثما تمكنه الظروف ، وتمكنه الامداد الجزائرية ، من استرجاعها وهكذا خرج الباى ورجال الادارة حاملين على مائتى بعير ، أمتعتهم وأموال الحكومة ، واقتدى بهم السكان ، ولم يكن عددهم يومئذ كبيرا ، ودخل الاسبان عشية يوم أول جويلية المدينة ، فكانت خالية من كل حياة .

كان الداى بابا عبدى باشا ، قد ارسل على وجه السرعة مددا من الجزائر ، يبلغ ألفى رجل ، تحت قيادة ولده ، لكنه وصل بعد أن كانت المدينة قد أخليت أمام الاسبان ، فانضم الجيش الى قوى الدفاع التى طوقت المدينة من كل جهاتها .

وما كاد نبأ سقوط المدينة بهذه الصفة المزرية الحقيرة يبلغ مدينة الجزائر حتى سادتها موجة من الحزن والهم ، وآوى الداى عبدى باشا الى بيته ، وقد بلغ من الكبر عتيا ، وامتنع عن الاكل ، حزنا وغما ، الى أن فارق الحياة وكان قد بلغ من السن ٨٨ سنة .

استمرار المعركة

كان المسلمون عند انسحابهم م نوهران ، قد تركوا بها كل مدافعهم ؛ فلم يأخذوا معهم الا الاسلحة الخفيفة ، ورابطوا فى الجبال المخيمة على المدينة مضيقين عليها الحصار ، فلم يستطع الاسبان التحرك الى الداخل، وارجعوا معظم قواهم الى اسبانيا تاركين بالمدينتين ما يكفى للدفاع عنهما

واستمرت المعركة حامية الوطيس ، مدة سنة تقريبا • ففى يوم ؛ أكتوبر ، حال المجاهدون بين الاسبان وبين حصن سانتاكروز ، فما استطاعوا تموينه الا بعد معركة حامية ، وخسائر كبيرة •

ويوم ٤ نفامبر ، هاجم المجاهدون المدينة ، ووصل الباى مصطفى بوشلاغم على رأس فرقته الى نفس الابواب ، والتحم مع الاسبان فى معركة عنيفة ، استشهد أثناءها ولده •

ويوم ١٢ نفامبر ، التحمت نيران معركة جديدة ، انتقم فيها الباى بوشلاغم ، لاستشهاد ابنه ، بقتل المركيز دى صانطاكروز ، وجمع كبير من الجيش الاسبانى •

وفى سنة ١٧٣٣ ، وقعت مهاجمة المدينـة بشـدة وعنف ، وأصيب الاسبان بخسائر كبيرة ، يوم ١٠ جوان ، وقتل قائدهم المركيـز دى ميروسنيل •

وفى سنة ١٧٣٤ ، هاجم بوشلاغم مركز العيون حول وهران ، بشدة وعنف ، ووصل الى أبواب المدينة ، ولم يتمكن من احتلالها •

وهكذا بقيت وهران والمرسى الكبير ، تحت حصار ضيق ، ومعارك تكاد تكون مستمرة متوالية ، ما يزيد عن الخمسين سنة ، الى أن انقذت نهائيا سنة ١٧٩١ ، كما سيأتيك بذلك البيان •

الفصل السابع عشر

الصليبية الاسبانية الثانية

انتصار الجزائر الاكبر

الاستعداد للمعركـــة

لم تكن اسبانيا عابثة عندما جمعت قواها الضخمة وأرسلت بها الى وهران ، فاسترجعتها ، على الصفة التى سبق بيانها ، بل ان أعمـــال اسبانيا كانت هادفة ، وكانت منطقية ، وكانت تسير حسب خطة محكمة ومنهاج مدقق، الا وهو العزم على تحطيم الدولة الجزائرية ، وضـــم هذا القطر الى الممتلكات الاسبانية ، أو احتلال سواحله وجعله منطقـــة نفوذ اسبـــانى ، على الاقل • فانتهت هذه الصفحة الجديدة باحتـــلال وهران كما رأيت • انما ادراك الغاية لـــن يأتى ، الا بالضرب عـــلى الرأس • والرأس هو مدينة الجزائر •

لذلك أخذت اسبانيا تعد العدة ، وتجمع الاسطول ، لمنازلة مدينـــة الجزائر ، مرة أخرى ، اثر الخيبات المريرة السابقة ، وكانت آمالها هذه المرة قوية • وقد جهز الملك الاسبانى شارل الثالث ، خلاصة رجاله ، ومهرة قادته ، فكانت الحملة تشمل :

٢٢٦٠٠ رجل مقاتل ، ومعهم مائة مدفع ضخم لحصار المدينة •

أما الاسطول فكان يتألف من ٤٤ سفينة حربية ، و ٣٤٤ سفينة ناقلة للجند والسلاح • وكانت التقارير السرية لدى الاسبان ، قد جعلتهـــم

يتوقعون انتصارا حاسما فى هذه المعركة يفتح فى وجههم أبواب الامل ، وينتقم لهم من الهزائم السالفة .

أما الجزائر ، فقد كانت يومئذ تحت ولاية شيخ جليل ، يجمع الى التقوى والورع والصلاح ، حزم الشباب ، وعزيمة الابطال ، وثبات الفدائيين ، هو الداى محمد عثمان باشا ، الذى أحيا سنة عمر بن عبد العزيز ، وقد كنا أفردناه وأفردنا عصره بكتاب خاص (١)

كانت الجزائر قد علمت بأمر الاستعداد الاسبانى ، وعرفت أن نفس مدينة الجزائر كانت هدفا لهذه المعمعة الكبرى المنتظرة ، فاستعدت لتلقى الصدمة أيما استعداد، وتهيأت لملاقاة هذا الجيش الغازى ، بما يرضى الشرف وبما يرضى الوطن والاسلام .

واننا لا نملك عن أى معركة من معارك الجزائر العظيمة ما نملكه من وثائق عن هذه المعركة التى قادها من الناحية الاسبانية، الكونت أوريلى، وقادها من الناحية الجزائرية ، الداى بنفسه ، باعانة وزرائه ، وبايات الولايات، وأهمهم بالنسبة لهذه المعركة، باى قسنطينة صالح الازميرلى.

ونظرا لوفرة هذه الوثائق المختلفة ، فاننا سنورد عن كل جزئية مـــن جزئيات هذه المعركة التى كان تأثيرها عالميا ، ما ورد عنـــه فى مختلف التقارير الرسمية التى بين أيدينا : التقرير الرسمى العثمانى ، وتقرير السيد محمد بن أحمد العنترى ، المكتوب للباى صالح ، وتقرير الاميرال مازاريدو الاسبانى . وعلى هذه الصفة سنكون قد أحطنا علما بتفاصيل هذه المعركة من كل جوانبها .

---

(١) محمد عثمان باشا ، داى الجزائر . طبع الجزائر سنة ١٩٣٩ .

الاستعداد الاسبانى

« يقول التقرير الرسمى الاسبانى الذى حرره الاميرال مازاريدو :

« كانت الحملة كلها قد تجمعت فى خليج الجزائر يوم غرة يوليو • وقرر الكونت أوريلى قائد الحملة ، أن يحاول النزول الى البر عند فجر يوم الثالث من جويلية ، واختار لنزول جنده الساحل الواقع جنوب وادى الحراش ، وطلب الى قائد الاسطول أن يشد أزره برمى قنابل الاسطول على الساحل المعين ، ثم أمر بأن ينزل الى البر مباشرة مع الافواج الاولى من الجيش ١٢ قطعة مدفعية من عيار ٤ وتنزل اثر ذلك على الفور ١٢ مدفعا من عيار ٨ و ٨ مدافع من عيار ١٢ • واتفق مع قائد الاسطول على أن تقترب السفن أكثر ما يمكن من الساحل ، وأن تعين مهمة كل سفينة حربية وما معها من الناقلات • لكن رأينا عدم امكان تنفيذ كامل الخطة فى هذا الاجل القصير ، فاتفقنا على تحديد أجل النزول الى البر ليوم ٤ جويلية •

« ولقد هبت رياح قوية جدا صبيحة يوم ٣ جويلية كانت تجعل النزول غير ممكن لان البحر كان من جراء ذلك كثير الاضطراب •

« وفى عشية نفس اليوم ، جمع القائد الاعلى مجلسا حربيا ، وقرر انزال الجند فى خليج مالا موجير mala munger الذى يقع غربى رأس كاكسين (١) ، وتقرر تنفيذا لهذا الاتجاه الجديد تخصيص عدد من السفن (ذكر التقرير أنواعها) لنقل الجنود • ولقد نفذت البحرية جميع ما طلب منها ، بل أضافت سفينتين الى السفن المطلوبة ، وألقى قائد الاسطول

---

(١) غربى الجزائر على نحو كيلو مترا من المدينة •

الامر بأن تقلع تلك السفن في الليلة الموالية • وتكون الحملة تحت قيادة القائد العام • وتكون وراءه السفن ناقلة الجيش تليها السفن ناقلة الفرسان وآلات الحرب والعتاد والمؤن •

« وكان البرنامج يقضى أن يقع الرسو أقرب ما يكون الى الساحل ، حتى يتمكن الجيش من النزول بكل سرعة ، والسيرتوا نحو المرتفع الذى تعلوه قلعة السلطان (١) وتحتل البطاريات الموجودة هنالك •

« وكان هذا البرنامج جميلا جدا فوق الورق •

« فعندما جن الليل ، وفى الساعة المحددة لاعطاء الاوامر بالمسيرة ، كانت الريح قد خفت واتجهت نحو الشرق ، وكان البحر مضطربا لا يسمح بالنزول المقرر •

« فجمع القائد العام المجلس الحربى من جديد ، وقرر أخيرا العدول عن رأيه • وأن يقع انزال الجيش فى المكان المقرر أول مرة (جنوبى وادى الحراش) وأن تقع العملية يوم ٧ جويلية •

ويوم ٤ جويلية ، عند نهاية النهار ، كلفت بأن أضع الخطة النهائية لنقل الجنود، وتعيين السفن التى تقوم بذلك على أن تنزل للبر ٧٧٠٠ رجل تقريبا • وتنزل سفن أخرى بعيد ذلك بقليل ٧٠٠ رجل آخرين •

وهدأت حالة البحر ليلا • وعندما جاء صباح اليوم السابع من جويلية وزعنا على قادة الفرق الصغيرة السبعة قائمة السفن التى تمتطيها كل فرقة ، وعينت ضباط البحرية الذين يقودون هذه الحركة باتفاق مع ضباط الوحدات ، ثم ذهب القائد العام الكونت أوريلى بصحبتى الى السفينة

---

(١) يقول مترجم التقرير ان القلعة المذكورة يعنى بها برج بوليلة ، لا قلعة السلطان التى تدعى فور لمبرور ، المشرفة على الجزائر •

« الشرق » ومنها لا حظنا بكل دقة البطاريات (الجزائرية) الموضوعة فوق الساحل الذى تقرر النزول عليه • وقد تبين لنا وجود بطاريتين ، فقرر القائد العام أن نضع سفينتين حربيتين فى مواجهة كل منهما لقتالهما •

الاستعداد الجزائرى

ويقول التقرير الرسمى العثمانى ، عن الاستعداد من الجهة الجزائرية :

« وبعد يومين وليلتين من مغادرة هذا الاسطول لبلاده• وصل الى الخليج الجزائرى ،واصطف على اشكال وخطوط مختلفة، فى خيلاء وتحدى، وكانت مقدمات كل هذه السفن مواجهة لوادى الحراش، وعندما وصلوا على مقدار رمية مدفع من البر ، ألقوا بمراسيهم الى البحر وارسوا، متباهين بقوتهم وكثرة عددهم • ورأينا يومئذ رأى العين أهمية هذه القوة العظيمة التى جاء بها الكفار الملاعين • وكان هذا المنظر الهائل • جديرا بأن يدخل البلبلة فى النفوس، ويثير الدهشة والعجب لكننا رجعنا الى مالك الملك، الواحد القهار، نستمد منه النصر والتأييد وتوسلنا اليه بآيات الذكر الحكيم، ربنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين • وتلونا قوله تعالى : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين، فأطمأنت النفوس لذكر الله ،وانزل الله السكينة على قلوب المؤمنين ، وأصدر الوالى محمد باشا اطال الله بقاءه وأمنه مما يخشاه ، أوامره ، بما يدل على شدة حزمه وقوة شكيمته، وعدله ورحمته ، وا.تعدللاقاة العدو تحت حماية الله مصرف الامور • فالهب الحماس

فى كل طبقات ومختلف الجنود، معتمدا على الله السميع البصير، ومما قرره أنه يجب على جميع الصبيان الذين يتجاوز سنهم السبعة أعوام، أن يعملوا مع أهل المدينة ومع الجيوش المختلفة فى أعمال الدفاع والتحصين، وعمرت القلاع والحصون، ووضعت البطاريات فى مكانها، ثم وقع تسجيل الجنود الذين يشاركون فى « المحلة » فكانوا يعمرون أكثر من مائة خيمة •وكان توزيع الجيش كما يلى :

قسم انضم الى محلة السيد حسن الخزناجى (وزير المالية) حفظه الله من كل سوء معززا القوة التى لديه، وكان مركزه بعين الربط (١)

وقسم آخر عزز القوة التى يقودها آغة العرب، السيد القائد على، المدرك الفهامة • وكان مركزه عند وادى خنيس (٢)

وقسم آخر عزز القوة الموضوعة تحت قيادة خوجة الخيل (وزير الحربية (حامل كتاب الله ، وصاحب العقل الراجح والباس الشديد وكانت محلته تحرس باب الوادى •

وجاء باى الشرق الهمام، صالح بلى على رأس جيوشه ، فخيم على وادى الحراش وقدم باى تيطرى مصطفى باى، وخيم بجيشه على جهة تاما نتقوس •ومعه بعض القبائل وفرسان ناحية سباو •

أما خليفة الغرب (محمد عثمان) فقد جاء على رأس أربعة آلاف من فرسان العرب الدواير، وخيم على مقربة من معسكر الخزناجى •

وأما باى الغرب ابراهيم باى، فقد بقى على مقربة من مدينة مستغانم، كقوة رديف ونجدة •

---

(١) الحى الذى يدعى اليوم « ساحة المناورات » بين مدينة الجزائر وحى بلكور •

(٢) أخر حى العناصر • حيث حديقة التجارب •

وأخذ كل قائد ينظم جيشه ويرتبه في المنطقة المحددة له، ثم حفر كل جيش الخنادق وأنشأ المتارز . وكان العمل متواصلا ليلا ونهارا، وكان صوت بارود المسلمين يسمع كل ساعة وكأنه الرعد القاصف، مستمرا دون انقطاع . »

ويقول التقرير القسنطيني ، الذي كتبه الشيخ العنتري، ما يكمل المعلومات السالفة : (١)

« لقد اتخذ الباشا كل الحيطة التي يقتضيها المقام . واخذ الجيش يقيم الاستحكامات للدفاع في كل جهة . أما رجال القبائل الذين يسكنون الجبال القريبة من مدينة الجزائر . فماكادوا يسمعون نبأ قرب وصول النصارى الاسبانيين دمرهم الله، حتى جاءوا من كل ناحية لكي يأخذوا نصيبهم في هذا الجهاد .وكانت الجموع العربية تتوارد في اعداد كبيرة يصعب معها أحصاء عددها . وعلى الاخص عرب بايلك قسنطينة . وكان بين هؤلاء العرب عدد كبير من الصالحين ومن العلماء ومن طلبة العلم . وكانت أول صفوفهم لاتكاد ترى آخرها . وضاقت بهم الارض بما رحبت، وطلع نجم الاسلام مشرقا عاليا . وكان الايمان يغمر القلوب ، وكل رجل كان يتمنى في قرارة نفسه أن يكون مجاهدا وان يموت في سبيل الله شهيدا .

« أما أعداء الله الكفار، فقد اختاروا خمسا من بين كبريات سفنهم ، كانت تحمل كل واحدة منها ٨٠ مدفعا، وتقذف بقذائف يتراوح وزنها بين ٣٦ و٢٤ رطلا .

---

(١) معرب عن الفرنسية .

« فاثنتان من هذه السفن وقفت فى مواجهة برج الشرق (بـــرج الكيفان) واثنتان وقفتا فى مواجهة محلة الاغا • والاخيرة واجهت محلة الجزناجى •

« وفى اليوم السابع من الشهر المذكور ، أخذت هذه السفن تقصف بمدافعها البطاريات التى اقامها جيشنا • وأجابت المدافع الاسلامية على هذا القصف بمثل الشدة والعنف • واستمر ضرب المدافع طول الليل• ثم انسحبت السفن الى عرض البحر بعيدة عن مرمى القنابل • وكانــت تستطلع أحسن مكان للنزول على الارض •

« وفى الصباح ألقى المسلمون ابصارهم على أسطول العدو الكافر دمره الله، فرأوا السفن والنقالات والقوارب تعمر بالجند، واستمر ذلك كامل النهار والليل الذى يليه »

نزول العدو والمعارك الاولى

يقول التقرير العثمانى :

وبعد سبعة أيام من ذلك • أخذ الكفار الملاعين محقهم الله، يلقـــون قذائف المدافع على بطاريات وحصون الحراش وخنيس • وابتــدأت المعركـــة •

وبنعمة من الله وفضله انقلبنا ولم يمسسنا سوء • وعادت السفـــن العدوة الى مراكزها الاولى، وقد اصبناها اصابات كثــيرة •

وبعد يومين، وكان يوم السبت، عند مطلع الفجر، غادرت سفن الحرب وناقلات الجند مركز تجمع أسطول العدو، واقتربت من الساحل عنـــد مصب وادى خنيس، وكانت تطلق على مراكز الاسلام نيران مدافعهـا

ورصاص بنادقها فكانت تتصاعد نحو السماء فى أصوات كأنـــها الرعود القاصفة • وهكذا تمكنت سفن كثيرة من ناقلات الجنود من الرسو على الساحل ،وانزلت على الساحل نحو أربعة وعشريـــن الـــف كافر (١) واستقروا بالمكان •

وعندما لاح نور الصباح كان جند الاسلام الظافر ، المقاتل فى سبيل الله ابطال الجهاد المغاوير، الشجعان المنقادين، قد درسوا الموقف حـــق الدراسة، واستعدوا بحمية وايمان لخوض المعركة • مصممـــين على أن يحرزوا الشهادة فى سبيل الله، ابتغاء وجه الله وجنة الرضوان •

وبادر الكفار الملاعين بايقاد نار المعركة، فهاجموا متارزنا (استحكمات) المحروسة • وكانت موجات هجومهم المتوالية تتكسر فـــوق صخـــور استحكاماتنا هذا مع أن المسلمين فوجئوا بنزول العدو الكافر ! ثم وصل الانجاس دمرهم الله الى البساتين ، حيث يقوم المبنى الجديد الذى هو مخزن بارود بطارية خنيس • وهنا قاتلهم المسلمون قتالا عنيفا ، من وراء جدران البساتين والحدائق والديار • »

ويقول تقرير العنترى

« أما المسلمون فقد قضوا ليلهم فى استحكاماتهم ، وهم على استعـــداد لمقابلة النصارى الملاعين، وكان المسلمون يسمعون أصـــوات النصارى عالية مبلبلة ،وكانوا ينزلون احيانا فى القوارب ثم يعودون منها للسفن ثم يرجعون اليها، وكان المسلمون ينتظرون نزول النصارى دمرهم الله ، صبيحة السبت التاسع من جمادى الاولى (٨ جويلية) وينتظرون لقاءهم، بعزيمة قوية • وكل من الجانبين يحمس جماعته •

---

(١) العدد كما ترى مبالغ فيه كثيرا ، فمجموع الجيش كان ٢٢٦٠٠ جندى •

وعند مالاح الفجر الصادق، خرج المسلمون من استحكاماتهم، وتبعهم سائر الجند، فذهب بعضهم الى ساحل البحر وذهب آخرون الى وادى الحراش، فتوضأوا، واصطفوا جماعات لاداء صلاة الصبح، فمنهم من انهى صلاته ومنهم من لايزال فى حالة الوضوء، عندما سمعوا ضربـــة المدفع الاولى من العدو ، تبعتها ثلاث طلقات أخرى فخالوا عندئذ أن العدو يلقى تلك الطلقات حتى يستيقظ جنده من النوم ، حسب العادة . لكنهم علموا حالا أن تلك الطلقات انما هى بداية المعركة ، واشتد رمى الاعداء وعم حتى شمل كامل الميدان من المحل الذى كان مربض باى قسنطينة (ما بين وادى الحميز والحراش) الى محلة الخزناجى (ما بين وادى الحراش وعين الربط حيث محلة الآغا) ولم يكن للمسلمين وهم على تلك الحالة من ملجأ يلجأون اليه تحت وابل من المقذوفـــات ورعـــود الطلقات ، فرجعوا فورا الى مراكزهم ، وأخذوا سلاحهم وعدتهم ، وامتطوا صهوات جيادهم ، واستعدوا للقاء العدو فى أى نقطة يختارها للنزول الى البر . وعندما لاحت أنوار الشمس ، أمكن للمسلمين رؤية ما يجرى على سطح البحر من قبل الاسطول ، ورأوا حينئذ نحوا من ألف وخمسمائة سفينة وناقلة وفلك وقارب ، قد امتطاها الجند ، وهى تسير قدما صوب محلة الآغا .

« وبسرعة خاطفة سار البايلار ، وخوجة الخيل ، وخليفة باى الغرب ، والخزناجى ، والآغا على رأس مختلف الجيوش الاسلامية الى المكان الذى تبين أن الاسبان يريدون النزول فيه ، وانتظروا العدو .

« ولقد كان الاعداء قد شحنوا فوق تلك الناقلات كل ما يلزم مـــن الادوات من أجل أعمال التركز والتحصن، كعدد لا يحصى من الاكياس،

(لتملأ ترابا ورملا ويوضع بعضها فوق بعض من أجل الوقاية) والفؤوس ، وغير ذلك ، مع جماعة من المهندسين الذين يشرفون على عملية الاستحكام .

« وكانوا يتقدمون وئيدا نحو الساحل ، بينما كانت سفنهم الحربية تلقى بنيران مدافعها على معسكرات المسلمين فى الشرق وعلى معسكر الخزناجى على الاخص بصفة عنيفة متوالية . ولقد قابلت بطاريات المسلمين تلك النيران بنيران مثلها . وبمثل شدتها وعنفها ، واشتركت كل مدفعية المسلمين فى تلك الحملة ، ما عدا مدفعية مرسى وقلاع مدينة الجزائر لانها كانت بعيدة عن الميدان لا يمكن أن تصيب الهدف .

« وصلت سفن العدو وألقت بمراسيها فى البحر ، وتقدمت القوارب تحمل الجنود حتى وصلت على مقربة من الساحل ، فوضعت الواحا من الخشب تصل بينها وبين البر ، اجتازها الجند واستقر فوق الارض اليابسة ، وكانوا أشبه شىء بقطيع من الخنازير دمرهم الله وشتت شملهم . وكان كل جندى من جنودهم يحمل بندقية ورمحا برأسين من الحديد ، لكى يغرسوها فى الارض حول معسكرهم فتعوق وصول فرسان المسلمين اليهم ، وكذلك أنزلوا معهم أكواما من الاخشاب التى ارتبط بعضها ببعض ، من أجل وضع الاستحكامات . وما كادوا ينزلون البر حتى شرعوا توافى أعمال التحصن ضمن معسكر منيع . ومن أجل ذلك حفروا فى الرمال خندقا ثم أوثقوا حوله الحبال ووضعوا وراءها أكياس الرمل وما بين أكياس الرمل غرسوا أعمدة من الخشب لكيلا تقع أو يختل نظامها .

« ثم ان كل فريق من فرق جندهم شبك حوله على شكل دائرى تلك

الرماح ذات الرأسين الحديديين التى أنزلوها معهم فكانوا يستطيعون التنقل والسير وهم محتمون بتلك الدائرة التى تقيهم هجوم الاعداء .

« ولقد تم انشاء ذلك المركز الذى كان أشبه شىء بمدينــــة صغيرة ، فى مدة وجيزة من الوقت . وكان يتخلل ذلك المعسكر ١٤ طريقا يتصل بعضها ببعض وفى الوسط حفروا بئرا يستسقون من مائه العذب .

« هذا ما كان من جهة اعداء الله النصارى ؛ محقهم الله وخيب آمالهم وبلبل رأيهم آمين .

« وأما من جهة المسلمين ، فانهم ما كادوا ينظرون أعمال العـــــدو وتشكيلاته وتحصنه ، حتى استعدوا للمعركة ، ورفعوا أصواتهم بذكر الله تعالى مهللين ومكبرين ، وهجموا هجوما صادقا على معسكر العدو ، وكأنهم البنيان يشد بعضه بعضا . فقتلوا كل الجنود الذين كانوا خارج المعسكر وقطعوا رؤوسهم وأتوا بها أمراءهم . ثم سبحوا بحمد الله ولاحت على جباههم أنوار اليقين والايمان وأذهب الله من قلوبهم الخوف الذى يخوف الشيطان به أولياءه ، فقويت العزائم واطمأنت النفوس . وقد استشهد من المسلمين خلال هذه المعركة الاولى جماعة ، حملهـــم أهلهم وذووهم الى ما وراء ميدان المعركة ، كيلا تقع جثثهم الطاهرة بين أيدى الاعداء . ولم يتركوا فى الميدان الا الخيول النافقة .

أما جيف النصارى فقد بقيت ملقاة على الارض دون رؤوس بين جثث الخيل »

المعركة الحاسمة والنصر الاكبر

جاء فى تقرير العنترى

ثم استؤنفت المعركة بقوة وشدة . وكانت القنابل والرصاص تتهاطل

كوابل من المطر . وتحصن المسلمون وراء بطارياتهم وكثبان الرمل المحيطة بمعسكر الكفار . وكانت قذائف المسلمين ورصاص بنادقهم تصيب الكفار فى الصميم داخل معسكرهم وهم لا يستطيعون الخروج منه مطلقا . وكلما سقط منهم رجل أخذوه فورا الى القوارب التى تنقله للاسطول ، فربطوا رجله الى قذيفة وألقوا به الى البحر حتى لا تطفو جثته فوق الماء ، وكانوا أحيانا يجمعون الخمسة والستة من الجثث ويربطونها الى قذائف ثم يلقون بها الى البحر . وهكذا كانوا يفعلون بموتاهم داخل معسكرهم .

لكن هذه الاعمال لم تكن حاسمة . ولم يجد المسلمون حيلة لاقتحام مركز العدو نظرا للعدد الجسيم من القنابل الذى كان يتساقط حول المعسكر لحمايته

وهنا أشار السيد صالح باى قسنطينة برأى أخذ القوم به ونفذوه حالا وذلك انه أمر بجمع كل الابل التى كانت بالمعسكرات ، لم يستثن منها بعيرا واحدا وجيىء بها فجمعت أمام الرجال والفرسان كوقاء ، ثم سيقت والمجاهدون من خلفها ، نحو معسكر العدو . وكان صالح باى يدير المعركة بنفسه ، ويحرض المؤمنين على القتال ، وسيفه مشهور بيده ، وحذا حذوه الخزناجى ، والآغا ، وخوجة والخيل ، وباى تيطرى، وخليفة باى الغرب ، واقتحموا جميعا على هذه الصفة معسكر العدو ، لكنهم ما كادوا يصلون حتى اصطدموا بتلك الرماح المغروسة حول الاستحكامات فما استطاعوا لاقتحامها سبيلا . وكان النصارى من داخل معسكرهم يمطرون المسلمين بنيران مدافعهم ، ورصاص بنادقهم ، واسود النهار حتى أصبح مثل الليل من كثرة دخان الطلقات المتصاعدة .

وقد اشتدت الهجيرة ، وكاد الظمأ يذهب بالنفوس ، حتى أن الفارس كان يسقط أحيانا من فوق فرسه عطشا وتعبا • ثم رجع المسلمون الى استحكاماتهم حاملين معهم جثث شهدائهم الابرار رحمهم الله • وتولى أقاربهم ورجال معسكرتهم دفنهم (١)

« ثم اجتمع قادة الجيش المسلمون للمداولة من أجل ابتكار طريقة ترغم العدو على الخروج من معسكره المحصن ، حتى يتمكنوا من قتاله •

« وكان سيدنا الباشا قواه الله ، يتتبع من قصره (الجنية) سير المعركة • ويوالى الصلاة والابتهال الى الله جل جلاله ، أن ينصر عباده المؤمنين ، بينما كان علماء المسلمين وجماعة الطلبة ورجال الخير والصلاح وعامة الناس والجند المكلف بحراسة المدينة ، يواصلون الصلاة والابتهال أما النسوة والاطفال فكانوا يتضرعون الى الله ويستصرخونه ودموعهم تتهاطل يسألونه تأييد ونصر المسلمين •

« ولما أذن المؤذن لصلاة العصر من ذلك اليوم ، ذهب الامراء وجنودهم من أجل الوضوء واقامة الصلاة ، ثم أعطوا العلف للخيول ، وأخذوا نصيبا من الراحة وبعد أداء صلاة المغرب ، ركب المؤمنون خيولهم ، وشكل الامراء صفوفهم ، واستعدوا جميعا لمصادمة العدو ضمن معسكره فى جولة ثانية •

« وفى هذه الليلة أرسل الله سحابا كثيفا من جهة الجنوب ، كان مصحوبا برعود وبروق ، وانسكب المطر رذاذا من جهة المسلمين ، لكنه

---

(١) لم يعرف الجيش الجزائرى فى حرارة المعركة ، ان هجومهم هذا قد كبد الاعداء حسب اعترافهم اربعة الاف قتيل ، وان هذا الهجوم كان حاسما فاصلا •

انهمر زوبعة عاصفة فوق معسكر النصارى ، فأعماهم كامل الليلة . (١)

وكان الاعداء خلال هذه الزوبعة يصرخون صراخا عاليا ويحملون جثث قتلاهم كما سلف (٢) والبقية الباقية منهم على قيد الحياة فرت من ميدان المعركة آخر الليل. وكانت المدفعية خلال كل ذلك تمطر أرض المعركة كامل الليلة

وعندما ارتفع صوت المؤذن لصلاة الصبح كأنه يسأل الله النصر للمسلمين، لم يسمع المسلمون صوتا يرتفع في معسكر العدو. وانقطع اطلاق المدافع ذلك ان الله سبحانه وتعالى قد انزل نقمته على الاعداء ونظر الى عباده المؤمنين نظرة رحمة ورضوان واقترب أحد المسلمين من معسكر العدو الذي كان بالامس زاخرا كأنه أمواج البحر، فاذا به خاو على عروشه، وشاهد البطارية المدفعية وقد تركها أصحابها، وحولها القنابل والقذائف ،وشاهد فوق الارض البنادق المختلفة الانواع والآلات والادوات التي لاتدخل في حصر. كل هذا وقع غنيمة فيايدينا نحن معشر المسلمين المجاهدين في سبيل الله. وكانت رؤوس النصارى ملقاة فوق الارض والدماء لاتزال تنزف منها .

وكان هذا اليوم هو الحادي عشر من شهر جمادى الاولى، أما الرائد الذي دخل معسكر النصارى مستطلعا، فقد حمل اقصى ما يستطيع حمله من مخلفات العدو، من بنادق واشياء أخرى، ورجع يحمل البشرى

---

(١) المؤرخون الافرنج لا يذكرون اصلا هذه الزوبعة .

(٢) كان الاسبان ينسحبون اذاك الى سفنهم خاسرين ، ولم يشعر الجزائريون بذلك الا الصباح .

الى معسكر المسلمين وينبؤهم بأن العدو الكافر الملعون (١) قد فر من الميدان وآب بالخيبة والخسران . »

أما التقرير العثماني فيقول عن هذا النصر المبين :

ثم وصل بكل سرعة من الحراش بای الشرق وبای تيطری ، وكان معهم نحو خمسمائة بعير تستعمل وقاء للجيش .

وبأعانة الله سبحانه وتعالى، وبفضل سيوف المسلمين وحمية ابطال الجهاد باء الكفار بالخيبة والخسران، وكانت هزيمتهم منكرة، وحـزت رؤوسهم ونقلت الى القصر حيث رصت أكواما، وان ذكرى هذا النصر العظيم ستبقى خالدة مدى الزمان وسيتغنى بها المغنون فى كل مكان .

فقد كان دخان المعركة يتصاعد نحو السماء سحابا كثيفا، وأصوات المدافع كهزيز الرعد، وهرب الكفار وقد اختل نظامهم بصفة تامة، نحو سفنهم الراسية فى المكان الذى نزلوا فيه، وقد قطع عليهم المجاهدون طريق النجاة، عدة مرات، وكانت مراكزهم المحصنة تبلغ الستين عدا وقد وضعوا بها آلات حربهم وطنبورهم وخيامهم، وفى تلك الليلة تركـوا اثناء فرارهم وتمزق شملهم وقد استولى عليهم الهلع والجزع، كل آلات حربهم وجميع بنادقهم و١٦ مدفعا من النحاس، وقطعتين من راميـات القذائف، وجميع الالات والادوات، فكان كل ذلك غنيمة للمسلمين . وركبوا ناقلاتهم وسفنهم ولاذوا بالفرار .

« وكنا بعد هذا الانتصار بعدة أيام ، نطلع بحمد الله كل يوم على برهان

---

(١) عبارات اللعن والشتم كانت - من الجهتين - لغة ذلك العصر فى تدوين الوقائع وقد اثبتناها بنصوصها كما وردت على لسان هذا الكاتب وغيره حتى نعيش فى جو ذلك الايام

جديد يثبت لنا مدى الهزيمة التي لحقت الكفار واسطوله اغرقه الله في لجج جهنـــــم •

« واستمر المسلمون يجمعون أياما متوالية القذائف التي القاهـــا الاسطول على بساتينهم، فجمعوا منها ما يزيد عن الاربعين الفا، وحسب الانباء المتناقلة فانه قد قتل من الاعداء نحو العشرة آلاف رجل ذهب الله بأرواحهم الى النار (١) وقد فاز من المسلمين بالشهادة في سبيل الله مائتا رجـل تقبلهم اللـه برحمته ورضوانـه في جنان الخلد ، بين الحــور والغلمان، فاللهم اسبغ علينا النعمة بفضـل شهادتهم، بجاه رسولك وحبيبك صلى الله عليه وسلم • وانصرنا على القوم الكافرين آمين »

وأما التقرير الاسباني الرسمي، فلاينفي هذه الاخبار المدققة، الامن حيث عدد القتلى ويزيد عليها بيانا

« وكان الميدان الذي نزل به الجند محددا جدا وضيقا، وكانت تتكدس فوقه جماعات الجند وكميات السلاح والذخيرة، فلم يكن يسمح بحرية العمليات ؛ ولقد بادرتنا بالهجوم فرقة من فرسان العدو كانت مرابطة على الساحل وكادت تقضي على ميمنتنا ثم تلحق بنا كارثة، لولا تدخل السفن الجوالة التي أمطرت العدو بوابل مقذوفاتها فعطلت زحفه •

أما الجناح الشرقي، فقد تلقى هجوم فريق من الفرسان كثير العدد، مع عدد من الجمال، واعتقدنا انه جند باي قسنطينة، واشتد هذا الهجوم

---

(١) عدد القتلى الذي يعترف به الاسبان هو ١٩١ ساقطا و ٢٠٨٨ جريحا بالنسبة لليوم الاول من المعركة ـ تقول روايات اخرى واسبانية ان مجموع القتلى هو ٤٠٠٠ رجل • ولا يوجد تحقيق مدقق في هذا العدد •

وعنف ضد جيوشنا، رغما عن تدخل مدفعية الفركاطات والاشباق، التى كانت نيرانها تتشابك مع نيران جندنا فى البر •

أمام هذا الهجوم قاوم جندنا ببسالة خارقة للعادة • لكن العدو تمكن من تشتيت جيشنا فاصبح كانه قطيع من الارانب

« عندئذ رأى الجيش ضرورة التحصن، فوقع بسرعة تحديد موقع لا يشمل الا نحو ستمائة فاريس (الفاريس ٨٦٥ مليمترا) وبذلت لتحصين ذلك الموقع همة نادرة ودافع الجند عن نفسه دفاعا مستميتا ضمن هذه المنطقة الخطرة وكانوا يشاهدون اخوانهم يسقطون صرعى من كل جهة تحت ضربات لم يكونوا يعرفون مصدرها •

« وعلى الساعة العاشرة صباحا، تم عمل الاستحكامات، ووضعت للدفاع عنها بطاريات مدفعية عديدة، لكن الموقع كان ضيقا جداء لدرجة أن كل رمية بندقية يقذف بها الاعداء كانت تصيب منا مقتلا •

«هذا بينما كنا منذ الساعة الثامنة والنصف صباحا، هدفا لضرب البطارية المعادية التى كانت السفينة « القديس شارل » مكلفة بتحطيمها وقد أحدثت لنا هذه البطارية خسائر مؤلمة، فادحة جدا (بطارية وادى خنيس) وقد حاولنا دون جدوى اخماد نيرانها، رغم تدخل مدفعية السفن فى ذلك •

« ولقد كانت القوارب مليئة بالجرحى تعود بهم الى مركز الاسطول، وكانت عمليات التضميد الاولى تقع فى السفن الحربية، ثم ينقل الجريح الى احدى السفن الثمانية التى جعلناها مستشفيات •

« ومنذ فجر المعركة، وعند الطلقات الاولى، جىء لنا بالمركيز دى رومانيا قتيلا •

« وعند منتصف النهار، ايقن القائد العام أن المقاومة أصبحت غير ممكنة .

وقرر الانسحاب، والقى الامر للسفن بأن تتجمع تحت حماية مدافع الاسطول، واخذت بعض الفرق تنسحب حالا مع بعض القطع المدفعية. وعندما جاء الليل أصبحت عملية الانسحاب عامة في كل نقطة، وبفضل العناية، الالهية، تمت عمليات الانسحاب على الساعة الثالثة من صبيحة يوم ٩ جويلية. وكان الجيش حتى النهاية يحتل الموقع المحصن ؛ وما انسحب آخر المدافعين الابعد أن تلقوا نداء اخوانهم الصارخ من السفن .

« وما تركنا وراءنا على الساحل الا أربعة مدافع مشاة، وبعض قطع مدفعية عيار ١٨ . و١٩ رطلا من رصاص البنادق . ورامى قذائف وبعض الادوات .

« وان هذه الخسائر لاتعتبر شيئا مذكورا، بالنسبة لعدد الرجال الذين كنا نتركهم قتلى لواننا انتظرنا الصباح. عندئذ كانت تحل بنا كارثة وكان العدو يحتل المركز المحصن ويستعمله ضدنا .

« ولقد تلقت كل السفن الامر بالابتعاد عن الساحل. وعندما لاح ضوء النهار، كان العرب قد غمروا أرض المعركة وكنا نراهم يمزقون الجثث ويقطعون الايدى والارجل (بل الرءوس) ثم احرقوا المعقل كله .

« وخلال أيام ٩ و١٠ و١١ جويلية اشتغلنا بتنظيم المستشفيات في السفن العائدة فورا الى اسبانيا . (١)

---

(١) وكانت تحمل العلم الاسود حدادا .

« ولقد قرر القائد العام رمى مدينة الجزائر بالقنابل يوم ١٣ جويلية، لكن مجلسا حربيا انعقد وحضره ضباط الجيش والبحرية (وذكر هنا اسماءهم) وقرر عدم جدوى ذلك العمل. فاضطر القائد العام لسحب قراره ،وذلك لان العدو كان يتفرق علينا كثيرا نظرا لقوة بطارياته الساحلية ، ونظرا لحالة البحر »

الخاتمة

هكذا كانت نهاية هذه المعركة التى توقع الاسبان منها تحطيم مدينة الجزائر واذلالها ،وبسط سلطانهم على أرضها، فاذا بها تنقلب الى هزيمة منكرة، تضاف الى هزائمهم السالفة أمام مدينة الجزائر، فلم يتركوا فوق أرض المعركة قتلاهم وعتادهم فحسب، بل تركوا فوقها آخر آمالهم .

ولقد كان دفاع الجزائريين رائعا، لامن حيث الحمية والشجاعة فقط، بل من حيث الفن العسكرى أيضا .

يقول المؤرخ الفرنسى بربروجير، فى تعليقه على هذه المعركة، بالمجلة الافريقية التى قدمت لنا مجموعة هذه الوثائق الثرية: ان الجزائريين لم يظهروا خلال هذه المعركة شجاعتهم فقط، بل اظهروا معها ذكاءهم

وانتهى كل شيء ما بين يومى ١ و ١١ جويلية ١٧٧٥ ، اى خلال معركة لم تدم من أولها الى آخرها أكثر من عشرة أيام .

ولقد لاحظ المؤرخون الاجانب، اثناء هذه المعركة، انه لم يقع بالجزائر العاصمة أى حادث مهما كان أمره، ضد الاسرى المسيحيين ، أو ضد الحربى، وسرعة حركتهم العظيمة .

قناصل الدول معاونيهم، أوضد النصارى الذين كانوا بالمدينة رغما عن وجود مايزيد عن المائة والخمسين الفا من المجاهدين الذين لبـــوا داعي الجهاد، من مختلف جهات البلاد، حتى جهات اقصى الجنوب (منهم ستة آلاف من الاتراك ، وثلاثة آلاف بحرى بالمرسى)

أما الباشا محمد بن عثمان، فكان يعامل الجرحى من الجزائريين ومن الاسبان المأسورين على قدم التساوى، وأمر بحسن معاملة الاسرى.

لكن اسبانيا العنيدة، ستحاول محاولة أخرى، من نوع جديد أمام الجزائر كما سنرى .

الفصل الثامن عشر

الصليبية الاسبانية الثانية

ضد العدوان الاسبانى فى البحر

تبادل الاســرى

ما كانت اسبانيا لتستطيع صبرا على تلك الهزيمة المنكرة التى منيت بها أمام الجزائر، وكان عليها أن تعيد الكرة على مدينة الجزائر بصفة حاسمة قاصمة، لكي تذلها، ولكى ترغمها على قبول صلح يملى عليها املاء، فى حالة ما اذا بقيت الدولة بعد تحطيم مدينة الجزائر .

وقد حاولت اسبانية بعد كارثة الحملة السالفة الذكر أن تفتتح مـــع الجزائر مذكرات سياسية، لكن الديـــوان رفـــض رفـــضا باتا الدخول فى أى مفاوضات، أو مذاكرات، مادامت اسبانيا تحتل وهران والمرسى الكبير .

تصارى ما وقع، بعد جهود طويلة مضنية، انه اتفق فى شهر أكتوبر سنة ١٧٦٨ على تبادل الاسرى الموجودين عند الجانبين، واشتـــرط الجزائريون أن تطلق اسبانيا جميع مالديها من الاسرى، مقابـــل انها تستطيع افتداء الاسرى الاسبان الذين بالجزائر، وهكذا اطلقت اسبانيا سراح ١٢٠٠ أسير مسلم كانوا مستعبدين فى بؤر التجذيف بالسفـــن ، واطلق الجزائريون سراح ٧١٢ اسير اسبانى مقابل مال جزيل .

وأعيدت نفس الاتفاقية سنة ١٧٧٣ ،واشترطت الجزائر فك اغلال اسيرين مسلمين مقابل كل أسير اسبانى ،وهكذا اطلقت اسبانيا سراح ١١٠٦ من المسلمين — وهم كل من لديها — مقابل اطلاق الجزائريـــين سراح ٥٧٠ من الاسبان •

تهيئـــة الغـزو البحـرى

رأت الدولة الاسبانية انه قد آن الاوان لتحطيم مدينة الجزائر، اذ كانت الدولة الجزائرية فى حالة حرب مع معظم الدول الاروبية ،وكـان أسطول الجزائر موجودا فى جهات عدة من البحـر •

وكان البرنامج الاسبانى محكما ، ولربما كان يحـرز على قسط كبير من النجاح، لولا ذلك العامل الاساسى الذى لم يقرأ له الاسبان حسـابا والذى كان عاملا اساسيا فى هذه المعركة ،وفى كل معركة: عزيمة الشعب وثباتـــه !

كان المنهاج الاسبانى يقتضى: ١ — مهاجمة الجزائر بحرا بواسطة عمارة بحرية قوية — ٢ — تحطيم السفن الجزائرية الموجودة بالمرسى — ٣ — تحطيم حصون وقلاع مدينة الجزائر — ٤ — املاء الارادة بعد ذلك على الجزائر •

واجتمع الاسطول الاسبانى فى مدينة قرطجنة الاسبانية ،وكان يشمل ٧٦ سفينة حربية، وعلى رأسه أحد اعلام البحر المشهود لهم بالقـــوة والمهارة الاميرال انطونيو باركلو • ثم ابحر نحو الجزائر يوم أول أوت من سنة ١٧٧٣ •

استعداد الجزائـــــر

فى شهر ماى من نفس تلك السنة (١١٨٧ هـ) تلقى داى الجزائـــر الكبير محمد عثمان باشا، من ملك المغرب، السلطان محمد بن عبد الله (١)، اشعارا بأن الاسطول النصرانى يتجمع لمهاجمة الجزائر، وان هذا الهجوم وشيك الوقوع .

عندئذ أخذ الداى يستعد استعدادا بريا وبحريا، لمقاومة وردع كل عدوان:

١ ـ الجنود الموجودين بداخل البلاد، يتجمعون بمدينة الجزائر ، فجاء من بايليك قسنطينة ٢٥ ألفا، ومن بايليك معسكر ٢٠ ألف ، ومـــن بايليك تيطرى خمسة الاف .

٢ ـ السكان المدنيون فى الجزائر، يخرجون امتعتهم وأنفس مالديهم الى حدائق النزهة خارج المدينة .

٣ ـ الارسال بالاسرى المسيحيين حالا الى مدينة المدية وعددهـــم ١٥٤٨ .

٤ ـ الشروع حالا فى بناء سفينتين مدفعيتين، لتعزيز العمـــارة البحرية .

المعركـــــة والنصـــر

بين ايدينا وثيقة من أغرب الوثائق، هى تقرير عن هذه المعركة ، من بدايتها الى نهايتها، مكتوب باللغة الايطالية لشاهد عيان كان يرقب سير

(١) وكان له الفضل الكبيـر فى العمل على تبادل اسرى الجانبين .

المعركة من دار قنصلية هولاندا، ما بين بوزريعة والابيار، وقد ترجمه الى الفرنسية الاستاذ شارل فيرود، ونشره بالمجلة الافريقية سنـــة ١٨٧٦ • وعن هذا التقرير ، نأخذ شيئا من التفاصيل :

كان الاسطول الجزائرى مؤلفا من ٢٥ سفينة مختلفة الاحجـــام والقوة • (مقابل ٧٦ سفينة حربية اسبانية)

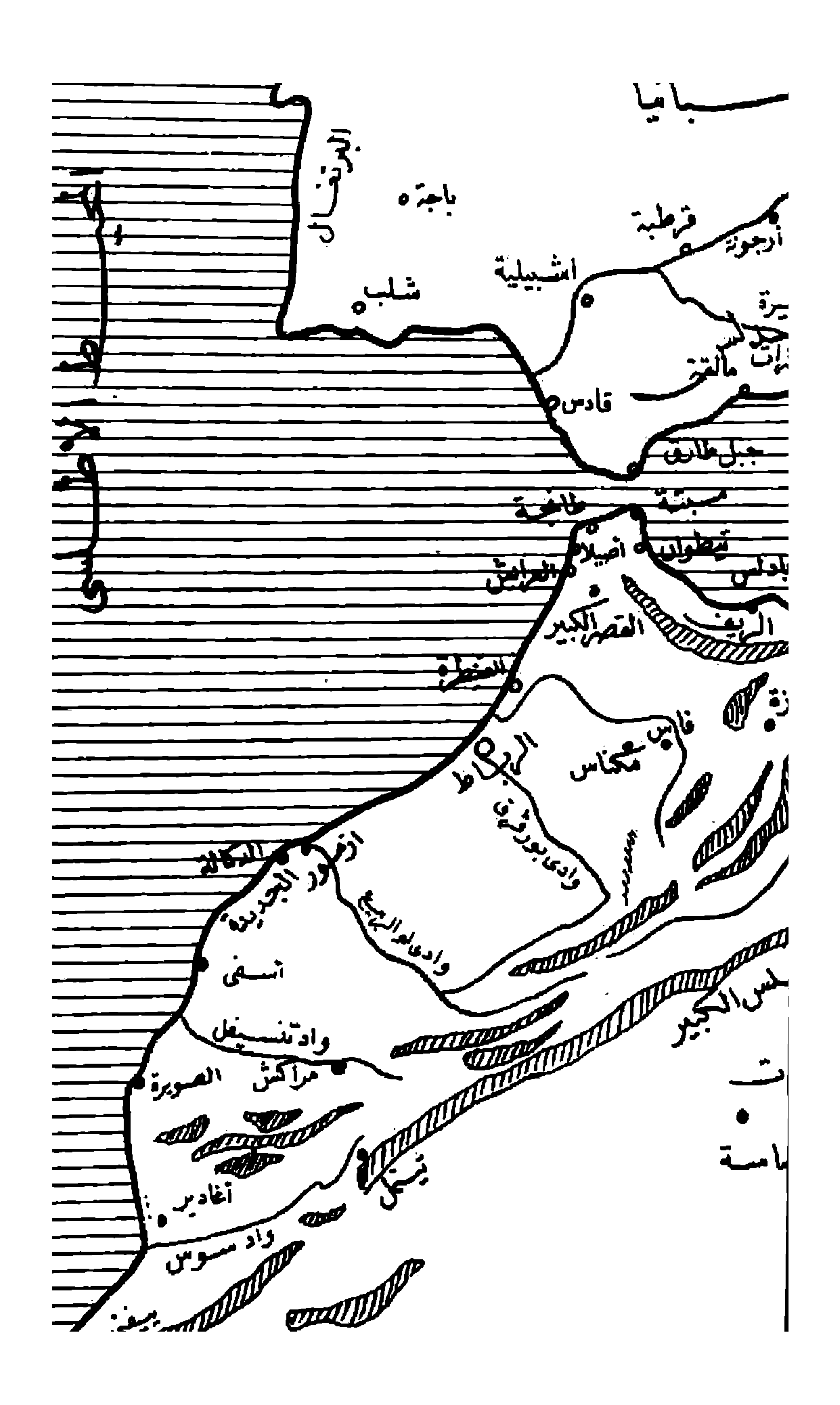
يوم ٢٩ جويلية، وصل الاسطول الاسابنى، واصطف للقتال مواجها مدينة الجزائر • وبمجرد وقوف الاسطول، رفعت حصون الجزائر أعلامها وبادرت سفن العدو باطلاق النار •

ويوم ٣٠ جويلية خرجت من مرسى الجزائر بعض السفـــن، وسارت متحدية الاسطول الاسبانى، ولم يستطع هذا الاسطول اصابتها بسوء، واستمر تبادل اطلاق النار بين الجانبين •

يوم ١ أوت أخذت مدافع الاسطـــول برميـــى القنابل على المرسى ، واجابتها بطاريات الحصون بنار قوية جـــدا •

خرجت عوامتان جزائريتان تجرهما القوارب، فاقتربتا من الاسطول، والقتا عليه ماكانت تحمله من قنابل ، ثم رجعتا الى المرسى سالمتين ثم خرجتا مرة ثانية، ومعها سفن أخرى• وهاجمت الاسطـــول الاسبانى • ورجعت سالمة، وانتهى القصف الاسبانى ــ عدد القتلى والجرحى مـــن الجزائريين (ومنهم وزير الحرب) بلغ ٨ أو ١٠ رجال •

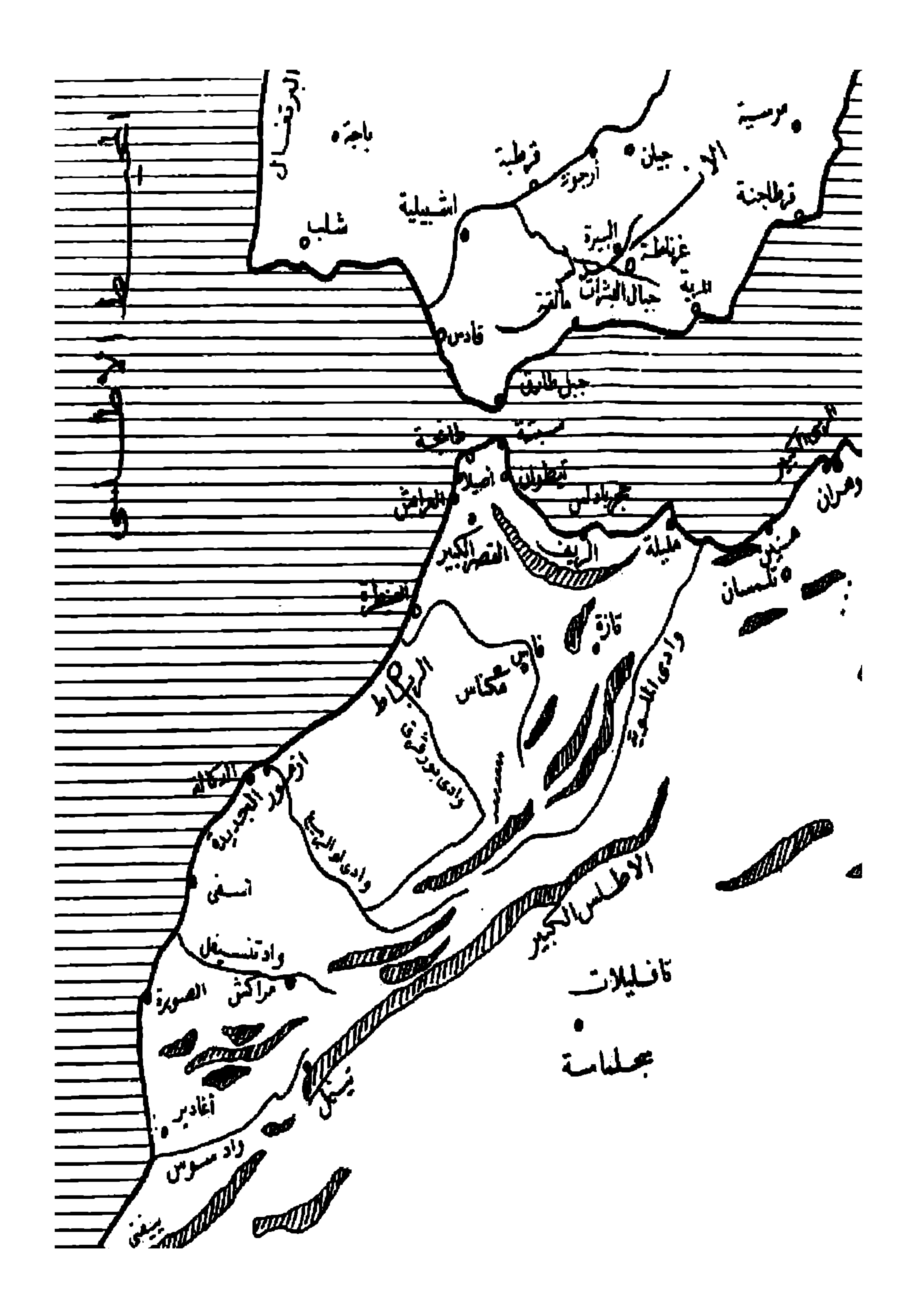
يوم ٢ أوت صباحا، فتحت حصون الجزائر النار، ولم يجبها الاسطول الاسبانى الابعد نحو ساعتين• ثم خرجت العمارة الجزائرية لمهاجمـــة الاسطول الاسبانى؛ فتبادلا اطلاق النار، بينما كانت مدفعية الحصون توالى الضرب باستمرار• وعلى الساعة الرابعة عشية، كف الاسبان عن



سبانيا
البرتغال
باجة
قرطبة
أرجونة
اشبيلية
شلب
قادس
جبل طارق
سبتة
طنجة
تطوان
أصيلا
العرائش
الريف
القصر الكبير
الرباط
فاس
مكناس
وادي بورقرق
أزمور
البجديدة
وادي ام الربيع
آسفي
واد تنسيفت
مراكش
الصويرة
آغادير
واد سوس



المغرب العربي
تجاه العدوان الصليبي



البرتغال
باجة
شلب
اشبيلية
قرطبة
أرجونة
جيان
مرسية
قرطاجنة
البيرة
غرناطة
المرية
جبال البشرات
مالقة
قادس
جبل طارق
طنجة
سبتة
تطوان
أصيلا
العرائش
القصر الكبير
الريف
مليلة
وهران
تلمسان
المعمورة
تازة
فاس
مكناس
الرباط
وادي بورقراق
أزمور
الجديدة
وادي أم الربيع
آسفي
واد تنسيفت
مراكش
الصويرة
الأطلس الكبير
تافيلالت
سجلماسة
أغادير
واد سوس
تيزنيت
سيفي

اطلاق النار . واستمرت حصون الجزائر على الرمى نحو ربع ساعة بعد ذلـــك .

أصابت قنابل الاسبان بعض ديار المدينة، كما أصابـت قذيفــة دار الحكومة (قصر الجنينة) وكان الداى قد استقر ببرج القصبة، وسمح للنساء والاطفال بمغادرة المدينـــة .

يوم ٤ أوت عادت المعركة وخرجت السفن الجزائرية لمهاجمة أسطول العدو، وأصلته نارا حامية، وكان ضرب بطاريات الارض قويا جدا، بينما كان قصف الاسطول الاسبانى أشد مما مضى .

يوم ٥ أوت كانت الريح تهب شرقية عنيفة، وكان الضباب كثيفا لـــم يسمح بوقوع عمليات كبيرة، وتبادل الفريقان اطلاق النار عشية. وعزز الجزائريون مراكزهم بوضع مدافع أخرى .

يوم ٦ أوت ــ تقدمت السفن الاسبانيه، وخرجت لها السفن الجزائرية ووقع تبادل اطلاق النار، ومدافع الحصو نتعزز رميى الاسطول الجزائرى ورجعت السفن الاسبانية حوالى الساعة السادسة الى مـــركز التجمع ، بعد أن أصابت قنابله المدينة وهدمت بعض ديارها .

وأصابت قنبلة اسبانية سفينة الرايس القدوسى، فاحترقت وانقذتها بقية السفن، وكان عدد القتلى والجرحى بها نحو الثلاثين رجلا، كما غرقت سفينة جوالة جزائرية ومات فيها قائدها .

يوم ٧ أوت ــ اتخذت السفن الاسبانية مراكزها للقتال ،وبرزت منها سفينتان للضرب، فخرج لها الاسطول الجزائرى وتبودل اطلاق النار مدة ساعتين تقريبا، ثم انسحبت السفينتان الاسبانيتان .

واستأنف القتال عشية، وسمعنا صوت انفجار عظيم، حيث أن البارجة

الاسبانية التى كانت تحتل اقصى مكان فى المعركة، قد انفجرت، وعندما تقشعت سحب الدخان، لم نر لها من أثر، وبعد ذلك كف الاسبان عن الضرب، وبعد ربع ساعة كف الجزائريون أيضا. ورجعت سفن الجانبين الى مركزيهما .

يوم ٨ أوت — ألقى الاسبان قنابل عديدة على المرسى ، لكننا كنا نراها تسقط فى البحر بعيدا .

يوم ٩ أوت — استعد الاسطول الاسبانى، واخذ يشق طريقه نحو الشمال، وانتهت المعركة .

اثناء الانسحاب، مرت سفينة الاميرال الاسبانى قريبا جدا من الحصون الجزائرية،

فحيتها الحصون الجزائرية بطلقتى مدفع بالبارود، دون قذائف .

وهكذا انتهت المعركة، بعد اخفاق ٩ هجومات اسبانية، تمكن الاسطول الجزائرى وبطاريات الحصون من ردها كلها .

وقد اطلق الجزائريون على الاسبان نحو ١٥ الفا من قذائف المدافع .

وكان عدد الشهداء نحو مائة شهيد بالمرسى. ولم يذع الاسبانيون عدد قتلاهم. وخاصة ضحايا السفينة البارجة .

أما بالمدينة، فقد كان القتلى نحو الثلاثمائة . وتهدم نحو الثلاثمائة من ديار الجزائر. وكان الاسبانيون قد القوا على الاسطول الجزائرى وعلى المدينة ما يزيد عن السبعة الاف وخمسمائة قنبلة وقذيفة مختلفة .

الغزو البحرى مرة أخرى

كان من المحقق الذى لاريب فيه ، ان الاسبانيين لن يصبروا عن هذه

الهزيمة وانهم سوف يعودون قريبا، لتنفيذ البرنامج، والاخذ بالثار .

ولم يضيع الجزائريون وقتهم سدى، فقد اجتمع رجال الحرب، ورجال البحر، ودرسوا نتائج المعركة، وعرفوا نقط الضعف في دفاعهم، فعملوا على تدارك ذلك سواء ببناء حصون جديدة، أو بانشاء السفن المدفعيــة العوامة التى تخرج لقتال العدو، والتى كان لاثنين منها قسط عظيم فى دحر اسطول الاسبان، المرة السالفة، فما انتضى امد وجيز حتــى كان الاستعداد تاما، وعملت كل الترتيبات لابقاء سفن الاسبان بعيدة جدا عن المدينـــــة .

أما من الناحية الاسبانية، فقد درست أيضا الوضعية وقرر القــوم اعادة الحملة على الجزائر بصفة أقوى، واعتقدوا أن هـــذه الغـــــزوة الجديدة، ستمكنهم من تحقيق الامـــــال .

جمع الاميرال انطونيو دى بارلكو نفسه، هذه المرة ١٣٠ سفينـــــة حربية تحت رايته، واقلع بعد سنة نحو الجزائر، يحمل معه عواطف وآمال المسيحية كلهــا .

ذلك أن هذه الغزوة البحرية الثانية، كانت كما يقول المؤرخ دو قرامون الذى ذكرناه آنفا، صليبية حقيقية، وقد نشر البابا يوم ١٨ جوان سنة ١٧٨٤، بلاغا باباويا BREF يعلن فيه أنه قد وهب الغفران والبركـــــة السماوية لكل مسيحى يشارك فى هذه الغزوة .

وجاءت من البرتغال، عمارة حربية لتأييد الاسطول المسيحى، ويوم ٩ جويلية، ١٧٨٤، كان الاسطول النصرانى، يحتل مواقعه فى وســـــط الخليج، على مرأى من مدينة الجزائر، وماكاد الاسطول يأخذ اهبتــــه للقتال، حتى خرجت له السفن العوامة الجزائرية حاملة المدافع الكبيرة ،

واجبرته على البقاء بعيدا عن المدينة، بحيث لم تصبها قنابله .

ولدينا عن هذه المعركة الكبرى تقرير كتبه رهبان البعثة الكاتوليكية بمدينة الجزائر، نأخذ عنه ملخصا للمعركة الكبرى الحاسمة التى جرت وقائعها، يوم ١٢ جويلية، يقول التقريـــر :

يوم ١٢ جويلية — برزت سبعون من سفن الاسبان مـــن نـــــوع الشالوب، من غير خيام ولاصوارى، مما يدل على استعدادها للقتال . فبرزت لها ٦٣ تشالوبا جزائريا ، منها ١٣ تحمل قاذفات القذائف، و٤٣ منها تحمل المدافع الثقيلة .

وتقدمت السفن بعضها من بعض واتخذت مراكزها للقتال وكانـــت السفن الاسبانية معززة بالحراقات وبالسفن الضخمة، واخذ الاسطولان المتعاديان يقومان بحركة التناف على خط متواز، وعلى رمية مدفع، ولم يرد الجزائريون أن يكونوا البادئين بالقتال، لكن على الساعة الثامنـــة انطلقت رمية مدفع من الحصون أمرا للجزائريين بالبدء فى القتال، فأخذ الجزائريون فى رمى القنابل من طول الخط على السفـــن الاسبانيـــة . وأجاب الاسبان على ذلك بالمثل وكان الجانبان على نصف رمية مدفع ، وأحاط بالمتحاربين من جراء ذلك دخان كثيف، فلم نكن نرى الا القذائف الاسبانية التى كانت تتخطى السفن الجزائرية بمسافـات بعيـــــدة . (أى انها لم تكن مسددة الضرب، فبدل أن تصيب السفن كانت تذهــب وراءها دون أن تطل المدينة)

واضطرت ثلاث شالويات (اسبانية) للرجوع لانه قد اصابها عطب وعندما انقشعت السحب رأينا سفن الاسطول الجزائرى محافظـــة على مركزها وعلى نظامهـــا .

وعلى الساعة ١١ انسحبت السفن الاسبانية الى مجمع اسطولها . وكانت السفن الكبيرة تحمى انسحابها، وبقى الاسطول الجزائرى فى ميدان المعركة بعد الانسحاب الاسبانى الى الساعة ١٢ . »

المعارك الاخيرة، والنصر النهائى

يقول تقرير البعثة المذكورة، وهو لشاهدى عيان، كانت كل عواطفهم وكل آمالهم مع الاسبان :

يوم ١٥ جويلية على الساعة الثالثة، اطلق القائد طلقتين، فأخذت السفن مراكزها للقتال .

وعلى الساعة السادسة أطلقت السفن الجزائرية نيرانها لكن خطها لم يكن حسن التكوين، وكان الاسطول الاسبانى يشكل نصف دائرة تحميها سفن خفيفة على جانبيها، وابتدأ القتال على الساعة السادسة وربع وكان عنيفا قاسيا . واستمر حتى الساعة التاسعة والربع . حيث انسحبت السفن الاسبانية من نوع الشالوب، وبقيت الحراقات تضرب ضربا عنيفا، لكنها انسحبت هى أيضا، وبقى الاسطول الجزائرى بعد انسحاب الاسبان محافظا على مركزه حتى الساعة العاشرة .

وانفجر مدفع فى شالوب فغرق، ومات فيه ١٢ رجلا وجرح ١٤

يوم ١٧ جويلية ــ برزت ــ شالوبات الاسطول الاسبانى على الساعة الثامنة تشكل ثلاثة فرق منها للدفاع عن الاسطول وحمايته، وفرقة لمقاتلة السفن الجزائرية، أما الفرقة الثالثة، فمهمتها الاقتراب من مدينة الجزائر وقصفها بالمدافع .

ابتدأ اطلاق النار على الساعة الثامنة والنصف وانتهت المعركة على العاشرة والنصف .

وكانت طلقات الاسبان تتخطى السفن الجزائرية وتقع فى البحر، وقد مات من الجزائريين رجلان وجرح خمســـــة •

وفى هذا اليوم ظهر هلال شهر رمضان، وابتدأ المسلمون صومهم

يوم ١٨ جويلية — على الساعة السابعة تقدمت السفن الاسبانيـــة واصطفت فى مكان القتال، وبرزت لها السفن الجزائرية وبادرتها باطلاق النار، فى الوقت الذى بدأت فيه الحصون تطلق على الاسبان نيرانها • وعلى الثامنة أخذ الاسبان فى اطلاق النار، وكان دخان المدفعية يحجبهم عن انظار الجزائريين، فتقدمت فرقة من سفنهم نحو المدينة واصابت مقذوفاتها جسر المرسى، فتصدت لها عندئذ بعض الشالوبات الجزائرية واضطرتها للانسحـــــاب •

وعلى الساعة التاسعة والنصف انهى الاسبان اطلاق النار •

ولم تلحق نيران الاسبان ومقذوفاتهم ادنى ضرر بالجزائريين •

ولقد انفجرت بين أيدى الجزائريين ستة مدافع فمات من جراء ذلك ٥ رجال وجرح ثمانية •

يوم ١٩ جويلية — على الساعة السادسة وثلاثة أرباع، تقدمـــــت السفن الاسبانية الشالوب، تحرسها بعض القطع الصغيرة وحراقتان ، وبادرتها السفن الجزائرية القتال على الساعة الثامنة، واجابتها السفن الاسبانية بالضرب حتى الساعة التاسعة، ثم انسحبت راجعة الى مركز الاسطـــــول •

ثم تقدمت خمسة أو ست من الشالوبات الجزائرية نحـــو مركـــــز الاسطول الاسبانى مهاجمة، فقاومتها سفينة الاميرال والسفـــن التى

حولها، والقت عليها القنابل لكنها لم تحدث لها أدنى خسارة. ومات فى هذه الوقعة رجلان وجرح خمسة رجـــال .

ويوم ٢٢ جويلية ــ انسحب الاسطول الاسبــانى نهائــيا، مغادرا مراكز القتال، ومن الغد، ٢٣ جويلية، اقلع منهزما نحو اسبانيـــا .

ولم يستشهد من الجزائريين خلال هذه المعارك، الا نحو الثلاثين رجلا فقط من المدنيين، لأن رجال الاسطول الجزائرى وكانوا كلهم من ابناء الوطن، وليس معهم حسبما تثبته التقارير الارجلان اثنان فقط مـــن الاتراك، قد تمكنوا هذه المرة بواسطة السفن العوامة الكثيرة، وبواسطة رمى الحصون المسدد، من ابقاء اسطول المسيحيين بعيدا عن المدينـــة لاتصيبها قنابلـــــه .

أما خسائر الجزائريين العسكرية، فقد كان معظمها من جراء انفجار المدافع التى يستعملونها، حيث انهم لشدة حماسهم واقبالهم على مقاومة العدو، لم يكونوا يتركون للمدفع بعد استعماله، وقتا كافيا لكــى تبرد حرارته وكانوا يبالغون فى حشوه بالبارود، لكى يكون اكثر اصابــــة للهدف، لهذا كانت المدافع تنفجر احيانا، واستشهد منهم نحو المائة رجل من جراء هذه الانفجارات .

لم يعلن الاسبانيون أيضا عن خسائرهم، انما أعلنوا أنهم أطلقوا على مدينة الجزائر التى لم يصيبوها ــ أكثر من ١٥١٥٠ قنبلة وقذيفة مختلفة،

وأخذ الاسبان يذيعون فى كل جهات المسيحية، انهم يهيئون حملـــة بحرية ثالثة ضد الجزائر ،ستكون اضخم وأكثر مفعولا من كل ما سبقها،

واستعدت الجزائر أيما استعداد لتلقى هذه الصدمة الجديدة فزادت

فى عدد السفن العوامة حاملة المدافع، وزادت فى تحصين القلاع وتزويدها بكل ما يلـــــزم .

انما فهمت اسبانيا الوضعية على حقيقتهــــا .

وأدركت ــ أخيرا ــ انها لن تنال من الجزائر منالا .

وعلم الناس كافة ــ فىاسبانيا واروبا ــ ان الصليبية فى الجزائر، قد اخفقت نهائيا ،وانه لاسبيل لاذكاء نارها من جديد، تحـــت اللـــــواء الاسبـــــانى .

فقررت اسبانيا يومئذ الاقدام على مفاوضة الجزائـــر وارضائـــها ، والاستجابة لمطالبها، من أجل اقرار الســـلام .

الصلـــح وثمنـــــه

حل بمدينة الجــزائر مندوبان من قبل اسبانيا ، هما الكونت داسبلى ، D'ESPILLY والاميرال مازاريدوMAZZAREDO وتوسط لهما قنصل فرنسا مسيو كرس KERCY وبعد مذاكرات طويلة ، انعقدت اتفاقية بين الجانبــين فى يوم ١٤ جوان ١٧٨٥ تلتزم اسبانيا بمقتضاها ، بتسليم وهران والمرسى الكبير للجزائريين ، ودفع مقادير معينة من المال للجزائر ، مقابل حصولهـا على الســلام ، وعلى أن تعاملها الجــزائر معاملة الدول المســالمة . لكن هذه الاتفاقية التى صادقت عليها حكومة اسبانيا ، لم تنفذ أصلا ، ومن أجل عزم الاسبان على عــدم اخلاء وهران ، وتسويفهم فى تنفيذ بقية البنــود ، الى أن يحصلوا على امتيــازات اقتصــاديــة .

فما لم تنجح السياسة فى حله، نجح فيه السيف والمدفع ، ودمـــاء المجاهدين ، كما ستـــــرى .

الفصل التاسع عشر

فصل الخطاب وتصفية الحساب

مهاجمة وهـــــران

كان الباى، مصطفى بوشلاغم، قد فارق الحياة، دون أن يحقق امنيته فى تحرير وهران نهائيا، رغم انه كان يضيق عليها الخناق بصفة عنيفة، وخلفه بعد حين على كرسى بايليك الغرب، الحازم الجسور المجاهـد ، البلى محمد بن عثما نالكردى ويدعوه العرب، محمد الاكحل، لشـــدة سمرته، وقد كان ابلى البلاء الحسن فى الدفاع عن الجزائر الى جانب بقية القوى الاسلامية، أيام حملة اوريلى الخائبة (١)

واستمر محمد بن عثمان محاصرا لوهران، ومواليا حملاته الصادقة ضدها، على رأس المجاهدين بصفة لاتكاد تنقطع، وأرغمهم سنة ١٧٨٠ على قبول معركة خارج أسوار المدينة، نكبهم اثناءها نكبة عظيمة، ووالـى أعماله بصفة مستمرة، الى يوم ١٤ سبتامبر ١٧٨٤ حيث تمكن من قطع مجرى الماء الذى يسقى المدينـــة •

ثم هاجم يوم ٢٦ سبتامبر ١٧٨٤، حصون المدينة هجوما عنيفا، كانت شدته وصرامته مضربا للامثال، واحتل المجاهدون البرج الاحمر، رغم دفاع الاسبان البطولى • واستمرت المعارك يتلو بعضها بعضا •

---

(١) انظر ترجمة حياته العاطفة بجلائل الاعمال فى كتابنا « محمد عثمان باشا، داى الجزائـــر »

أما العرب الذين كانوا خاضعين لاسبانيا، حول وهران، فانهم قد امتنعوا منذ خيبة حملة اوريلي على الجزائر، من دفع أى شيء من الجزية للاسبان ، وتوقفت الاعمال حينا ما أثناء مذاكرات الصلح السالفة الذكر ،واثناء عقد الاتفاقية ، لكن المعارك رجعت بين الجانبين سيرتها الاولى، والباى محمد بن عثمان، ورجال الشعب والجيش ينفخون فى نارها بشدة وضراوة، وقد عزموا على تحقيق النصر النهائى مهما كانت التضحيات .

زلزال وهران

وتدخل القدر مرة أخرى، كما تدخل قبل ذلك مرارا فوق اديم الارض الجزائرية، فيسر نصر المجاهدين ،وزاد فى فداحة النكبة لاعدائهم .

ذلك انه فى الليلة ما بين ٨و٩ اكتوبر سنة ١٧٩٠، على الساعة الواحدة صباحا ،وقعت بمدينة وهران هزة أرضية عنيفة جدا، دامت ٣دقائق حطمت كل منازل وهران تقريبا، والحقت بالحصون والقلاع والكنائس اضرارا بالغة، ومات تحت الانقاض، ثلاثة آلاف نسمة من سكانها وجندها، ومن بينهم الحاكم العام الاسبانى بالنيابة دون نيكولا غارسيا، والتهمت النيران بعض السفن وأماكن أخرى .

يقول قائد الجيش الاسبانى فى تقريره للملك عن الكارثة :

« ا نبعض الرجال الذين لاخلاق لهم، من أصحاب الحياة السافلة (من اسبانى وهران) قد اغتنموا فرصة هذه الحادثة، فامعنوا فى نهب الديار الغنية، بصفة افظع مما لو كان العدو هو الناهب، ولم يبق للمستعمرين البائسين أى شيء مطلقا ،ورغم القسوة التى قابلنا بها هذه

الاعمال اللصوصية، والعقاب الصارم الذى انزلناه بمرتكبيها، فان الاشقياء لم يرتدوا أصلا ، واستمروا على أعمال النهب والسلب)

واستمرت الهزات الارضية تترى، الى يوم ٢٢ نفامبر ١٧٧٩ ، واستؤنفت يوم ٦ جانفى ١٧٨٠

الهجوم المتواصل والفلاص

استأنف المجاهدون هجومهم تحت قيادة محمد بن عثمان بصفة باسلة وكانوا يزدادون عنفا وضراوة، على مقدار ماكان الاسبان يزدادون ثباتا فى مواقعهم الخربة، ويقاتلون قتال المستميت، دفاعا عن كل شبر من التراب •

كان عدد مقاتلى الاسبان آخر الامر ١٥٢٦ رجلا، وزعوا على المراكز الخطرة، أما بقية الرجال والنساء، فقد كانوا يقومون بأعمال الترميم ، واصلاح ما يفسده الهجوم الجزائرى •

ثم تلقى الاسبانيون بعد ذلك مددا عظيما من اسبانيا، قوامه سبعة آلاف رجل من المجاهدين، واستمرت الاعمال طويلة قاسية، طوال ربيع وصيف سنة ١٧٩١، واحتدمت معامع حامية أيام ٣و٩ من شهر ماى، ويوم ٥ جويلية، وكان المجاهدون يتقدمون كل مرة شيئا، رغم الدفاع الباسل •

تقدمت اسبانيا، وقد ضاع كل أملها، الى الباى محمد عثمان باشا ، فى افريل سنة ١٧٩١، اثناء هذه الاعمال، تطلب تنفيذ الصلح المبرم فيما سبق، لكن الباشا، وقد كان يعانى سكرات الموت، استمر رافضا كل مذاكرة ما دام الاسبان لم يستسلموا فى وهران دون قيد أو شرط •

الصلـــح النهـائى وشروطـه

ويوم ١٠ ذى القعدة ١٢٠٥ (١٢ جويلية ١٧٩١) توفى الداى العظيم محمد عثمان باشا رحمه الله، وخلفه على كرسى المملكة الـداى حسان باشا، وكانت الاعمال الحربية حول وهران مستمرة، وكانت اسبانيـــا لاتزال تلح فى عقد الصلح، مستجيبة لكل ما طلبته الجزائر منها، فقبل حسان باشا ورجال الديوان عقد الصلح مع اسبانيا، على الشروط التالية

١ ـ تنسحب اسبانيا من وهران والمرسى الكبير، دون قيد أو شرط،

٢ ـ تدفع اسبانيا لخزينة الجزائر، سنويا، مقدار ٠٠٠ ١٢٠ فرنـك (٠٠٠ ٢٤٠ دينار جزائرى)

٣ ـ ترجع اسبانيا للجزائر كل القنابل والمدافع والذخيرة التى غنمتها عند استرجاعها لوهران والمرسى الكبـــير •

٤ ـ تحمل سفينة اسبانية، بصفة رسمية، الى استانبول، مفتاحـين ذهبيين رمز استسلام وهران والمرسى، مع جرتين من ماء عيون وهران، للخليفة السلطان العثمانى، كبشرى بالفتح وتأكيده للرابطة مع دولـة الخلافة •

وتقبل الجزائر مقابل ذلـك

١ ـ أن يكون لاسبانيا مركز تجارى فى بلدة « جامع الغزوات »

٢ ـ وان تبتاع من البلاد الجزائرية ثلاثة الاف كيلة Charge من القمح سنويا

٣ ـ وان تباشر صيد المرجان على الساحل الغربى الجزائرى •

وكان ابرام هذا الاتفاق يوم ٩ دسامبر ١٧٩١ •

وابتدأ انسحاب الاسبان من وهران، يوم ١٧ دسامبر من تلك السنة وتم الانسحاب نهائيا، بعد ترك الاسلحة والعتاد المتفق عليه وتسليـم

المدينة للباى محمد بن مصطفى، الذى دخلها علــى رأس المجاهديــــن الجزائريين دخول الفاتح المنتصر يوم ٢٤ فيفرى ١٧٩٢ .

وكان أول عمل قام به، بعد تحرير المدينة، هو بناؤه للمسجد الكبير « مسجد الباشا » ـ بماله الخاص، شكرا لله على تتويج الجهاد الطويل، بالفتح المبين .وقد منح حسان باشا « الكبير » للباى محمد بن عثمــان، اعترافا بفضله وصدق كفاحه .

وبهذا الصلح، وبهذا الاستسلام، ختمت آخر صفحة من صفحــات العدوان الصليبى الاسبانى على الارض الجزائرية أى بعد حرب دامت قرابة الثلاثمائة عام، لم تترك فى نفوس الجزائريين، وهم المقاتلـــون الاشراف، غلا، ولاحقدا ولاضغينة، فالحروب بويلاتها وآثامها تمضى، ولا يبقى لها من ذكر الا فى بطون التاريخ، لكى يحل محلها، الســلام ، والمحبة، والعمل المشترك، والتعاون المثمر لخير الشعوب والانسانيـــة جمعاء، والحمــد للــه رب العالميـــــن .

المراجع العربية

المراجع المخطوطة :

حسين بن رجب شاوش ابن المفتي	تاريخ باشوات وعلماء الجزائر – ترجمه للفرنسية مسيو دلفان ونشره بالمجلة الآسوية ·
ابو راس محمد بن احمد الناصري المعسكري	نفيسة الجمان في فتح وهران · قصيدة من رديء الشعر ·
« « «	عجائب الاسفار ولطائف الاخبار، في وقائع وهران والاندلس، بين المسلمين والكفار · ترجمه للفرنسية مسيو ارنود ، ونشرته دار جوردان ، بالجزائر ·
« « «	الحلل السندسية في شان وهران والجزيرة الاندلسية · ترجمه للفرنسية الجنرال قوربيقي – وترجم قسما منه قورقوس سنة ١٨٦١ ·
محمد بن احمد الحلفاوي مفتي تلمسان ·	ارجوزة (٧٢) بيتا ، من بديع النظم ، عن فتح وهران الاول ·
ابو زيد عبد الرحمان	شرح الارجوزة السالفة الذكر ، بطلب المؤلف مترجمة الى اللغة الفرنسية ·
عبد القادر المشرفي الاغريسي	بهجة الناظر ، في اخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الاعراب كبني عامر – ترجم للفرنسية ·
الحاج احمد الشريف الزهاري نقيب الاشراف	تاريخ الثمانين سنة الاخيرة للجزائر العثمانية ، نسخة وحيدة بخط المؤلف – ساقوم بنشرها قريبا بحول الله ·

المراجع المطبوعة :

ابن ابي دينار	المونس ، في اخبار افريقيا وتونس .
ابن اياس (محمدبناحمد)	بدائع الزهور في وقائع الدهـور .
احمد بن ابي الضياف	اتحـاف اهل الزمان .
احمد بن خالد الناصري	الاستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى .
احمد توفيـق المدني	كتـاب الجـزائـر .
« « «	محمد عثمان باشا داي الجـزائر .
« « «	المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا .
دكتور حسين مؤنس	فجر الاندلس ـ بحوث في مجالات مختلفة .
شكيب أرسلان	آخر بني سراج وملخص تاريخ الاندلس .
« «	الحلل السندسية في الرحلة الاندلسية .
عبد الرحمن بن خلدون	كتاب العبر ، وديوان المبتدا والخبر .
عبد الرحمن الجيلالي	تاريخ الجزائر العـام .
فليب حتي	تاريخ العرب المطول .
مبارك بن محمد الميلي	تاريخ الجزائر في القديم والحديث .
محمد فريد	تاريخ الدولة العثمانية .
محمد عبد الله عنان	الآثار الاندلسية الباقية .
يحيى ابن خلدون	بغية الرواد ، في تاريخ بني عبد الواد .

المـراجـع الاجنبيـة :

Berbrugger	Le Pénon d'Alger
Berbrugger	Epoques militaire de la Grande Kabylie
Berthier	L'Algérie et son passé
Boulifa S.A.	Le Djurdjura à travers l'histoire
Braudel F.	Les Espagnols en Afrique du Nord. (R.A)
Charles andré Julien	Histoire de l'Afrique du Nord
Charles andré Julien	Histoire de l'Algérie
Claude Bernard	Attaque des batteries Algériennes par Lord Ey-mouth
Delphin	Histoire des Pachas d'Alger (R.as)
De grammont	Histoire d'Alger sous la domination Turque
Devoulx	Tachrifat (traduit du Turc)
Dozy (R)	Histoire des musulmans en Espagne
E. Levy-Provençal	L'Espagne musulmane au Xème Siècle
E. Levy-Provençal	Histoire de l'Espagne Musulmane
Elie de Primaudaie	Documents inedits sur l'histoire de l'occupation Espagnole en Afrique (R.A)
Esquer ely	Les sources de l'histoire de l'Algérie (BSG)
Feraud	Attaques des Espagnols contre Alger au XVIIIème siècle (R.A)

Fey (Henri Léon)	Histoire d'Oran, avant, pendant et après la domination Espagnole
F. L. N.	L'Etat Algérien avant 1830
G. authier E. F	Les siècles obscurs du Maghreb
G. Marçais	La Berberie Musulmane et l'Orient au Moyen âge
G. Marçais	Les Arabes en Berberie
Garrot (H)	Histoire générale de l'Algérie
Haëdo	Epitame de los Reyes de argel (histoire des Rois d'Alger) traduit par De grammont
Houdas	Notice sur un document arabe inedit relatif à l'évacuation d'Oran par les Espagnols en 1792 - (Receuil de mémoires orientaux)
J. Casenove	Les présides Espagnols de l'Afrique du Nord (R.A)
J. Sauvaget	Introduction à l'histoire de l'Orient musulmane
J. Lassus	Histoire de l'Algérie Contemporaine
L. Lacoste	La Marine Algérienne sous les Turcs
Marcel Egretaud	Réalité de la Nation Algérienne
Marmol Carvajal	Description générale de l'africa (traduit en français par M. Perrot d'Alblaucourt, sous le nom de : L'Afrique de Marmol)
Monchicourt	L'expédition Espagnole de 1500 contre l'île du Djerba

Pechot (L.) — Histoire de l'Afrique du Nord

Piquet (Victor) — Les Civilisations de l'Afrique du Nord

P. Dan — Histoire de la Barbarie et de ses Corsaires

René Basset — Documents musulmans sur le siège d'Alger en 1514

S. Gsell, G. Marçais, G. Yver — Histoire de l'Algérie

Venture de Paradis — Alger au XVIIIème Siècle

Venture de Paradis — Autobiographie de Khereddine (publié par Sauder rang et Devis, sous le titre (Fondation de la Régence d'Alger)

Wintzer (paul) — Bougie, place forte Espagnole 1510 - 1555 B. S. G. A.

Ximénés de Saudoval — Sur la reprise d'Oran en 1732

Collection : — Bulletin de la Société de Géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord (B.S.G)

Collection : — L'Armée d'Afrique

Collection : — La Revue Africaine (R.A)

Collection : — La Grande Encyclopédie Française

Collection : — L'Encyclopédie de l'Islam

فهرس

تم سحب هذا الكتاب على مطابع دار «البعث»
قسنطينة ـ الجزائر

تحت رقم 133 - 68